سورة الفتح

[٨٣٤] أخرج الحاكم وغيره(١) عن المسوّر بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها.

[٨٣٥] وأخرج الشيخان والترمذي والحاكم(٢) عن أنس قال: أنزلت على النبي [ﷺ]: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٣) مرجعه من الحديبية فقال النبي [ﷺ]: «لقد نزلت عليَّ آية أحب إليّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم فقالوا هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله قد بيّن الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٤).

[٨٣٦] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله [ﷺ]: «أيها الناس البيعة البيعة» نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله [ﷺ] وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه قال فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٥) الآية.

[٨٣٧] وأخرج مسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله [ﷺ] وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله [ﷺ] فأخذوا فأعتقهم فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾(٦) الآية. ك.. وأخرج مسلم نحوه من حديث سلمة بن الأكوع(٧). ك.. وأحمد والنسائي نحوه من حديث عبدالله بن مغفل المزني. ك.. وابن إسحاق نحوه من حديث ابن عباس.

---

[٨٣٤] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢١٦) من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عنهما مثله.

[٨٣٥] (٢) سنن الترمذي (٣٢٦٣) ورواه الطبري (٢٦/ ٤٤).

(٣) سورة الفتح: الآية (٢).

(٤) سورة الفتح: الآية (٥).

[٨٣٦] (٥) سورة الفتح: الآية (١٨).

[٨٣٧] (٦) سورة الفتح: الآية (٢٤).

(٧) ورواه الواحدي في أسباب النزول.

[٨٣٨] وأخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنبذ بن سبع قال: قاتلت النبي [ﷺ] أول النهار كافراً وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾[١].

[٨٣٩] وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال أرى النبي [ﷺ] وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين فلما نحر الهدى بالحديبية قال أصحابه أين رؤياك يا رسول الله فنزلت: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾[٢] الآية.

* * *

---

[٨٣٨] (١) سورة الفتح: الآية (٢٥).

[٨٣٩] (٢) سورة الفتح: الآية (٢٧).

(٤٨) سورة الفتح مدنية وآياتها تسع وعشرون

سورة الفتح : مدنية بإجماع . وهي تسع وعشرون آية . نزلت ليلاً بين مكة المكرمة والمدينة المنورة حين عودة رسول الله ﷺ من الحديبية إلى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال [أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ عام ست بعد الهجرة ، وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يوم الأثنين هلال ذي العقدة فأقام بها بضعة عشر يوماً ، وقيل عشرين يوماً ثم قفل عليه الصلاة والسلام ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه ، فَسُرِّي عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى ، فأخبرنا أنه أنزل عليه (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ..) .

فالسورة إذن مدنية ، لذا نجدها معنية : كسائر الآيات المدنية : بالاحكام والتشريع . لقد تضمنت هذه السورة احكاماً جليلة نافعة .

تضمنت الكلام على الجهاد في سبيل الله تعالى ، ونصر الله تعالى لرسوله ﷺ وتأييده له . وذِكر المنافقين وتذبذبهم وجبنهم ، وذكر المؤمنين وجميل صفاتهم ، والإشارة إلى لطف الله تعالى بهم واكرامهم ، والإشارة إلى العمرة ، وذكر صفات أصحاب رسول الله ﷺ في الكتب السابقة ، وأخيراً وعد الله تعالى لهم وللصالحين من عباده الكرامة الكبرى في الآخرة .

● ـ اعتراف الشركين بالدولة الإسلامية بعد جهادها في الله حق الجهاد . كان مشركو مكة وغيرهم يقاتلون رسول الله ﷺ والمسلمين قتالاً مريراً دون هوادة ، ويجابهون دعوته في كل ميدان وجبهة ، فلما كان صلح الحديبية كان من آثاره اعتراف المشركين بكيان الدولة الإسلامية ورعاياها ، وحرية المسلمين في التنقل بالدعوة حيث شاءوا ، ففتحت أبواب مكة للدعوة الحرة إلى الإسلام وأمن المسلمون اينما كانوا . لقد عدَّ الله تعالى صلح الحديبية فتحا ، إذ كان حقاً فتحاً ونصراً في حياة المسلمين وكان الفاتحة لفتح مكة بعد قليل . قال موسى ابن عقبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت ، فقال النبي ﷺ : بل هو اعظم الفتوح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، ويسالوكم القضية ويرغبوا اليكم في الأمان وقد رءوا منكم ما كرهوا .

ولقد أقرَّ الله تعالى عين نبيه فجمع له ما به تقرُّ عينه في الدنيا والآخرة ، قال تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتمَّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً) . وليس للرسول ﷺ ذنب كذنوب الناس ، فإنه سيد ولد أدم ، والرسل : وهو أكرمهم على الله تعالى : معصومون ، أن الأمـــر أن ﷺ يرتقي في معارج البر والقرب من الله كل حين ، فإذا نظر في حاله الحاضرة إلى ما كان عليه في حاله السابقة عدَّ ذلك كالزلة ، قال ﷺ (أنه ليغان على قلبي واني استغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة .) أو هو علي قال الحسن رضي الله عنه [حسنات الابرار سيئات المقربين] .

قال الزمخشري : فإن قلت جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لإجتماع ما عد دمن الأمور الأربعة ، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قال :

قد يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع الله لك عز الدارين وأعراض العاجل والآجل : وأقرَّ الله سبحانه ، عين رسوله ﷺ بمغفرة ذنوب المؤمنين عامة ومن كان معه في الحديبية خاصة فقال (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .... إلى قوله (فوزاً عظيماً) .

● ـ حقيقة النصر من عند الله تعالى ، فهو الذي يثبت قلوب المؤمنين الصادقين ويقوي عزائمهم ، ويرغبهم في الجهاد في سبيله لينالوا الأجر والجنة ، ويخذل الكافرين ويلقي الرعب في قلوبهم ، لأنهم يريدون الحياة الدنيا وزينتها فيخافون القتال لخوفهم من القتل . قال تعالى « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السَّوْءِ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً .

● ـ المنافقون الذين يعيشون مذبذبين بين المؤمنين والكافرين ، يقولون للمؤمنين إن كان لهم الفتح والنصر الم نكن معكم ، ويقولون للكافرين إن كان لهم نصيب يسير من النصر الم نحط بكم ونخذل المسلمين عن الوصول اليكم ، هؤلاء المنافقون جبناء ، يحسبون كل صيحة عليهم ، لقد خافوا من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى مكة للعمرة ، وقالوا سيُقتل الرسول وأصحابه ﷺ ولن يعود منهم إلى المدينة أحد ، فخيب الله ظنهم وكذّب قالتهم ، فرد الرسول والمؤمنين إلى المدينة وقد أكرمهم بالفتح ووعدهم النصر القريب على يهود خيبر . قال سبحانه (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا

واهلونا فأستغفر لنا ...) فيجيبهم سبحانه بقوله (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السَّوْء وكنتم قوماً بُوراً .) .

وحين أظهروا الندم على ما فاتهم من ذلك الخروج قال سبحانه لهم (.. ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذ بكم عذاباً اليماً) .

● ـ صدق المؤمنون الله فصدقهم الله . لقد خرج مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية /١٤٠٠/ رجل ليس معهم إلا السيوف في قُربها ، وحين دُعوا إلى الجهاد ثمة على قلة السلاح وغربة الميدان والبعد عن الأهل والمدد بادروا فبايعوه ﷺ على القتال والموت في سبيل الله ... فحفظ الله تعالى حياتهم ، وأثبت لهم رضوانه ، وكتب لهم نصراً وغنائم يصلون اليها من قريب ، وأن الله أحق من أدى ووفى . قال سبحانه (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثا بهم فتحاً قريباً .) وذلك فتح خيبر ، وهزيمة يهود فيها . والحمدلله .

لقد حفظ الله تعالى المؤمنين الذين خرجوا إلى الحديبية فلم يسلط عليهم كفار مكة وما حو لها من العرب فضلاً من الله على الذين خرجوا في سبيله ، فقال سبحانه (وهو الذي كفَّ ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعلمون بصيراً) .

فلقد ارسلت قريش سبعين أو ثمانين فارساً (حين كان السفراء يمشون بالصلح بين الرسول والمشركين) أيام الحديبية للإيقاع بالمسلمين وإنتهاز الفرصة في أطرافهم ، ففطن لهم المسلمون فاسروهم ، واطلقهم رسول الله ﷺ .

● ـ لطف الله تعالى بعباده . لقد وقف المشركون بعنادهم في في طريق الرسول وأصحابه ﷺ الذين قصدوا مكة المكرمة لاداء العمرة وقد ساقوا معهم الهدى ولبسوا ثياب الأحرام ، مع أن البيت بيت الله تعالى ، وما كانوا الآسدنته والمتشرفين. بخدمة عُماره .. ولولا أن كان في مكة المكرمة ذلك الوقت مستضعفون مخالطين للمشركين في مساكنهم وظواهر احوالهم لأذن الله للمسلمين بقتال المشركين فيها ، لكنه لم يأذن حفظاً لاولئك المستضعفين . قال سبحانه (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهَدْىَ معكوفاً أن يبلغ مَحِلَّه ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرَّة بغير علم لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .) .

● ـ رؤيا الأنبياء وحي : لقد رآى ابراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده اسماعيل فقام لينفذ ما أمر به في الرؤيا ففداه الله بذبح عظيم ، ورآى رسول الله ﷺ في المنام أنه يدخل مكة المكرمة معتمراً فدعا أصحابه إلى الخروج إلى مكة للعمرة ، فخرج معه من خرج .. ولقد حقق الله تعالى رؤياه فدخل مكة المكرمة بعد عام معتمراً . وما لبث بعدُ يسيراً ، حتى دخلها فاتحاً . قال سبحانه (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

● ـ أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بينهم ، اذلةٌ بعضهم لبعض وأحبة ، وهم على الكفار أشداء لا يجبنون عن قتالهم ومحاربتهم في سبيل الله تعالى ، وهم موصوفون في التوراة الصحيحة بالاقبال على عبادة الله تعالى وطاعتهمما يظهر ذلك على قسمات وجوههم نوراً ،

وفي ابدانهم سلوكاً فاضلاً ، وهم موصوفون في الإنجيل الصحيح بالزرع الذي يبدو صغيراً نحيلاً ، ثم ما يزال ينمو ويربو حتى يكبر ويعطي ما يعطي مما يعجب الزراع من صالح الثمار ، لكنه يغيظ الكفار الذين لا يريدون لدين الله ظهوراً ، ولا للمسلمين إيماناً ، كما قال سبحانه في وصفهم (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء).
قال سبحانه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ... ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ..).

● ـ وعد الله لمن آمن به واتبع ما جاء من عنده ، هو اكرام وأي إكرام ، جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فطوبى لمن آمن وعمل صالحاً ، فإن الله يصدق معه وعده ، لقد ختم الله تعالى سورة الفتح بقوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً).

فأكرم بفاتحة سورة الفتح واعظم بخاتمتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح[1]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[١]

قوله عز وجل:[2] **إنا فتحنا لك فتحا مبينا**، قال بعضهم: هو فتح مكة، وقال بعضهم: هو صلح الحديبية[3] الذي [كان] بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة حين صَدُّوهم عن دخولهم مكة وحالوا بينه وبين زيارة البيت. وكان له فيها، أعني[4] في قصة الحديبية، أمران وآيتان ظاهرتان عظيمتان. أحدهما[5] أنه أصابه ومن معه من أصحابه عطش فأُتي[6] بإناء ماء،[7] فنبع من ذلك الإناء من الماء مقدار ما شرب منه زُهاءُ ألفٍ وخمسَمائةٍ حتى رَوُوا جميعا،[8] فذلك آية عظيمة حسية على رسالته. والثاني أخبر بغلبة الروم الفارس، وذلك علم غيبٍ وكان كما ذكر وأخبر، فدل أنه إنما علم ذلك بالله تعالى.

---

[1] ر ن – سورة الفتح؛ ث + مدنية وهي تسع وعشرون آيات؛ م + مدنية.

[2] ر ن – قوله عز وجل.

[3] روى قتادة عن أنس رضي الله عنه: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾، قال: الحديبية. انظر: *صحيح البخاري*، المغازي ٣٥، التفسير ٤٨.

[4] ث: أي.

[5] ث: إحداهما.

[6] ن: فأتا.

[7] ن ث – ماء.

[8] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه رَكْوة فتوضأ فجَهَش الناس نحوه فقال: «ما لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائةٍ. (مسند *أحمد بن حنبل*، ٣/٣٢٩؛ وصحيح *البخاري*، المناقب ٢٥).

وقصة الحديبية روي عن رجل، يقال له مُجَمِّعُ بنُ جارِيَةَ،[١] قال: شهدت الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا انصرفنا عنها إذ[٢] الناس يُوجِفون الأباعر.[٣] فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قال: أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فخرجنا نُوجف مع الناس حتى وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا عند كُراع الغميم،[٤] اسم موضع. فلما اجتمع إليه بعض ما يريد من الناس قرأ عليهم: **إنا فتحنا لك فتحا مبينا**. قال: قال رجل من أصحاب رسول الله[٥] صلى الله عليه وسلم: أَوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «إي[٦] والذي نفسي بيده إنه لفتح».[٧] قال: ثم قُسمت الحديبية على ثمانيةَ عشرَ سهما وكان الجيش ألفا[٨] وخمسمائةٍ.[٩] وفي بعض الأخبار أن[ه هو] الصلح الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، ولم نر قتالا ولو نرى لقاتلنا. قال: فنَزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر رضي الله عنه فأقرأها إياه، فقال: يا رسول الله فتح هو؟ قال: «نعم».[١٠] وعن عامر[١١] أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بالحديبية فأنزل الله تعالى: **إنا فتحنا لك فتحا مبينا، فقال** رجل: إنها فتح هو؟ قال: «نعم».[١٢] وعن جابر أنه قال: ما كُنَّا نَعُد الفتح إلا يوم الحديبية.[١٣]

---

[١] جميع النسخ: حارثة. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٩و. هو مُجمِّع بن جارية بن عامر، أو ابن يزيد بن جارية بن عامر، صحابي، من بني العطاف ابن ضبيعة الأوسي الأنصاري: أحد مَن جمع القرآن، إلا يسيرا منه. عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ذلك في صِباه. ويقال: إن عمر رضي الله عنه بعثه أيام خلافته إلى أهل الكوفة يعلمهم القرآن، ومات بالمدينة في خلافة معاوية نحو ٥٠هـ/٦٧٠م. (انظر: *الأعلام* للزركلي، ٥/٢٨٧).

[٢] جميع النسخ: أن. والتصحيح من *الشرح* نسخة حميدية ١٧٦، ورقة ٧١٣ ظ.

[٣] أي يسرعون الإبل الصالحة للركوب.

[٤] ر ن ث: الغنم؛ م: الغم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٩و.

[٥] ن: النبي.

[٦] ث - أو فتح هو يا رسول الله قال إي.

[٧] ر ث م: يفتح.

[٨] جميع النسخ: ألف. والتصحيح من المرجع السابق.

[٩] *مسند أحمد بن حنبل*، ٣/٤٢٠.

[١٠] *تفسير الطبري*، ٢٦/٩٣.

[١١] «عامر بن شراحيل، أبو عمرو الشعبي، من شَعْب هَمْدان، علاّمة أهل الكوفة؛ ولد في وسط خلافة عمر بن الخطاب، وروي عن علي يسيرًا وعن المغيرة بن شعبة وعمران بن حُصين وعائشة وأبي هريرة وجرير البجلي وعدي بن حاتم وابن عباس ومسروق وخلقٍ كثير» (*الوافي بالوفايات*، ١٦/٥٨٧).

[١٢] الدر المنثور للسيوطي، ٧/٥١٠.

[١٣] *تفسير الطبري*، ٢٦/٩٣؛ و*تفسير ابن كثير*، ٧/٣٠٧.

وكذلك روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: نزلت هذه الآية: **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** بالحديبية.[١] وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه[٢] قال: لم يكن في الإسلام فتح أعظم من صلح الحديبية، وضعت الحربُ أوزارَها، وأَمِنَ[٣] الناس كلهم، ودخل في الإسلام في السَّنَتَين أكثر مما كان دخل قُبَيلَ[٤] ذلك، فلمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الحديبية ... وفي الحديث طول تركنا ذكره.[٥] *والله أعلم*.[٦]

وقوله عز وجل: **إنا فتحنا لك فتحا مبينا،**[٧] يخرج على وجوه ثلاثة.[٨] أحدها، أي إنا قضينا ذلك قضاء بَيّنا بالحجج والبراهين على رسالتك ونُبُوَّتك، لِيُعلم أنك محق على ما تدّعي صادق في قولك، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ بما أكرمك وعظَّم أمرك بالرسالة والنبوّة، أي أعطاك ذلك وأكرمك به ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

والثاني **إنا فتحنا لك فتحا مبينا،**[٩] ما لم يطمع أحد من الخلائق أنه يَفتح عليك أمثال ذلك الفتوح، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ.[١٠]

والثالث **إنا فتحنا لك** جميعَ أبواب الحكمة والعلوم وجميع أبواب الخيرات والحسنات، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ، بما أكرمك من أبواب الحكمة والخيرات؛ يخرج على هذه الوجوه الثلاثة. *والله أعلم*.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[٢]

ثم قوله عز وجل: **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**، يخرج على وجهين. أحدهما يرجع إلى ذنبه، أخبر أنه غفر له. ثم لا يجوز لنا أن نبحث عن ذنبه ونتكلف أنه ما كان ذنبُه،

---

١ روي ذلك عن الشعبي في *تفسير الطبري*، ٩٣/٢٦.
٢ ث – انه.
٣ ر + من.
٤ ن: قبل.
٥ انظر: *تفسير الطبري*، ١٤٠/٢٦.
٦ ن – والله أعلم.
٧ ن: فتحا عظيما.
٨ ن ث – ثلاثة.
٩ ن: فتحا بينا.
١٠ الآية التالية.

وأَيْشٍ كان زلته؟ لأن البحث عن زلته مما يوجب[1] التنقيص[2] فيه، فمن تكلف البحث عن ذلك يُخاف عليه الكفر. لكن ذنبه وذنب سائر الأنبياء عليهم السلام ليس نظير ذنبنا، إذ ذنبهم بمنزلة فعلٍ مباح منا لكنهم نُهوا عن ذلك، *والله أعلم*. وجائز أن يكون قوله عز وجل: **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**، أي يغفر ذنبه ابتداءَ غفرانٍ، أي عصمه عن ذلك، وذلك جائز في اللغة. *والله أعلم*.

[٧٣٣و] والوجه الثاني / يرجع إلى ذنوب أمته، أي ليغفر لك الله ذنوب أمتك، وهو ما يشفع لأمته فيَغفِر هم[3] له، أي لشفاعته، وهو كما روي في الخبر: «يُغْفَرُ لِلْمُؤَذِنِ مَدَّ صوته»،[4] أي يجعل له الشفاعة.[5] فعلى ذلك جائز أن يكون قوله: **ليغفر لك الله**، أي يغفر له أمته[6] بشفاعته. *والله أعلم*.

[٧٣٣و س١٩ *وجائز أن يكون قوله: **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك**، أي من ذنب أمتك،[7] **وما تأخر** من ذنبهم، على ما قاله[8] بعض أهل التأويل، ويتم نعمته عليهم من أنواع الخيرات والأمن[9] لهم
٧٣٣و س٢١] والإياس لأولئك الكفرة عنهم.*

وقوله عز وجل: **ويُتمَّ نعمته عليك**، يحتمل إتمامُ نعمته عليه هو ما ذكرنا من الرسالة والنبوة وفتحِ ما ذكر من أبواب الخيرات والحكمة في الدنيا والآخرة، أو الشفاعةُ له في الآخرة، أو إظهار دينه على الأديان كلها وإياس أولئك الكفرة عن عَوْده إلى دينهم، كقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾،[11] الآية. *والله أعلم*.

[وقوله تعالى: **ويهديك صراطا مستقيما**، هو ظاهر].[12]

---

[1] م: وأيش كان زلته ما يوجب.
[2] ر: التنقص؛ م: النقص.
[3] ر م – هم.
[4] «المؤذن يغفر له مَدَّ صوته ويصدّقه من يسمعه من رطب ويابس، وله مثل أجر من صلى معه» (*مسند أحمد بن حنبل*، ١٣٦/٢، ٢٦٦؛ وانظر: صحيح *البخاري*، الأذان ٥؛ وسنن *أبي داود*، الصلاة ٣١. قارن معناه: *النهاية في غريب الحديث* لابن الأثير، «مد» و«مدى»).
[5] أي يغفر لمن كان في حدود مدّ صوته بسبب المؤذن وأذانه.
[6] ن – أي يجعل له الشفاعة فعلى ذلك جائز أن يكون قوله ليغفر لك الله أي يغفر له أمته.
[7] ث – أي من ذنب أمتك، صح هـ.
[8] ر ث م: قال.
[9] ر ث م: والأمر.
* ورد ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فقدمناه إلى هنا، انظر: ورقة ٧٣٣و/ سطر ١٩–٢١.
[11] سورة المائدة، ٣/٥.
[12] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٩و.

﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[٣]

وقوله عز وجل: **وينصرك الله نصرا عزيزا**، يحتمل أن يَنصُرك[١] نصرا عزيزا بالغلبة عليهم والقهر والظفر لا صلحا ولا موادعة. وعلى ذلك يخرج قول أهل التأويل: **نصرا عزيزا** لا يُستَذَلّ ولا يُستَرْذَل. وظاهر الآية ليس على ذلك لأنه قال على إثره:[٢] لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ،[٣] لأن الخيرات والحسنات يكون سببا للمغفرة. فجائز أن يكون ما ذكر من الفتح له والمغفرة هذا، لا ما ذكروه،[٤] إلا أن يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُسأل من الفتح[٥] لما أقدم على أسباب الفتح، وهو القتال مع الكفرة ونحوُ ذلك، وذلك من الخيرات التي تكون[٦] سبب المغفرة، إلا أن الله أضاف الفتح إلى نفسه لقوله: فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا،[٧] لما أنه هو الخالق لذلك الأسباب ومنشئ فعل الجهاد[٨] والقتال منهم. *والله أعلم*. ويحتمل أن يكون ما ذكر من الفتح له ليغفر له[٩] هو أن الله جعل رسوله[١٠] بحيث لا يَخُطُّ بيده خطا ولا يكتب كتابا ولا يفهم كتابة، وهو ما وصفه الله جل وعلا بقوله: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ،[١١] لِيدفع ارْتياب المبطلين فيه على ما ذكر.

ثم مع أنه جعله هكذا أحوج جميع حكماء الخلق إليه وأحوجَ أيضا جميع أهل الكتب السالفة إليه في معرفة ما ضمَّن كتابه المنزل عليه وجعله رسولا إليهم، فيكون كأنه قال: إنا فتحنا لك النبوة والحكمة وأنواع العلوم والخيرات والحسنات. لِيَغْفِرَ لَكَ، أي إنما فتح لك ما ذكر ليغفر لك ويتم نعمته عليك من النبوة والحكمة وإظهار دينه على الأديان كلها، ويهديه صراطا مستقيما وينصُره نصرا عزيزا، أعطاه ما ذكرنا وذلك كله النصر العزيز. *والله أعلم*.*

---

[١] جميع النسخ: أي ينصرك. والتصحيح مستفاد من *الشرح* نسخة حميدية، ورقة ٧١٣ ظ.
[٢] أي على إثر قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾.
[٣] الآية السابقة.
[٤] جميع النسخ: ذكره. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٣٩ظ. أي لا ما ذكره أهل التأويل.
[٥] ن: على الفتح.
[٦] ر م: يكون.
[٧] الآية ١ من هذه السورة.
[٨] ر ث م – لقوله فتحنا لك فتحا لما أنه هو الخالق لذلك الأسباب ومنشئ فعل الجهاد.
[٩] ث – ليغفر له.
[١٠] ر م: ورسوله.
[١١] سورة العنكبوت، ٤٨/٢٩.
* وقع هنا قسم من تفسير الآية السابقة فنقلناه إلى موضعه انظر: ورقة ٧٣٣و/ سطر١٩–٢١.

ويهديهم صراطا مستقيما وينصرهم نصرا عزيزا، أي فتحنا لك ما ذكر ليكون لأمتك ما ذكرنا من المغفرة لهم وإتمام النعمة، والهداية لهم الصراط المستقيم، والنصر لهم النصر العزيز، أي نصرا يَعِزّون به في حياتهم وبعد وفاتهم[1] في الدنيا والآخرة. **والله أعلم**.

ومن الناس من يقول: إن الله جل وعلا امتحن رسوله عليه الصلاة والسلام في الابتداء بالخوف حين قال: وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ،[2] وجد[3] النبي صلى الله عليه وسلم لذلك وجدا شديدا ونزل بعده: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ، إلى آخره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «قد[4] نزلت عليَّ آية أحبُّ إليَّ مما على الأرض»، ثم قرأها النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هنيئا مريئا يا نبي الله، قد بين الله[5] لك[6] ماذا يفعل بك ولم يبين ماذا يفعل بنا، فنزل قوله تعالى: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ، الآية.[7] **والله أعلم**.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٤]

وقوله عز وجل: **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين**، قال بعضهم: السكينة هي كهيئة الريح لها جناحان ولها رأس كرأس الهِرّ. لكن هذا ليس بشيء [لأنه قال: **أنزل السكينة في قلوب المؤمنين** وما فسروا من السكينة كيف يكون نزولها في القلوب ولا يعلم ذلك. **والله أعلم**. وقيل: **أنزل السكينة**، هي الطمأنينة والرحمة، وأصل السكينة ما يسكن بها القلوب. والآية حجة على المعتزلة][8] فإنه عز وجل قال: **أنزل السكينة في قلوب المؤمنين** بحقيّة[9] الدين،

---

[1] ر: فاتهم.
[2] سورة الأحقاف، ٤٦/٩.
[3] وَجَد عليه في الغضب يَجُد ويَجِد وَجْداً وجِدَة وموجَدَة ووِجْدانا: غضب (*لسان العرب*، «وجد»).
[4] ث م – قد.
[5] ر م – الله.
[6] ر م: لكم.
[7] الآية ٥ من هذه السورة. عن أنس رضي الله عنه قال: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ مَرْجِعَه من الحديبية فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد نزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض» ثم قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم فقالوا: هنيئا مريئا يا نبي الله، قد بين الله لك ما ذا يفعل بك، وما ذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ حتى بلغ ﴿فوزا عظيما﴾، وفيه عن مُجَمِّع بن جارية (*سنن الترمذي*، تفسير القرآن ٤٨).
[8] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٩ظ.
[9] ر م: بحقيقة.

وهو[1] تفسير العلم. وهذا يدل على أن خالق العلم الاستدلالي ومنزله ومنشئه هو الله تعالى، وهم يقولون: إن خالقه هو المستدل،[2] فيكون حجة عليهم. قال بعض المعتزلة: إضافة إنزال السكينة إلى نفسه على سبيل المجاز ليس على التحقيق، كما يقال: فلان أنزل فلانا في منزله[3] أو مسكنه، وإن لم يكن منه حقيقةُ إنزاله إياه في المنزل لكن أضيف إليه ذلك لأنه وُجد منه أمر[4] وسبب به يصل ذلك إلى نزوله[5] في منزله ومسكنه، فعلى ذلك أضاف إنزال السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا، [لأمر كان منه وسبب ليس على حقيقة الإنزال وإثبات العلم وإحداثه في قلوبهم. لكنا نقول: إنزال الشيء للشيء لا يكون على ما ذكروا ولا إنشاء الشيء للشيء. وأخبر أنه أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا]،[6] فلا يقال في مثله لأمر كان منه أو بسبب جعل له ذلك، وهو كقوله تعالى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ،[7] وإنما يقال ذلك لتحقيق إنزال ذلك ليكون ما ذكر على ما أخبر أنه فتح ليغفر له ما ذكر. *والله أعلم*.

ثم قوله عز وجل: **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم**، يخرج على وجوه. أحدها ما قال أبو حنيفة رحمه الله: **ليزدادوا إيمانا**، بالتفصيل[8] على / إيمانهم بالجملة. والثاني **ليزدادوا إيمانا** بمحمد [٧٣٣ظ] صلى الله عليه وسلم وبكتابه **مع إيمانهم** بسائر الرسل والكتب التي كانوا آمنوا بها وصدقوها، وهذا في أهل الكتاب خاصة. والثالث[9] **ليزدادوا إيمانا** في حادث الوقت **مع إيمانهم** فيما مضى من الأوقات. فإذا وُصل هذا بالأول فيكون بحكم الزيادة. وإن شئت جعلته بحكم الابتداء، إذ للإيمان حق التجدد والحدوث في كل وقت. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ولله جنود السماوات والأرض**، فإن كان نزوله على إثر قول ذلك المنافق على ما ذكر بعض أهل التأويل حيث قال لأصحابه: يزعم[10] محمد أن الله قد غفر له،

---

[1] م + وهو.
[2] ر م: المستبدل.
[3] ن: على منزله.
[4] ر م – أمر.
[5] ن + ولد.
[6] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٩ظ.
[7] الآية ١–٢ من هذه السورة.
[8] جميع النسخ: بالتفسير. وفي هامش *الشرح*: أي بتفصيل، ورقة ١٣٩ظ.
[9] ن – ليزدادوا إيمانا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبكتابه مع إيمانهم بسائر الرسل والكتب التي كانوا آمنوا بها وصدقوها وهذا في أهل الكتاب خاصة والثالث.
[10] ث: هو عمر.

وأن له على عدوه ظفرا،[1] ويهديه صراطا مستقيما، وينصره نصرا عزيزا، هيهات هيهات! لقد بقي له من العدو أكثر وأكثر[2] فأين أهل فارس والروم هم أكثر عددا؟ فعند ذلك نزل: **ولله جنود السماوات والأرض**، فمعناه أي لله تدبير جنود السماوات والأرض ينصر من يشاء على من يشاء، ويجعل الأمر لمن يشاء على ما[3] يشاء، ليس لهم التدبير وإنفاذُ الأمر على من شاءوا، ولكن ذلك إلى الله تعالى. وهو كقوله تعالى: فَلِلّٰهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا،[4] أي لله تدبير مكرهم لا يَنفُذ مكرهم إلا بالله تعالى، فعلى ذلك هذا. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وكان الله عليما حكيما**، أي عن علم بما يكون منهم من إيثارهم عداوة الله على ولايته واختيار الخلاف له أنشأهم لا عن جهل، ليُعْلَم أنه لم ينشئهم و لم يأمرهم بما أمرهم وامتحنهم بما امتحن لحاجة[5] نفسه أو لمنافعَ يرجع إليه، ولكن لحاجة أولئك ولمنافعهم. ولذلك قال: **حكيما**، لأن الحكيم هو الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير. فإذا كان إنشاؤه إياهم وما أمرهم به ونهاهم عنه لا لحاجة له في نفسه[6] ولا منفعة ولكن لحاجتهم ومنفعتهم كان حكيما في إنشائه إياهم على علم منه بما يكون منهم من إيثار العداوة له على ولايته واختيار الخلاف له والمعصية. *والله الموفق*.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٥]

وقوله عز وجل: **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**، الآية، كأن هذا صلة قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ،[7] **ليدخل المؤمنين والمؤمنات**، الآية، أنزل السكينة في قلوبهم، أي أنزل ما تسكن بها قلوبهم ليزدادوا بذلك إيمانا، وأنزل السكينة أيضا ليدخلهم فيما ذكر، كما ذكر في رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ،[8] فتح له ليغفر له،

[1] جميع النسخ: ظفر.
[2] ن: وأكبر.
[3] ن ث: على من.
[4] سورة الرعد، ١٣/٤٢.
[5] ر م: لحاجته.
[6] ن ث: ذلك.
[7] الآية السابقة.
[8] الآية ١-٢ من هذه السورة.

فعلى ذلك أنزل السكينة في قلوبهم ليزداد[١] لهم الإيمان وليدخلهم جنات التي وصف. ثم أخبر أن ذلك لهم عند الله فوز عظيم[٢] لا هلاك بعده ولا تَبِعَة. *والله أعلم*.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[٦]

وقوله عز وجل: **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات**، ذكر للمنافقين والمشركين من العذاب مقابل ما ذكر للمؤمنين من إنزال السكينة عليهم وإدخالهم الجنة. حَرَمَ[٣] هؤلاء السكينة التي ذكر أن قلوب المؤمنين بها تسكن،[٤] لما علم أنهم يختارون عداوته[٥] ويؤثرون عداوة أوليائه على ولايته وولايتهم،[٦] وعلم من المؤمنين أنهم يؤثرون ولايته على عداوته وولاية أوليائه على عداوتهم، فأنزل[٧] السكينة في قلوبهم ولم ينزل على أولئك هذا، ليعلم أن من بلغ في الإيمان الحد الذي ذكر إنما بلغ ذلك بالله تعالى وبفضله وبرحمته. *ولا قوة إلا بالله*.

وقوله: **الظانّين بالله ظن السَّوْء**، جائز أن يكون قوله[٨] عز وجل: **الظانين بالله ظن السوء** هم المنافقين[٩] الذين ذكرهم في آية أخرى حيث قال: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ،[١٠] ظنوا[١١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى أهله وكذلك المؤمنون لا يرجعون إلى أهليهم أبدا. ثم أخبر أن ذلك الظن منهم ظن السَّوء، فيحتمل ما ذكر هاهنا: **الظانين بالله ظن السوء هو**[١٢] ما ذكرنا. *والله أعلم*. وجائز أن يكون قوله: **الظانين بالله ظن السوء** هم المشركين.[١٣] ثم إن كانوا من المنافقين

---

[١] جميع النسخ: ليزدادوا.
[٢] جميع النسخ: عند الله فوزا عظيما.
[٣] ر م: جزم.
[٤] ر ث م: يسكن.
[٥] ن – عداوته.
[٦] ر م: على ولايتهم؛ ث: على ولايته وفي ولايتهم.
[٧] ر م: فإنزال.
[٨] ث – قوله.
[٩] جميع النسخ: المنافقون.
[١٠] الآية ١٢ من هذه السورة.
[١١] ر – ظنوا.
[١٢] ر ث م: هذا.
[١٣] جميع النسخ: المشركون.

فيكون ظنهم بالله ظن السوء أن لا يرجع هو وأصحابه إلى أهليهم أبدا، وإن كانوا من مكذبي الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون ظنهم بالله ظن السوء أن لا يُكْرم محمدا صلى الله عليه وسلم بالرسالة ولا يعظّمه بالنبوة ولا يختاره[١] ولا يؤثره[٢] على غيره من الناس الذين[٣] يختارون هم، كقوله:[٤] لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ،[٥] فيكون ظنهم بالله ظن السوء على هذا: أن لا يكرم الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ولا يختاره[٦] لرسالته ونبوته. *والله أعلم*. وإن كانوا[٧] من مكذبي البعث ومنكريه فيكون ظنهم بالله ظن السوء، وهو أن لا يقدر على البعث والإحياء بعد الموت. ثم أخبر أن عليهم دائرةَ السوء الذي ظنوا، فإن كانوا من المنافقين ظنوا[٨] أن لا يرجع[٩] رسول الله صلى الله عليه وسلم [إلى أهله] فصار عليهم ما ظنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث تفرقوا من أوطانهم وهُتِك أستارهم ونحو ذلك. [٧٣٤و] وإن كانوا من مكذبي الرسول صلى الله / عليه وسلم أنه لا يرسله، فعليهم[١٠] كان ما ظنوا، لأنه بُعث هو رسولا ولم يبعث من[١١] اختاروا هم،[١٢] وإن كانوا من منكري البعث فعليهم كان عذاب [ذلك][١٣] اليوم وفيه هلاكهم. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا**، أخبر[١٤] عز وجل أنهم استوجبوا غضب الله ولعنه بالذي كان منهم من سوء ظنهم بالله وبرسوله[١٥] وأعدّ لهم جهنم بذلك وساءت مصيرا لهم.

---

[١] ر ث م: لا يختاره.
[٢] ر م: ولا يؤثر.
[٣] م: الذي.
[٤] جميع النسخ: كقولهم.
[٥] سورة الزخرف، ٣١/٤٣.
[٦] ر ث م: ولا يختار.
[٧] جميع النسخ + ذلك.
[٨] ر م – فإن كانوا من المنافقين ظنوا.
[٩] جميع النسخ + إلى.
[١٠] جميع النسخ: فظنهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٠ظ.
[١١] ث: من.
[١٢] ن: اختاروهم.
[١٣] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٠ظ.
[١٤] ن + أنه.
[١٥] ث م: ورسوله.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٧]

وقوله عز وجل: **ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما**، ذكر على إثر ما ذكر **عزيزا حكيما** ليعلم أن عزه ليس بما ذكر من الجنود الذين له في السماوات والأرض ولكنه عزيز[١] بذاته، له العز الذاتي الأزلي. ***والله أعلم.***

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٨]

وقوله عز وجل: **إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا**، قوله: **شاهدا**، لله بما[٢] لله تعالى على عباده وما[٣] لبعضهم على بعض. فعلى هذا التأويل يكون قوله: **شاهدا**، أي مبينا، أي ليتبين ما لله عليهم وما لبعضهم على بعض، وهو قول أبي بكر الأصم.[٤] وقال بعضهم: أي شاهدا للرسل عليهم السلام بالتبليغ بالإجابة لمن أجابهم، وشاهدًا على من أبى الإجابة بالإباء والرد. فعلى هذا التأويل يكون قوله: **شاهدا** على حقيقة الشهادة على ما ذكرنا.[٥] ***والله أعلم.*** وقال بعضهم: أي أرسلناك شاهدا على أمتك وعلى[٦] الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالتبليغ ومن ذكرنا. ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **ومبشرا ونذيرا**، البِشارة هي تذكير[٧] عواقب الخيرات والحسنات والإخبارُ عن أحوالها أنها إلى ماذا تفضي[٨] أربابَها وعُمّالها ليرغّبهم فيها، والنِذارة هي[٩] تذكير[١٠] عواقب الشرور والسيئات والإخبار عن أحوالها أنها إلى ماذا تفضي[١١] أربابها ومرتكبيها ليزجرهم عنها. ***والله أعلم.***

---

[١] ر م: عزيزا.

[٢] ر م: عما؛ ن - لله مما.

[٣] ر م: ما.

[٤] هو أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم (ت نحو ٢٢٥هـ/٨٤٠م)؛ فقيه معتزلي مفسر. وله «*تفسير*»، و«*مقالات*» في الأصول، و«*مناظرات*» مع العلاّف. وله أيضا *أنباء في الرفض والتجسيم*. انظر: *لسان الميزان* لابن حجر، ٥١٩/٣.

[٥] ن: ذكرناه.

[٦] جميع النسخ: على أمتك على. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٠ظ.

[٧] ر ث م: تذكر.

[٨] جميع النسخ: يفضي.

[٩] ن - عواقب الخيرات والحسنات والإخبار عن أحوالها أنها إلى ماذا تفضي أربابها وعمالها ليرغبهم فيها والنذارة هي.

[١٠] ر ث م: تذكر؛ ن - تذكير. والتصحيح من المرجع السابق.

[١١] جميع النسخ: يفضي.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٩]

وقوله عز وجل: **لتؤمنوا بالله ورسوله**، خاطب بهذا البشر كلَّه وفي الأول خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه يقول على الجمع[١] بينهما في الخطاب: أرسلناك رسولا شاهدا لتؤمنوا[٢] أنتم بالله ورسوله. ويحتمل أن يكون على الإضمار، أي إنا أرسلناك مبشرا ونذيرا، وقل لهم: إنما أرسلت لتؤمنوا بالله ورسوله، وهو كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ،[٣] معناه: يا أيها النبي قل لهم: إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن،[٤] فعلى ذلك جائز ما ذكرنا. ***والله أعلم***. وقرئ بالياء[٥] وهي ظاهرة. ثم الإيمان بالله تعالى هو أن يَشهد له بالوحدانية والألوهية وأن له الخلق والأمرَ في كل شيء وكل أمر، والإيمانُ برسوله هو[٦] أن يشهد له بالصدق في كل أمر والعدالةِ[٧] له فيما يحكم ويقضي ويصدقه في كل ما يقوله ويجيبه في كل ما يدعو إليه ويطيعه في كل أمر يأمر به[٨] وينهى عنه. ***والله أعلم***.

قوله عز وجل: **وتُعَزِّروه**، اختلف فيه. قال بعضهم: أي تنصروه وتعينوه،[٩] وقال بعضهم: أي تطيعوه،[١٠] وقال بعضهم: أي تعظموه.[١١] فمن يقول: إن قوله: **وتعزروه** ليس على النصر والإعانة ولكن على التعظيم أو على الطاعة استدل بما قال في آية أخرى: وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ،[١٢] ذكر التعزير وعَطَفَ النصر عليه، والمعطوف غير المعطوف عليه فدل أنه غير النصر. ولكن جائز أن يذكر الشيء الواحد بلفظين مختلفين، ومعناهما واحد، على التأكيد. وكذلك من يقول بالتعظيم يقول: أمرهم بتعظيمه في الحرفين، أعني قوله: **وتعزروه وتوقروه**، وذلك جائز في الكلام.

---

[١] م: على الجميع.

[٢] ن: ليؤمنوا.

[٣] سورة الطلاق، ١/٦٥.

[٤] ث – معناه يا أيها النبي قل لهم إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن.

[٥] قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه﴾ كله بالياء (*المبسوط في القراءات العشر* لابن مهران، ٤١٠).

[٦] ن – هو.

[٧] ر ن م: وبالعدالة.

[٨] ر ن م: ربه.

[٩] جميع النسخ: ينصروه ويعينوه. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٠ظ.

[١٠] ر ن م: أي يطيعوه.

[١١] ر ن م: أي يعظموه.

[١٢] ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (سورة الأعراف، ١٥٧/٧).

ويحتمل أن يكون التعزير هو الطاعة له، والتوقير هو التعظيم، وفي الطاعة له تعظيمه. *والله أعلم*.
ومن قال بالنصر والمعونة في التبليغ [فمراده] تبليغ الرسالة إلى الخلق والدفع عنه والذب، والتعظيم له في قلبه وجميع جوارحه. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وتسبحوه بكرة وأصيلا**.[١] أجمع أهل التأويل أن قوله تعالى: **وتسبحوه بكرة** راجع إلى الله تعالى، وكذلك ذكر في بعض القراءة:[٢] وتسبحون[٣] الله بكرة وأصيلا. والتسبيح[٤] هو التنزيه عن العيوب والآفات فإن كان المراد بالتسبيح هو التنزيه[٥] في الأفعال والأقوال فجائز نسبة[٦] ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان بريء العيوب في أفعاله وأقواله لا يدخل في أفعاله وأقواله عيب، وإن كان هو تنزيها عن الحدثية[٧] والفناء وآفات تحل[٨] في نفسه فذلك لا يجوز إضافته ونسبته إلا إلى الله[٩] عز وجل، فأما غيره لا يجوز إضافة ذلك إليه. وأصله ما ذكر أهل التأويل من صرفه إلى الله تعالى.

وقوله عز وجل: **بكرة وأصيلا**، صرف أهل التأويل البكرة إلى صلاة الفجر والأصيل إلى صلاة المغرب والعشاء، ولكن جائز أن يكون البكرة كناية عن النهار والأصيل كناية وعبارة[١٠] عن الليل، فكأنه يقول: سبحوا بالليل والنهار جملة في كل وقت. *والله أعلم*.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١٠]

وقوله عز وجل: **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**، أجمع أهل التأويل أو عامتهم على أن المبايعة[١١] المذكورة في هذه الآية هي البيعة التي كانت بالحُدَيْبِيَة بايعوه على أن لا يفروا إذا لَقُوا عدوا.

---

[١] ر م + والتسبيح.
[٢] ن: القراآت.
[٣] ر ن م: ويسبحون.
[٤] ن: التسبيح.
[٥] ر ث م – عن العيوب والآفات فإن كان المراد بالتسبيح هو التنزيه.
[٦] ن: شبه.
[٧] م: عن الحدثة.
[٨] ر م: كل؛ ن: يحل.
[٩] ر: ونسبة إلى الله؛ م: ونسبته إلى الله.
[١٠] م – وعبارة.
[١١] ر: المبالغة.

[٧٣٤ظ] قال مَعْقِل بن يسار: لقد رأيتني يوم الشجرة / والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ونحن أربعَ عَشْرَةَ مائةً، أي ألفُ وأربعُ مائةِ نفرٍ، وقال: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نَفِرّ.[١] وجائز أن تكون[٢] المبايعة على أن لا يفروا كما[٣] ذكر في آية أخرى: وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ.[٤] والمبايعة هي[٥] المعاهدة، ألا ترى أنه قال:[٦] **ومن أوفى بما عاهد عَلَيْهُ الله**، ذكر في أول الآية المبايعة وفي آخرها المعاهدة[٧] ليعلم أن المبايعة والمعاهدة سواء. *والله أعلم*. ثم إضافة مبايعتهم رسوله إلى نفسه يحتمل[٨] وجهين. أحدهما لما بأمره يبايعونه. [والثاني][٩] ذكر ونَسَب إلى نفسه لعظم[١٠] قدره وجليل منزلته عنده. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **يد الله فوق أيديهم**، قال بعضهم: يد الله في جزاء المبايعة فوق أيديهم في المبايعة أو كلام نحوه. وجائز أن يكون قوله تعالى: **يد الله فوق أيديهم**، أي يد الله في الجزاء إذا وَفَوْا بالعهد فوق أيديهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت لهم عنده[١١] يد فيخبر أن جزاء الله الذي يجزيهم بوفاء ذلك المبايعة فوق أيديهم التي لهم عند[١٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم. *والله أعلم*. ويحتمل أن يكون ما ذكر من يد الله وإضافتها إليه يريد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه يقول: يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عندكم فيما بايعكم فوق أيديكم عنده، لما يحتمل أن يقع عندهم[١٣] أن يكون لهم يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بما بايعوه، كقوله تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا،[١٤] الآية،[١٥]

---

[١] صحيح مسلم، الإمارة ٧٦.
[٢] ر ث م: أن يكون.
[٣] ن ث – كما.
[٤] سورة الأحزاب، ١٥/٣٣.
[٥] ث – هي.
[٦] جميع النسخ + في آية أخرى.
[٧] ث – وفي آخرها المعاهدة.
[٨] ن: ويحتمل.
[٩] جميع النسخ: أو.
[١٠] ر ن م: لعظيم.
[١١] ث: له عندهم.
[١٢] ن – عند.
[١٣] ث: عنده.
[١٤] سورة الحجرات، ١٧/٤٩.
[١٥] ن – الآية.

فيخبر أن يد رسول الله عندكم[١] فوق أيديكم عنده بالمبايعة التي بايعتم. *والله أعلم*. ويحتمل: أي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] بالمدّ والبسط بالمبايعة فوق أيديهم. *والله أعلم*. ويحتمل قوله: **يد الله فوق أيديهم**، أي توفيق الله تعالى إياكم ومعونته على مبايعتكم رسوله فَوْقٌ وخيرٌ من وفائكم ببيعته وعهده. *والله أعلم*. وجائز أن يكون قوله: **يد الله فوق أيديهم**، أي يد الله في النصر لرسوله فوق أيديهم، كقوله تعالى: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ،[٣] حقيقةُ النصر إنما يكون بالله تعالى. ***ولا قوة إلا بالله***.

وقوله عز وجل: **فمن نكث فإنما يَنكُثُ على نفسه**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما كقوله جملة:[٤] مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا،[٥] فعلى ذلك من نكث فإنما له جزاء نَكْثه وهي النار، ومن أوفى فله ما ذكر من جزاء الوفاء. والثاني **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه**، أي من نكث فعليه ضرر نكثه وإليه يرجع ذلك الضرر لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، لأن الله جل وعلا قد[٦] وعد النصر له والظفر بأولئك، فمن نكث فإنما يرجع ضرر نكثه إليه، إذ الله يفي لرسوله صلى الله عليه وسلم ما وعد[٧] من النصر له. *والله أعلم*.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١١]

وقوله عز وجل: **سيقول لك المخلفون من الأعراب**، قوله تعالى: **المخلفون**، سماهم مخلَّفين ولم يخلِّفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه، ولكن الله تعالى خلَّفهم عن ذلك بأن أحدث فيهم فعل التخلّف لما علم منهم ما كان من اختيارهم التخلف، وهو[٨] كقوله تعالى:

---

١ ر ث م – عندكم.
٢ ن – صلى الله عليه وسلم.
٣ سورة آل عمران، ١٢٦/٣.
٤ ث – جملة.
٥ سورة فصلت، ٤٦/٤١.
٦ ر ث م – قد.
٧ ر م + الله.
٨ ر ث م – وهو.

وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ،[1] أي منعهم؛ فعلى ذلك ما ذكر من المخلَّفين أن الله سبحانه[2] وتعالى[3] خلَّفهم عن ذلك، وهم اكتسبوا فعل التخلف في أنفسهم. دل أن خالق أفعال[4] العباد[5] هو[6] الله تعالى. *والله الموفق*.

وقوله عز وجل خبرا عنهم: **شغلتنا أموالنا وأهلونا**، هذا القول منهم قول اعتذار وطلب العذر من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقولهم:[7] **فاستغفر لنا**، طلبوا منه الاستغفار مع إظهارهم العذر في التخلف بقولهم: **شغلتنا أموالنا وأهلونا**، يقولون: وإن حبَسَتْنَا أموالنا[8] وأهلونا لم يكن لنا التخلف عنك: **فاستغفر لنا**. ولكن مع هذا لم يُقبَل عذرهم، لأنهم كانوا لا يحققون في طلبهم الاستغفار منه لأنهم أهل نفاق لا يؤمنون برسالته ولا بالبعث كي ينفعهم المغفرة في الآخرة. ألا ترى أنه قال في آية أخرى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ،[9] الآية، دل هذا الفعل منهم[10] على أنهم كانوا غير محققين طلب الاستغفار منه بقولهم: **فاستغفر لنا**، حيث قال: **يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم**، أي يقولون بألسنتهم قولهم: **فاستغفر لنا** ما ليس في قلوبهم حقيقة ذلك. ولا جائزٌ أن يُصرف قولهم: **يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم**، إلى قولهم: **شغلتنا أموالنا وأهلونا**، أي كانوا[11] كاذبين في العذر ولكن طلبوا[12] الاستغفار حقيقة، لا يقال هذا لأنهم كانوا صادقين في أن أموالهم وأهليهم[13] شغلتهم عن ذلك فلا يمكن صرف الآية إلى ذلك. *والله الموفق*.

[1] ﴿ولو أرادوا الخروج لأعَدّوا له عُدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ (سورة التوبة، ٤٦/٩).
[2] ن – سبحانه.
[3] ن + هو.
[4] ن: الأفعال.
[5] ن – العباد.
[6] ث: وهو.
[7] ن – وقولهم.
[8] أي ولو لم يكن حبستنا أموالنا.
[9] سورة المنافقون، ٥/٦٣.
[10] ن + على.
[11] ر ث م – كانوا.
[12] م + الاسعة.
[13] ر ن م: وأهلوهم.

وقوله عز وجل: **قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضَرًا أو أراد بكم نفعا،** قد ذكرنا أن حرف الاستفهام من الله تعالى يكون على الإيجاب،[١] فيُنظَر أن لو كان ذلك السؤال من مستفهم كيف يجاب / له؟ فيكون من الله تعالى على الإيجاب: أن[٢] لا أحد يملك لكم نفعا [٧٣٥و]
إن كان الله أراد بكم ضَرا، ولا أحد يملك لكم ضرا إن كان الله أراد بكم نفعا. يخبر أنكم وإن تخلفتم لحفظ أموالكم وأهليكم فإن الله تعالى لو أراد بكم ضرا لا تملكون[٣] دفعه عن أنفسكم، وإن لم تتخلفوا[٤] ولكن خرجتم معه فلا يملك أحد الضرر لكم. غير أنه لا عذر لهم[٥] في التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أوعدهم فقال: **بل كان الله بما تعملون خبيرا.** جعل الله أنفس المنافقين وصنيعهم آية ودلالة[٦] على رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم في حق المنافقين حين كان يُطْلع رسوله على جميع ما أسرّوا في أنفسهم وأضمروا في قلوبهم ليعلموا أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى وجعل الآية له في حق غيرهم من الكفرة من غير صنيعهم وأنفسهم حتى علموا بذلك أنه بالله قدر على ذلك. ***والله أعلم.*** وقال أهل التأويل: **إن أراد بكم ضَرًّا**، أي الهزيمة، **أو أراد بكم نفعا**، ظهورا على عدوكم وغنيمة. يحتمل أن يكون الخطاب بهذا أهل[٧] الإيمان والوعظ لهم[٨] بذلك، لأن أهل النفاق كانوا لا يصدقون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقبلون ما يقول من المواعظ وغيره.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[١٢]

وقوله عز وجل: **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا.** فإن قيل: ما الذي حملهم على الظن الذي ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون لا يرجعون إلى أهليهم أبدا؟ إذا[٩] كان ذلك في خروجهم إلى الحديبية، على ما قال أهل التأويل:

---

[١] ن – يكون على الإيجاب؛ ن هـ: يكون على الإيجاب؛ ن + واجب.
[٢] ن: أي.
[٣] ن: لا يملكون.
[٤] ن: وإن لم يتخلفوا.
[٥] جميع النسخ: له. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤١ظ.
[٦] ر: ودلالته.
[٧] جميع النسخ: الأهل.
[٨] ث – لهم.
[٩] ن: إذ.

إن ذلك كان في خروجهم إلى الحديبية، وكان خروجهم للحج[1] وقضاء المناسك لا للقتال والحرب معهم، حتى يقع عندهم أنهم لا يرجعون بل يَهلِكون في ذلك، وأهل مكة لم يكونوا يمنعون[2] أحدا من أهل الآفاق[3] يدخل مكة للحج وقضاء المناسك.

قيل: لأن أهل النفاق كانوا قد كتبوا إلى أهل مكة وأعلموهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم خرجوا إليكم[4] للحج وزيارة البيت، فقالوا: إنا لا نَدَعُهم يدخلون مكة بل نقاتلهم ونحاربهم ولا نتركهم[5] يدخلونها. فإذا كان منهم ما ذكرنا فجائز أن يكونوا ظنوا ما ذكرنا من ظنهم، فأما على غير ذلك فلا يحتمل مع اجتماع أهل التأويل على أن ذلك كان في أمر الحديبية. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وظننتم ظن السَّوْء**، أي ظننتم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ظن السوء أنهم لا يرجعون إلى أهليهم، ويحتمل: ظننتم بالله ظن السوء أنه لا ينصر رسوله ولا يعينه.[6]

وقوله عز وجل: **وكنتم قوما بورا**، قال بعضهم: **بورا** أي هَلْكَى، أي تصيرون[7] قوما هلكى. فيه دليل أنهم يموتون على نفاقهم. وقال الحسن: **كنتم قوما بورا**، أي فاسدون لا خير فيكم[8] وكذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: إن البُور هو الفاسد.[9] وقال بعضهم: البور في كلام العرب لا شيء،[10] وقال القُتَبِي: البور الهلكى.[11]

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾[١٣]

وقوله عز وجل: **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا**، فهو ظاهر.

---

[1] ر: للحجج.
[2] جميع النسخ: يتبعون. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤١ظ.
[3] ر ث م: الإيمان.
[4] ر ن – إليكم.
[5] ر م: ولا يتركهم.
[6] ن + والله أعلم.
[7] ر م: يبصرون؛ ن ث: يصيرون. والتصحيح من المرجع السابق.
[8] جميع النسخ: فيهم. والتصحيح من المرجع السابق.
[9] *معاني القرآن* للفراء، ٣/٦٦؛ و*تفسير غريب القرآن* للقتبي، ٤١٢.
[10] *تفسير غريب القرآن* للقتبي، ٤١٢.
[11] *تفسير غريب القرآن* للقتبي، ٤١٢.

﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[١٤]

وقوله عز وجل: **ولله ملك السماوات والأرض**، قيل فيه بوجوه. أحدها ولله خزائن السماوات والأرض، وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأه: ولله خزائن السماوات[١] والأرض. والثاني ولله مُلْك كلِّ مُلْكٍ في السماوات والأرض، أي لله حقيقة مُلك كل مُلك في السماوات والأرض.[٢] والثالث ولله ولاية أهل السماوات والأرض وسلطانه، أي الولاية والسلطان له على أهل السماوات والأرض. ثم يحتمل ذكره هذا وجهين. أحدهما يخبر أنه فيما يأمرهم وينهاهم ويمتحنهم بأنواع المحن بما يأمر[٣] وينهى ويمتحن لا لحاجة نفسه ولا لمنفعة له، إذ له ملك السماوات والأرض، ولا يحتمل من له[٤] ملك ما ذكر أن يقع له الحاجة إلى ما ذكر أو المنفعةُ، لأنه غني بذاته، ولكن يأمرهم وينهاهم ويمتحنهم بما امتحن لحاجتهم ولمنفعتهم. ***والله أعلم***.

والثاني يذكر هذا ليقطعوا الرجاء عما في أيدي الخلق ويصرفوا الطمع والرجاء[٥] إلى الله تعالى، ومنه يرون كل نفع وخير يصل إليهم، ومنه يخافون في كل أمر فيه خوف لا يخافون سواه ولا يطمعون غيره، وهو ما أخبر: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ،[٦] ***ولا قوة إلا بالله***.

وقوله عز وجل: **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**، يقول -والله أعلم- هو يغفر لمن يشاء[٧] وهو المالك لذلك، وهو يعذب من يشاء؛ أي ليس يملك أحد مغفرة ذنوب أحد سواه ولا تعذيبَه، إنما ذلك منه وله ملك ذلك، وله الفعل[٨] دون خلقه ليصرفوا طمعهم ورجاءهم في كل أمر إلى الله تعالى، ومنه يخافون في كل أمر فيه خوف. ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **وكان الله غفورا رحيما**، أي وكان الله لم يزل رحيما لا أنه حدث ذلك له بخلقه.[٩] ***والله الموفق***.

---

[١] ن - وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأه ولله خزائن السماوات.
[٢] ر - والثاني ولله ملك كل ملك في السماوات والأرض أي لله حقيقة ملك كل ملك في السماوات والأرض.
[٣] ر ث م + هم.
[٤] ن - من له.
[٥] ن: الرجاء والطمع.
[٦] سورة فاطر، ١٥/٣٥.
[٧] ن + ويعذب من يشاء.
[٨] ن: الفضل.
[٩] م: بخلقه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١٥]

[٧٣٥ظ] وقوله: **سيقول المخلفون**، أي المخلفون[١] من الحديبية خَلَّفهم / الله عز وجل لما علم منهم من اختيار التخلف. وقوله:[٢] **إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم**، الآية.[٣] ذكر أهل التأويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل مكة عام الحديبية ورجع [و]اشتد ذلك على أصحابه رضي الله عنهم لما كانوا طمعوا دخول مكة والزيارة لبيته بشره ربه بفتح خيبر والغنيمة لهم، فعند ذلك لما انتهى إلى المنافقين المخلفين عن الحديبية تلك البِشارة له بفتح خيبر عليهم قالوا: **ذرونا نتبعكم**، فنصيب معكم الغنائم. وإنما رغبوا في اتباعهم معهم[٤] لما علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدُق فيما يخبر من البشارة له بالفتح[٥] والغنيمة له[٦] بلا مئونة قتال ولا حرب يقع هنالك.

وقوله: **يريدون أن يبدلوا كلام الله**، لأن البشارة بفتح خيبر وجَعْله[٧] غنيمة لمن شهد الحديبية، فأما من تَخَلَّف عنها فليس له في ذلك من[٨] نصيب. فأخبر الله[٩] تعالى أنهم يريدون أن يبدلوا ما وعد الله تعالى للمؤمنين الذين شهدوا الحديبية [من] فتح خيبر خاصة بأن يشركوهم فيها، وفي ذلك تبديل ما وعد الله –والله أعلم–[١٠] إذ لم يشهدوا هم الحديبية، والبشارة بالفتح لمن شهدها فأما من تخلف عنها فلا.[١١] وقال بعضهم: تبديل كلام الله ما قال في سورة براءة: فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا،[١٢]

[١] ر م – أي المخلفون.
[٢] ن: قوله.
[٣] ن – الآية.
[٤] ن – معهم.
[٥] ر م: والفتح.
[٦] ن – له.
[٧] ث: وفعله.
[٨] ن – من.
[٩] ن – الله.
[١٠] ر م – الله والله اعلم.
[١١] ن ث – إذ لم يشهدوا هم الحديبية والبشارة بالفتح لمن شهدها فأما من تخلف عنها فلا.
[١٢] سورة التوبة، ٩/٨٣.

فلما سألوا الخروج إلى خيبر[١] والاتباع لهم وقد نهاهم عن الخروج معه[٢] أبدا يريدون أن يبدلوا ذلك النهي الذي نُهُوا في سورة براءة. فيحتمل الأمرين جميعا.

كذا ذكر {الشيخ رحمه الله}. وعامة أهل التأويل على أن قوله: فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا،[٣] نزل[٤] في غزوة تبوك وأنها بعد خيبرَ فلم يكن خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر تبديلَ النهي الذي نُهوا عن الخروج معه. لكن كأنه لم يثبت عنده نزول الآية في غزوة تبوك أو وقع الخطأ من الذين تلقنوا[٥] منه وكتبوه. *والله أعلم*.[٦]

وقوله عز وجل: **قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل**، يحتمل قوله: **كذلكم قال الله من قبل**، هي البشارة التي ذكرنا لمن شهد الحديبية، قال: إن "مغانم خَيْبَرَ" لمن شهد الحديبية وأما من لم يشهد فلا. ويحتمل قوله: **من قبل**، ما ذكر في سورة براءة: فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا.[٧] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فسيقولون بل تَحْسُدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا**. كانوا يقيسون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم، لأنهم إذا أصابوا شيئا، أعني المنافقين، كانوا يحسدون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا أن لا يكون[٨] لهم[٩] في ذلك نصيب[١٠] ولا حظ حسدا منهم لهم. فلما منعهم المؤمنون عن الخروج إلى خيبر وقالوا: إن الله نهاكم أن تخرجوا معنا وقد بُشِّروا بالفتح، قالوا عند ذلك: بل تحسدوننا في إصابة تلك الغنائم، لم يَنْهَنا الله تعالى عن الخروج معكم. قاسوا[١١] المؤمنين بأنفسهم. **بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا**،

---

[١] م: إلى الخيبر.

[٢] ر م: معهم؛ ن – معه.

[٣] سورة التوبة، ٨٣/٩.

[٤] ر: أنزل.

[٥] ن: يلقنوا.

[٦] يبدو أن هذه القطعة ليست من إملاء الإمام رحمه الله، بل هي نقلت من الناسخين الذين اهتموا *بتأويلات القرآن* ومعانيها.

[٧] سورة التوبة، ٨٣/٩.

[٨] ر م: أن لا يكونوا.

[٩] ن + شيء.

[١٠] ن – نصيب.

[١١] ن: قالوا.

الفقه[1] هو الاستدلال بما عرفوه[2] وشهدوه على الذي لم يعلموه وغاب عنهم، يخبر أن هؤلاء لا يعرفون الاستدلال؛ وقال بعضهم: الفقه[3] هو معرفة الشيء بنظيره الدال على غيره. ***والله أعلم.***

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١٦]

وقوله عز وجل: **قل للمخلفين من الأعراب**، وهم الذين تخلفوا عن الحديبية، **ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد**، على قول ابن عباس رضي الله عنه ومقاتل، وهؤلاء هم بنو[4] حنيفة وفيهم مُسَيْلِمة الحنفي الكذّاب اسْتُنْفِرت[5] إليهم الأعراب بعد نبي الله صلى الله عليه وسلم فدعا هم[6] أبو بكر الصديق إلى قتالهم.[7] وقال الحسن: هم أهل فارس والروم، وقال قتادة وغيره: دُعوا إلى قتال هَوازنَ وثقيف يومَ حُنَيْن. ويروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: دُعوا يوم حنين إلى هوازن وثقيف فمنهم من أحسن الإجابة ورغب في الجهاد ومنهم من أبي.[8] لكن ما قال قتادة غير محتمل، لأن قتال هوازن وثقيف يوم حنين كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو تولّى ذلك. وقال في آية أخرى: فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا،[9] الآية، فلا يحتمل أن يُدْعَوْا إلى قتال هؤلاء وهو تولى قتالهم؛ وقد قال الله[10] تعالى خبرا عنه: وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا، فإذا[11] لم يحتمل هذا رجع التأويل إلى ما قال ابن عباس ومقاتل رضي الله عنهما: إنهم إنما دُعوا إلى قتال أهل اليمامة، وهم بنو حنيفة، دعاهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه. لكن لو كان ما قال أهل التأويل: إن قوله تعالى: فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا،[12] نزل في غزوة تبوك وهي بعد يوم حنين فيكون ما قاله قتادة محتملا. ***والله أعلم.***

---

[1] ر: القصة.
[2] ر م: عرفوا.
[3] ر: القصة.
[4] ن: بنوا.
[5] ر ث م: استقرت.
[6] ن – فدعاهم.
[7] *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٣/٢٥٠.
[8] *تفسير الطبري*، ٢٦/١٠٨.
[9] سورة التوبة، ٩/٨٣.
[10] ن – الله.
[11] ن: فإذ.
[12] سورة التوبة، ٩/٨٣.

أو أن يكون قوله: وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا، في قوم خاص وهو ما قال: اِسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ،[١] أي أهل الغناء والثروة.[٢] إنما قال ذلك لأولي[٣] الطول الذين استأذنوه القعود مع القاعدين. *والله أعلم*. ويحتمل قوله تعالى: **ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد**، في أهل / فارس والروم [٧٣٦و] على ما قال الحسن، وذلك إنما فتح في زمن عمر رضي الله عنه. وقوله عز وجل: **تُقاتلونهم أو يُسلمون**، ومن قرأها:[٤] "تقاتلونهم[٥] أو يسلموا" بالألف، فيكون تأويله: تقاتلونهم حتى يسلموا.[٦]

وقوله تعالى: **فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا**، أي إن تطيعوا فيما دُعِيتم إلى الجهاد يؤتكم الله أجرا حسنا.[٧] ذكر أنه يؤتهم أجرا[٨] حسنا لأن توبتهم تكون[٩] فيما كان كفرهم، وكان نفاقهم إنما ظهر[١٠] بتخلفهم عن الجهاد، فعلى ذلك يكون توبتهم في تحقيق الجهاد. وقوله: **وإن تتولوا**، فيما دعيتم إليه **كما توليتم**، عن الحديبية وغيره **يعذّبكم عذابا أليما**.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١٧]

ثم عذر أهل العذر منهم بقوله تعالى: **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج**، كما عذر[١١] أهل العذر من المؤمنين بقوله: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ،[١٢] الآية. وقوله عز وجل: **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما**، لأنهم إذا تولوا عادوا إلى ما كانوا.

---

[١] ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمِنوا بالله وجاهِدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطَّول منهم وقالوا ذَرْنا نكنْ مع القاعدين﴾ (سورة التوبة، ٨٦/٩).

[٢] ر: والثرو.

[٣] ث: لأن.

[٤] ن: ومن قرأ.

[٥] جميع النسخ: يقاتلونهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٢ظ.

[٦] نسبه القرطبي إلى أبي. *تفسير الطبري*، ١٠٩/٢٦؛ و*الجامع لأحكام القرآن* للقرطبي، ٢٧٣/١٦.

[٧] ن – أي إن تطيعوا فيما دعيتم إلى الجهاد يؤتكم الله أجرا حسنا.

[٨] ر: أجر.

[٩] ن: يكون.

[١٠] ث: يظهر.

[١١] جميع النسخ: كما عجز. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٢ظ.

[١٢] سورة التوبة، ٩١/٩.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[١٨] ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[١٩]

وقوله[١] عز وجل: **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**، يحتمل قوله:[٢] **لقد رضي الله عن المؤمنين**،[٣] لِما عزموا من الوفاء على ما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والصدقِ لذلك والتحقيق لما عهدوا من الوفاء، لذلك أخبر الله أن قد رضي[٤] عنهم لذلك. فنحن نستدل به على صدق[٥] ذلك وتحقيقه وإن لم يخبرنا الله تعالى أنهم قد عزموا على ذلك، فيجوز لنا أن نشهد أنهم قد عزموا على الوفاء لذلك والصدق له. وقد يكون من الاستدلال ما تجوز[٦] الشهادة له بالحق والصدق إذا[٧] كان في الدلالة مثل ما ذكرنا. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فعلم ما في قلوبهم**، هذا يحتمل وجوها. أحدها ما ذكرنا [أنه] عَلِم[٨] ما في قلوبهم من العزم على الوفاء والصدق لما أعطوا بأيديهم من أنفسهم.

والثاني علم[٩] ما في قلوبهم من الخوف والخشية، وذلك يتوجه وجهين. أحدهما أنهم خَشُوا أن لا يتهيأ لهم القيام بأهل مكة، لأنهم كانوا مستعدين للحرب والقتال، وهم كانوا خرجوا لقضاء المناسك وزيارة البيت، خَشُوا أن لا يقوموا لهم فلم يَفُوا ما عاهدوا. والثاني خشوا أن لا يقدروا على وفاء ما بايعوا وأعطوه، لأن في ذلك مناصبة جميع أهل الأديان والمذاهب. *والله أعلم*.

والثالث علم ما في قلوبهم من الكراهة التي يذكرها أهل التأويل؛ لكن تلك الكراهة كراهة الطبع لا كراهة الاختيار، لأنهم طمعوا الوصول إلى البيت ورجوا دخولها، فلما جرى الصلح بينهم على أن لا يدخلوا[١٠] عامَهم ذلك وينصرفوا[١١] فاشتد ذلك عليهم فكرهوا[١٢] ذلك

---

[١] ر – وقوله.
[٢] ث – قوله.
[٣] ن – إذ يبايعونك تحت الشجرة يحتمل قوله لقد رضي الله عن المؤمنين.
[٤] ر ث م + الله.
[٥] ر م: على الصدق.
[٦] ر م: ما يكون؛ ن ث: ما يجوز. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٤٢ظ.
[٧] ث: وان.
[٨] ن: على.
[٩] ر م: على؛ ن – علم.
[١٠] ر ث م: لا تدخلوا.
[١١] ر ث م: فانصرفوا.
[١٢] ن: وكرهوا.

لكن كراهة الطبع لا كراهةَ الاختيار. وقد يكره طبع الإنسان شيئا والخيارُ غيره، كقوله عز وجل: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا،[١] وكقول يوسفَ: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ،[٢] محبة الاختيار لا محبة الطبع بل الطبع إلى ما يدعونه أميل من السجن.

وقوله عز وجل: **فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا**، أي أنزل عليهم ما تسكن[٣] به قلوبهم لما علم تحقيق الوفاء لَمّا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصِدْق ما أعطوا من أنفسهم. **وأثابهم** مكان ما كانوا يرجون ويطمعون من دخول مكة وما كرهت أنفسهم من الرجوع، **فتحا قريبا**[٤] وهو[٥] فتح مكة أو فتح خيبر. ***والله أعلم***.

ثم قوله[٦] تعالى: **وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها**، اختلف فيه. منهم من صرف الفتح القريب المذكور في الآية إلى فتح خيبر وإلى مغانم خيبر حين بُشِّروا بالحديبية بفتح خيبر وجَعْلِ المغانم لهم مكان ما مُنعوا من دخول مكة وحِيلَ بينهم وبين ما قصدوا، أو في الطريق بعد مُنْصَرَفِهم من الحديبية على ما ذكر في[٧] القصة. ***والله أعلم***. ومنهم من صرف الفتح إلى مكة، لأنه ذكر في القصة أنهم بشروا في الطريق بعد انصرافهم[٨] من الحديبية بفتح مكة، ويكون قوله: **وأثابهم**، على هذا التأويل بمعنى: ويثيبهم، وذلك جائز في اللغة فَعَل بمعنى يَفْعَل، كقوله عز وجل: وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ،[٩] كذا، بمعنى[١٠] يقول له.

[وجائز أن يكون قوله: **وأثابهم فتحا قريبا**، هو فتح الروم وفارسَ، لأنه ذكر أنهم بُشروا يوم الحديبية بفتح الروم وفارس وفيه نزل قوله: وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ.[١١] ***والله أعلم***].[١٢]

---

[١] سورة النساء، ٤/١٩.
[٢] سورة يوسف، ١٢/٣٣.
[٣] جميع النسخ: ما يسكن.
[٤] ن + ومغانم كثيرة يأخذونها.
[٥] ر: هو.
[٦] ن: وقوله.
[٧] ن + بعض.
[٨] ر: انصرفهم.
[٩] ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ (سورة المائدة، ٥/١١٦).
[١٠] ر ث م: يعني.
[١١] سورة الروم، ٣٠/٤-٥.
[١٢] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٣و.

﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[٢٠]

وقوله تعالى: **مغانم كثيرة تأخذونها**،[١] على هذا ينصرف إلى غيره من المغانم لأنه لم يكن بمكة غنائم. ***والله أعلم***. ومنهم من قال: وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا،[٢] الفتوح كلها التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته، وكذلك قوله: وَمَغَانِمَ *[كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا،[٤] وكذلك قوله: **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها**. وقوله: **فعجّل لكم هذه**، على هذا التأويل، أي عجل لكم هذه الفتوح والمغانم في الدنيا مع ما يثيبكم في الآخرة ثوابا عظيما. ***والله أعلم***. ومنهم من قال: **فعجل لكم هذه**، أي غنائم خيبر. ثم قوله: **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** بعد ذلك إلى يوم القيامة. ***والله أعلم***.

وقوله تعالى: **وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين**، يحتمل هذا وجوها. أحدها ما كف أيدي أهل مكة عنهم عام الحديبية، وهم كانوا مستعدّين للحرب والقتال، والمؤمنون لم يكونوا استعدّوا للحرب ولم يكن معهم سلاح وإنما خرجوا للحج وزيارة البيت، فمع ما كانوا كذلك ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم، أي قلوب أهل مكة، حتى صالحوهم، وكان ذلك آية للمؤمنين. وقال بعضهم: أي كف أيدي أهل غَطَفَانَ وأَسَدٍ منهم، لأن غطفان وأسدا كانوا مع أهل خيبرَ وظاهَروهم على ذلك، وكانوا حُلَفاء لأهل خيبرَ، فلما رأوا ذلك منه سألوه الصلح فصالحوه على أن يخرجوا عنه فلا يقاتلوه ويَدَعُوه وأهل خيبر ففعل ذلك فخرجوا عنه فلم يقاتلوه، فذلك قوله: **وكف أيدي الناس عنكم**، فلم يقاتلوه مع أنهم حلفاء أهل خيبر.

وقوله: **ولتكون آية للمؤمنين**، يقول: هزيمةً من غير قتال. ويقال: فتح خيبر آية لهم، أي حجة لهم على الكفرة كلهم، ويقال: **آيةً للمؤمنين** فيزدادون بالإسلام تصديقا وقوة من الله، كقوله: وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا،[٥] بمحمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من القرآن. ***والله أعلم***.

---

[١] جميع النسخ: يأخذونها.

[٢] الآية ١٨ من هذه السورة.

* من هنا إلى آخر تأويل الآية ٢٢ لا توجد في النسخ. وقد نقلت من *الشرح*، ورقة ١٤٣و-١٤٣ظ.

[٤] الآية السابقة.

[٥] سورة المدثر، ٣١/٧٤.

وجائز أن يكون قوله: **وكف أيدي الناس عنكم**، هو إياسَ أولئك الكفرة عن عود أهل الإسلام والإيمان في دينهم وانقطاع طمعهم عن رجوعهم إليهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾،[١] هذا يحتمل ما ذكر من كف أيدي الناس عنهم. *والله أعلم*.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[٢١]

وقوله تعالى: **وأخرى لم تقدروا عليها**، قيل: لم تملكوها، على التأويل الذي ذكرنا في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾،[٢] أن ذلك غنائم خيبر، فيكون تأويل قوله: **وأخرى لم تقدروا عليها** غير ذلك من الغنائم التي لم يغتنموها، وعد أنهم سيغتنمون بعد ذلك ويجعلها لهم. وجائز أن يكون قوله: **وأخرى لم تقدروا عليها**، قرًى سوى قرية خيبر التي فتحوها. يقول: **وأخرى** من القرى، **لم تقدروا عليها**، أي لم يفتحوها، **قد أحاط الله بها**، أي قد جعلها لكم بعد إذ لم تقدروا عليها. وقد أخبر أنه قد أحاط بها وجعلها لهم ليعلم أن القدرة إنما يعطيهم[٣] حين وقوع الفعل منهم ووقتِه لا يتقدم عنه. **وكان الله على كل شيء قديرا**.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[٢٢]

وقوله تعالى: **ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار**، يحتمل قوله: **ولو قاتلكم الذين كفروا** أي أهل مكة، **لولوا الأدبار**، منهزمين مع كثرتهم وقوتهم وعُدّتهم وقلة عددكم وضعف أحوالكم لتكون آية للمؤمنين على أحد التأويلات الثلاثة التي ذكرنا. *والله أعلم*. ويحتمل قوله: **ولو قاتلكم الذين كفروا**، حلفاء أهل خيبر أسدا وغَطَفَانَ ومن ذكروا،[٤] أي لو قاتلكم لولوا الأدبار هاربين منهزمين، **ثم لا يجدون وليا**، في دفع ذلك عنهم، **ولا نصيرا**، ينصرهم ويمنع ذلك عنهم].[٥]

وجائز أن يكون الكفرة جملة،[٦] أي لو قاتلوكم لولّوا الأدبار. *والله أعلم*.

---

[١] سورة المائدة، ٥/٣.

[٢] الآية السابقة.

[٣] أي إنما يعطيها لهم.

[٤] أي ومن ذكرهم أهل التفسير في إيضاح هذه الآيات.

[٥] تم المتن هنا المنقول من *الشرح*، ورقة ١٤٣و - ١٤٣ظ.

[٦] ث: حمله.

﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾[٢٣]

وقوله عز وجل: **سنة الله التي قد خلت من قبل**، ما سن في كل أمة من هلاك؛ لم يجعل عين[١] ذلك ومثل ذلك[٢] الهلاك في غيرها من الأمم، نحو ما جعل هلاك قوم نوح الغَرَق، وكذلك قوم فرعون، وكذلك جعل هلاك عاد بريح صرصر وثمودَ بالطاغِيَة، جعل الله تعالى هلاك كل أمة بنوع لم يجعل ذلك لغيرها، يقول: لم يكن لذلك تبديل إلى غيره. وكذلك [٧٣٦ظ] ما جعل لكل أمة من هلاك لم يبدل ذلك ولم يجعل / ذلك في غيره. وجائز أن يكون قوله: **سنة الله التي قد خلت من قبل**، أن جعل عاقبة الأمر للمؤمنين. وقوله عز وجل: **ولن تجد لسنة الله تبديلا**، في أمتك، ولكن جعل عاقبة الأمر لهم كما جعل عاقبة الأمر في سائر الأمم للمؤمنين.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٢٤]

وقوله عز وجل: **وهو الذي كف أيديهم عنكم**، مع كثرة أولئك وقوتهم وتأهُّبهم للقتال وضعف هؤلاء وقلة عددهم، لأن أولئك كانوا خرجوا للقتال والحرب مستعدين لذلك متأهبين، وهؤلاء كانوا[٣] خرجوا لقضاء المناسك وزيارة البيت. فكفَّ أيديَ أولئك مع عُدتهم وقوتهم وكثرتهم عن هؤلاء مع ضعفهم وقلة عددهم حتى أظفرهم بأولئك؛ بما ذكر في القصة أن المسلمين كانوا اشتغلوا بالترامي بالنبل والحجارة حتى هزموهم وأدخلوهم بطن مكة على ما ذُكر. ثم إذا[٤] أظفرهم بهم كفَّ أيدي هؤلاء عنهم ولم يُتم[٥] لهم الظفر بهم ليعلم هؤلاء أن التدبير في الأمر إلى الله تعالى دونهم، وله السلطان على الخلق جميعا لا سلطانَ لأحد[٦] في سلطانه. ***ولا قوة إلا بالله***. وأما ما ذَكر من الامتنان هو ما ذكر من كف أيدي أولئك عن هؤلاء عند شدة خوفهم منهم وفزعهم لما[٧] ذكرنا من قوة أولئك وكثرتهم[٨]

[١] ر ث م: عن.
[٢] ر ث م - ومثل ذلك.
[٣] م - كانوا.
[٤] ر م - إذا.
[٥] ر ث م: ويتم.
[٦] ر: الأحد.
[٧] ر ث م: بما.
[٨] ر م: كثرتهم.

وضعف هؤلاء وقلة عددهم حتى أظفرهم؛ يذكر[١] منته عليهم ليستأدي[٢] بذلك[٣] شكره ويكفَّ أيديَ هؤلاء عنهم.

فإن قيل: أمّا[٤] [في][٥] كف أيدي أولئك عن هؤلاء المنة ظاهرة، ولكنْ أيّةُ منةٍ تكون[٦] في كف أيدي المؤمنين عن أولئك الكفرة؟

فيقال: جائز أن يكون المنة في كف أيدي المؤمنين عن أولئك الكفرة ليستأدي[٧] منهم شكره بذلك، وهو الإسلام، ولله تعالى على جميع خلقه منة يستأدي منهم بذلك شكرا[٨] على الكافرين والمسلمين جميعا. ويحتمل أن يكون المنة في كف أيدي المؤمنين عن أولئك على المؤمنين أيضا هو ما ذكر على إثره: وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ،[٩] أنه لو لم يَكُفَّ أيديَ المؤمنين عنهم حتى يُتم لهم الظفر بهم فدخلوا مكة -وهنالك مؤمنون- لَأَصابهم ما ذكر من المعرة وغيره، فكان في كف أيدي المؤمنين عن أولئك منة عظيمةٌ عليهم لما بينا مِن قبلُ مَن فيها[١٠] من المؤمنين من غير علم منهم.[١١] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ببطن مكة**، وهم لم يكونوا في بطن مكة إنما كانوا بالحديبية، وبينها وبين مكة أميال، لكن يخرج على وجهين. أحدهما أظفرهم بهم وقهرهم وهزمهم حتى أدخلهم بطن مكة على ما ذُكر أنهم هزموهم حتى أدخلوهم في بيوتات مكة. والثاني **ببطن مكة**، أي بقرب مكة. وجائز أن يُكنِيَ **ببطن مكة**، أي قربها، وقال بعضهم: **ببطن مكة**، أي[١٢] الحرم، [والحرم] كله مكة، والوجه فيه ما ذكرنا.[١٣] *والله أعلم*.

---

[١] ر ن م: بذكر.
[٢] ن: يستأدي.
[٣] ر ث م - بذلك.
[٤] ر م: ما.
[٥] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٣ظ.
[٦] جميع النسخ: يكون.
[٧] ن: يستأدي.
[٨] ر م ليستأدي منهم شكرا؛ ث: يستأدي منهم شكرا.
[٩] الآية التالية.
[١٠] ن: عظيمة لما بينا من قبل من فيهم؛ ث: ث: فيهم.
[١١] ث م + منهم.
[١٢] ر + الحدم و.
[١٣] ن ث - والثاني ببطن مكة أي بقرب مكة وجائز أن يكني ببطن مكة أي قربها وقال بعضهم ببطن مكة أي الحرم كله مكة والوجه فيه ما ذكرنا.

وقوله عز وجل: **وكان الله بما تعملون بصيرا**، لم يزل الله تعالى عالما بأعمالهم بصيرا. وفيه دلالة خلق أفعالهم لأنه ذكر أنه كف أيدي هؤلاء عن أولئك وأيديَ أولئك عن هؤلاء، ثم قال: هو عالم بما تعملون بصير[١] ليعلم أن له في فعلهم صنعا. *والله أعلم*.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢٥]

وقوله عز وجل: **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام**، أي صدوهم عما قصدوا، وهو الطواف بالبيت والزيارة له وذلك في المسجد الحرام. ذكر صدهم عن المسجد الحرام لما كان الذي قصدوه هو في المسجد الحرام فإذا صدوهم عن المسجد الحرام[٢] صدوهم عما فيه. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **والهَدْيَ معكوفا أن يبلغ مَحِلَّه**، وقوله: **معكوفا**، أي محبوسا، والعكوف هو الحبس ومنه سمي العاكف والمعتكف. ثم قوله: **والهديَ معكوفا أن يبلغ محله**، مَحِلُّ دمِ هديِ المتعة هو مكةُ أو مِنى،[٣] فأما الحرم نفسه فليس هو محله. فكأنه قال: وصدوا الهدي عن أن يبلغ محل الذي جعل لهدي المتعة وهو منى[٤] أو مكة، لأنه ذكر في الخبر أنه كان صلى الله عليه وسلم معتمرا، وذكر أنه كان متمتعا. وفيه أن دم المتعة إن[٥] مُنع عن محله سقط وخرج عن حكم[٦] المتعة ويعود إلى ملكه، وله أن يصرفه إلى ما شاء. ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم نحر تلك البُدْنَ التي ساقها عن الإحصار في الحرم.[٧] دل أن هدي المتعة إذا منع عن المحِلّ سقط ويخرج عن حكم المتعة. وفيه أن دم الإحصار لا يجوز إراقته إلا في الحرم إذ الحديبية[٨] يجمع الحرم والحل جميعا عندنا، فإنما كان نحرها في الحرم. *والله أعلم*.

---

[١] ر م: بصيرا.
[٢] ر ث م – لما كان الذي قصدوه هو في المسجد الحرام فإذا صدوهم عن المسجد الحرام.
[٣] ر م: أو منا.
[٤] ر ن م: منا.
[٥] م: إذا.
[٦] ن: عن حد.
[٧] تفسير *الطبري*، ١٢٤/٢٦.
[٨] ر: أن الحديبية.

وقوله عز وجل: **ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم**، أي تقتلوهم وتُهلكوهم، **فتصيبَكم منهم مَعَرَةٌ بغير علم**، أي لو لا ما فيها أعني في مكة من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لأتم لكم الظفر بهم ودخلتم عليهم، لكن[1] مَنَعَكم عن دخولكم مكة لما ذكر.

ثم اختلف في قوله تعالى: **فتُصيبَكم منهم مَعَرَةٌ بغير علم**، قال بعضهم: لزمتكم[2] الدية بقتلهم، وكذا روى عن محمد بن إسحاق.[3] وقال بعضهم: الكفارة، وقال بعضهم: الإثم والذنب، أي يصيبكم منهم الإثم بقتلكم إياهم؛ وهذا لا يحتمل لأنهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون لا يلحقهم الإثم والذنب لأن الله تعالى وضع الإثم عنا فيما لا نعلمه و لم يضع طريق العلم به، قال الله تعالى: وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ.[4]

وعندنا يخرج على وجهين. أحدهما / أي فيصيبكم[5] من الكفرة وأهل النفاق ما يسوءكم [٧٣٧و] بقتلكم إياهم من اللائمة والتعيير وغير ذلك من القيل والقال، يقولون: إنهم قتلوا أصحابهم ومن كان على دينهم من أهل الإسلام، فيجدون بذلك سبيلا إلى ما ذكرنا فيسوءكم ذلك. *والله أعلم*. والثاني يصيبكم الأسف والحزن والندامة الدائمة[6] بقتلكم[7] أهل الإيمان وأهل الإسلام إذا علمتم أنكم قتلتم أصحابكم وأهل دينكم. *والله أعلم*.

ثم المخالف لنا تعلق بهذه الآية في مسألتين. إحداهما فيمن أسلم ولم يهاجر إلينا أنه تجب[8] الدية في قتله لقوله تعالى: **فتصيبكم منهم مَعَرَةٌ بغير علم**، وهي غُرم[9] الدية. والثانية هل يباح الرمي إلى حصون المشركين إذا كان فيها أُسَارَى المسلمين وأطفالُ المسلمين،

---

[1] ر – الظفر بهم ودخلتم عليهم لكن.

[2] ر ث م: لزمكم.

[3] محمد بن إسحاق بن يسار، كنيته أبو عبد الله، المطَّلِبي القرشي مولاهم المدني، صاحب السيرة النبوية. كان علامة حافظًا أخباريًا، رأى أنس بن مالك وروى عن كثير من التابعين، وروى عنه الكثير. وهو من دون العلم. توفي سنة ١٥١هـ/٧٦٨م. انظر: *الطبقات الكبرى* لابن سعد، ٥٥٢/٧؛ وسير *أعلام النبلاء* للذهبي، ٣٣/٧-٥٥؛ و*تهذيب التهذيب* لابن حجر، ٢٦/٥-٣٠.

[4] سورة الأحزاب، ٥/٣٣.

[5] ن: فتصيبكم.

[6] ث– الدائمة؛ ن ث + بقتلهم.

[7] ر: بقتلهم.

[8] ر ث م: يجب.

[9] ر م: عزم.

أو إحراق[1] الحصون أو الرمي إلى الكفار الذين تَتَرَّسُوا[2] بأطفال المسلمين؟ قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وزفر والثوري: لا بأس[3] برمي[4] حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى المسلمين وأطفالهم، ولا بأس بأن يحرقوا الحصن ويقصدوا به المشركين دون المسلمين، وكذلك إحراق سفينة الكفار إذا كان فيها أسارى المسلمين. وقال مالك: لا تحرق[5] سفينة الكفار إذا كان فيها أسارى المسلمين.[6] وقال الأوزاعي: إذا تترس[7] الكفار بأطفال المسلمين لم يُرْمَوا ولا يُحرق الحصن، ولكن لا بأس بأن يرمي الحصن بالمنجنيق ونحو ذلك. وقال الشافعي: لا بأس بأن يرمي الحصن وفيه أسارى وأطفال المسلمين و لم يَتَتَرَّسُوا[8] بهم، فله قولان.

*[واحتج هؤلاء بقوله: **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات**، وبقوله: **لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما**. أخبر أنه إنما منع النبي والمؤمنين عنهم لما كان فيهم من المؤمنين. **ولو تزيلوا**، أي لو تميّز الكفار من المسلمين لعذَّبهم، دل أنه لا يباح ذلك. لكنا نقول: إن أهل السير نقلوا أن النبي عليه السلام حاصر أهل طائف ورماهم بالْمَنْجَنِيق مع نهيه عن قتل النساء والولدان، وقد عَلِم أنه يصيبهم، دل أن كون المسلمين فيهم لا يمنع من الرمي إذا لم يقصدوا المسلمين. وروي عن النبي عليه السلام أنه سئل عن أهل ديار المشركين يُبَيَّتُون فيصاب من ذراريهم ونسائهم. فقال عليه السلام: «هم منهم».[10] وعن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أنهم كانوا يأمرون السرايا بأنهم إذا سمعوا الأذان أمسكوا عنهم وإن لم يسمعوا الأذان أغاروا عليهم، ولا يخلو من أن يصيبوا ذَرارِيّهم ونساءهم، وكذلك لا يخلو من أن يكون فيهم من المسلمين من التجار وغيرهم. دل أنه لا بأس بذلك. فأما الآية فلا حجة لهم فيها لأن فيها بيانَ أن المندوب هو الكف عن ذلك، أمّا ليس فيها حظر الإقدام.

---

[1] ر م: وإحراق.

[2] ر ن م: يترسوا. أي توَقَّوْا بأطفال المسلمين كأنهم تُرُسٌ واختفوا بهم.

[3] ن – لا بأس.

[4] ن: يرمى.

[5] ر ث م: لا يحرق.

[6] ن ث – وقال مالك لا تحرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسارى المسلمين؛ صح هـ.

[7] ن: ترس؛ ر م: يترس.

[8] ر م: و لم ترسوا.

[9] من هذه الفقرة إلى آخر أول فقرة من تأويل الآية التالية لا توجد في النسخ، وقد نقلت من *الشرح*، ورقة ١٤٤ظ؛ ومن نسخة حميدية، ورقة ٧١٦ظ.

[10] صحيح البخاري، الجهاد والسير ١٤٦؛ صحيح مسلم الجهاد والسير ٢٦.

ولا يقال إن ظاهر الآية على التحريم ألا ترى أنه قال: **لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم مَعَرَّة بغير علم**، لولا الحظر وإلا لما أصابتهم المعرة، لأن الناس قد اختلفوا في تأويلها والصحيح ما ذكرنا من الوجهين من تعيير الكفار أو لحوق الحزن والغم بسبب إصابة المسلمين، وذلك يكون بترك الندب. ويحتمل أن يكون ذلك كان خاصا في أهل مكة لحرمة الحرم، ألا ترى أن المستحق للقتل إذا التجأ إليها لم يُقتل عندنا، وكذلك الكافر الحربي إذا دخله ملتجئا لحرمة الحرم. ***والله أعلم***.

وقوله تعالى: **ليدخل الله في رحمته من يشاء**، كأنه كفَّ أيديهم عنكم ليدخل الله في رحمته من يشاء. جائز أن يكون هذا أيضا جهة الامتنان في كف أيدي المؤمنين عنهم، أي كفَّ أيديكم عنهم ليدخل الله في دينه من يشاء. ***والله أعلم***.

وقوله تعالى: **لو تزيلوا**، أي لو تميّز أولئك الكفرة عن المؤمنين، **لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما**، بقتلكم إياهم، أي سلَّطناكم عليهم لو تميز أولئك عنهم. ***والله أعلم***.

قال أبو عبيدة: **فتصيبكم منهم معرة**، أي جناية كجناية العَرّ وهو الجَرَب.[١] وقال أبو عَوْسَجَة: المعرة الشر، والمعرّات الجميع؛ يقال: عرَّني فلان، أي أصابني بشرّ والعَرُّ في الأصل الجَرَب، ويقال رجل معرور أي جَرِبٌ؛ والتَّزَيُّل التفرق. وقال القُتَبِي: **تزيلوا**، أي تميَّزوا.[٢] وقال أبو عَوْسَجَة:[٣] **أَنْ تطئوهم**، هذا الوطء ليس من الوطء بالرِّجلين ولكن أن تصيبوهم بالشر.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٢٦]

وقوله تعالى: **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية**، لسنا نعلم ما تلك الحمية التي جعلوها في قلوبهم، لكن أخبر الله تعالى أنها **حمية الجاهلية**، فلا نفسرها ولا نشير أنها كذا، وهم قد عرفوا ما تلك الحمية حتى صدوا[٤] رسول الله وأصحابه عن دخولهم مكة ومنعوهم عما قصدوا. ثم يخرج على وجهين. أحدهما أن من عادتهم أن واحدا منهم إذا جنى جناية أو قتل قتيلا كانوا يأخذون القاتل والجاني والمتصلين بالقاتل والجاني بَعُدوا أو قَرُبوا.

[١] *مجاز القرآن* لأبي عبيدة، ٢/٢١٧.
[٢] *تأويل مشكل القرآن* لابن قتيبة، ٣٦٨.
[٣] «هو أبو عوسجة توبة بن قتيبة الهُجَيمي النحويّ الأعرابي، دخل سمرقند وأقام بها، وكان يذهب مذهب أبي عبيدة معمر بن المثنى في باب الأدب، كان أستاذ الشيخ الإمام أبي منصور الماتُريدي في الأدب، روى عنه سَيحان بن الحسين ابن حازم المؤدب من محلة أشتابديزة» (*القند في ذكر علماء سمرقند* لأحمد النسفي، ١١٥).
[٤] [ح: صرفوا].

فجائز أ ن يكونوا منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه[1] وصدوهم عن دخول مكة لما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من بعض أصحابه قتل أحد منهم أو جناية على أحد أو قد كان[2] بينهم وبين أولئك قتال وحرب. فيحتمل ما ذكر من الحمية التي أحدثوها وجعلوها[3] في قلوبهم حتى حملتهم على ذلك هو ما ذكرنا. *والله أعلم*].*

والثاني[5] من عادتهم أنهم كانوا يعبدون ما يَهوَوْن ومالت إليهم أنفسهم من الأصنام والأوثان وغيرها وينصرون من عبدوها[6] ويدفعون عنهم فيذبون عنها. فجائز أن يكون الذي حملهم على ذلك هو نصرهم أولئك الأصنام وعُبّادَها والذبُّ عنهم حميةً منهم[7] حمية الجاهلية. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**، جائز أن يكون ما ذكر من السكينة التي أخبر أنه[8] أنزلها على رسوله ومن ذكر هو شيء أنزله من السماء لطفا منه عليهم حتى سكنت بذلك[9] قلوبهم. وجائز أن يكون لا على حقيقة إنزال شيء من مكان إلى مكان ولكن أنشأ في قلوبهم ما يَسكن به قلوبهم، كقوله تعالى: وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ،[10] أي أنشأ لكم من الأنعام ما ذكر وخلقها لهم، ليس أن أنزلها عليهم من مكان إلى مكان ولكن على الإنشاء والخلق، فعلى ذلك الأول. *والله أعلم*. ثم السكينة تحتمل[11] أسبابا لديها[12] تسكن[13] قلوبهم وأنفسهم، والأسباب تختلف، وتحتمل[14] شيئا آخر سوى ذلك وهو اللطف الذي جعل لهم فسكنت[15] قلوبهم بذلك اللطف. *والله أعلم*.

---

[1] [ح: وأصحابهم].
[2] [ح: إذا قد كانوا].
[3] [ل: أحدثهم وجعلوا].
[4] تم المتن هنا المنقول من *الشرح*، ورقة ١٤٤ظ؛ ومن نسخة حميدية، ورقة ٧١٧و.
[5] جميع النسخ: واحتج هؤلاء. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٧١٧و.
[6] ن ث: عبدها.
[7] ر ن م – حمية منهم.
[8] ن: أنها.
[9] ر ث م: لذلك.
[10] سورة الزمر، ٦/٣٩.
[11] جميع النسخ: يحتمل. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٧١٧و.
[12] ر م: لذيها؛ ث: لذيها.
[13] جميع النسخ: يسكن. والتصحيح من المرجع السابق.
[14] جميع النسخ: يختلف يحتمل. والتصحيح من المرجع السابق.
[15] جميع النسخ: فسكن. والتصحيح من المرجع السابق.

وقوله عز وجل: **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها**، يحتمل هذا وجهين. أحدهما **ألزمهم كلمة التقوى**[١] بها يتقون النار. ثم تحتمل[٢] **كلمة التقوى** كلمة الإخلاص وغيرها ما يقيهم النار. *والله أعلم*. ويحتمل قوله: **وألزمهم** إظهار كلمة التقوى حتى تصير[٣] ظاهرة في الخلق أبدا إلى يوم القيامة. *والله أعلم*. وقال بعضهم: **كلمة التقوى**، هي بسم الله الرحمن الرحيم، وذلك أنه لما كُتب كتاب الصلح فيما بين أهل مكة وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كُتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال ذلك الكافر:[٤] اكتب كذا، لا ندري ما الرحمن الرحيم؟ وذلك كلمة التقوى. *والله أعلم*. والوجه فيه ما ذكرنا.

وقوله: **وكانوا أحق بها وأهلَها**، أي بتلك الكلمة وكانوا أهلا لها، **وكان الله بكل شيء عليما**. وقال بعض أهل التأويل: **كلمة التقوى** هي[٥] كلمة الإخلاص، **وكانوا أحق بها وأهلها** من الأمم السالفة وأهلها.[٦] *والله أعلم*. أو كانوا أحق بها في الإظهار في الخلق والقيام بذلك، أو كانوا أحق بها في التزامها[٧] في أنفسهم. *والله أعلم*.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٢٧]

وقوله عز وجل: **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**، قال أهل التأويل: قوله: **صدق الله رسوله**، أي حقق الله رسوله الرؤيا التي أراها إياه بالحق، أي بالوفاء لذلك. ويحتمل أي صيّر النبيَّ صلى الله عليه وسلم صادقا عندهم فيما أخبرهم أنه رأى وجعله صادقا في ذلك، والأول أشبه.

وقوله عز وجل: **لتدخلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما على الأمر أن ادخلوا المسجد الحرام وإن كان في الظاهر خبرًا[٨] كرؤيا إبراهيم عليه السلام

---

[١] ر ث م – التقوى.
[٢] جميع النسخ: يحتمل. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٥و.
[٣] ر م: يصير.
[٤] ر م – الكافر.
[٥] ث – هي.
[٦] ن + وأهلها.
[٧] م: في إلزامها.
[٨] ن ث م: خبر.

حيث قال: إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ، ثم قال الله تعالى: اِفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ،[1] دل هذا[2] على أن ما رأى إبراهيم صلوات الله عليه من الذبح هو أمرٌ أمِر[3] بذلك. فإن كان التأويل هذا فيخرج الثُّنْيَا[4] المذكور فيه على إثره كأنه يقول: ادخلوا المسجد الحرام محلقين ومقصرين إن شاء الله أن تَأمَنوا في دخولكم وإذا لم تأمنوا لم يشأ أن تدخلوه. ***والله أعلم***. ويحتمل أن يكون قوله: **لتدخلن المسجد الحرام**، على الوعد فيخرج الثُّنْيَا المذكور على وجهين. أحدهما على التبرك والتيمن كما يُتبرَّك بذكر اسمه في فعلٍ يُفعَل. ***والله أعلم***. والثاني على الأمر لكل في نفسه إذا أخبر غيره أنه يدخل أن يقول: إن شاء الله، كما يؤمر بالثنيا من أخبر آخر شيئا أنه يفعله، [٧٣٧ظ] كقوله عز وجل: وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ / ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ.[5] ويحتمل أن يذكر الثنيا لأن الوعد في الظاهر وإن كان للجملة كقوله: **لتدخلن المسجد الحرام**، فجائز أن يكون المراد منه بعضا[6] منهم لا[7] الجملة لاحتمال أن يموت بعض منهم، إذ[8] لا يكون هو مرادا من الجملة،[9] فذكر الثنيا لئلا يكونَ خلفٌ في الوعد من النبي صلى الله عليه وسلم. ثم ما ذكر من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر أنه حققها[10] يحتمل ما ذكر من دخول المسجد الحرام على إثره. فإن كان ذلك فيكون قوله تعالى: **لتدخلن المسجد الحرام**، هو تفسيرًا[11] لتلك[12] الرؤيا، وجائز أن يكون الرؤيا في غير ذلك. وقوله: **لتدخلن المسجد الحرام**، ابتداء وعد وأمرٍ من الله تعالى، وكذلك ما ذكر من قوله حيث قال: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ،[13]

---

[1] ﴿فلما بلغ معه السعيَ قال يا بُنَيَّ إني أرى في المنام أني أذْبَحُك فانظرْ ماذا ترى قال يا أَبَتِ افْعَلْ ما تؤمر﴾ (سورة الصفات، ١٠٢/٣٧).

[2] ر م - هذا.

[3] ر م - أمر.

[4] الثنيا: الاستثناء، وهو قوله تعالى: ﴿إن شاء الله آمنين﴾.

[5] سورة الكهف، ٢٣/١٨-٢٤.

[6] ر ث م: بعض؛ ن - بعضا. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٤٥و.

[7] ر م: ليس.

[8] ر م: أن.

[9] ر م: والجملة؛ ث: وبالجملة.

[10] ر م: حققهما.

[11] جميع النسخ: تفسير. والتصحيح من المرجع السابق.

[12] جميع النسخ: لذلك. والتصحيح من المرجع السابق.

[13] سورة الإسراء، ٦٠/١٧.

يحتمل ما ذكر في هذه الآية **لتدخلن المسجد الحرام**، إلى آخر ما ذكر. ويحتمل غير هذا أيضا وقد أخبر أنه حققها وصدقها. ***والله أعلم***.

ثم قوله عز وجل: **محلقين رءوسكم ومقصرين**، يخبر أنهم يدخلون المسجد الحرام محلقين مقصرين، ثم يخرج على وجهين. أحدهما في ابتداء الإحرام يخرج على التزين على ما يتزين[١] المحرم في ابتداء إحرامه من نحو التطيب واللباس والحلق والقصر ونحو ذلك. [والثاني] يخبر[٢] أنهم يدخلون على التزين في المسجد الحرام آمنين من الكفار، فإن كان على ذلك فهو على الثياب والطيب وغير ذلك. وذكر أن[٣] النبي صلى الله عليه وسلم كان[٤] معتمرا فسميت تلك عمرةَ القضاء، حيث مُنع في عام الحديبية وكان معتمرا فسميت[٥] تلك عمرة،[٦] وإن كان حاجا، فيكون قوله: **لتدخلن المسجد الحرام**، بعد رجوعهم من مِنًى[٧] إلى طواف الزيارة في ذلك الوقت يكونون محلقين مقصرين. ***والله أعلم***.

فإن قيل: ما الحكمة في أمره رسوله صلى الله عليه وسلم بالخروج للحج عام الحديبية على علم منه أنه لا يصل إلى مكة، وأنه يحال بينه وبين دخول مكة وقضاء النسك؟ إذ لا يحتمل[٨] ذلك إلا بأمر من الله[٩] تعالى، ليس هو كغيره من الناس أنهم يفعلون أفعالا بلا أمر، ثم يُمنعون أو يُنهون عن ذلك، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يفعل شيئا إلا عن أمر منه له بذلك.

قيل: يحتمل إنما أمر بذلك مع علم بأنهم[١٠] يُمنعون عن ذلك تعليما منه رسوله وأمته حكم الإحصار، أن من أُحصر[١١] عن الحج ومُنع عن دخول مكة لقضاء النسك ما ذا يلزمه وبم[١٢] يخرج منه؟

---

[١] ر م: تزين.
[٢] جميع النسخ: غير. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٥و.
[٣] ن: أنه كان.
[٤] ن – كان.
[٥] ر م – فسميت.
[٦] ن – فسميت تلك عمرة.
[٧] ر ن ث م: من منا.
[٨] ر م: أو لا يحتمل؛ جميع النسخ + إلى. والتصحيح من المرجع السابق.
[٩] ن: بأمر الله.
[١٠] ث: مع أنهم.
[١١] ر م: حصر.
[١٢] ر: وثم.

ولله تعالى أن يعلم خلقه أحكام شريعته مرة بأمر يأمرهم بذلك أو بخبر يخبرهم، ومرة بفعل[1] النبي صلى الله عليه وسلم يمتحنهم بما شاء، له الحكم والأمر في الخلق. ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **لا تخافون**، أي تدخلون مكة آمنين، لا تخافون عدوكم ولا منعهم إياكم.

وقوله عز وجل: **فعلم ما لم تعلموا**، هذا يخرج على وجوه. أحدها أي علم ما وعد لكم من فتح خيبر وغنائمه ما لم تعلموا، ويحتمل أي علم ما أرى رسوله صلى الله عليه وسلم من الرؤيا وتحقيقها ما لم تعلموا، ويحتمل أي علم في رجوعكم عن الحديبية أشياء لم تعلموها أنتم من إظهار ما أظهر من نفاق[2] أهل النفاق فيهم وأهل الاضطراب من المحققين والمصدقين وغير ذلك. ***والله أعلم***. وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: **فعلم ما لم تعلموا** يقول: إن ذلك الدخول إلى سنة ولم تعلموا أنتم.[3] ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **فجعل من دون ذلك فتحا قريبا**، قال بعضهم: جعل من قبل أن يدخلوا مكة **فتحا قريبا**، أي عاجلا فتح خيبر.[4] ***والله أعلم***. وقول أهل التأويل: إنه اشتد على الناس رجوعهم من الحديبية وصدّ المشركين[5] عما قصدوا بعد ما أخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه رأى في المنام أنهم يدخلون، على ما وقع عندهم أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام حق كالوحي. لكن هذا لا يحتمل من المسلمين، إنما[6] يحتمل من المنافقين على ما ذكر أنهم قالوا حين نحر[7] رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية أن الرؤيا [حق] أو كلام نحوه، فدل أن[8] هذا يحتمل من المنافقين. فأما من المسلمين فلا يحتمل أن يقع في قلوبهم شيء من ذلك، لما لم يكن في الآية بيان ولا توقيت أنهم متى يدخلون، بل فيها الوعد بالدخول ليس فيها أنه متى؟ ألا ترى أن يوسف عليه السلام رأى رؤيا[9] وخرجت تلك بعد أربعين سنة أو أقل أو أكثر، فعلى ذلك لا يحتمل أن يخفى عليهم إذا لم يكن في الوعد توقيت أنه يجوز أن يتأخر وأن يتقدم. ***والله أعلم***.

---

[1] ن: يفعل.
[2] م: انفاق.
[3] روي ذلك عن الكلبي، انظر: *بحر العلوم* للسمرقندي، ٣/٢٥٨؛ *والنكت والعيون* للماوردي، ٥/٣٢٢.
[4] ن + وقال بعضهم فجعل من دون التحريم بالحديبية والحل فتحا قريبا وهو فتح خيبر.
[5] ر م: وصدهم المشركون.
[6] ر م: أما.
[7] ر ث م: يخبر.
[8] ر ن م - أن.
[9] ن - رؤيا.

ثم فيما ذكرنا من أمر الحديبية وصد المشركين إياهم عن دخول مكة والحيلولة بينهم وبين ما قصدوا أنه لا يحتمل أن يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لقصد الحج وزيارة البيت مع أصحابه بلا أمر منه بذلك لما ذكرنا. ثم إن ثبت له الأمر بذلك على علم من الله تعالى أنه لا يصل إلى تحصيل المأمور به وما قصدوا من دخول مكة زائرين وما يكون من المشركين من المنع لهم والصد عن ذلك[١] وما أرادوا[٢] تحصيل ما أمرهم بذلك فهذا دليل على أن الله تعالى قد يأمرهم ويريد غير الذي أمر به / وأنه يريد ما علم أنه يكون منهم دون[٣] الذي أمر به. [٧٣٨و]
وهو كما أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم كان حقيقة المراد بالأمر بذبح الولد ذبح الشاة والكبش، دل أن الأمر بالشيء لا يدل على أنه أراد الذي أمره به، بل يريد ما علم أنه يكون منهم من خلافه وضده. ***والله أعلم.***

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[٢٨]

وقوله عز وجل: **هو الذي أرسل رسوله بالهدى**، أي أرسله بالهدى من كل ضلال وحيرة،[٤] أو أرسله بالبيان من كل عمى وشبهة، وهو هذا القرآن الذي سماه مرة بيانا و[٥]مرة هدى ورحمة ونورا ونحو[٦] ذلك. وهو ما وصفه جل وعلا أن من تمسك به يكون له[٧] ما ذكر[٨] هدى من كل ضلالة وحيرة ونورا من كل ظلمة وبيانا من كل عمى وشبهة. ***ولا قوة إلا بالله.***
وقوله عز وجل: **ودين الحق**، جائز أن يكون الحق هو نعت الدين وهو الإسلام، وهو الدين الحق وسائر الأديان باطلة. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: **ودين الحق**، أي دين الإله الذي هو الإله الحق وهو الإله المستحق للألوهية،[٩] وغيره من الأديان دين الشيطان. ***ولا قوة إلا بالله.***

---

[١] ن + ثبت أنه أراد ما علم أنه يكون منهم من الامتناع عن مقصودهم والصد عن ذلك.
[٢] ن ث: وما أراد.
[٣] ر م – دون.
[٤] ر م: أو حيرة.
[٥] ر م – مرة بيانا و.
[٦] ث: ويحق.
[٧] جميع النسخ – له. والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٦و.
[٨] ن: أما ذكر.
[٩] جميع النسخ: الألوهية. والتصحيح من المرجع السابق.

وقوله عز وجل: **ليظهره على الدين كله**، الإظهار هو الغلبة، ثم يخرج غلبته على الدين كله على وجهين.[1] أحدهما أي غلب هذا الدين على الأديان كلها بالحجج والبراهين أنه حق وأنه من عند الله جاء، وقد كان بحمد الله كما ذكر حتى عرف أهل الأديان كلّها بالحجج والبراهين أنه حق إلا من كابر عقله وعاند الحق أو غفل عن دلائله. ***ولا قوة إلا بالله***.

والثاني يغلب على الأديان كلها، أي يغلب على أهل الأديان كلهم حتى يصيرَ أهل الإسلام ظاهرين غالبين من بين غيرهم ويتوارى جميع أهل الأديان ويختفوا. ولكن ذلك في وقت دون وقت وهو الوقت الذي ذكره بعض أهل التأويل وهو في وقت خروج عيسى عليه السلام يصير أهل الأديان كلهم أهل دين واحد وهو الإسلام. وجائز أن يكون قوله: **ليظهره على الدين كله**، أي يُظهر ما يحتاج أهل هذا الدين كله وما يحدث لهم من الحاجة على الأديان كلّها بما ضمَّن في القرآن معاني يقع الكفاية بها في الحوادث كلها. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وكفى بالله شهيدا**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما **وكفى بالله شهيدا**، بأن ما جاء به سيدنا[2] محمد صلى الله عليه وسلم إنما[3] جاء به من عند الله، فإن كان التأويل هذا فإنما يكون هذه الشهادة في الآخرة. والثاني يحتمل قوله تعالى: **وكفى بالله شهيدا** بما أنشأ له من الآيات والحجج والبراهين وجعلها آيات رسالته ونبوته، أي كفى بما أنشأ له من الآيات والحجج[4] شهادة منه على رسالته ونبوته وذلك في الدنيا. ***والله أعلم***.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢٩]

وقوله عز وجل: **محمد رسول الله**. من الناس من احتج على تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية وبغيرها من الآيات، يقول: لم يذكر محمدا صلى الله عليه وسلم في القرآن إلا وخاطبه باسم الرسالة أو النبوة،[5]

---

[1] ن + كله.
[2] ن – سيدنا.
[3] ر ث م: أي بما.
[4] ر ث م – والبراهين وجعلها آيات رسالته ونبوته أي كفى بما أنشأ له من الآيات والحجج.
[5] ر م: والنبوة.

كقوله تعالى: ياَ أَيُّهَا النَّبِيُّ،[١] و يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ،[٢] وقوله:[٣] **محمد رسول الله**، ونحو ذلك، وسائر الأنبياء عليهم السلام إنما خاطبهم بأسمائهم التي جعلت لهم خلقة دون ضم[٤] الرسالة والنبوة، كقوله: يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا، ويَالُوطُ،[٥] ويَا مُوسَى،[٦] ويَا هَارُونُ،[٧] ويَا هُودُ،[٨] ويَا صَالِحُ،[٩] جميع من ذكرهم سواه إنما ذكرهم بأسمائهم الموضوعة في أصل الخلقة، ولم يُحَلَّوا ولم يُسَمَّوا بأسماء الرسالة والنبوة، وذلك[١٠] لفضل جعل له من بين غيرهم. وكذلك يُحتجّ لتفضيل أمته وأصحابه على سائر الأمم حيث خاطب هذه الأمة[١١] بأحسن الأسماء فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا،[١٢] وقوله: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ،[١٣] وقال في سائر الأمم: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ،[١٤] ويَا بَنِي آدَمَ،[١٥] ونحو ذلك. ومما يدل على فضيلتهم قوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ،[١٦] الآية، أي كنتم خير أمة في الكتب المتقدمة بما ذكر. **والله أعلم**.

وقوله عز وجل: **والذين معه أشِدّاء على الكفار رحماء بينهم**، الآية، يحتمل[١٧] ما وصفهم ونعتهم يرجع إلى أصحابه على الاجتماع، أي الكل موصوفون بهذه الصفات[١٨] التي ذُكِر في الآية وأنها كلها فيهم، وهو كقوله تعالى في صفتهم: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ،[١٩]

---

[١] سورة الأنفال، ٨/ ٦٤، ٧٠.
[٢] سورة المائدة، ٥/٦٧.
[٣] ر ن م: وقول.
[٤] ر م: ختم.
[٥] سورة هود، ١١/٤٨، ٨١.
[٦] سورة الأعراف، ٧/١٤٤.
[٧] سورة الصافات، ٣٧/١٢٠.
[٨] سورة هود، ١١/٥٣.
[٩] سورة الأعراف، ٧/٧٧.
[١٠] جميع النسخ: ولذلك. والتصحيح من الشرح، ورقة ١٤٦و.
[١١] م: الآية.
[١٢] سورة البقرة، ٢/ ١٠٤.
[١٣] سورة النور، ٢٤/٣١.
[١٤] ر - يا بني إسرائيل. سورة البقرة، ٢/٤٠، ٤٧.
[١٥] سورة الأعراف، ٧/٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٥.
[١٦] ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران، ٣/١١٠).
[١٧] ر م - يحتمل.
[١٨] ر م: الصفاة.
[١٩] ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ (سورة المائدة، ٥/٥٤).

أي أشدّاءَ على الكفار ورحماءَ على المؤمنين، وصفهم بذلك جملة فعلى ذلك هاهنا. ويحتمل أن يكون ذلك وَصْفَ بعضهم دون بعض أو وصفَ عامّتهم فأما الكل فلا، وذلك نحو ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث[1] قال: لولا قوله تعالى: مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا،[2] ما كنا نعرف أن[3] أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا.[4] فإنما يكون ذلك وصف أمثال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ثم قد جعل الله تعالى الرحمة والرأفة نعتا للمؤمنين يتراحم بعضهم بعضا. وكذلك روي في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا»،[5] قالوا:[6] كلنا نتراحم ولده. فقال: «ليس ذلك برحمة إنما الرحمة أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ولولده»،[7] أو كلام نحوه. وروى عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمنون كلهم كرجل واحد إن اشتكى عنه تداعى[8] له سائر جسده / بالسَّهَر والحُمّى».[9] وليس فيما وصفهم بالشدة [٧٣٨ظ] على الكفار على أن ليس لهم شَفَقَةٌ عليهم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم له شفقة عظيمة عليهم حتى كادت يُهلك نفسه لذلك. قال الله تعالى: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ،[10] وقال:[11] لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ،[12] فعلى ذلك أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

---

[1] م – حيث.

[2] ﴿ولقد صدقكم الله وعدَه إذ تَحُسونَهم بإذنه حتى إذا فَشِلْتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٥٢).

[3] م – أن.

[4] قال ابن مسعود: ما كنت أظن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أحدًا يريد الدنيا، حتى قال الله ما قال. (*تفسير الطبري*، ٤/١٧٣-١٧٤).

[5] ن ر: تتراحموا. روي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لن تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على ما تحابوا عليه؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفشوا السلام بينكم تحابوا والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا» قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: «إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة» (*المستدرك على الصحيحين*، للنيسابوري ٤/١٨٥).

[6] ر م: قال.

[7] عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبّ لأخيه ما يحب لنفسه» (*صحيح البخاري*، الإيمان ٧؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان ٧١).

[8] ن: يداعي.

[9] مسند *أحمد بن حنبل*، ٤/٢٧٠؛ وصحيح *البخاري*، الأدب ٢٧؛ وصحيح *مسلم*، البر ٦٦.

[10] سورة فاطر، ٣٥/٨.

[11] ر م: قال.

[12] سورة الشعراء، ٢٦/٣.

ثم القتال الموضوع فيما بينهم رحمة في الحقيقة، وإن كان في الظاهر ليس برحمة، لأنه وُضع لِيَضْطَرَّهم ذلك إلى قبول الإسلام والتوحيد وفي قبولهم ذلك نجاتهم. وما وصفهم بالرحمة على المؤمنين ليس فيه أنهم ليسوا بأشدّاء عليهم إذا عاينوا منهم المناكير والفواحش حتى يتركوا التغيير عليهم، بل من الشفقة لهم عليهم ما يغيّرون عليهم المنكر، إذ في ذلك نجاتهم؛ وذلك لا يزيل عنهم الرحمة التي وصفهم بها، بل ذلك من الشفقة لهم والرحمة. *والله أعلم*.

ثم نعتهم وقال: **تراهم رُكَّعا سُجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود.** وقوله عز وجل: **تراهم ركعا سجدا**، يحتمل وجهين. أحدهما وصف لهم بالمداومة في إقامة الصلوات بالجماعات وأراد بالركوع والسجود[1] الصلاة على طريق الكناية. والثاني عبارة عن الخضوع لربهم والتواضع للمؤمنين. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **يبتغون فضلا من الله ورضوانا**، يحتمل قوله: **يبتغون فضلا من الله**، أي[2] الجنة، أي يبتغون بكل ما وصفهم من الرحمة والشدة والركوع والسجود الجنة؛ والفضل يُذكر عبارة عن الجنة في القرآن في غير موضع.[3] وجائز أن يكون ما ذكر من ابتغائهم الفضل من الله تعالى ما يتعيّشون به.[4] وقال بعضهم: **يبتغون فضلا من الله**، أي يبتغون[5] معيشة يَتَقَوَّوْنَ بها على طاعة الله. وقوله عز وجل: **ورضوانا**، أي رضاء ربهم،[6] وهو بمعنى الفضل أيضا على التكرار للتأكيد، كقوله تعالى: وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ،[7] لكنه أخبر أنهم يبتغون ذلك الفضل والرضوان من الله تعالى. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **سيماهم في وجوههم من أثر السجود**، اختلف فيه. قال الحسن وغيره: أي أثرُ الخشوع والصلاة في وجوههم. وقال بعضهم: إن الرجل إذا قام من الليل فأطال القيام والسَّهرَ تَبَيَّنَ سهر الليل في وجهه إذا أصبح من الصفرة وتغير اللون وذلك كله في الدنيا.

---

[1] جميع النسخ + هو. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٦ظ.
[2] م – أي.
[3] ر ث م: مواضع.
[4] جميع النسخ + وقال بعضهم يبتغون فضلا من الله أي يبتغون ما يتعيشون به (م – به).
[5] ث – ما يتعيشون به وقال بعضهم يبتغون فضلا من الله؛ م + فضلا من الله يبتغون.
[6] ر: رضاء بهم.
[7] ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ (سورة الجمعة، ٦٢/١٠).

وكذلك روي عن الحسن قال: قال[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله قوما يَحْسَبهم الناس مرضى وما هم بمرضى»، قال الحسن: أَجْهَدَتْهم[2] العبادة.[3] وقال قتادة: أثر الصلاة في وجوههم، وهو أثر التراب.[4] لكن ذلك بعيد. وقال بعضهم:[5] **سيماهم في وجوههم من أثر السجود**، يوم القيامة وهو بياض وجوههم من أثر السجود والوضوء. وكذلك روي في الخبر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني أعرف أمتي من بين غيرها من الأمم»، قيل: وكيف تعرف يا رسول الله أمتك من بين الأمم؟ فقال: «أمتي غُرٌّ مُحَجَّلون[6] يوم القيامة من أثر السجود»،[7] ولا يكون ذلك لأحد من الأمم غيرهم. ***والله أعلم***. وجائز أن يكون على غير ذلك يجعل الله تعالى في وجوههم من آثار العبادة له والجهد فيها من النور والحلاوة والحُسْن ما يُعرَفون أنهم أهل عبادة الله[8] تعالى وطاعته. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل**، يحتمل وجوها. أحدها[9] أي شِبْهُهم في التوراة والإنجيل كشِبْه الأَجِلَّة من أهل التوراة والإنجيل:[10] الآحاد والأفراد منهم المختارين[11] من بين غيرهم الذين يعظّمونهم الأتباع والملوك ويُبَجّلونهم،[12] فما بالكم لا تعظّمون أنتم هؤلاء ولا تتبعونهم[13] كأولئك. ***والله أعلم***. والثاني يحتمل **ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل**، أي ذلك نعتهم ووصفهم في التوراة والإنجيل، أي على ذلك نعتوا ووُصفوا في التوراة والإنجيل،

---

[1] ر م – قال.

[2] ر م: أجهدتم.

[3] *كتاب الزهد والرقائق* لابن المبارك، ٩٨/١.

[4] نسبه الطبري إلى عكرمة، انظر: *تفسير الطبري*، ١٤٤/٢٦.

[5] ر م – بعضهم.

[6] «أمّتي الغُرُّ المُحَجَّلُون» أي بيضُ مَواضع الوُضوء من الأيدي والوجْه والأقْدام. استَعار أثرَ الوضوء في الوجْه واليَدَين والرِّجلين للإنسان من البَياض الذي يكون في وجْه الفَرس ويَدَيْه ورِجْلَيْه (*النهاية في غريب الحديث* لابن الأثير، «حجل»).

[7] *مسند أحمد بن حنبل*، ١٨٩/٤.

[8] ن: لله.

[9] ر: أحدهما.

[10] ر م – كشبه الأجلة من أهل التوراة والإنجيل.

[11] جميع النسخ: المختارون.

[12] ر م: ويجلونهم.

[13] ر ث م: ولا يتبعونهم.

وقد عرفتم ذلك فهلّا اتبعتموهم إذا نعتوا ووصفوا[١] في القرآن.[٢] و[الثالث] قال بعضهم: قوله: **ذلك مثلهم في التوراة**، مقطوع مقصود وهو ما تقدم من قوله: **والذين معه أشداء على الكفار** -إلى قوله- **من أثر السجود**، ثم ابتدأ[٣] فقال: **ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شَطْأه**، الآية، وهذا يحتمل وهو[٤] وجه حسن. وعلى التأويلين الأولين ما ذكرنا من وصفهم كأنه في التوراة والإنجيل جميعا، ثم نعتهم أيضا بقوله تعالى: **كزرع أخرج شطأه**. *والله أعلم*. ثم ذكر نعت أصحابه رضي الله عنهم في هذه الآية ولم يذكر نعت رسوله صلى الله عليه وسلم وإنما ذكر نعته في آية أخرى وهو قوله تعالى: ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ،[٥] الآية؛ ذكر نعته وصفته في الآية صلى الله عليه وسلم ونعتَ أصحابه رضي الله عنهم في هذه السورة. *والله أعلم*.

ثم [في][٦] قوله عز وجل: **ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل**، الآية، دلالةُ الرسالة، لأنه أخبر أن نعتهم في الكتب المتقدمة كما ذكر في القرآن، ثم لم يقل أحد من أهل الكتب المتقدمة، أَنْ[٧] ليس ذلك نعتهم أو شِبْهَهم في تلك الكتب، ثبت أنه بالله عرف. / *ولا قوة إلا بالله*. [٧٣٩ر]

ثم قوله عز وجل: **كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه**، الآية،[٨] شبههم بالزرع الذي ذكر -والله أعلم- لأنهم أَحْيَوا[٩] سنن الدين[١٠] وشرائعه التي كانت من قبلُ بعد ما دَرَسَتْ وانقطع أثرها، لأنه لم يكن فيما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام رسول فقد انقرض ذلك واندرس. ثم جاء محمد عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات بعد دروس ذلك وانقراضه كالزرع الذي يخرج وحده، وهو النبت الواحد في أول ما يَخرج،

---

[١] ن – في التوراة والإنجيل وقد عرفتم ذلك فهلا اتبعتموهم إذا نعتوا ووصفوا.
[٢] ن + والله أعلم.
[٣] ن: ثم ابتداء.
[٤] ر م – هو.
[٥] ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ (سورة الأعراف ١٥٧/٧).
[٦] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٦ظ.
[٧] ر ن م: أي.
[٨] ن – الآية.
[٩] ر ث: أجيبوا.
[١٠] ر م: الذين.

فأعانه أصحابه وآزروه كالوالية[1] التي تنبت[2] حول الساق تُؤَازِرُ[3] الخِلْفة[4] والنبت. فأما **شَطْأَه** فقيل: هو[5] محمد صلى الله عليه وسلم خرج وحده كما خرج أولُ النبت وحدَه، وأما الوالية التي تنبت[6] حول الشطأة فاجتمعت فهم المؤمنون كانوا في قلة كما كان أولُ الزرع دقيقا، ثم زاد نبت الزرع فغلُظ: **فآزره فاستغلظ**، كما آزر المؤمنون بعضهم بعضا حتى استغلظوا واستوَوْا على أمرهم كما استغلظ هذا الزرع واستوى على سُوقه. ثم اختلفوا في الشطأة، قال أبو عَوْسَجَة: هو قَصَب الزرع أي صار له [قصبٌ]،[7] وأشطأ[8] الزرع، أي صار له ورق، **فآزره** أي قوّاه، **سُوقِه** جمع ساق. وقال أبو عبيدة: شطء الزرع فِراخه[9] وصغاره،[10] يقال: قد أشطأ[11] الزرع فهو مُشطئ إذا أفرخ.[12] وقال الفَرّاء: **شَطْأَه**، أي سُنْبُلَه تنبت[13] الحبة عشرا وتسعا وثمانيا،[14] **فآزره** أي أعانه وقواه. قوله:[15] **فاستغلظ**، أي غلُظ، **فاستوى على سوقه**، جمع ساق،[16] ومنه يقال: قام كذا على سوقه، إنما يراد[17] به تنَاهَى وبَلَغ الغايةَ، يقول -والله أعلم-: كما أن الزرع إذا قام على السوق فقد استحكم. فهذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم،[18] إذ[19] خرج وحده

---

[1] ر ث م: كانوا إليه. أي كالنبات التي تنبت في قربه.

[2] جميع النسخ: ينبت. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٧و.

[3] جميع النسخ: يوازر. والتصحيح من المرجع السابق.

[4] ر: الحلقة؛ ن: الحقلة؛ ث: الحفلة. الخِلْفَة: ما يجيء بعد الشيء، كالغصن ينبت في جذْع الشجرة (*المعجم الوسيط*، «خلف»).

[5] ن ث – هو.

[6] ث: ينبت.

[7] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٧و.

[8] ر م: واسط؛ ن ث: واشط. والتصحيح مستفاد من المرجع السابق.

[9] ر م: فراغه.

[10] ر: وصفارة.

[11] ر ن: أشطئ.

[12] ر م: فرغ. *مجاز القرآن* لأبي عبيدة، ٢/٢١٨.

[13] جميع النسخ: ينبت. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٧و.

[14] ر: وثمانية.

[15] ن – قوله.

[16] *معاني القرآن* للفراء، ٣/٦٩.

[17] ر ث: زاد؛ م: أراد.

[18] ن: عليه الصلاة والسلام.

[19] ر ث م: أي.

وحده فأيده بأصحابه فقَوِي واشتدّ، كما قويت[١] الطاقة من الزرع بما نبت منها حتى غلُظت[٢] وعظُمت واستحكمتْ.[٣] *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **يُعجب الزُرّاع لِيَغِيظَ بهم الكفار**، قال بعضهم: الزراع[٤] هو محمد صلى الله عليه وسلم، يُعجب محمدا ما رأى من أصحابه والمؤمنين ويَغيظ الكفارُ بذلك[٥] من الغيظ، وهو كقوله تعالى: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ –إلى قوله تعالى– هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ.[٦] وقال بعضهم: **الزراع** هو صاحب الزرع [**يعجب الزراع**][٧] إذا كثر جوانبه وولياته وتنبت،[٨] **ليغيظ بهم الكفار**، أي يغيظ ذلك سائر الزّرّاعين. وقال بعضهم: كما يعجب الزّرّاع حسن زرعه حين استوى قائما على ساقه، فكذلك يَغيظ الكفارَ كثرةُ المؤمنين واجتماعهم. وقال بعضهم: هم الزُرّاع سُمُّوا كفارا،[٩] لأنهم يَكفرون أي يسترون[١٠] البَذْر في الأرض. *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مَغْفِرَةً وأجرا عظيما**، [قال بعضهم: قوله: **منهم**، حرف "من" هاهنا بحق الصلة، أي لهم مغفرة وأجرا عظيما]،[١١] وذلك كثير في القرآن. وقال بعضهم هو ليس بصلة بل أريد بها ما وضعت له، وهو التبعيض من جملة سائر البشر كأنه يقول: **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات**[١٢] من بين غيرهم من الناس **مغفرة وأجرا عظيما**. *والله أعلم.*

---

[١] جميع النسخ: قوي.

[٢] جميع النسخ: غلظ. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٧و.

[٣] تفسير *غريب القرآن* لابن قتيبة، ٤١٣-٤١٤؛ و*معاني القرآن* للفراء، ٦٩/٣.

[٤] ث – قال بعضهم الزراع.

[٥] جميع النسخ: ذلك. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٧و.

[٦] ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بسبب إلى السماء ثم لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ (سورة الحج، ١٥/٢٢).

[٧] الزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٧و.

[٨] ر ث م: ينبت.

[٩] م: كفار.

[١٠] ث + الزرع.

[١١] الزيادة من *الشرح*، نفس الورقة.

[١٢] ر ث م – وذلك كثير في القرآن وقال بعضهم هو ليس بصلة بل أريد بها ما وضعت له وهو التبعيض من جملة سائر البشر كأنه يقول وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وفيه نقض قول الباطنية والروافض لعنهم الله، لقولهم:[1] إنهم[2] بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا وارتدوا عن الإسلام جميعا، أو كلام نحوه، وفي الآية[3] رد لقولهم لأنه وعد لهم المغفرة وما ذكر من[4] الأجر[5] العظيم فلا يحتمل أن يكونوا على ما ذكر أولئك، ثم يكون لهم المغفرة وما ذكر من الأجر العظيم. فدل ما ذكر من الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم أنهم ثبتوا على ما كانوا من قبلُ في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حياته.

والله أعلم.[6]

[1] ن: كقولهم.
[2] أي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
[3] ر م: في الآية.
[4] ن – وما ذكر من.
[5] ن: والأجر.
[6] ث + والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه الطاهرين.

سورة الفتح

وهي عشرون وتسع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الفتح وجوه: أحدها: فتح مكة وهو ظاهر. وثانيها: فتح الروم وغيرها. وثالثها: المراد من الفتح صلح الحديبية. ورابعها: فتح الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والسنان. وخامسها: المراد منه الحكم كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: ٢٦] والمختار من الكل وجوه: أحدها: فتح مكة، والثاني: فتح الحديبية، والثالث: فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان. والأول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨] بيّن تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم. ثانيها: لما قال: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥] بيّن برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الأعلون. ثالثها: لما قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥] وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح في أحد الوجوه، وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين، فإن قيل: إن كان المراد فتح مكة، فمكة لم تكن قد فُتحت، فكيف قال تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بلفظ الماضي؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: فتحنا في حكمنا وتقديرنا. ثانيهما: ما قدره الله تعالى فهو كائن، فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر لا دافع له، واقع لا رافع له.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ ينبئ عن كون الفتح سببًا للمغفرة، والفتح لا يصلح سببًا للمغفرة، فما الجواب عنه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: ما قيل إن الفتح لم يجعله سببًا للمغفرة وحدها، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة، كأنه تعالى قال: ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك. ولا

شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح، فإن النعمة به تمت، والنصرة بعده قد عمت. الثاني: هو أن فتح مكة كان سببًا لتطهير بيت الله تعالى من رجس الأوثان، وتطهير بيته صار سببًا لتطهير عبده. الثالث: هو أن بالفتح يحصل الحج، ثم بالحج تحصل المغفرة، ألا ترى إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال في الحج: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُورًا، وَسَعْيًا مَشْكُورًا، وَذَنْبًا مَغْفُورًا» الرابع: المراد منه التعريف، تقديره إنا فتحنا لك ليعرف أنك مغفور لك، معصوم، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له.

المسألة الثالثة: لم يكن للنبي ﷺ ذنب، فماذا يُغفر له؟ قلنا: الجواب عنه قد تقدم مرارًا من وجوه: أحدها: المراد ذنب المؤمنين. ثانيها: المراد ترك الأفضل. ثالثها: الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد، وهو يصونهم عن العُجْب. رابعها: المراد العصمة، وقد بينا وجهه في سورة القتال.

المسألة الرابعة: ما معنى قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: أنه وعد النبي عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة. ثانيها: ما تقدم على الفتح، وما تأخر عن الفتح. ثالثها: العموم يقال: اضرب من لقيت ومن لا تلقاه، مع أن من لا يلقى لا يمكن ضربه إشارة إلى العموم. رابعها: من قبل النبوة ومن بعدها، وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة، وفيه وجوه أُخر ساقطة، منها قول بعضهم: ما تقدم من أمر مارية، وما تأخر من أمر زينب. وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج، وهو آخر التكاليف، والتكاليف نِعم. ثانيها: يُتم نعمته عليك بإخلاء الأرض لك عن معانديك، فإن يوم الفتح لم يبق للنبي عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار، فإن بعضهم كانوا أُهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح. ثالثها: ويُتم نعمته عليك في الدنيا باستجابة دعائك في طلب الفتح، وفي الآخرة بقبول شفاعتك في الذنوب ولو كانت في غاية القبح. وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يحتمل وجوهًا، أظهرها: يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يُلتفت إلى قوله من المضلين، أو ممن يقدر على الإكراه على الكفر، وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣] حيث أهلكت المجادلين فيه، وحملتهم على الإيمان. وثانيها: أن يقال: جعل الفتح سببًا للهداية إلى الصراط المستقيم؛ لأنه سَهَّل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد، والجهاد سلوك سبيل الله، ولهذا يقال للغازي في سبيل الله مجاهد. وثالثها: ما ذكرنا أن المراد التعريف؛ أي ليُعرف أنك على صراط مستقيم، من حيث إن الفتح لا يكون إلا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل. وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ظاهر؛ لأن بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر.

وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية:

أما المسألة اللفظية: فهي أن الله وصف النصر بكونه عزيزًا، والعزيز من له النصر.

والجواب من وجهين: أحدهما: ما قاله الزمخشري أنه يحتمل وجوهًا ثلاثة: الأول: معناه نصر ذا عز، كقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي ذات رضى. الثاني: وصف النصر بما يوصف به المنصور إسنادًا مجازيًّا، يقال: له كلام صادق، كما يقال له: متكلم صادق. الثالث: المراد نصرًا عزيزًا صاحبه.

الوجه الثاني من الجواب أن نقول: إنما يلزمنا ما ذكره الزمخشري من التقديرات إذا قلنا: العزة من الغلبة، والعزيز الغالب، وأما إذا قلنا: العزيز هو النفيس القليل النظير، أو المحتاج إليه القليل الوجود، يقال: عز الشيء، إذا قل وجوده مع أنه محتاج إليه، فالنصر كان محتاجًا إليه ومثله لم يوجد، وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد.

أما المسألة المعنوية: وهي أن الله تعالى لما قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ أبرز الفاعل وهو الله، ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَيُتِمَّ﴾ وبقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول، ولا يظهر فيما بعده، تقول: جاء زيد وتكلم، وقام وراح، ولا تقول: جاء زيد، وقعد زيد اختصارًا للكلام بالاقتصار على الأول، وهاهنا لم يقل وينصرك نصرًا، بل أعاد لفظ (الله)، فنقول: هذا إرشاد إلى طريق النصر، ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير إضافة، فقال تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ﴾ [الروم: ٥] ولم يقل بالنصر ينصر، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢] ولم يقل بالنصر، وقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] وقال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ﴾ [الصف: ١٣] ولم يقل نصر وفتح، وقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] وهذا أدل الآيات على مطلوبنا، وتحقيقه هو أن النصر بالصبر، والصبر بالله، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧] وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه، وذلك بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فلما قال هاهنا (وينصرك الله)، أظهر لفظ (الله) ذكرًا للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب، وبه يحصل الصبر، وبه يتحقق النصر.

وهاهنا مسألة أخرى وهو أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ ثم قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيمًا لأمر الفتح، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة في حق النبي عليه السلام العصمة، فذلك لم يختص بنبينا، بل غيره من الرسل كان معصومًا، وإتمام النعمة كذلك، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] وكذلك الهداية قال الله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] فعمم، وكذلك النصر قال الله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبي ﷺ، فعَظّمه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾ وفيه التعظيم من وجهين: أحدهما: إنا. وثانيهما: لك، أي لأجلك على وجه المنة.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

لما قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] بيَّن وجه النصر، وذلك لأن الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم، أو رجفة تحكم عليهم بالفناء، أو جند يرسله من السماء، أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به؛ ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي تحقيقًا للنصر، وفي السكينة وجوه: أحدها: هو السكون. الثاني: الوقار لله ولرسول الله، وهو من السكون. الثالث: اليقين. والكل من السكون. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: السكينة هنا غير السكينة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] في قول أكثر المفسرين ويحتمل هي تلك المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلوب.

المسألة الثانية: السكينة المُنزّلة عليهم هي سبب ذكرهم الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

المسألة الثالثة: قال الله تعالى في حق الكافرين: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ﴾ [الأحزاب: ٢٦] بلفظ القذف المزعج وقال في حق المؤمنين: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ بلفظ الإنزال المثبت، وفيه معنى حكمي وهو أن من علم شيئًا من قبل وتذكره واستدام تذكره فإذا وقع لا يتغير، ومن كان غافلاً عن شيء فيقع دفعة يرجف فؤاده، ألا ترى أن من أُخبر بوقوع صيحة وقيل له: لا تنزعج منها فوقعت الصيحة لا يرجف، ومن لم يخبر به وأُخبر وغفل عنه يرتجف إذا وقعت، فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف في قلبه فارتجف، والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن.

وقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ فيه وجوه: أحدها: أمرهم بتكاليف شيئًا بعد شيء فآمنوا بكل واحد منها، مثلاً أُمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا، ثم أُمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم. ثانيها: أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين إيمانًا بالغيب فازدادوا إيمانًا مستفادًا من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب. ثالثها: ازدادوا بالفروع مع إيمانهم بالأصول، فإنهم آمنوا بأن محمدًا رسول الله وأن الله واحد والحشر كائن، وآمنوا بأن كل ما يقول النبي ﷺ صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب. رابعها: ازدادوا إيمانًا استدلاليًا مع إيمانهم الفطري، وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي أن الله تعالى قال في حق الكافر: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ولم يقل مع

كفرهم لأن كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم إليه الكفر العنادي، بل الكفر ليس إلا عناديًا، وكذلك الكفر بالفروع، لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع، وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكان قادرًا على إهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل، بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون إهلاك أعدائهم بأيديهم فيكون لهم الثواب، وفي جنود السموات والأرض وجوه: أحدها: ملائكة السموات والأرض. ثانيها: مَن في السموات من الملائكة ومَن في الأرض من الحيوانات والجن. وثالثها: الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كَسْف من السماء والخسف من جنوده.

وقوله تعالى:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لما قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وعددهم غير محصور، أثبت العلم إشارة إلى أنه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] وأيضًا لما ذكر أمر القلوب بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والإيمان من عمل القلوب، ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى، وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ بعد قوله: ﴿عَلِيمًا﴾ إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم، فإن الحكيم من يعمل شيئًا متقنًا ويعلمه، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقًا لا يقال له حكيم، ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾

يستدعي فعلًا سابقًا ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ فإن من قال ابتداء: (لتكرمني) لا يصح ما لم يقل قبله: (جئتك) أو ما يقوم مقامه، وفي ذلك الفعل وجوه، وضبط الأحوال فيه بأن تقول: ذلك الفعل إما أن يكون مذكورًا بصريحه أو لا يكون، وحينئذٍ ينبغي أن يكون مفهومًا، فإما أن يكون مفهومًا من لفظ يدل عليه بل فُهم بقرينة حالية فإن كان مذكورًا فهو يحتمل وجوهًا: أحدها: قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤]كأنه تعالى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانًا بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنّات، فإن قيل: فقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ [الفتح: ٦]عطف على قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ وازدياد إيمانهم لا يصلح سببًا لتعذيبهم. نقول: بلى وذلك من وجهين أحدهما: أن التعذيب مذكور لكونه مقصودًا للمؤمنين، كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنّات، ويعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين. الثاني: تقديره: ويعذب بسبب ما لكم من الازدياد، يقال: فعلته لأجرب به العدو والصديق، أي لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو، فكذلك ليزداد المؤمن إيمانًا فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفرًا فيعذبه به. ووجه آخر ثالث: وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيا المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا. الثاني: قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٣]كأنه تعالى قال: وينصرك الله بالمؤمنين

ليدخل المؤمنين جنّات. الثالث: قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾[الفتح: ٢] على قولنا المراد ذنب المؤمن، كأنه تعالى قال: ليغفر لك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين جنات.

وأما إن قلنا: هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوهًا أيضًا: أحدها: قوله: ﴿حَكِيمًا﴾[الفتح: ٤] يدل على ذلك، كأنه تعالى قال: الله حكيم، فَعَل ما فعل ليُدخل المؤمنين جنات. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾[الفتح: ٢] في الدنيا والآخرة، فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ ثالثها: قوله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾[الفتح: ١] ووجهه هو أنه روي أن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ: هنيئًا لك إن الله غفر لك فماذا لنا؟ فنزلت هذه الآية، كأنه تعالى قال: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنّات.

وأما إن قلنا: إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال، فنقول: هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال، فكأنه تعالى قال: إن الله تعالى أمر بالقتال ليُدخل المؤمنين. أو نقول: عُرف من قرينة الحال أن الله اختار المؤمنين ليدخلهم جنّات.

المسألة الرابعة: قال ههنا وفي بعض المواضع: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وفي بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١] فما الحكمة فيه؟ نقول: في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم، ذكرهن الله صريحًا، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين، فقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب: ٤٧] مع أنه علم من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ: ٢٨] العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة، وأما ههنا فلما كان قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما كان يتوهم لأن إدخال المؤمنين كان للقتال، والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها، صرح الله بذكرهن، وكذلك في المنافقات والمشركات، والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب، فصرّح الله تعالى بذكرهن، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب: ٣٥] لأن الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ . . . ﴿وَأَقِمْنَ﴾ . . . ﴿وَءَاتِينَ﴾ . . . ﴿وَأَطِعْنَ﴾[الأحزاب: ٣٣] وقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب: ٣٤] فكان ذكرهن هناك أصلاً، لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأجر العظيم، ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا أن الأصل ذكرهن في ذلك الموضع.

المسألة الخامسة: قال الله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: الواو لا تقتضي الترتيب. الثاني: تكفير السيئات والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة، فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة. الثالث: وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهي في

الجنة، وكان الإنسان في الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجِرمية كالفضلات، والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير، وتثبت فيه الصفات المَلَكية وهي أشرف أنواع الخلع.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فيه وجهان: أحدهما مشهور: وهو أن الإدخال والتكفير في الله فوز عظيم، يقال: عندي هذا الأمر على هذا الوجه، أي في اعتقادي. وثانيهما: أغرب منه وأقرب منه عقلاً، وهو أن يجعل عند الله كالوصف لذلك، كأنه تعالى يقول: ذلك عند الله، أي بشرط أن يكون عند الله تعالى ويوصف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى أن دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

واعلم أنه قَدَّم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لأمور: أحدها: أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر؛ لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر، وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»(١) والمنافق على صورة الشيطان، فإنه لا يأتي الإنسان على أني عدوك، وإنما يأتيه على أني صديقك، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هذا الظن يحتمل وجوهًا: أحدها: هو الظن الذي ذكره الله في هذه السورة بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢] ثانيها: ظن المشركين بالله في الإشراك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٣ - ٢٨] ثالثها: ظنهم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] والأول أصح أو نقول: المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا أن الله لا يحيي الموتى، وأن العالم خلقه باطل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذي في السوء

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه البيهقي في (الزهد الكبير) (٢/ ١٥٦)، حديث رقم (٣٤٣) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا إسماعيل بن عياش عن حنش الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس... به، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٦٠)، حديث رقم (٤١٢). وقال: رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف، وله شواهد من حديث أنس، ويجري على ألسنة كثيرين (أعدى عدويك) بالتثنية في الموضوعين، ولا أصل له بهذا اللفظ، والمشهور على الألسنة (أعدى عدوك) بالإفراد في (عدوك) وما أحسن ما قيل:

إني بُليت بأربع ما سُلطوا ... إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

وسنذكره في قوله: ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وفيه وجوه: أحدها: ما اختاره المحققون من الأدباء، وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد، والصدق عبارة عن الصلاح، يقال: مررت برجل سَوء، أي فاسد، وسئلت عن رجل صدق، أي صالح، فإذا كان مجموع قولنا: رجل سوء يؤدي معنى قولنا فاسد، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشري، وتحقيق هذا أن السوء في المعاني كالفساد في الأجساد، يقال: ساء مزاجه، وساء خلقه، وساء ظنه، كما يقال: فسد اللحم وفسد الهواء، بل كان ما ساء فقد فسد، وكل ما فسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعاني والآخر في الأجرام، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] وقال: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩] هذا ما يظهر لي من تحقيق كلامهم.

ثم قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي دائرة الفساد، وحاق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زيادة في الإفادة لأن من كان به بلاء، فقد يكون مبتلى به على وجه الامتحان، فيكون مصابًا لكي يصير مثابًا، وقد يكون مصابًا على وجه التعذيب، فقوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أن الذي حاق بهم على وجه التعذيب، وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ زيادة إفادة لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب، ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه، وقد يكون بحيث يفضي إلى الطرد والإبعاد، فقال: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ لكون الغضب شديدًا، ثم لما بيّن حالهم في الدنيا بيّن مآلهم في العقبى فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَسَاءَتْ﴾ إشارة لمكان التأنيث في جهنم يقال: هذه الدار نعم المكان، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] قد تقدم تفسيره. **وبقي فيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما الفائدة في الإعادة؟ نقول: لله جنود الرحمة وجنود العذاب، أو جنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة، وقد يكون للعذاب فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وثانيًا لبيان إنزال العذاب على الكافرين.

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] وهنا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لأن قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] قد بينا أن المقصود من ذكرهم الإشارة إلى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢] وقال تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ [الحشر: ٢٣].

المسألة الثالثة: ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة، وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار وإعداد جنهم، نقول: فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾

[الفتح: ٥] كما بينا ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود، فالجنود في الرحمة أولاً ينزلون ويقربون آخرًا، وأما في الكافر فيغضب عليه أولاً فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهي جهنم، ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله، كما قال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦] ولذلك ذكر جنود الرحمة أولاً والقربة بقوله عند الله آخرًا، وقال هاهنا: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾ وهو الإبعاد أولاً، وجنود السموات والأرض آخرًا.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾

قال المفسرون: ﴿شَٰهِدٗا﴾ على أمتك بما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] والأولى أن يقال: إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ وعليه يشهد أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وهم الأنبياء عليهم السلام، الذين آتاهم الله علمًا من عنده وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي فاشهد. وقوله ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ لمن قَبِل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لمن رد شهادته ويخالفه فيها، ثم بيّن فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره فقال: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الأمور الأربعة المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل، فقوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مرتب على قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لأن كونه مرسلاً من الله يقتضي أن يؤمن المكلف بالله المرسِل وبالمرسَل وقوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ يقتضي أن يعزر الله ويقوي دينه لأن قوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو، فدينه هو الحق وأحق أن يتبع، وقوله: ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ يقتضي أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه. وقوله: ﴿وَنَذِيرٗا﴾ يقتضي أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الأليم وعقابه الشديد، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان، ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن. وثانيهما: أن يكون كل واحد مقتضيًا للأمور الأربعة، فكونه مرسلاً يقتضي أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه، وكذلك كونه ﴿شَٰهِدٗا﴾ بالوحدانية يقتضي الأمور المذكورة، وكذلك كونه ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ لا يقال: إن اقتران اللام بالفعل يستدعي فعلاً مقدمًا يتعلق به ولا يتعلق بالوصف، وقوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ يستدعي فعلاً وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ فكيف تترتب الأمور على كونه ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا﴾ لأنا نقول: يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظًا، كما أن القائل إذا قال: بعثت إليك عالمًا لتكرمه. فاللفظ ينبئ عن كون البعث سبب الإكرام، وفي المعنى كونه عالمًا هو السبب للإكرام، ولهذا لو قال: بعثت إليك جاهلاً لتكرمه كان حسنًا،

وإذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول: الإرسال الذي هو إرسال حال كونه شاهدًا، كما تقول: بعث العالم سبب جعله سببًا لا مجرد البعث، ولا مجرد العالم.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الأحزاب: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] وهاهنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة، فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة في ذكر الرسول ﷺ وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصَّل هنالك، ولم يفصل هاهنا ثانيهما: أن نقول: الكلام مذكور هاهنا لأن قوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ لما لم يقتض أن يكون داعيًا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله، ولا يدعو الناس قال هناك وداعيًا لذلك، وهاهنا لما لم يكن كونه ﴿شَٰهِدٗا﴾ منبئًا عن كونه داعيًا قال: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ دليل على كونه سراجًا لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح.

المسألة الثانية: قد ذكرنا مرارًا أن اختيار البكرة والأصيل يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة، ويحتمل أن يكون أمرًا بخلاف ما كان المشركون يعملونه، فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرةً وعشية، فأُمروا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر.

المسألة الثالثة: الكنايات المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجعة إلى الله تعالى أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؟ والأصح هو الأول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠﴾

لما بيّن أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله، وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ يحتمل وجوهًا، وذلك أن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد، وإما أن تكون بمعنيين، فإن قلنا: إنها بمعنى واحد، ففيه وجهان: أحدهما: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وثانيهما: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ أي نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي الغلبة والنصرة والقهر. وأما إن قلنا: إنها بمعنيين، فنقول في حق الله تعالى بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة، واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين إذا مد كل واحد منهما يده إلى صاحبه في البيع والشراء، وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير إتمام البيع، فيضع يده على يديهما، ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر، فوضع اليد فوق الأيدي صار سببًا للحفظ على البيعة، فقال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ

﴿أَيْدِيهِمْ﴾ يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدي المتبايعين.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أما على قولنا: المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة، فلأن من نكث فوَّت على نفسه الإحسان الجزيل في مقابلة العمل القليل، فقد خسر ونكثه على نفسه، وأما على قولنا: المراد الحفظ، فهو عائد إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني من يبايعك أيها النبي إذا نكث لا يكون نكثه عائدًا إليك؛ لأن البيعة مع الله ولا إلى الله؛ لأنه لا يتضرر بشيء، فضرره لا يعود إلا إليه. قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقد ذكرنا أن العظم في الأجرام لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ، فيقال في الجبل الذي هو مرتفع، ولا اتساع لعرضه جبل عالٍ أو مرتفع أو شاهق، فإذا انضم إليه الاتساع في الجوانب يقال عظيم، والأجر كذلك؛ لأن مآكل الجنة تكون من أرفع الأجناس، وتكون في غاية الكثرة، وتكون ممتدة إلى الأبد لا انقطاع لها، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم، والعظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في صفاته، كما أنه في الجسم إشارة إلى كماله في جهاته.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

لما بيّن حال المنافقين ذكر المتخلفين، فإن قومًا من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ لظنهم أنه يُهزم، فإنهم قالوا: أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة، فكيف يكون حالهم إذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو؟! فاعتذروا، وقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ فيه أمران يفيدان وضوح العذر: أحدهما: (قولهم): ﴿أَمْوَٰلُنَا﴾ ولم يقولوا شغلتنا الأموال، وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذرًا (لِأَنَّهُ) لا نهاية له، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذرًا، فقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ أي ما صار مالاً لنا لا مطلق الأموال. وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَأَهْلُونَا﴾ وذلك لو أن قائلاً قال لهم: المال لا ينبغي أن يبلغ إلى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول ﷺ! لكان لهم أن يقولوا: فالأهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن أهم الأمور، ثم إنهم مع العذر تضرعوا وقالوا: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يعني فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة، فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج. فكَذَّبهم الله تعالى فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون التكذيب راجعًا إلى قولهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ وتحقيقه هو أنهم أظهروا أنهم يعتقدون أنهم مسيئون بالتخلف حتى استغفروا، ولم يكن في اعتقادهم ذلك، بل كانوا يعتقدون أنهم بالتخلف محسنون. ثانيهما: قالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ إشارة إلى أن امتناعنا لهذا لا غير، ولم يكن ذلك في اعتقادهم، بل كانوا يعتقدون

امتناعهم لاعتقاد أن النبي ﷺ والمؤمنين يقهرون ويغلبون، كما قال بعده: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢] وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ معناه أنكم تحترزون عن الضرر. وتتركون أمر الله ورسوله، وتقعدون طلبًا للسلامة، ولو أراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئًا، أو معناه أنكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو، فهب أنكم حفظتم أنفسكم عن ذلك، فمن يدفع عنكم عذاب الله في الآخرة، مع أن ذلك أَوْلى بالاحتراز، وقد ذكرنا في سورة يس في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ [يس: ٢٣] أنه في صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧] وفي صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر، فقال هاهنا ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: ١٧] وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك، ولا نعيده ليكون هذا باعثًا على مطالعة تفسير سورة يس، فإنها درج الدرر اليتيمة، ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي بما تعملون من إظهار الحرب وإضمار غيره.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ وأن مخففة من الثقيلة، أي ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون، وقوله: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني ظننتم أولاً، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان، ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل، وإن كان لا يشك فيها العاقل.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون هذا العطف عطفًا يفيد المغايرة، فقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ غير الذي في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ وحينئذٍ يحتمل أن يكون الظن الثاني معناه: وظننتم أن الله يخلف وعده، أو ظننتم أن الرسول كاذب في قوله. وثانيهما: أن يكون قوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هو ما تقدم من ظن أن لا ينقلبوا، ويكون على حد قول القائل: علمت هذه المسألة وعلمت كذا، أي هذه المسألة لا غيرها، وذلك كأنه قال: بل ظننتم ظن أن لن ينقلب. وظنكم ذلك فاسد، وقد بينا التحقيق في ظن السوء، وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين. وثانيها: أنتم في الأصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

على قولنا: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢] ظن آخر غير ما في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ ظاهر؛ لأنا بينا أن ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أو ظنهم بأن الرسول كاذب فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ويظن به خلفًا وبرسوله كذبًا، فإنا أعتدنا له سعيرًا، وفي قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بدلاً عن أن يقول فإنا أعتدنا له فائدة، وهي التعميم، كأنه تعالى قال: ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين، وإنا أعتدنا للكافرين سعيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

بعد ما ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين، أشار إلى أنه يغفر للأولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد عظمة الأمرين جميعًا؛ لأن مَن عظُم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم، وعذابه وعقوبته كذلك في غاية النكال والألم.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾.

أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عندما يكون السير إلى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ فإذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة، فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم الغنيمة، والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلا من كان معه في المدينة، وفي قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

يحتمل وجوهًا: أحدها: هو ما قال الله إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وعاهد بها لا غير، وهو الأشهر عند المفسرين والأظهر نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

ثانيها: يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح: ٦] وذلك لأنهم لو اتبعوكم لكانوا في حكم بيعة أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة، فيكونون من الذين رضي الله عنهم، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨] فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله. ثالثها: هو أن النبي ﷺ لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وأنه يريد أن يعاقبهم، وقال للنبي ﷺ: ﴿فَقُل لَّن

﴿تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾[التوبة: ٨٣] فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه، لا يقال: فالآية التي ذكرتم واردة في غزوة تبوك لا في هذه الواقعة. لأنا نقول: قد وجد هاهنا بقوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ على صيغة النفي بدلاً عن قوله: لا تتبعونا، على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي ﷺ بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ يعني لو أذنتكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ ردًا على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ كأنهم قالوا: ما قال الله كذلك من قبل، بل تحسدوننا، وبل للإضراب والمضروب عنه محذوف في الموضعين، أما هاهنا فهو بتقدير: ما قال الله وكذلك، فإن قيل: بماذا كان الحسد في اعتقادهم؟ نقول: كأنهم قالوا: نحن كنا مصيبين في عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا، فإن خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم كما ردوا: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لم يفقهوا من قولك: (لا تخرجوا) إلا ظاهر النهي ولم يفهموا من حكمه إلا قليلاً، فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

لما قال النبي ﷺ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾[الفتح: ١٥] وقال: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾[التوبة: ٨٣] فكان المخلفون جمعًا كثيرًا، من قبائل متشعبة، دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم فإنهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق، بل منهم من حسن حاله وصلح باله، فجعل لقبول توبتهم علامة، وهو أنهم يُدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ويطيعون، بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي ﷺ واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة، كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أنه تعالى بيّن أنهم يُدعون فإن كانوا يطيعون يؤتون الأجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه، والفرق بين حال ثعلبة وبين حال هؤلاء من وجهين: أحدهما: أن ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله، فلم يبين لتوبته علامة، والأعراب تغيرت، فإن بعد النبي ﷺ لم يبق من المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة. وثانيهما: أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمسّ؛ لأنه لولا البيان لكان يفضي الأمر إلى قيام الفتنة بين فرق المسلمين.

وفي قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر. وثانيها: هم فارس والروم، غزاهم عمر. ثالثها: هوازن وثقيف، غزاهم النبي ﷺ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبي ﷺ وإن كان الأظهر

غيره، أما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب في زمان النبي ﷺ ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر، أو مؤمن تقي طاهر، وامتنع النبي ﷺ من الصلاة على موتى المنافقين، وترك المؤمنون مخالطتهم حتى إن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة، وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقًا، فإن كان ظهر حالهم بغير هذا، فلا معنى لجعل هذا علامة وإن ظهر بهذا الظهور كان في زمان النبي ﷺ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لاتباعه، لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ [مريم: ٤٣].

فإن قيل: هذا ضعيف لوجهين: أحدهما: أن النبي ﷺ قال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥] وقال: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ [التوبة: ٨٣] فكيف كانوا يتبعونه مع النفي؟ الثاني: قوله تعالى: ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام حرب قوم أولي بأس شديد فإن الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق بعده شدة وبأس، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور.

نقول: أما الجواب عن الأول فمن وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك مقيدًا، تقديره: لن تخرجوا معي أبدًا وأنتم على ما أنتم عليه. ويجب هذا التقييد لأنا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك، وما كان يجوز للنبي ﷺ أن يقول لهم: لستم مسلمين. لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ [النساء: ٩٤] ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدًا، وقد تبيّن حسن حالهم، فإن النبي ﷺ دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان.

الثاني: المراد من قوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥] في هذا القتال فحسب وقوله: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ [التوبة: ٨٣] كان في غير هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك، وأما اتفاق الجمهور فنقول: لا مخالفة بيننا وبينهم لأنا نقول: النبي ﷺ دعاهم أولاً، وأبو بكر رضي الله عنه أيضًا دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي ﷺ، إنما نحن نثبت أن النبي ﷺ دعاهم. فإن قالوا: أبو بكر رضي الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تنافٍ، وإن قالوا: لم يدعهم النبي ﷺ فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع، وكيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام قال من كلام الله ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١] وقال: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [الزخرف: ٦١] ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد ﷺ لأن بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان - بعيد، ويوم قوله ﷺ: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ كان أكثر العرب على الكفر والنفاق؛ لأنه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة.

وأما قوله: لم يبق للنبي ﷺ حرب مع أولي بأس شديد، قلنا: لا نسلّم ذلك لأن النبي ﷺ عام الحديبية دعاهم إلى الحرب؛ لأنه خرج محرمًا ومعه الهدي ليعلم قريش أنه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال: ستدعون إلى الحرب. ولا شك أن من يكون خصمه مسلحًا محاربًا أكثر بأسًا ممن يكون على خلاف ذلك، فكان قد علم من حال مكة أنهم لا يوقرون حاجًّا ولا معتمرًا فقوله: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني أولي سلاح من آلة الحديد فيه بأس شديد، ومن قال بأن الداعي أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة، وحينئذٍ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ إشارة إلى أن أحدهما يقع، وقرئ (أو يسلموا) بالنصب بإضمار (أنْ) على معنى تقاتلونهم إلى أن يسلموا، والتحقيق فيه هو أن ﴿أَوْ﴾ لا تجيء إلا بين المتغايرين وتنبئ عن الحصر فيقال: العدد زوج أو فرد، ولهذا لا يصح أن يقال: هو زيد أو عمرو، ولهذا يقال: العدد زوج أو خمسة أو غيرهما، إذا علم هذا فقول القائل: (لألزمنك أو تقضيني حقي) يفهم منه أن الزمان انحصر في قسمين: قسم يكون فيه الملازمة، وقسم يكون فيه قضاء الحق، فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق، فيكون في قوله: لألزمنك أو تقضيني، كما حكي في قول القائل، لألزمنك إلى أن تقضيني؛ لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء، وهذا ما يضعف قول القائل: الداعي هو عمر والقوم فارس والروم لأن الفريقين يقران بالجزية، فالقتال معهم لا يمتد إلى الإسلام لجواز أن يؤدوا الجزية.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ فيه فائدة لأن التولي إذا كان بعذر كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] لا يكون للمتولي عذاب أليم، فقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾ يعني إن كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ [الفتح: ١١] فالله يعذبكم عذابًا أليمًا.

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

ثم إن الله تعالى قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ بيّن من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر، وبيّن ذلك ببيان ثلاثة أصناف: الأول: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فإنه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب، ولا

يمكنه الاحتراز والهرب، والأعرج كذلك والمريض كذلك، وفي معنى الأعرج الأقطع والمقعد، بل ذلك أَوْلى بأن يُعذر، ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يُعذر، وكذلك المرض القليل الذي لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال إذ به يضعف، وبعض أوجاع المفاصل لا يكون عذرًا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن هذه أعذار تكون في نفس المجاهد، ولنا أعذار خارجة كالفقر الذي لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج إليه، والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل أو مريض، والأعذار تُعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير في بيان مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الأعذار التي في السفر؛ لأن غيرها ممكن الإزالة بخلاف العرج والعمى.

المسألة الثانية: اقتصر منها على الأصناف الثلاثة؛ لأن العذر إما أن يكون بإخلال في عضو أو بإخلال في القوة، والذي بسبب إخلال العضو فإما أن يكون بسبب اختلال في العضو الذي به الوصول إلى العدو والانتقال في مواضع القتال، أو في العضو الذي تتم به فائدة الحصول في المعركة والوصول، والأول: هو الرِّجل، والثاني: هو العين؛ لأن بالرِّجل يحصل الانتقال، وبالعين يحصل الانتفاع في الطلب والهرب. وأما الأذن والأنف واللسان وغيرها من الأعضاء، فلا مدخل لها في شيء من الأمرين، بقيت اليد، فإن المقطوع اليدين لا يقدر على شيء، وهو عذر واضح ولم يذكره، نقول: لأن فائدة الرِّجل وهي الانتقال تبطل بالخلل في إحداهما، وفائدة اليد وهي الضراب والبطش لا تبطل إلا ببطلان اليدين جميعًا، ومقطوع اليدين لا يوجد إلا نادرًا، ولعل في جماعة النبي ﷺ لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره، أو لأن المقطوع يُنتفع به في الجهاد، فإنه ينظر ولولاه لاستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل، وهو غير معذور في التخلف؛ لأن المجاهدين ينتفعون به بخلاف الأعمى، فإن قيل: كما أن مقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطشه كذلك الأعور لا تبطل منفعة رؤيته، وقد ذكر الأعمى، وما ذكر الأشل وأقطع اليدين، قلنا: لما بينا أن مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة بإحدى اليدين لا تعمهما، والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لأن منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما، فإن الأعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر.

المسألة الثالثة: قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة؛ لأن الآفة في القوة تزول وتطرأ، والآفة في الآلة إذا طرأت لا تزول، فإن الأعمى لا يعود بصيرًا، فالعذر في محل الآلة أتم.

المسألة الرابعة: قدم الأعمى على الأعرج؛ لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال، والأعرج إن حضر راكبًا أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

اعلم أن طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر فجمع بينهما بيانًا لطاعة الله، فإن الله تعالى لو قال: ومن يطع الله، كان لبعض الناس أن يقول: نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه، فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه؟ فقال: طاعته في طاعة رسوله وكلامه يُسمع من رسوله.

ثم قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي بقلبه، ثم لما بيّن حال المخلفين بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] عاد إلى بيان حالهم وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا على الموت، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ١٧] فجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة في تلك الآية، وفي هذه الآية بيّن أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان، أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأما طاعة الرسول فبقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بقي الموعود به وهو إدخال الجنة أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ والفاء للتعقيب وعِلم الله قبل الرضا لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم، فكيف يُفهم التعقيب في العلم؟

نقول قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ كما يقول القائل: فرحت أمس إذ كلمت زيدًا فقام إليّ، أو إذ دخلت عليه فأكرمني، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيبًا كذلك.

هاهنا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم، والفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ للتعقيب الذي ذكرته فإنه تعالى رضي عنهم فأنزل السكينة عليهم، وفي عَلِم بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذي في قلوبهم، وهذا توفيق لا يتأتى إلا لمن هداه، الله تعالى إلى معاني كتابه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ مغانمها وقيل: مغانم هجر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ كامل القدرة غنيًا عن إعانتكم إياه ﴿حَكِيمًا﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه، أو لأن في ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين، فإنه يُذل من يشاء بعزته ويُعز من يشاء بحكمته.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

إشارة إلى أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل الجزاء قدامهم، وإنما هي العاجلة، عجل بها، وفي المغانم الموعود بها أقوال، أصحها أنه وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها والله كان عالمًا بها، وهذا كما يقول الملك الجواد لمن يخدمه: يكون لك مني على ما فعلته الجزاء إن شاء الله. ولا يريد شيئًا بعينه، ثم كل ما يأتي به ويؤتيه يكون داخلاً تحت ذلك الوعد، غير أن الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل إليه وقت الوعد، والله عالم بها. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ لإتمام المنة، كأنه قال: رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم: هذا جزاء تعبنا، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مفهوم لأنه لما قال الله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ واللام ينبئ عن النفع كما أن على ينبئ عن الضر القائل (لا علي ولا ليا) بمعنى لا ما أتضرر به ولا ما أنتفع به ولا أضر به ولا أنفع، فكذلك قوله ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ لتنفعكم ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون، فقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله يصل إليهم كما وصل إليكم، أو نقول: معناه لتنفعكم في الظاهر وتنفعكم في الباطن حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول في إخباره عن الغيوب، فتجمل أخباركم ويكمل اعتقادكم، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو التوكل عليه والتفويض إليه والاعتزاز به.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

قيل: غنيمة هوازن، وقيل: غنائم فارس والروم، وذكر الزمخشري في (أخرى) ثلاثة أوجه: أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ﴾ و﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ صفة لأخرى كأنه يقول: وغنيمة أخرى غير مقدورة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ثانيها: أن تكون مرفوعة، وخبرها ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ وحسن جعلها مبتدأ مع كونه نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا. وثالثها: الجر بإضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالعطف على منصوب، وفيه وجهان: أحدهما: كأنه تعالى قال: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ وأخرى ما قدرتم عليها. وهذا ضعيف لأن أخرى لم يعجل بها. وثانيهما: على مغانم كثيرة تأخذونها، وأخرى أي وعدكم الله أخرى، وحينئذٍ كأنه قال: وعدكم الله مغانم تأخذونها ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها، وإنما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين. وعلى هذا تبين لقول الفرّاء حُسْن، وذلك لأنه فسر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي حفظها للمؤمنين لا يجري عليها هلاك إلى أن يأخذها المسلمون كإحاطة الحراس بالخزائن.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣ ﴾

وهو يصلح جوابا لمن يقول: كف الأيدي عنهم كان أمرًا اتفاقيًا، ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها، فقال: ليس كذلك، بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون، والغلبة واقعة للمسلمين، فليس أمرهم أمرًا اتفاقيًا، بل هو إلهي محكوم به محتوم.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

قد ذكرنا مرارًا أن دفع الضرر عن الشخص إما أن يكون بولي ينفع باللطف، أو بنصير يدفع بالعنف، وليس للذين كفروا شيء من ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ﴾ لطيفة وهي أن من يولي دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما ينجيه، فقال: وليس إذا ولوا الأدبار يتخلصون، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم.

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾.

جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد، وهو أن الطوالع لها تأثيرات، والاتصالات لها تغيرات، فقال: ليس كذلك (بل) سنة الله نصرة رسوله، وإهلاك عدوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

بشارة ودفع وهن يقع بسبب وهم، وهو أنه إذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه، بل الله فاعل مختار، ولو أراد أن يهلك العباد لأهلكهم، بخلاف قول المنجم بأن الغلب لمن له طالع وشواهد تقتضي غلبته قطعًا، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ يعني أن الله فاعل مختار يفعل ما يشاء ويقدر على إهلاك أصدقائه، ولكن لا يبدل سنته ولا يغير عادته.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤ ﴾

تبيينًا لما تقدم من قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢] أي هو بتقدير الله؛ لأنه كف أيديهم عنكم بالفرار، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم، وقوله تعالى: ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ إشارة إلى أمر كان هناك يقتضي عدم الكف، ومع ذاك وُجد كف الأيدي، وذلك الأمر هو دخول المسلمين ببطن مكة، فإن ذلك يقتضي أن يصبر المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثأرهم، وذلك مما يوجب اجتهاد البليد في الذب عن الحريم، ويقتضي أن يبالغ المسلمون في الاجتهاد في الجهاد لكونهم لو قصروا لكُسروا وأُسروا لبعد مأمنهم، فقوله: ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ إشارة إلى بعد الكف، ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ صالح لأمرين: أحدهما: أن يكون منة على المؤمنين بأن الظفر كان لكم، مع أن

الظاهر كان يستدعي كون الظفر لهم لكون البلاد لهم، ولكثرة عددهم. الثاني: أن يكون ذكر أمرين مانعين من الأمرين الأولين، مع أن الله حققهما مع المنافقين، أما كف أيدي الكفار، فكان بعيدًا لكونهم في بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم، وإليه أشار بقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وأما كف أيدي المسلمين، فلأنه كان بعد أن ظفروا بهم، ومتى ظفر الإنسان بعدوه الذي لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه، مع أن الله كف اليدين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

يعني كان الله يرى فيه من المصلحة، وإن كنتم لا ترون ذلك، وبيَّنه بقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾[الفتح: ٢٥] يعني كان الكف محافظة على ما في مكة من المسلمين ليخرجوا منها، ويدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء مَن فيها من المؤمنين والمؤمنات، واختلف المفسرون في ذلك الكف: منهم من قال: المراد ما كان عام الفتح، ومنهم من قال: ما كان عام الحديبية، فإن المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم، وقيل: إن الحرب كان بالحجارة.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾.

إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا وصدوا وأحصروا، وكل ذلك يقتضي قتالهم، فلا يقع لأحد أن الفريقين اتفقوا، ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا، ولم يبق بينهما نزاع، بل الاختلاف باقٍ والنزاع مستمر؛ لأنهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوا فازدادوا كفرًا وعداوة، وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، وقوله: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ منصوب على العطف على كُم في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ويجوز الجر عطفًا على المسجد، أي وعن الهدي. و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال و﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾ تقديره على أن يبلغ، ويحتمل أن يقال: ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ رفع، تقديره معكوفًا بلوغه محله، كما يقال: رأيت زيدًا شديدًا بأسه، ومعكوفًا، أي ممنوعًا، ولا يحتاج إلى تقدير (عن) على هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وصف الرجال والنساء، يعني لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين، وقوله تعالى: ﴿أَنْ

﴿تَطَئُوهُمْ﴾ بدل اشتمال، كأنه قال: رجال غير معلومي الوطء فتصيبكم منهم معرة، عيب أو إثم، وذلك لأنكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهي دليل الإثم، أو يعيبكم الكفار بأنهم فعلوا بإخوانهم ما فعلوا بأعدائهم، وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال الزمخشري: هو متعلق بقوله: ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾ يعني تطئوهم بغير علم، وجاز أن يكون بدلاً عن الضمير المنصوب في قوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ولقائل أن يقول: يكون هذا تكرارًا؛ لأن على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير: لم تعلموا أن تطئوهم بغير علم، فيلزم تكرار بغير علم الحصول بقوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ فالأَوْلى أن يقال ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هو في موضعه تقديره: لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، من يعركم ويعيب عليكم، يعني إن وطأتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بجهل لا يعلمون أنكم معذورون فيه، أو نقول: تقديره: لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، أي فتقتلوهم بغير علم، أو تؤذوهم بغير علم، فيكون الوطء سبب القتل، والوطء غير معلوم لكم، والقتل الذي هو بسبب المعرة وهو الوطء الذي يحصل بغير علم. أو نقول: المعرة قسمان: أحدهما: ما يحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل. والثاني: ما يحصل من القتل خطأ، وهو غير عدم العلم، فقال: تصيبكم منهم معرة غير معلومة، لا التي تكون عن العلم، وجواب (لولا) محذوف تقديره: لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم. هذا ما قاله الزمخشري وهو حسن، ويحتمل أن يقال: جوابه: ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني قد استحقوا لأن لا يهملوا، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه، كما يقول القائل: هو سارق ولولا فلان لقطعت يده، وذلك لأن (لولا) لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضي له فمنعه الغير، فذكر الله تعالى أولاً المقتضي التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع، وذكر ما امتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فيه أبحاث:

الأول: في الفعل الذي يستدعي اللام الذي بسببه يكون الإدخال، وفيه وجوه: أحدها: أن يقال: هو قوله: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ليُدخل، لا يقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال: كف أيديكم لئلا تطئوا فكيف يكون لشيء آخر؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن نقول: كف أيديكم لئلا تطئوا لتدخلوا، كما يقال: أطعمته ليشبع ليغفر الله لي أي الإطعام للشابع كان ليغفر. الثاني: هو أنا بينا أن (لولا) جوابه ما دل عليه قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيكون كأنه قال: هم الذين كفروا واستحقوا التعجل في إهلاكهم، ولولا رجال لعجل بهم، ولكن كف أيديكم ليدخل.

ثانيها: أن يقال: فَعَل ما فَعَل ليُدخل. لأن هناك أفعالاً من الألطاف والهداية وغيرهما،

وقوله: ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ليؤمن منهم مَن عَلِم الله تعالى أنه يؤمن في تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم في رحمته. وقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو تميزوا، والضمير يحتمل أن يقال: هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، فإن قيل: كيف يصح هذا وقد قلتم بأن جواب لولا محذوف وهو قوله (لمَا كف أو لعجَّل) ولو كان ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ راجعًا إلى الرجال لكان (لعذبنا) جواب (لولا)؟ نقول: وقد قال به الزمخشري فقال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء، كأنه قال: ليُدخل من يشاء في رحمته، لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: وهو على تقدير نفرضه، فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم، إما بسبب عدم التزييل، أو بسبب وجود الرجال، وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لا يندفع عن الكافر، نقول: المراد عذابًا عاجلاً بأيديكم يبتدئ بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلبين إليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليمًا.

البحث الثاني: ما الحكمة في ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنث يدخل في ذكر المذكر عند الاجتماع؟ قلنا: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: ما تقدم يعني أن الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله: ﴿تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم﴾ معناه تهلكوهم، والمراد لا تقاتل ولا تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال: والنساء المؤمنات أيضًا لأن تخريب بيوتهن ويُتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة. وثانيهما: أن في محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب، يقال لمن يعذب شخصًا: لا تعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه، ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين، فكذلك هاهنا قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ﴾ لترقيق قلوب المؤمنات ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا فلا بد من فعل يقع فيه ويكون عاملاً له، ويحتمل أن يكون مفعولاً به، فإن قلنا: إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور، ويحتمل أن يقال هو مفهوم غير مذكور، فإن قلنا: هو مذكور ففيه وجهان: أحدهما: هو قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾[الفتح: ٢٥] أي وصدوكم حين جعلوا في قلوبهم الحمية. وثانيها: قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾[الفتح: ٢٥] أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم الحمية. والثاني

أقرب لقربه لفظًا وشدة مناسبته معنى؛ لأنهم إذا جعلوا في قلوبهم الحمية لا يرجعون إلى الاستسلام والانقياد، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد في الجهاد، والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذابًا أليمًا أو غير المؤمنين. وأما إن قلنا: إن ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان: أحدهما: حفظ الله المؤمنين عن أن يطئوهم وهم الذين كفروا الذين جعل في قلوبهم الحمية. وثانيها: أحسن الله إليكم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ تفسير لذلك الإحسان. وأما إن قلنا: إنه مفعول به، فالعامل مقدر تقديره اذكر، أي: اذكر ذلك الوقت، كما تقول: أتذكر إذ قام زيد، أي أتذكر وقت قيامه كما تقول: أتذكر زيدًا، وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف إليه عاملاً فيه.

وفيه لطائف معنوية ولفظية: الأولى: هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن، فأشار إلى ثلاثة أشياء: أحدها: جعل ما للكافرين بجعلهم فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجعل ما للمؤمنين بجعل الله، فقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وبين الفاعلَين ما لا يخفى. ثانيها: جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة، وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره. ثالثها: أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال: حمية الجاهلية، وقال: سكينته، وبين الإضافتين ما لا يذكر. الثانية: زاد المؤمنين خيرًا بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وسنذكر معناه. **وأما اللفظية فثلاث لطائف:**

الأولى: قال في حق الكافر: (جَعَلَ) وقال في حق المؤمن (أَنْزَلَ) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها. الثانية: قال الحمية ثم أضافها بقوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحًا، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية. وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار، فقال ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ اكتفاه بحسن الإضافة. الثالثة: قوله: ﴿فَأَنزَلَ﴾ بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول: أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة، ولو قلت: أكرمني وأكرمته، لا ينبئ عن ذلك، وحينئذٍ يكون فيه لطيفة: وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إما أن يكون ضعيفًا أو قويًّا، فإن كان ضعيفًا ينهزم وينقهر، وإن كان قويًّا فيورث غضبه فيه غضبًا، وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال في نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالفاء يدل تعلق الإنزال بالفاء على ترتيبه على شيء، نقول فيه وجهان:

أحدهما: ما ذكرنا من أن (إذ) ظرف كأنه قال أحسن الله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقوله: ﴿فَأَنزَلَ﴾ تفسير لذلك الإحسان كما يقال: أكرمني فأعطاني، لتفسير الإكرام.

وثانيهما: أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم، على معنى المقابلة، تقول: أكرمني فأثنيت عليه. ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة، كما تقول: جاءني زيد وخرج عمرو، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين: إما إقدام، وإما انهزام لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضًا وهذا يثير الفتن، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى، قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح، وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد الثلاثة: بالنحر في المنحر وأبوا أن لا يكتبوا محمدًا رسول الله وباسم الله، فلما سكن رسول الله ﷺ سكن المؤمنون، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فيه وجوه أظهرها أنه قول لا إله إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك، وقيل: هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله، فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه، وقيل: هي الوفاء بالعهد... إلى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى النبي ﷺ والمؤمنين جميعًا، يعني ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المؤمنين فحسب، فإن قلنا: إنه عائد إليهما جميعًا نقول: هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ما سوى الله، كما قال في حق النبي ﷺ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ثم بيّن له حال من صدقه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] أما في حق المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠] وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ألا ترى إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١] وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على هذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال: (اتقوا) يكون الأمر واردًا، ثم إن من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه، ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه، فكأنه قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملًا ولكنه أقرب إلى الكلمة، وعلى هذا فقوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر، يكرمه الله أكثر.

والثاني: أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى، كما في قوله: «وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيم» وقوله تعالى: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحانًا على الكافرين إن لم يثبت الأهلية، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق: إذا كان ولا بد فهذا أحق، كما يقال: الحبس أهون من القتل مع أنه لاهين هناك فقال: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ دفعًا لذلك. الثاني وهو أقوى: وهو أن يقال: قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الأحق، فنقول: هو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الأحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] إذ لا خير في غيره. والثاني: أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون بالنسبة إلى غيرهم، أي المؤمنون أحق من الكافرين. والثاني: أن يكون بالنسبة إلى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى، تقول: زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة، كما إذا سأل شخص عن زيد إنه بالطب أعلم أو بالفقه، نقول: هو بالفقه أعلم، أي من الطب.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أُمروا به من عدم الإقبال على القتال، وذلك قولهم: ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا. حيث كان النبي ﷺ رأى في منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج، ولم يعين له وقتًا فقص رؤياه على المؤمنين، فقطعوا بأن الأمر كما رأى النبي ﷺ في منامه وظنُّوا أن الدخول يكون عام الحديبية[(١)]، والله أعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح، فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء: ما دخلنا ولا حلقنا. فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ وتعدية (صدق) إلى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه، وكونه من الأفعال التي تتعدى إلى المفعولين ككلمة جعل وخلق، ويحتمل أن يقال: عدي إلى الرؤيا بحرف تقديره: صدق الله رسوله في الرؤيا، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعود به وأتى به، وعلى الثاني معناه ما أراه الله لم يكذب فيه، وعلى هذا فيحتمل أن يكون رأى في منامه أن الله

(١) لم أجده.

تعالى يقول: ستدخلون المسجد الحرام. فيكون قوله: ﴿صَدَقَ﴾ ظاهرًا لأن استعمال الصدق في الكلام ظاهر، ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ معناه أنه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقًا يقال: صدقني سن بكره، مثلاً وفيما إذا حقق الأمر الذي يريه من نفسه، مأخوذ من الإبل إذا قيل له (هدع) سكن فحقق كونه من صغار الإبل، فإن (هدع) كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزمخشري: هو حال أو قسم أو صفة صدق، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق. وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقًا ملتبسًا بالحق. وعلى تقدير كونه قسمًا إما أن يكون قسمًا بالله فإن الحق من أسمائه، وإما أن يكون قسمًا بالحق الذي هو نقيض الباطل. هذا ما قاله، ويحتمل أن يقال: (إن) فيه وجهين آخرين: أحدهما: أن يقال: فيه تقديم وتأخير تقديره: صدق الله رسوله بالحق الرؤيا، أي الرسول الذي هو رسول بالحق، وفيه إشارة إلى امتناع الكذب في الرؤيا لأنه لما كان رسولاً بالحق فلا يرى في منامه الباطل. والثاني: أن يقال بأن قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ إن قلنا بأن الحق قسم فأمر اللام ظاهر، وإن لم يقل به فتقديره: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، والله لتدخلن، وقوله: والله لتدخلن، جاز أن يكون تفسيرًا للرؤيا، يعني الرؤيا هي: والله لتدخلن، وعلى هذا تبين أن قوله: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ كان في الكلام لأن الرؤيا كانت كلامًا، ويحتمل أن يكون تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ يعني والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام. وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه ذكره تعليمًا للعباد الأدب وتأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] الثاني: هو أن الدخول لما لم يقع عام الحديبية، وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم، إنما تدخلون بمشيئة الله تعالى. الثالث: هو أن الله تعالى لما قال في الوحي المنزل على النبي ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ ذكر أنه بمشيئة الله تعالى؛ لأن ذلك من الله وعد ليس عليه دَين، ولا حق واجب، ومَن وعد بشيء لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى وإلا فلا يُلزمه به أحد، وإذا كان هذا حال الموعود به في الوحي المنزّل صريحًا في اليقظة فما ظنكم بالوحي بالمنام؟ وهو يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام، فإذا تأخر الدخول لمَ يستهزئون؟ الرابع: هو أن ذلك تحقيقًا للدخول وذلك لأن أهل مكة قالوا: لا تدخلوها إلا بإرادتنا ولا نريد دخولكم في هذه السنة، ونختار دخولكم في السنة القابلة، والمؤمنون أرادوا الدخول في عامهم ولم يقع. فكان لقائل أن يقول: بقي الأمر موقوفًا على مشيئة أهل مكة إن أرادوا في السنة الآتية يتركوننا ندخلها وإن كرهوا لا ندخلها. فقال: لا تشترط إرادتهم ومشيئتهم، بل تمام الشرط بمشيئة الله.

وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره، فقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ إشارة إلى الأول وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ إشارة إلى الآخر.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال الداخلين، والداخل لا يكون الآن محرمًا، والمحرم لا يكون محلقًا، فقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ ينبئ عن الدوام فيه إلى الحلق، فكأنه قال: تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أيضًا حال معناه غير خائفين، وذلك حصل بقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ فما الفائدة في إعادتها؟ نقول: فيه بيان كمال الأمن، وذلك لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال: تدخلون آمنين، وتحلقون، ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام، وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي من المصلحة وكون دخولكم في سنتكم سببًا لوطء المؤمنين والمؤمنات أو ﴿فَعَلِمَ﴾ للتعقيب، ﴿فَعَلِمَ﴾ وقع عقيب ماذا؟ نقول: إن قلنا: المراد من ﴿فَعَلِمَ﴾ وقت الدخول فهو عقيب صدق، وإن قلنا: المراد ﴿فَعَلِمَ﴾ المصلحة، فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب، والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من المصلحة المتجددة ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ إما صلح الحديبية، وإما فتح خيبر، وقد ذكرناه. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يدفع وهم حدوث علمه من قوله: ﴿فَعَلِمَ﴾ وذلك لأن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾.

تأكيدًا لبيان صدق الله في رسوله الرؤيا، وذلك لأنه لما كان مرسلاً لرسوله ليهدي، لا يريد ما لا يكون مهديًا للناس فيظهر خلافه، فيقع ذلك سببًا للضلال، ويحتمل وجهًا أقوى من ذلك، وهو أن الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل، لكن رؤية الأشياء قبل وقوعها في

اليقظة لا تقع لكل أحد، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وحكى له ما سيكون في اليقظة، ولا يبعد من أن يريه في المنام ما يقع فلا استبعاد في صدق رؤياه، وفيها أيضًا بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة له و(الهدى) يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وعلى هذا ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو ما فيه من الأصول والفروع، ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة، أي أرسله بالحق، أي مع الحق إشارة إلى ما شرع، ويحتمل أن يكون الهدى هو الأصول و﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو الأحكام، وذلك لأن من الرسل من لم يكن له أحكام بل بيّن الأصول فحسب، والألف واللام في الهدى يحتمل أن تكون للاستغراق، أي كل ما هو هدى، ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣] وهو إما القرآن لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ﴾ [الزمر: ٢٣]إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣] وإما ما اتفق عليه الرسل لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] والكل من باب واحد لأن ما في القرآن موافق لما اتفق عليه الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون الحق اسم الله تعالى، فيكون كأنه قال: بالهدى ودين الله. وثانيها: أن يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال: ودين الأمر الحق. وثالثها: أن يكون المراد به الانقياد إلى الحق والتزامه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي أرسله بالهدى وهو المعجز على أحد الوجوه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي جنس الدين، فينسخ الأديان دون دينه، وأكثر المفسرين على أن الهاء في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ راجعة إلى الرسول، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق، أي أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره، أي ليظهر الدين الحق على الأديان، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله، ويحتمل أن يكون هو النبي، أي ليظهر النبي دين الحق، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي في أنه رسول الله، وهذا مما يسلي قلب المؤمنين فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب، وقالوا: لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله، بل اكتبوا محمد بن عبد الله. فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ في أنه رسول الله، وفيه معنى لطيف وهو أن قول الله مع أنه كافٍ في كل شيء، لكنه في الرسالة أظهر كفاية؛ لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل، فإذا قال ملك: هذا رسولي، لو أنكر كل من في الدنيا أنه رسول فلا يفيد إنكارهم فقال تعالى: أي خلل في رسالته بإنكارهم مع تصديقي إياه بأنه رسولي.

وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فيه وجوه: أحدها: خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذي سبق ذكره بقوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ورسول الله عطف بيان. وثانيها: أن محمدًا مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لأنه لما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ولا تتوقف رسالته إلا على شهادته، وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير. وثالثها: – وهو مستنبط – وهو أن

يقال: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأ و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطف على محمد، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبره، كأنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ جميعهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ لأن وصف الشدة والرحمة وُجد في جميعهم، أما في المؤمنين فكما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وأما في حق النبي ﷺ فكما في قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال في حقه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وعلى هذا قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لا يكون خطابًا مع النبي ﷺ بل يكون عامًّا أخرج مخرج الخطاب، تقديره أيها السامع كائنًا من كان، كما لو قلنا: إن الواعظ يقول: (انتبه) قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحدًا بعينه.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم، وركوع المرائي وسجوده، فإنه لا يبتغي به ذلك. وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال الراكعون والساجدون ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠] وقال الراكع يبتغي الفضل ولم يذكر الأجر لأن الله تعالى إذا قال (لكم أجر) كان ذلك منه تفضلاً، وإشارة إلى أن عملكم جاء على ما طلب الله منكم؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك، والمؤمن إذا قال: أنا أبتغي فضلك يكون منه اعترافًا بالتقصير. فقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل أجرًا.

وقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن ذلك يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ [التحريم: ٨] وعلى هذا فنقول: نورهم في وجوههم بسبب توجههم نحو الحق، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ومن يحاذي الشمس يقع شعاعها على وجهه، فيتبين على وجهه النور منبسطًا، مع أن الشمس لها نور عارضي يقبل الزوال، والله نور السموات والأرض، فمن يتوجه إلى وجهه يظهر في وجهه نور يبهر الأنوار. وثانيهما: أن ذلك في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أن المراد ما يظهر في الجباه بسبب كثرة السجود. والثاني: ما يُظهره الله تعالى في وجوه الساجدين ليلاً من الحسن نهارًا، وهذا محقق لمن يعقل، فإن رجلين يسهران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم، فكل أحد في اليوم الثاني يفرق بين الساهر في الشرب واللعب، وبين الساهر في الذكر والشكر.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فيه ثلاثة أوجه مذكورة: أحدها: أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ خبرًا له، وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ خبرًا مبتدأ محذوف تقديره: ومثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴿كَزَرْعٍ﴾. وثانيها: أن يكون خبر ذلك هو قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ مبتدأ وخبره كزرع وثالثها: أن يكون ذلك إشارة غير معينة أوضحت بقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] وفيه وجه رابع: وهو أن يكون ذلك خبرًا له مبتدأ محذوف تقديره: هذا الظاهر في وجوههم ذلك، يقال: ظهر في وجهه أثر الضرب، فنقول: أي والله ذلك، أي هذا ذلك الظاهر، أو الظاهر الذي تقوله ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

أي وُصفوا في الكتابين به ومُثلوا بذلك، وإنما جُعلوا كالزرع لأنه أول ما يخرج يكون ضعيفًا وله نمو إلى حد الكمال، فكذلك المؤمنون، والشطء: الفرخ و﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون المراد أخرج الشطء وآزر الشطء، وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي تنمية الله ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي وعد ليغيظ بهم الكفار، يقال: رغمًا لأنفك أنعم عليه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض، ويحتمل أن يقال: هو للتبعيض، ومعناه: ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم، والعظيم والمغفرة قد تقدم مرارًا والله تعالى أعلم.

وهاهنا لطيفة وهو أنه تعالى قال في حق الراكعين والساجدين إنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقال: (لهم أجر) ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل، وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجرًا يعتد به، فقال: لا أبتغي إلا فضلك، فإن عملي نزر لا يكون له أجر. والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجرًا إشارة إلى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزرًا لا يستحق عليه المؤمن أجرًا، وقد علم بما ذكرنا مرارًا أن قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ لبيان ترتب المغفرة على الإيمان، فإن كل مؤمن يُغفر له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] والأجر العظيم على العمل الصالح، والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: تمّ تفسير هذه السورة يوم الخميس، السابع عشر من شهر ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة الفتح

مدنيَّةٌ بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية. روى محمد بن إسحاق عن الزهريّ عن عروة عن المِسْوَر بن مَخرَمة ومروان ابن الحكم، قالا: نَزلتْ سورةُ الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيبية من أوَّلها إلى آخرها[١].

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يسيرُ في بعض أسفاره، وعمرُ بنُ الخطَّابِ يسيرُ معه ليلاً فسأله عمرُ عن شيءٍ فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمَّ سأله فلم يُجِبه؛ فقال عمرُ بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ كُلَّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحرَّكتُ بعيري ثمَّ تقدَّمتُ أمامَ الناس، وخشيتُ أنْ يُنزَلَ فيَّ قرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيتُ أنْ يكون نَزلَ فيَّ قرآن، فجئتُ رسولَ الله ﷺ فسلَّمتُ عليه؛ فقال: «لقد أُنزلت عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممّا طَلَعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾». لفظ البخاريّ[٢]. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح[٣].

وفي صحيح مسلم[٤] عن قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وَهُم يخالطُهم الحزنُ والكآبة، وقد نَحر الهَديَ بالحُدَيْبِيَة، فقال: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً».

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤١٧٧) و(٤٨٣٣). وليس في صحيح مسلم ولم يعزه المزي إليه ٨/٦ . وهو في مسند أحمد (٢٠٩). وقوله: نزرتَ رسول الله، أي: ألححتَ عليه في المسألة إلحاحاً. ولم ينشب أن فعل كذا: أي لم يلبث. النهاية (نزر) (نشب).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦٢).

(٤) برقم (١٧٨٦)، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦).

وقال عطاء عن ابن عباس: إنَّ اليهودَ شتموا النبيَّ ﷺ والمسلمين لمَّا نَزلَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩] وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به! فاشتدَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(١).

ونحوه قال مقاتل بن سليمان: لمَّا نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ فَرِحَ المشركون والمنافقون، وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفْعَل به ولا بأصحابه فنزلتْ بعد ما رجع من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ أي: قضينا لك قضاء. فنَسخَتْ هذه الآيةُ تلك. فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلت عليَّ سورةٌ ما يَسُرُّني بها حُمْرُ النَّعَم»(٢).

وقال المسعودي: بلغني أنَّه من قرأ سورةَ الفتح في أوَّل ليلةٍ من رمضان في صلاة التطوُّع حفظَه الله ذلك العام(٣).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾

اختُلِف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاري(٤): حدّثني محمد بن بشار قال: حدّثنا غُندر قال: حدّثنا شعبة قال: سمعت قتادةَ عن أنس: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ قال: الحُدَيْبِيَة.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣-٤٠٤، وسلف نحوه في موضعه من الأحقاف.

(٢) ذكره بنحوه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٩، وليس فيه ذكر النَّسخ، ولا قول النبي ﷺ «لقد نزلت علي سورة...».

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسِّلَفي في الطيوريات، ولم يذكر المسعودي إسناده إلى من بلغه، فالخبر ضعيف. ثم إن المسعودي ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود ـ صدوق اختلط قبل موته؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) برقم (٤٨٣٤).

وقال جابر: ما كنا نعدُّ فتح مكَّة إلا يومَ الحُدَيْبِية[١].

وقال البراء[٢]: تعدُّون أنتم الفتحَ فتحَ مكَّة، وقد كان فتح مكَّة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحديبية، كنا نُعَدُّ مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبية بئر[٣].

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بغير قتال. وكان الصلح من الفتح[٤].

وقال مجاهد[٥]: هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه.

وكان[٦] فتحُ الحديبية آيةً عظيمة، نُزِح ماؤُها، فمجَّ فيها، فدرَّت بالماء حتى شَرب جميعُ من كان معه[٧].

وقال موسى بن عقبة: قال رجلٌ عند مُنصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدُّونا عن البيت. فقال النبيُّ ﷺ: «بل هو أعظمُ الفتوح، قد رضيَ المشركون أنْ يدفعوكم عن بلادهم بالرَّاح، ويسألوكم القضيَّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا»[٨].

وقال الشعبيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: هو فتحُ الحديبية، لقد

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٢.

(٢) في النسخ: الفراء. وهو خطأ.

(٣) قطعة من حديث البراء أخرجه البخاري (٤١٥٠)، والطبري ٢١/ ٢٤٣، وأخرج بعضه أحمد (١٨٥٦٣). وفي الطبري: خمس عشرة مئة. بدل: أربع عشرة مئة. قال الحافظ ابن حجر ٧/ ٤٤٠: والجمع بين هذا الخلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربع مئة، فمن قال: ألفاً وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربع مئة ألغاه.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٨.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٣٩.

(٦) في النسخ عدا (د) و(ز): وقال: كان. بدل: وكان.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩، والكشاف ٣/ ٥٤٠. وهذا المعنى هو بعض حديث البراء عند البخاري (٤١٥٠) السالف ذكره.

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤١. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٦٠.

أصاب بها ما لم يُصِب في غزوة، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبُويع بيعةَ الرضوان، وأُطعِموا نخلَ خيبر، وبلغَ الهَدْيُ مَحِلّه، وظهرت الرومُ على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس(١).

وقال الزهريّ: لقد كان الحديبيةُ أعظمَ الفتوح؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ جاء إليها في ألف وأربع مئة، فلما وقع الصلحُ؛ مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحدٌ الإسلام إلا تمكَّن منه؛ فما مضتْ تلك السنتان إلاَّ والمسلمونَ قد جاؤوا إلى مكَّة في عشرة آلاف(٢). وقال مجاهدٌ أيضاً والعَوْفي(٣): هو فتح خَيبر. والأوَّل أكثر؛ وخَيبَرُ إنَّما كانت وعْدًا وُعِدُوه؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال مُجَمِّع بن جارية ـ وكان أحدَ القرَّاء الذين قرؤوا القرآن ـ: شهدنا الحديبيةَ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرفنا عنها، إذا الناس يهزُّون الأباعر، فقال بعضُ النَّاس لبعض: ما بالُ النَّاس؟ قالوا: أوحَى الله إلى النبيِّ ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف فوجدنا نبيَّ الله ﷺ عند كُراع الغَمِيم، فلمَّا اجتمع الناسُ قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فقال عمرُ بن الخطاب: أوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لَفتح». فقُسِمت خيبرُ على أهل الحديبية، لم يُدْخَل فيها(٤) أحدٌ إلاَّ من شَهد الحديبية(٥).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢١/ ٢٤٤ ، والبيهقي في الدلائل ٤/ ١٦٢-١٦٣ .

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧ .

(٣) ذكر قولهما ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٢٣ .

(٤) لفظة: فيها. ليست في (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٨ : وفي إسناده ضعف. اهـ. قوله: يهزون الأباعر: أي يحثُّونها ويدفعونها، والوهز: شدَّة الدفع والوَطء. النهاية (وهز)، وقوله: نوجف: الإيجاف سرعة السير، النهاية (وجف). وكُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة. معجم البلدان ٤/ ٤٤٣ .

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فَتْحاً» يدلُّ على أنَّ مكَّة فُتحِت عَنْوةً؛ لأنَّ اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلاَّ على ما فُتِح عَنْوةً. هذا هو حقيقةُ الاسم. وقد يقال: فُتِح البلد صُلحاً، فلا يفهمُ الصُّلح إلَّا بأن يُقرن بالفتح، فصار الفتحُ في الصلح مجازاً[١]. والأخبارُ دالةٌ على أنَّها فُتِحت عَنْوة؛ وقد مضى القولُ فيها، ويأتي[٢].

قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

قال ابن الأنباري: «فَتحاً مُبيناً» غير تام؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ متعلقٌ بالفتح. كأنَّه قال: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمعَ الله لك مع الفتح المغفرة؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرُّ به عينُك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السّجستانيّ: هي لام القسم. وهذا خطأ؛ لأنَّ لامَ القسم لا تُكسر ولا يُنصب بها؛ ولو جاز هذا لجاز: ليقوم زيد؛ بتأويل ليقومنَّ زيد[٣].

الزَّمخشَرِي[٤]: فإنْ قلتَ: كيف يجعل فتحَ مكَّة عِلَّةً للمغفرة؟ قلت: لم يُجعل علَّةً للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة؛ وهي: المغفرةُ، وإتمامُ النعمة، وهدايةُ الصراط المستقيم، والنصرُ العزيز. كأنَّه قيل[٥]: يَسَّرْنا لك فتح مكَّة، ونصرناك على عدوِّك ليُجمع لك عِزُّ الدَّارين، وأغراضُ[٦] العاجل والآجل. ويجوز أنْ يكونَ فتحُ مكَّة من حيثُ إنَّه جهادٌ للعدوِّ سبباً للغفران والثواب.

وفي الترمذيّ عن أنس قال: أُنزلت على النبيّ ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣.

(٢) سلف ١٤/ ٣٥٢، وسيأتي ص٢٨٢ من هذا الجزء.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٠ و٧٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/ ٥١٤.

(٥) في (م): قال.

(٦) في النسخ: أعراض. والمثبت من الكشاف.

﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرجِعَه من الحديبية؛ فقال النبي ﷺ: «لقد أُنزلت عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممَّا على وجه الأرض». ثم قرأها النبيُّ ﷺ عليهم؛ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسولَ الله، لقد بيَّن الله لك ماذا يُفْعَل بك؛ فماذا يُفعَل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]. قال: حديثٌ حسنٌ صحيح، وفيه عن مُجَمِّع بن جارية[١].

واختلف أهلُ التأويل في معنى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها؛ قاله مجاهد[٢]. ونحوه قال الطبريُّ وسفيانُ الثوري.

قال الطبريّ: هو راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]. ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية[٣].

وقال سفيانُ الثوري: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾: ما عملتَه في الجاهلية من قبل أنْ يوحى إليك. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: كلَّ شيء لم تعمله؛ وقاله الواحدي[٤].

وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة البقرة[٥]؛ فهذا قول.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل الفتح. «ومَا تَأَخَّرَ» بعد الفتح. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل نزول

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٣)، وهو عند أحمد (١٢٢٢٦)، وأخرجه البخاري (٤١٧٢) من طريق شعبة عن قتادة. قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كلّه عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس، وأما هنيئاً مريئاً، فعن عكرمة. اهـ. وأخرج مسلم (١٧٨٦) الشطر الأول منه. وحديث مجمّع بن جارية سلف قريباً.

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ ، وعنه نقل المصنف كلام الطبري. إلا أن قول الطبري كما في تفسيره ٢١/ ٢٣٦ : ... ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك.

(٤) في الوسيط ٤/ ١٣٤ .

(٥) ١/ ٤٥٨-٤٦٠ .

هذه الآية. «ومَا تَأَخَّرَ» بعدها[١].

وقال عطاء الخراسانيّ: «مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء. «ومَا تَأَخَّرَ» من ذنوب أمتك[٢].

وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنوب النبيّين.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: من ذنب يوم بدر. «ومَا تَأَخَّرَ» من ذنب يوم حُنَين. وذلك أنَّ الذنب المتقدّم يوم بدر، أنَّه جعل يدعو ويقول: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لا تُعْبد في الأرض أبداً». وجعل يردِّدُ هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه: من أين تعلم أني لو أهلكتُ هذه العصابة لا أُعبد أبداً؛ فكان هذا الذنبَ المتقدِّم. وأمَّا الذنبُ المتأخر فيوم حنين، لمَّا انهزمَ النَّاسُ قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: «ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي» فناولاه، فأخذَه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه. حَم. لا ينصرون». فانهزمَ القوم عن آخرهم، فلم يبق أحدٌ إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجَعوا، فقال لهم عند رجوعهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فكان هذا هو الذنبَ المتأخِّر.

وقال أبو علي الرُّوذَبَاري: يقول: لو كان لك ذنبٌ قديم أو حديثٌ لغفرناه لك[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: في الجنة[٤]. وقيل: بالنبوّة والحكمة[٥]. وقيل: بفتح مكّة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر، وطاعة من تجبَّر[٦]. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يُثبِّتك على الهدى إلى أنْ يقبضك إليه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ١٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٦.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يَتبعُه ذلّ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤﴾

«السَّكِينَةَ»: السكونُ والطُّمأنينة. قال ابن عباس: كلُّ سكينةٍ في القرآن هي الطُّمأنينة إلا التي في «البقرة»[(١)]. وتقدَّم معنى زيادة الإيمان في «آل عمران»[(٢)].

وقال ابنُ عباس: بُعث النبيُّ ﷺ بشهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، فلمَّا صدَّقوه فيها زادَهم الصَّلاة، فلما صدَّقوه زادهم الزكاة، فلما صدَّقوه زادهم الصِّيام، فلما صدَّقوه زادهم الحج، ثمَّ أكمل لهم دينَهم[(٣)]؛ فذلك قوله: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ أي: تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيعُ بن أنس: خَشْيَةً مع خشيتهم[(٤)]. وقال الضَّحَّاك: يقيناً مع يقينهم[(٥)].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال ابن عباس: يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشياطين والإنس[(٦)] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يريده.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾

أي: أنزل السكينةَ ليزدادوا إيماناً. ثم تلك الزيادة سبب[(٧)] إدخالهم الجنة. وقيل:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ .

(٢) ٥/ ٤٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٦ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٨).

(٤) قاله الربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال:٢]. كما في تفسير الطبري ١١/ ٢٩-٣٠ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٩ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٥ .

(٧) في (د) و(ز) و(ق): لسبب، وفي (م): بسبب. والمثبت من (خ) و(ظ) و(ف). وينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٨١-٨٢ .

اللام في «لِيُدْخِلَ» يتعلق بما يتعلق به اللَّام في قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»[١].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوعدُ من دخول مكَّة وغفران الذنوب .﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ أي: نجاةً من كلِّ غمٍّ، وظفراً بكلِّ مطلوب.

وقيل: لمَّا قرأ النبيُّ ﷺ على أصحابه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾. ولمَّا قرأ ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ قالوا: هنيئاً لك؛ فنزلت: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فلمَّا قرأ: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ نزل في حقِّ الأمَّة: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: ٢٠]. ولما قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ نزل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ذكره القشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ أي: بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين، وبأنْ يُسلِّط النبيَّ عليه الصلاة والسلام قَتْلاً وأسرًا واسترقاقاً.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ يعني ظنّهم أنَّ النبيّ ﷺ لا يرجعُ إلى المدينة، ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأنَّ المشركين يستأصلونَهم. كما قال: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ [الفتح: ١٢]. وقال الخليلُ وسيبويه: «السّوء» هنا الفساد[٢].

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/٢٤٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠ .

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبي والأسر، وفي الآخرة بجهنَّم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرةُ السُّوء﴾ بالضم. وفتحَ الباقون[1]. قال الجوهري[2]: ساءه يسوءه سَوْءاً؛ بالفتح، ومَسَاءة ومَسائية؛ نقيضُ سرَّه، والاسم: السُّوء؛ بالضم. وقُرِئ ﴿عليهم دائرةُ السُّوء﴾ يعني: الهزيمة والشر. ومن فَتَح فهو من المساءة.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. تقدَّم في غير موضعٍ جميعه، والحمد لله.

وقيل: لمَّا جرى صُلح الحديبية قال ابن أُبيّ: أيظنُّ محمدٌ أنَّه إذا صالح أهلَ مكَّة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارسُ والروم؟ فبيَّنَ الله عزَّ وجلَّ أنَّ جنودَ السماوات والأرضِ أكثرُ من فارس والروم.

وقيل: يدخل فيه جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: ولله جنود السماوات: الملائكة، وجنود الأرض: المؤمنون. وأعاد لأنَّ الذي سبقَ عقيبَ ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيبَ ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمرادُ في الموضعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاكَ المنافقين والمشركين لم يُعجزه ذلك، ولكن يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسَمَّى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ قال قتادة: على أمَّتك بالبلاغ. وقيل: شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعةٍ أو معصية. وقيل: مُبيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم[3]. وقيل:

(١) السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص١١٩.

(٢) في الصحاح (سوأ).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٢.

شاهداً عليهم يوم القيامة. فهو شاهدُ أفعالهم اليوم، والشهيدُ عليهم يوم القيامة. وقد مضى في «النساء» عن سعيد بن المسيِّب[١] هذا المعنى مبيَّناً.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى؛ قاله قتادة وغيره[٢]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ البِشارة والنِّذارة ومعناهما[٣]. وانتصبَ «شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» على الحال المقدَّرة. حكى سيبويه[٤]: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً. فالمعنى: إنَّا أرسلناك مقدِّرين بشهادتك يومَ القيامة. وعلى هذا تقول: رأيت عمراً قائماً غداً.

﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابنُ كثير وابنُ مُحَيصن وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا» بالياء، وكذلك «وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلُّه بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأمَّا قبلَه فقولَه: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ وأمَّا بعدَه فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الباقون بالتاء على الخطاب[٥]، واختارَه أبو حاتم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّموه وتُفخِّموه؛ قاله الحسن والكلبي[٦]. والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه[٧]. ومنه التعزير في الحدّ؛ لأنَّه مانع. قال القَطاميّ[٨]:

ألا بَكَرَتْ مَيٌّ بغير سَفَاهةٍ تُعاتِبُ والمَوْدُود ينفعه العَزْرُ

---

(١) في النسخ عدا (خ) و(ظ): سعيد بن جبير ـ وسلف هذا المعنى عن سعيد بن المسيب ٦/ ٣٢٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٣، وأخرج قول قتادة الطبري ٢١/ ٢٥٠.

(٣) ١/ ٢٨١، ٣٥٨.

(٤) في الكتاب ٢/ ٤٩.

(٥) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص٢٠١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥١.

(٨) في ديوانه ص١٢٤. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣١٣، والكلام فيه بنحوه.

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف(١). وقال بعضُ أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تسوِّدُوه؛ قاله السُّديّ(٢). وقيل: تُعظموه. والتوقير: التعظيم والتَّرْزين أيضاً(٣). والهاء فيهما للنبيِّ ﷺ. وهنا وقفٌ تام، ثم تبتدئ: «وتُسَبِّحُوهُ». أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عَشِيًّا.

وقيل: الضمائرُ كلُّها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تُثبتوا له صحةَ الربوبية وتنفوا عنه أنْ يكونَ له ولدٌ أو شريك(٤). واختارَ هذا القول القشيريّ. والأوَّل قولُ الضَّحَّاك، وعليه يكون بعضُ الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى، وهو: «وَتُسَبِّحُوهُ» من غير خلاف، وبعضُه راجعاً إلى رسوله ﷺ وهو «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تَدْعوه بالرسالة والنبوَّة لا بالاسم والكُنيَة.

وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجهان: أحدهما: تسبيحُه بالتنزيه له سبحانه من كلِّ قبيح. والثاني: هو فعلُ الصلاة التي فيها التسبيح. «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أي: غُدْوة وعَشِيّاً(٥). وقد مضى القول فيه(٦). وقال الشاعر(٧):

لَعَمْرِي لأنتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَهُ ... وأجلس في أفْيائه بالأصائلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية يا محمد. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ بيَّن

---

(١) قول ابن عباس من طريق مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطأة عن عكرمة عنه أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٦٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قال أحمد: مبشر بن عبيد كان يضع الحديث. وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٣) الصحاح (وقر). وسلف قوله: تعظموه عن الحسن والكلبي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٣-٣١٤.

(٦) ١٧/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٧) هو أبو ذؤيب. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤١. وسلف ٩/ ٤٣٥.

أن بيعتهم لنبيِّه ﷺ إنَّما هي بيعةُ الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وهذه المبايعةُ هي بيعةُ الرِّضوان؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إنْ شاء الله تعالى.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل المعنى[١]: يدُه في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويدُه في المِنَّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة[٢]. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة[٣]. وقال ابن كَيْسان: قوَّةُ الله ونصرتُه فوق قوَّتهم ونصرتهم[٤].

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ بعد البيعة. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: يَرجعُ ضررُ النَّكث عليه؛ لأنَّه حَرَمَ نفسَه الثوابَ، وألزمَها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ قيل: في البيعة. وقيل: في إيمانه. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني في الجنَّة.

وقرأ حفصٌ والزُّهريّ: «عليهُ الله» بضمِّ الهاء. وجرَّها الباقون. وقرأ نافعٌ وابنُ كثير وابن عامر: «فَسَنُؤتِيهِ» بالنون. واختاره الفرّاء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء[٥]. وهو اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ لِقُرب اسم الله منه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهدٌ وابن عباس: يعني

(١) لفظة: المعنى. ليست في (م).

(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٠.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٦.

(٥) السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص١٤٤، ٢٠١.

أعراب غِفار ومُزَيْنة وجُهينة وأسلم وأشْجَع والدِّيل؛ وهم الأعرابُ الذين كانوا حول المدينة؛ تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ حين أرادَ السَّفر إلى مكَّة عام الفتح، بعد أنْ كان استنفرَهم ليخرجوا معه حَذَراً من قريش، وأحرم بعُمرَةٍ وسَاق معه الهَدْيَ؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يريدُ حرباً، فتثاقلوا عنه، واعتلُّوا بالشُّغل؛ فنزلت[١]. وإنما قال: «المُخَلَّفُونَ»؛ لأنَّ الله خلَّفهم عن صُحبة نبيِّه. والمخَلَّف المتروك. وقد مضى في «براءة»[٢].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا من يقومُ بهما. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ جاؤوا يطلبون الاستغفار واعتقادُهم بخلاف ظاهرهم؛ ففضَحَهم الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ وهذا هو النِّفاقُ المحض.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيّ: «ضُرًّا» بضمِّ الضَّاد هنا فقط، أي: أمراً يضرُّكم. وقال ابنُ عباس: الهزيمة. الباقون بالفتح[٣]؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا. وبالضَّمِّ اسمٌ لمَا ينالُ الإنسان من الهُزال وسوء الحال[٤]. والمصدرُ يؤدّي عن المرّة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قالا: لأنَّه قابَله بالنفع، وهو ضدُّ الضَّرِّ[٥]. وقيل: هما لغتان بمعنًى؛ كالفَقْر والفُقْر، والضَّعْف والضُّعف[٦]. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ﴾ أي: نصراً وغَنيمةً. وهذا ردٌّ عليهم حين ظنُّوا أنَّ التخلُّف عن الرسول يدفعُ عنهم الضُّرَّ ويعجِّلُ لهم النفع[٧].

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١.

(٢) ١٠/ ٣١٦.

(٣) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١.

(٤) ينظر الصحاح (ضرر).

(٥) ذكر قول أبي عبيد النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٩.

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٧٢، والحجة للفارسي ٦/ ٢٠٢.

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٣٧.

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وذلك أنّهم قالوا: إنَّ محمداً وأصحابَه أَكَلَةُ رأسٍ لا يرجعون[١]. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: النِّفاق. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزيينُ من الشيطان، أو يخلقُ الله ذلك في قلوبهم.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أنَّ الله لا يَنْصر رسولَه. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هَلْكَى؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيءٍ من الخير[٢]. قال الجَوهريّ[٣]: البُور: الرجلُ الفاسدُ الهالك الذي لا خير فيه. قال عبدُ الله بن الزِّبَعرى السَّهمِي[٤]:

يا رسولَ المليك إنَّ لساني راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

وامرأةٌ بُور أيضاً؛ حكاه أبو عبيد[٥]. وقوم بُورٌ هَلْكَى. قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وهو جمع بائر؛ مثل: حائل وحُول. وقد بار فلانٌ، أي: هلك. وأباره الله، أي: أهلكه.

وقيل: «بُوراً»: أشراراً؛ قاله ابن بحر[٦]. وقال حسان بن ثابت:

لا ينفع الطُّول من نُوكِ القلوبِ وقد يهدي الإله سبيلَ المَعْشَرِ البورِ[٧]

أي: الهالك.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ . وقولهم: هم أكلة رأس، أي: هم قليلٌ يشبعُهم رأسٌ واحد. الصحاح (أكل).
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .
(٣) في الصحاح (بور).
(٤) ديوانه ص٣٦ .
(٥) في الصحاح: أبو عبيدة.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .
(٧) ديوان حسان ص١٢٣ . وفيه: الرجال. بدل: القلوب. ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ، ووقع في الديوان، والخزانة ٤/ ٧٢ : ولا يهدي. بدل: وقد يهدي. وقوله: النوك، بضم النون، أي: الحماقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيدٌ لهم، وبيانُ أنَّهم كفروا بالنِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أي: هو غنيٌّ عن عباده، وإنَّما ابتلاهم بالتكليف ليُثيبَ من آمن، ويعاقبَ من كفر وعصى.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانمَ خيبر؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ وَعَدَ أهلَ الحديبية فتحَ خَيْبر، وأنها لهم خاصَّةً من غاب منهم ومن حضر. ولم يَغِب منهم عنها غيرُ جابر بن عبد الله، فقسَم له رسولُ الله ﷺ كَسَهْمِ من حضر[١].

قال ابن إسحاق: وكان المتولِّي للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة[٢]، وزيد بن ثابت من بني النَّجّار؛ كانا حاسِبَين قاسمَين[٣].

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: دعونا. تقول: ذَرْه، أي: دعه. وهو يَذَرُه، أي: يَدَعُه. وأصله: وَذِرَه يَذَرُه، مثالُ: وَسِعَه يسَعُه. وقد أُميت مصدرُه[٤]، لا يقال: وَذْره ولا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٩.

(٢) جبار بن صخر ﷺ ممن شهد بدراً، وكان ابن اثنين وثلاثين سنة، ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلة العقبة، توفي في المدينة سنة ثلاثين. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢/ ١٢٥.

(٣) الدرر ص٢٣٧، ووقع في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥٧: يزيد بن ثابت.

(٤) في النسخ: صدره. والمثبت من الصحاح (وذر) والكلام منه. قال الزبيدي في تاج العروس (وذر): أماتوا مصدره وماضيَه.

وَاذِر، ولكنْ تركه وهو تارك .

قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكَّة، فلمَّا خرج النبي ﷺ، وأخذَ قوماً، ووجَّه بهم، قالوا: ذَرُونا نتَّبعكم فنقاتلَ معكم(١).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: يغيِّروا. قال ابنُ زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ الآية [التوبة: ٨٣]. وأنكر هذا القولَ الطبريُّ(٢) وغيره؛ بسبب أنَّ غزوةَ تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكَّة. وقيل: المعنى يريدون أنْ يغيِّروا وعدَ الله الذي وَعَد لأهل الحُدَيبِيَة، وذلك أنَّ الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح؛ قاله مجاهدٌ وقتادة، واختارَه الطبريُّ(٣)، وعليه عامَّةُ أهل التأويل(٤).

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «كَلِمَ» بإسقاط الألف وكسر اللام؛ جمع كلمة؛ نحو سَلِمة وسَلِم. الباقون: «كَلَامَ» على المصدر(٥). واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والكلام: ما استقلَّ بنفسه من الجمل. قال الجوهريّ: الكلام اسمُ جنسٍ يَقَع على القليل والكثير. والكَلِم لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات؛ لأنَّه جمعُ كَلِمة؛ مثل نَبِقة ونَبِق. ولهذا قال سيبويه(٦): هذا بابُ عِلم مَا الكَلِمُ من العربية، ولم يقل: ما الكلام؛ لأنَّه أراد نفسَ ثلاثة أشياء: الاسمُ والفعلُ والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعاً، وتركَ ما يمكن أنْ يقعَ على الواحد والجماعة. وتميمٌ تقول: هي كِلْمةٌ، بكسر

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٢ .

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٦٣ .

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٦١-٢٦٢ ، وخرج قولي مجاهد وقتادة فيه.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ١٩٢ .

(٥) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٦) في الكتاب ١/ ١٢ .

الكاف[١]، وقد مضى في «براءة» القول فيها[٢].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قبل رجوعنا من الحديبية: إنَّ غنيمةَ خيبر لمن شهد الحديبية خاصة. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُصيبَ معكم من الغنائم[٣]. وقيل: قال رسول الله ﷺ: «إنْ خرجتُم لم أمنعكم إلا أنَّه لا سهمَ لكم». فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يعلمون إلَّا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهونَ من أمر الدين إلَّا قليلاً؛ وهو ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابنُ عباس وعطاءُ بن أبي رباح ومجاهدٌ وابنُ أبي لَيْلَى وعطاءٌ الخراسانيّ: هم فارس. وقال كعبٌ والحسنُ وعبدُ الرحمن بن أبي لَيْلَى: الروم. وعن الحسن أيضاً: فارس والروم. وقال ابن جُبَير: هوازن وثَقِيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغَطَفان يومَ حُنين. وقال الزُّهْريُّ ومقاتل: بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحابُ مُسَيلِمة. وقال رافعُ بن خَديج: والله لقد كنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فلا نعلم مَن هم؛ حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة؛ فعلمنا أنَّهم هم. وقال أبو هريرة: لم

(١) الصحاح (كلم).

(٢) ١٠/٢١٩-٢٢٠ .

(٣) الوسيط للواحدي ٤/١٣٨ ، وتفسير البغوي ٤/١٩٢ .

تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردُّه[١].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صحة إمامة أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأمَّا قولُ عكرمة وقتادة: إنَّ ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين. فلا؛ لأنَّه يمتنع أنْ يكون الداعي لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنَّه قال: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾. فدلَّ على أن المراد بالداعي غيرُ النبي ﷺ. ومعلومٌ أنَّه لم يدعُ هؤلاء القومَ بعد النبي ﷺ إلَّا أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما[٢]. الزَّمَخْشَرِي[٣]: فإنْ صحَّ ذلك عن قتادة؛ فالمعنى: لنْ تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين، أو على قول مجاهد؛ كان الموعدُ أنَّهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلَّا متطوِّعين لا نصيبَ لهم في المغنم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حكمُ من لا تُؤخذ منهم الجِزية، وهو معطوفٌ على «تُقَاتِلُونَهُمْ». أي: يكونُ أحدُ الأمرين: إمَّا المقاتلةُ وإمَّا الإسلام، لا ثالث لهما. وفي حرف أُبَيّ: «أَوْ يُسْلِمُوا»[٤] بمعنى: حتى يُسْلِمُوا، كما تقول: كُلْ أو تشبع، أي: حتى تشبع. قال:

فقلتُ له لاتَبْكِ عَيْنُك إنَّما نحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فنُعذَرا[٥]

وقال الزَّجَّاج: قال: «أَوْ يُسْلِمُونَ»؛ لأنَّ المعنى: أو هم يُسلِمون من غير قتال[٦]. وهذا في قتال المشركين، لا في أهل الكتاب.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣١٥-٣١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٢، وزاد المسير ٧/ ٤٣١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٤٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٣.

(٥) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ٥/ ١٧٣.

(٦) كلام الزجاج بنحوه في البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٧٧.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: الغنيمةَ والنَّصر في الدنيا، والجنَّة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾: عام الحُدَيْبِيَة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: وهو عذابُ النار.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قال ابن عباس: لمَّا نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهلُ الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1] أي: لا إثمَ عليهم في التخلُّف عن الجهاد لِعَمَاهم وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في «براءة» وغيرها الكلام فيه مُبيَّنًا[2].

والعَرَجُ: آفةٌ تَعرِض لرِجْلٍ واحدة، وإذا كان ذلك مؤثِّرًا؛ فخللُ الرِّجْلين أولى أنْ يؤثِّر.

وقال مقاتل: هم أهلُ الزَّمانة الذين تخلَّفوا عن الحديبية وقد عذرهم[3]. أي: مَنْ شاء أنْ يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون على التعظيم. الباقون بالياء[4]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدُّم اسم الله أوّلاً. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٥٦، ونسبه للكلبي.

(٢) ١٠/ ٣٣١، ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٩.

(٤) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذه بيعة الرِّضوان، وكانت بالحُديبية، وهذا خبرُ الحديبية على اختصار: وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أقام مُنْصَرَفَه من غَزْوة بني المُصطَلِق في رمضان وشوَّال، وخرج في ذي القَعدة مُعْتَمِرًا، واستنفر الأعرابَ الذين حول المدينة، فأبطأ عنه أكثرُهم، وخرج النبيُّ ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتَّبعه من العرب، وجميعُهم نحو ألفٍ وأربع مئة[(١)] وقيل: ألف وخمس مئة[(٢)]. وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساقَ معه الهَدْيَ، فأحرم رسول الله ﷺ لِيَعْلَم النَّاسُ أنَّه لم يخرجْ لحرب، فلمَّا بلغ خروجُه قريشاً خرج جمْعُهم صادِّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنَّه إنْ قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقدَّموا خالدَ بن الوليد في خيل إلى كُرَاع الغَمِيم[(٣)]. فورد الخبرُ بذلك على رسول الله ﷺ وهو بعُسفان[(٤)] وكان المخبرَ له بشرُ بن سفيان الكَعبيّ[(٥)]، فسلك

(١) هو قول جابر ﷺ كما في مسند أحمد (١٤٨٢٣)، وصحيح البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسيأتي بتمامه ص٣١٧ من هذا الجزء، وسلف من قول البراء أيضاً ص٢٩٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قول جابر ﷺ أيضاً كما في مسند أحمد (١٤١٨١)، وسيأتي ص٣١٧ من هذا الجزء.

(٣) كذا في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ ، والدرر لابن عبد البر ص٢٢٢ والكلام منه. وفي صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) في حديث طويل عن المسور بن مخرمة ومروان... قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل...» قال ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٥ : وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية فهو غير كراع الغميم... وهو الذي بين مكة والمدينة، وأما الغميم هذا فقال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة.

(٤) عُسْفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. معجم البلدان ٤/ ١٢٢ .

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ . ثم قال ابن هشام: ويقال: بُسْر. اهـ . والأخير هو الذي صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٤ . وهو بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي. أسلم سنة ست من الهجرة. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١/ ٣٠٩ .

طريقاً يخرجُ به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليلَه فيه[(١)] رجلٌ من أسلم، فلمَّا بلغ ذلك خيلَ قريشٍ التي مع خالد؛ جرتْ إلى قريشٍ تُعلمهم بذلك.

فلمّا وصل رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية؛ بركت ناقتُه ﷺ، فقال الناس: خلأت خلأت! فقال النبيُّ ﷺ: «ما خَلأتْ؛ وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسَها حابسُ الفيل عن مكَّة. لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صلة رَحِم إلَّا أعطيتُهم إيَّاها». ثم نزلَ ﷺ هناك؛ فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء! فأخْرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَليبٍ من تلك القُلُب، فغرزَه في جوفه، فجاشَ بالماء الرَّواء حتى كفى جميعَ الجيش[(٢)].

وقيل: إنَّ الذي نزل بالسَّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي، وهو سائقُ بُدْن النبيِّ ﷺ يومئذٍ. وقيل: نزل بالسَّهم في القَليب البرَاءُ بن عازب.

ثمَّ جرت السُّفَراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أنْ جاءه[(٣)] سُهيل بن عمرو العامريّ، فقاضاه على أنْ ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك، فإذا كان من قابل، أتى مُعْتَمِراً، ودخل هو وأصحابُه مكَّة بلا سلاح[(٤)]، حاشا السيوف في قُربها، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج، وعلى أنْ يكون بينه

---

(١) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): فيهم. والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) وهو الموافق للدرر ص٢٢٢ والكلام منه.

(٢) خبر وقوف ناقته ﷺ، ونبع الماء من القليب عند أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطول.

وقوله خلأت: الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب. النهاية (خلأ). وماء رَواء. أي: كثير مروٍ. اللسان (روي).

(٣) في (م): جاء.

(٤) في (د) و(م): بغير سلاح، وفي (خ): بالسلاح، وفي (ز): بسلاح. والمثبت من (ظ) و(ف) و(ق). وهو الموافق للدرر والكلام منه.

وبينهم صلحُ عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمنُ بعضهم بعضاً، وعلى أنَّ من جاء من الكفَّار إلى المسلمين مسلماً من رجلٍ أو امرأةٍ رُدَّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً، لم يردُّوه إلى المسلمين؛ فعَظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسولُ الله ﷺ أعلم؛ لما[1] علَّمه الله من أنَّه سيجعل للمسلمين فرجاً، فقال لأصحابه: «اصبروا؛ فإن الله يجعلُ هذا الصلحَ سبباً إلى ظهور دينه». فأنِس الناسُ إلى قوله هذا بعد نفارٍ منهم.

وأبَى سهيلُ بن عمرو أنْ يُكْتَب في صدر صحيفة الصُّلح: من محمدٍ رسول الله، وقالوا له[2]: لو صدَّقناك بذلك ما دفعناك عمَّا تريد! فلابدَّ أنْ تكتب: باسمك اللهم. فقال لعليٍّ ـ وكان يكتب صحيفةَ الصلح ـ: «امح يا عليّ، واكتب باسمك اللهم» فأبى عليٌّ أن يمحو بيده: «محمد رسول الله». فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضه عليَّ» فأشار إليه فمحَاه رسولُ الله ﷺ بيده، وأمره أنْ يكتب: «من محمد بن عبد الله».

وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذٍ بإثر كتاب الصلح، وهو يَرْسُفُ في قيوده، فردَّه رسولُ الله ﷺ إلى أبيه؛ فعظُم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل أنَّ الله سيجعلُ له فرجاً ومخرجاً[3].

وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكَّةَ رسولاً، فجاء خبرٌ إلى رسول الله ﷺ بأنَّ أهل مكَّة قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ حينئذٍ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكَّة؛ فرُوي أنَّه بايعَهم على الموت. ورُوي أنَّه بايعَهم على ألَّا يَفِرُّوا؛ وهي بيعةُ الرِّضوان تحت الشجرة، التي أخبرَ الله تعالى أنَّه رضيَ عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتَها. وأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّهم لا يدخلون النَّار. وضربَ

---

(١) في (م) والدرر ص٢٢٤: بما.

(٢) في الدرر: وقال له.

(٣) الدرر ص٢٢٤، وقصة أبي جندل خرجها أحمد في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (١٨٩١٠)، وهي في صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) دون قوله: «أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».

رسولُ الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان، وقال: «هذه عن عثمان»[١]؛ فهو كمن شهدَها. وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبيّ قال: أوّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية أبو سنان[٢] الأسدي[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كنَّا يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحتَ الشجرة وهي سَمُرَة، وقال: بايعناه على ألّا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت[٤].

وعنه أنَّه سمع جابراً يُسأل: كم كانوا يومَ الحديبية؟ قال: كنَّا أربعَ عشرة مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحت الشجرة؛ وهي سَمُرة؛ فبايعناه، غيرَ جَدِّ بن قيس الأنصاري، اختبأ تحتَ بطن بعيره[٥].

وعن سالم بن أبي الجَعْد قال: سألتُ جابرَ بن عبد الله عن أصحاب الشجرة، فقال: لو كنَّا مئة ألفٍ لكفانا، كنَّا ألفاً وخمس مئة[٦]. وفي روايةٍ: كنَّا خمسَ عشرة مئة[٧].

وعن عبد الله بن أبي أوْفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاث مئة، وكانت أسلَمُ ثُمُنَ المهاجرين[٨].

---

(١) خبر مبايعة النبي ﷺ عن عثمان ﷺ أخرجه البخاري (٣٦٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ: أبو سفيان. والمثبت من المصادر.

(٣) الدرر ص٢٢٢-٢٢٥ والكلام من أول قصة الحديبية منه. وخبر الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٤ .

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسلف طرفه ص٣١٤ من هذا الجزء. والسمرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان. النهاية (سمر).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٥٩)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١٨١)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٢). وقوله: لكفانا، يعني الماء الذي جعل يفور من بين أصابعه ﷺ عندما وضع يده الشريفة في الركوة، كما في رواية البخاري (٤١٥٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٣).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٧).

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: قلتُ لسلمة: على أيِّ شيء بايعتُم رسولَ الله ﷺ يومَ الحديبية؟ قال: على الموت[١].

وعن البَرَاء بن عازب قال: كتب عليٌّ ﷺ الصُّلح بين النبيِّ ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب: هذا ما كاتبَ عليه محمدٌ رسول الله ﷺ، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلمُ أنَّك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبيّ ﷺ لعليّ: «امْحُه». فقال: ما أنا بالذي أمحاه؛ فمحاه النبيُّ ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبَّان السلاح؛ القِراب وما فيه[٢].

وعن أنس: أنَّ قريشاً صالحوا النبيَّ ﷺ؛ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبيُّ ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيلُ بن عمرو: أما بسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: «اكتب من محمدٍ رسول الله» قالوا: لو علمنا أنَّك رسوله لاتبعناك! ولكنْ اكتب اسمكَ واسمَ أبيك. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». فاشترطوا على النبيِّ ﷺ أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم، ومن جاء[٣] منَّا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتبُ هذا! قال: «نعم، إنَّه مَن ذهب[٤] منَّا إليهم فأبعدَه الله، ومن جاءنا منهم فسيجعلُ الله له فرجاً ومخرجاً»[٥].

وعن أبي وائل قال: قام سهلُ بن حُنيف يومَ صِفِّين فقال يا أيُّها الناس، اتَّهموا أنفسَكم، لقد كنَّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا؛ وذلك في

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٠٩)، والبخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣): (٩٠). وقوله: القِراب وما فيه. هو من كلام أبي إسحاق؛ راوي الحديث عن البراء. كما في صحيح مسلم.

(٣) في (م): جاءكم.

(٤) في النسخ الخطية: جاء، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

الصُّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمرُ بن الخطاب ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: «بلى» قال: ففيَم نعطي الدّنِيَّة في ديننا، ونرجعُ ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنِّي رسولُ الله، ولن يُضَيِّعَني الله أبداً» قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا، ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنَّه رسولُ الله، ولن يُضيعه الله أبداً. قال: فنَزل القرآنُ على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَ فَتْحٌ هو؟ قال: «نعم». فطابتْ نفسُه ورجع[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء[(٢)]. وقال ابن جريج وقتادة: من الرِّضا بأمر البيعة على ألَّا يفرُّوا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت[(٣)]. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا.

وقيل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الكآبة بصدِّ المشركين إيَّاهم، وتخلُّفِ رؤيا النبيِّ ﷺ عنهم؛ إذ[(٤)] رأى أنَّه يدخل الكعبة، حتَّى قال رسول الله ﷺ: «إنَّما ذلك رؤيا منام». وقال الصِّدِّيق: لم يكن فيها الدخولُ في هذا العام.

والسكينة: الطُّمأنينةُ وسكونُ النفس إلى صدق الوعد. وقيل: الصبر.

﴿وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتحُ خيبر. وقيل: فتحُ مكة[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٧٥)، والبخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥): (٩٤).

(٢) النكت والعيون ٥/٣١٦ .

(٣) ذكر قول مقاتل الماورديُّ في النكت والعيون ٥/٣١٦ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٣٤ قال ابن عطية: وهذا ضعيف: فيه مذمة للصحابة.

(٤) في (د) و(م): إذا.

(٥) النكت والعيون ٥/٣١٦ ، وقول قتادة وابن أبي ليلى أخرجه الطبري ٢١/٢٧٨ .

وقُرِئ: «وآتَاهُمْ»(١).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: أموال خيبر، وكانت خيبرُ ذاتَ عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكّة. فـ«مَغَانِمَ» على هذا بدلٌ من «فَتْحًا قَرِيبًا»، والواو مقحمة. وقيل: «وَمَغَانِمَ» فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: إنّها المغانمُ التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانمُ خيبر. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: خيبر؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عجّل لكم صلحَ الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أهلَ مكّة؛ كفَّهم عنكم بالصلح. وقال قتادة: كفّ أيديَ اليهود عن المدينة بعد خروج النبيِّ ﷺ إلى الحديبية وخيبر. وهو اختيار الطبريّ(٢)؛ لأنَّ كفّ أيدي المشركين بالحديبية مذكورٌ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. وقال ابن عباس: في «كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ» يعني عُيَينة ابن حِصْن الفَزَاري وعوف بن مالك النَّضْريّ ومن كان معهما؛ إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر والنبيُّ ﷺ محاصرٌ لهم؛ فألقى الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم الرُّعب، وكَفَّهم عن المسلمين(٣).

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هزيمتُهم وسلامتكم آيةً للمؤمنين؛ فيعلموا أنَّ الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم(٤). وقيل: أي: وليكون(٥) كفُّ أيديهم عنكم

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٦ ، ونسبها للحسن ونوح القارئ، وهي قرءاة شاذة.

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٨٢ ، والأقوال السالفة جميعها أخرجها الطبري ٢١/ ٢٧٩-٢٨٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠١ .

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢٨٣ .

(٥) في (ف) و(م): ولتكون.

آيةً للمؤمنين. وقيل: أي: ولتكون هذه التي عجَّلها لكم آيةً للمؤمنين على صدقك حيثُ وعدتهم أنْ يصيبوها(١).

والواو في «ولِتَكُونَ» مقحمةٌ عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفةٌ على مضمر، أي: وكفَّ أيديَ النَّاس عنكم لتشكروه ولتكون آيةً للمؤمنين(٢).

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يزيديكم هُدًى، أو يثبِّتكم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ «أُخرَى» معطوفة على «هذِهِ»؛ أي: فعجَّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى(٣).

﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فُتحت على المسلمين؛ كأرض فارسَ والروم، وجميع ما فتحه المسلمون(٤). وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى(٥).

وعن ابن عباس أيضاً والضَّحَّاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وَعَدَها اللهُ نبيَّه قبل أنْ يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها(٦).

وعن الحسن أيضاً وقتادة: هو فتح مكَّة(٧). وقال عكرمة: حُنين(٨)؛ لأنَّه قال:

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣١٧، وزاد المسير ٧/ ٤٣٦.

(٢) ينظر الخلاف بين الكوفيين والبصريين على زيادة الواو في الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري ٢/ ٤٥٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨.

(٥) أخرج قول ابن عباس والحسن وابن أبي ليلى الطبريُّ ٢١/ ٢٨٤، وقول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

(٦) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٨٥.

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ ورجحه. ورجحه أيضاً الطبري ٢١/ ٢٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾. وهذا يدلُّ على تقدُّم محاولةٍ لها، وفواتِ دَرْكِ المطلوب في الحال، كما كان في مكَّة؛ قاله القشيريّ.

وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة[١].

ومعنى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: أي: أعدَّها لكم، فهي كالشيء الذي قد أُحيط به من جوانبه، فهو محصورٌ لا يفوت، فأنتم وإنْ لم تقدروا عليها في الحال؛ فهي محبوسةٌ عليكم لا تفوتكم.

وقيل: ﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: علم أنَّها ستكون لكم، كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقيل: حفظَها الله عليكم؛ ليكون فتحُها لكم[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ قال قتادة: يعني: كفارَ قريشٍ في الحديبية[٣]. وقيل: «وَلَوْ قَاتَلَكُم» غَطَفان وأسد، والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر[٤]؛ لكانت الدائرة عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ يعني: طريقةُ الله وعاداتُه السالفةُ نصرُ أوليائه على أعدائه. وانتصب «سُنَّة» على المصدر. وقيل: «سُنَّةَ اللهِ» أي: كَسُنَّةِ الله[٥]. والسنة: الطريقة والسِّيرة[٦]. قال:

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٨٧ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٨ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨ .

(٦) الصحاح (سنن).

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ[١] أنت سِرْتَها ... فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها[٢]

والسُّنة أيضاً: ضَرْبٌ من تمر المدينة[٣]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهي الحديبية[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ رَوى يزيدُ بن هارون قال: أخبرنا حمَّادُ بنُ سلمةَ عن ثابتٍ عن أنسٍ أنَّ ثمانينَ رجلاً من أهل مكَّةَ هبطوا على النبيِّ ﷺ من جبل التَّنعيم متسلِّحين، يريدون غِرَّةَ النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[٥].

وقال عبد الله بن مُغفَّل المُزَنيُّ: كنا مع النبيِّ ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن؛ فبينَا نحن كذلك، إذ خرجَ علينا ثلاثون شابّاً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبيُّ ﷺ، فأخذَ الله بأبصارِهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد، أو هل جَعل لكم أحدٌ أماناً». قالوا: اللهم لا، فخلَّى سبيلهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية[٦].

---

(١) في (م): سيرة.

(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧ .

(٣) الصحاح (سنن).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وهو قول أنس كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٥٤)، ومسلم (١٨٠٨). وفيهما: فأخذهم سلماً فاستحياهم. والغِرَّة: هي الغفلة. الصحاح (غرر).

(٦) أخرجه مطولاً ـ أحمد (١٦٨٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٧).

وذكر ابنُ هشامٍ عن وكيع: وكانت قريشٌ قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم؛ ففطِنَ المسلمون لهم، فأخذوهم أسرى، وكان ذلك، والسفراءُ يمشونَ بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يُسَمَّونَ العُتَقاء، ومنهم معاويةُ وأبوه(١).

وقال مجاهد: أقبل النبيُّ ﷺ مُعتَمِراً، إذ أخذ أصحابُهُ ناساً من الحرم غافلين، فأرسلهم النبيُّ ﷺ؛ فذلك الإظفارُ ببطن مكة(٢).

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: زُنيم، اطَّلعَ الثنيَّة من الحديبية، فرماه المشركون بسهمٍ فقتلوه؛ فبعث النبيُّ ﷺ خيلاً، فأتَوا باثني عشرَ فارساً من الكفار، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «هل لكم عليَّ ذمّة؟» قالوا: لا. فأرسلَهم، فنزلت(٣). وقال ابن أبْزَى والكلبيُّ: هم أهل الحديبية، كفَّ الله أيديَهم عن المسلمين حتى وقع الصُّلح، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين، وكفَّ أيديَ المسلمين عنهم.

وقد تقدَّم أنَّ خالدَ بنَ الوليد كان في خيل المشركين(٤). قال القشيري: فهذه رواية، والصحيحُ أنَّه كان مع النبيِّ ﷺ في ذلك الوقت.

وقد قال سلمةُ بن الأكْوَع: كانوا في أمر الصُّلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت بستَّةٍ من المشركين أسُوقُهم متسلِّحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا؛ فأتيتُ بهم رسولَ الله ﷺ(٥).

وكان عمر قال في الطريق: يا رسولَ الله، نأتي قوماً حَرْباً وليس معنا سلاح

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص٢٢٥ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١-٦٠٢ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠-٢٩١ .

(٤) ص٣١٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٤٤٠-٤٤١ .

ولا كُراع؟ فبعث رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من الطريق، فأتَوه بكلِّ سلاح وكُراعٍ كان فيها، وأُخبِر رسول الله ﷺ أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهْلٍ خرج إليك في خمس مئة فارس؛ فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: هذا ابنُ عمِّك أتاك في خمس مئة. فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله، فيومئذٍ سُمِّي بسيف الله، فخرج ومعه خيلٌ، وهَزم الكفارَ ودفعهم إلى حوائط مكَّة[١]. وهذه الروايةُ أصحُّ.

وكان بينهم قتالٌ بالحجارة[٢]. وقيل: بالنَّبل والظُّفْر[٣]. وقيل: أراد بكفِّ اليد أنَّه شَرَط في الكتاب أنَّ من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم، فخرج أقوامٌ من مكَّةَ مسلمون، وخافوا أنْ يردَّهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المشركين، فلحقوا بالسَّاحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يُغيرون على الكفار ويأخذون عِيْرهم، حتى جاء كبارُ قريشٍ إلى النبيِّ ﷺ وقالوا: اضممهم إليك حتى نأمن؛ ففعل[٤].

وقيل: هَمَّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيبر[٥]؛ لأنَّهم كانوا حلفاءَهم، فمنعهم الله عن ذلك؛ فهو كفُّ اليد.

﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يريد به مكَّة. الثاني: الحُديبية؛ لأنَّ بعضَها مضافٌ إلى الحرم. قال الماوردي[٦]: وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: بفتح مكَّة[٧]. وتكون هذه نزلت بعد فتح مكَّة، وفيها دليلٌ على أنَّ مكَّة فُتحت صُلحاً؛

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩١ عن ابن أبزى. والكراع: اسم يجمع الخيل. الصحاح (كرع).

(٢) هو قول ابن عباس كما في الكشاف ٣/ ٥٤٧ .

(٣) هو قول مقاتل كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ . والظُّفْر: هو ما وراء معقد الوتر إلى طرف القوس، أو طرف القوس. القاموس (ظفر).

(٤) قصة أبي بصير أخرجها أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٥) ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٥ ، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وما قبله منه.

(٧) يعني أظفركم عليهم بفتح مكة، وهو أحد ثلاثة أقوال في تفسير الآية، ذكرها الماوردي، واقتصر المصنف على الأول.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾.

قلت: الصحيحُ أنَّ هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكَّة، حسب ما قدَّمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين.

ورَوى الترمذيُّ قال: حدَّثنا عبدُ بن حُميد، قال: حدَّثني سليمانُ بن حرب، قال: حدَّثنا حمَّاد بنُ سلمةَ عن ثابتٍ، عن أنس؛ أنَّ ثمانينَ هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابِهِ من جبل التنعيم، عند صلاة الصبح، وهم يريدون أنْ يقتلوه؛ فأُخذوا أخذاً، فأعتقهُمْ رسولُ الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد تقدَّم[١].

وأمَّا فتحُ مكَّة، فالذي تدلُّ عليه الأخبارُ أنها إنَّما فُتحت عَنوة، وقد مضى القول في ذلك في «الحج» وغيرها[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: قريشاً؛ منعوكم دخولَ المسجد الحرام عامَ الحُدَيبية، حين أحرم النبيُّ ﷺ مع أصحابه بعُمْرة[٣]، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوهُ عن أنْ يبلغ مَحِلَّه. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنَّه حملتهم الأنفة، ودَعتْهمْ

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٤)، وتقدم ص٣٢٣ من هذا الجزء.

(٢) ١٤/٣٥٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/٣١٩ .

حَمِيَّةُ الجاهلية إلى أن يفعلوا مالا يعتقدونه دِيناً، فوَبَّخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه، وأدخل الأُنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً. وقيل: واقفاً[٢]. وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعاً.

الجوهريُّ[٣]: عَكَفَه، أي: حبسه ووَقَفه، يَعْكِفُه ويَعْكُفه عَكْفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾؛ يقال: ما عَكَفَكَ عن كذا. ومنه الاعتكافُ في المسجد، وهو الاحتباس.

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: مَنْحَره؛ قاله الفراء[٤]. وقال الشافعي ﷺ: الحَرَم[٥]. وكذا قال أبو حنيفة ﷺ: المُحصَر محلُّ هَدْيه الحرَم[٦]. والمَحِلُّ؛ بكسر الحاء: غايةُ الشيء، وبالفتح: هو الموضع الذي يَحُلُّه الناس. وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنة[٧]، ولكنَّ الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلًّا[٨]. وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٩] عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [الآية:١٩٦] والصحيحُ ما ذكرناه.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: نَحَرنا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية البدَنَةَ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١٠].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٢) في (م) موقوفاً. والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٥/ ٣١٩، والكلام منه.

(٣) في الصحاح (عكف).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

(٦) الكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٨.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٩) ٣/ ٢٨٣-٢٨٤.

(١٠) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١٢٧).

وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحجِّ والعُمرة، كلُّ سبعةٍ في بدنة. فقال رجلٌ لجابر: أيُشتَرَكُ في البدَنة ما يُشترك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلَّا من البُدْن. وحضر جابرٌ الحديبية قال: ونحرَنا يومئذٍ سبعين بَدَنة، اشتركنا كلُّ سبعةٍ في بَدَنة(١).

وفي البخاريِّ(٢) عن ابن عمرَ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُعتمرين؛ فَحَال كفارُ قريشٍ دون البيت، فنحر رسولُ الله ﷺ بُدْنَه، وحَلَق رأسَه.

قيل: إنَّ الذي حلق رأسَه يومئذٍ خِراشُ بن أميَّة بن أبي العيص الخزاعي(٣). وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أنْ ينحروا ويَحِلُّوا؛ ففعلوا بعد توقُّفٍ كان منهم أغضبَ رسول الله ﷺ. فقالت له أمّ سلمةَ: لو نحرتَ لنحروا؛ فنحر رسولُ الله ﷺ هَدْيَه، ونحروا بِنَحْرِهِ، وحَلَق رسولُ الله ﷺ رأسَه، ودعا للمُحَلِّقين ثلاثاً وللمقصِّرين مرةً(٤). ورأى كعبَ بن عُجرَة والقَمْلُ يسقط على وجهه؛ فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟» قال: نعم؛ فأمره أنْ يَحلِقَ وهو بالحديبية. خرَّجه البخاريُّ والدَّارقُطنيّ(٥). وقد مضى في «البقرة»(٦).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ الهَديُ والهَدِيُّ لغتان. وقُرئ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ

---

(١) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٣)، وأخرجه مختصراً أحمد (١٥٠٤٣).

(٢) برقم (١٨١٢).

(٣) الدرر ص٢٢٥، وفيه، وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٩: ابن الفضل الخزاعي، بدل: ابن أبي العيص. وهو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، مدني، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، توفي آخر خلافة معاوية. الإصابة ٣/ ٨٦، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٣/ ١٩١-١٩٢.

(٤) الدرر ص٢٢٥، وقصة أم سلمة أخرجها البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم (٢٧٣١-٢٧٣٢) وسلف بعضه ص٣٢٥ من هذا الجزء.
ودعاء النبي للمحلقين ثم للمقصرين سلف ٣/ ٢٨٧.

(٥) صحيح البخاري (١٨١٧)، وسنن الدارقطني (٢٧٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨١١٣)، ومسلم (١٢٠١).

(٦) ٣/ ٢٩٠.

﴿مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة:١٩٦] بالتخفيف والتشديد[(١)]؛ الواحدة هَدْية [وهَدِيَّة][(٢)]. وقد مضى في «البقرة» أيضاً[(٣)]. وهو معطوفٌ على الكاف والميم من «صَدُّوكُمْ». و﴿مَعۡكُوفًا﴾ حال، وموضع «أنْ» من قوله: «أن يَبْلُغَ مَحِلَّه» نُصِبَ على تقدير الحَمْل على «صَدُّوكُمْ» أي: صدُّوكم وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغ[(٤)]. ويجوز أنْ يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: وصَدُّوا الهَديَ كراهيةَ أن يبلغ مَحِلَّه. أبو علي: لا يصحُّ حمله على العَكف[(٥)]؛ لأنّا لا نعلم «عكف» جاء متعدّياً[(٦)]، ومجيءُ «مَعْكُوفاً» في الآية يجوز أنْ يكون محمولاً على المعنى؛ كأنه لمّا كان حَبْساً حُمِل المعنى على ذلك، كما حُمِل الرَّفَثُ على معنى الإفضاء، فَعُدِّيَ بإلى، فإنْ حُمل على ذلك كان موضعه نَصْباً على قياس قول سيبويه، وجراً على قياس قول الخليل. أو يكونُ مفعولاً له؛ كأنه قال: محبوساً كراهة[(٧)] أن يبلغ مَحِلَّه. ويجوز تقدير الجرِّ في «أن»؛ لأنّ «عن» تقدَّمت؛ فكأنه قال: وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغَ مَحِلَّه. ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس: مررتُ برجلٍ إنْ زيدٍ و إن عمرٍو؛ فأضمر الجارَّ لِتقدُّم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكّة

---

(١) القراءة بالتشديد هي قراءة الأعرج كما في القراءات الشاذة ص١٢ . وبالتخفيف قراءة الجمهور.

(٢) الصحاح (هدي) وما بين حاصرتين منه.

(٣) ٣/ ٢٨٢ .

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٢ .

(٥) المثبت من (ق) و(م)، وفي غيرهما: العطف.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ .

(٧) في (م): كراهية.

وسطَ الكفار[١]؛ كسلمةَ بنِ هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، ، وأبي جَنْدل بن سهيل، وأشباهِهم.

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون[٢].

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بالقتل والإيقاع بهم؛ يقال: وَطِئتُ القوم، أي: أوقعتُ بهم. و«أنْ» يجوز أنْ يكون رفعاً على البدل من «رجالٌ، ونساءٌ» كأنَّه قال: ولولا وَطْؤكُم رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات. ويجوز أنْ يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في «تَعْلَمُوهُمْ»؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وَطْأهم؛ وهو في الوجهين بدلُ الاشتمال. و«لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» نعتٌ لـ«رجالٌ» و«نساءٌ». وجواب «لَوْلا» محذوف[٣]؛ والتقدير: ولولا[٤] أنْ تطؤوا رجالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، لأذِنَ الله لكم في دخول مكَّة، ولسَلَّطكم عليهم؛ ولَكِنَّا صُنَّا من كان فيها يَكتمُ إيمانَه خوفاً[٥]. وقال الضَّحَّاك: لولا مَن في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمنات، لم تعلموهم[٦] أنْ تطؤوا آباءهم فيَهلك أبناؤهم[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المَعَرَّة: العيب، وهي مَفْعَلَة من العُر، وهو الجَرَب، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهلَ دينهم. وقيل: المعنى: يصيبكم من قَتلهم ما يلزمُكم من أجله كفارةُ قتل الخطأ؛ لأنَّ الله تعالى إنما أوجبَ على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجرَ منها ولم يَعلم بإيمانه، الكفارةَ دون الدِّية في قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٣٠٩ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .

(٤) في (م): لو.

(٥) لفظة: خوفاً. ليست في (م). وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٦) في (ز) و(ظ) و(ف): تعلموا. والمثبت من (خ) و(ق) و(م).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

﴿مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢] قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما[١]. وقد مضى في «النساء» القول فيه[٢].

وقال ابن زيد: «مَعَرَّةٌ»: إثم؛ وقاله الجوهريُّ[٣]. ابن إسحاق[٤]: غُرْم الدِّيَة. قطرب: شِدَّة. وقيل: غمّ[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ تفضيلٌ للصحابة، وإخبارٌ عن صفتهم الكريمة من العفَّة عن المعصية، والعصمة عن التعدِّي، حتى لو أنَّهم أصابوا من ذلك أحداً، لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملةُ عن جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[٦] [النمل: ١٨].

قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ **فيه أربع مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ اللام في «لِيُدْخِلَ» متعلقةٌ بمحذوف[٧]، أي: لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته[٨]. ويجوز أنْ تتعلَّقَ بالإيمان[٩]. ولا تُحملُ على مؤمنينَ دون مؤمناتٍ، ولا على مؤمناتٍ دون مؤمنين؛ لأنَّ الجميعَ يدخلون في الرحمة.

وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، لِيُسلمَ بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكَّة؛ وكذلك كان، أسلمَ الكثيرُ منهم وحَسُنَ إسلامُهُ، ودخلوا في رحمته، أي: جنته.

---

(١) نسبه للكلبي الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ . وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ . دون نسبة.

(٢) ٧/ ٢٥ .

(٣) في الصحاح (عرر)، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٣٠٥ .

(٤) في (م): وقال الجوهري وابن إسحاق. وهو خطأ.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥١٠ .

(٩) والتقدير ـ كما في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ ـ : لولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: تميَّزوا؛ قاله القُتَبي[١]. وقيل: لو تفرقوا؛ قاله الكلبي. وقيل: لو زَال المؤمنون من بين أَظهُر الكفار، لَعذَّب الكفارَ بالسيف؛ قاله الضَّحَّاك. ولكنَّ الله يدفع بالمؤمنينَ عن الكفار[٢]. وقال عليٌّ ﷺ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال: «هم المشركون من أجداد نبيِّ الله، ومن كان بعدهم وفي عصرهم، كان في أصلابهم قومٌ مؤمنون، فلو تزيّل المؤمنونَ عن أصلاب الكافرين، لعذَّب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً»[٣].

الثالثة: هذه الآيةُ دليلٌ على مراعاة الكافر في حُرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن إذايةُ الكافر إلا بإذاية[٤] المؤمن. قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أنَّ قوماً من المشركين في حصنٍ من حصونهم، حَصَرهم أهلُ الإسلام، وفيهم قومٌ من المسلمين أُسارى في أيديهم، أيُحرقُ هذا الحصنُ أم لا؟ قال: سمعت مالكاً، وسُئلَ عن قومٍ من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنَّار ومعهم الأُسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكَّة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٥]. وكذلك لو تَتَرَّس كافرٌ بمسلم، لم يجز رَميهُ. وإن فعل ذلك فاعلٌ فأتلفَ أحداً من المسلمين، فعليه الدِّية والكفَّارة. فإنْ لم يعلموا فلا دية ولا كفَّارة؛ وذلك أنَّهم إذا علموا فليس لهم أنْ يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتَلَة خطأ، والدِّية على عواقلهم. فإنْ لم يعلموا، فلهم أنْ يرموا، وإذا أُبيحوا الفعل لم يجز أن يبقَى عليهم فيها تِبَاعة.

قال ابن العربي: وقد قال جماعةٌ: إنَّ معناه: لو تزيَّلوا عن بطون النساء وأصلاب

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ مختصراً. وعزاه للثعلبي والنقاش. وفي رفعه نظر.

(٤) في (م): أذية الكافر إلا بأذية.

(٥) المدونة الكبرى ٣/ ٢٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥-١٦٩٦ .

الرجال. وهذا ضعيف؛ لأنَّ مَن في الصُّلب أو في البطن لا يُوطأ، ولا تُصيبُ منه معرَّة. وهو سبحانه قد صرَّح فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وذلك لا ينطلق على مَن في بطن المرأة وصُلب الرجال، وإنَّما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وكذلك قال مالك. وقد حاصرنا مدينةً للروم[١] فحُبس عنهم الماء، فكانوا يُنزِلون الأُسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدرُ أحدٌ على رميهم بالنَّبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا. وقد جوَّز أبو حنيفة وأصحابهُ والثَّوريُّ الرَّميَ في حصون المشركين، وإنْ كان فيهم أُسارى من المسلمين وأطفالِهم. ولو تَتَرَّس كافرٌ بولدِ مسلم، رُميَ المشرك، وإن أُصيب أحدٌ من المسلمين فلا دية فيه ولا كفَّارة. وقال الثوري: فيه الكفَّارة ولا دية. وقال الشافعيُّ بقولنا. وهذا ظاهر؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سِيَّما بروحِ المسلم؛ فلا قولَ إلا ما قاله مالك ﷺ. والله أعلم[٢].

قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلافٌ إنْ شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحةُ ضروريةً كليَّةً قطعيةً. فمعنى كونها ضروريةً: أنَّها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلَّا بقتل التُّرس. ومعنى أنها كُلِّية: أنه قاطعةٌ لكلِّ الأمَّة، حتى يحصلَ من قتل التُّرس مصلحةُ كلِّ المسلمين؛ فإنْ لم يفعل، قَتَلَ الكفارُ التُّرسَ واستولوا على كلِّ الأمة. ومعنى كونها قطعيةً: أنَّ تلك المصلحةَ حاصلةٌ من قتل التُّرس قطعاً[٣].

قال[٤] علماؤنا: وهذه المصلحةُ بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأنَّ الفَرْضَ أنَّ التُّرسَ مقتولٌ قطعاً؛ فإما بأيدي العدوِّ فتحصل المفسدة العظيمة، التي

(١) في النسخ عدا (ف): الروم. والمثبت من (ف) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٦ .

(٣) ينظر المستصفى ١/ ٤٢٠ ، والمحصول ٦/ ١٦٤ .

(٤) في (ظ): قاله.

هي استيلاءُ العدوِّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين، فَيهلِكَ العدُّو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يُقتل التُّرس في هذه الصورة بوجه؛ لأنَّه يلزم[١] منه ذهابُ التُّرس والإسلام والمسلمين، لكنْ لمَّا كانت هذه المصلحةُ غيرَ خاليةٍ من المفسدة، نفرتْ منها نفسُ من لم يمعن النظر فيها؛ فإنَّ تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدمٌ أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة: قراءة العامة: «لَوْ تَزَيَّلُوا» إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ: «تَزَايَلُوا»[٢] وهو مثل «تَزَيَّلُوا» في المعنى. والتزايل: التباين[٣]. و«تَزَيَّلُوا» تفعَّلوا، من زِلْت. وقيل: هي تَفَيْعَلُوا.

«لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا» قيل: اللام جواب لكلامين؛ أحدهما: «لَولاَ رِجَالٌ» والثاني: «لَوْ تَزَيَّلُوا»[٤]. وقيل جواب «لَوْلَا» محذوف؛ وقد تقدَّم[٥]. و«لَوْ تَزَيَّلُوا» ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

العامل في «إذْ» قوله تعالى: «لَعَذَّبْنَا» أي: لعذَّبناهم إذ فعلوا[٦] هذا. أو فعلٌ مضمرٌ تقديره: واذكروا[٧].

---

(١) في (م): تلزم.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ .

(٣) الصحاح (زيل).

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٥) ص٣٣٠ من هذا الجزء.

(٦) في (م): جعلوا.

(٧) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٤٨-٥٤٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٩ .

﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ فعِيلة، وهي الأنَفَة. يقال: حَمِيتُ عن كذا حَمِيَّة ـ بالتشديد ـ ومَحْمِيَّة: إذا أنِفْتَ منه وداخلك عارٌ وأَنَفَةٌ أن تفعله[١]. ومنه قول المتلمِّس:

ألا إنني منهم وعِرْضيَ عِرْضُهم كذِي الأنْفِ يحمي أنفَه أن يُكَشَّما[٢]

أي: يمنع.

قال الزهريُّ: حَمِيَّتُهم: أَنَفَتُهم من الإقرار للنبيِّ ﷺ بالرسالة والاستفتاحِ ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعُهم من دخول مكة[٣]. وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمدٌ رسول الله: سهيلُ بن عمرو؛ على ما تقدَّم[٤].

وقال ابن بحر: حمِيَّتُهم عصبيَّتُهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنَفةُ من أنْ يعبدوا غيرها[٥]. وقيل: «حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ» إنَّهم قالوا: قَتلوا أبناءنا وإخواننا، ثمَّ يدخلون علينا في منازلنا؛ واللات والعُزَّى لا يدخلها أبداً[٦].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ثبَّتهم على الرِّضا والتسليم، ولم يُدخِل قلوبَهم ما أدخلَ قلوبَ أولئك من الحميَّة.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قيل: لا إله إلا الله. روي مرفوعاً من حديث أُبيِّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ[٧]. وهو قول عليٍّ، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن ميمون،

---

(١) الصحاح (حمى).

(٢) في النسخ الخطية: كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما، والمثبت من (م) وهو الموافق لخزانة الأدب ١٠/٥٨ ، والبيت فيه، بلفظ: يهشما. بدل: يكشما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٤) ص٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٤ .

(٧) أخرجه أحمد (٢١٢٥٥)، والترمذي (٣٦٢٥). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قَزَعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وسلمةَ بن كُهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة ابن مُصَرِّف، والربيع، والسُّدِّيّ، وابن زيد. وقاله عطاءٌ الخُراسانيّ، وزاد: محمدٌ رسول الله[١].

وعن عليّ وابن عمر أيضاً: هي لا إله إلا الله، والله أكبر[٢].

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد وهو على كل شيء قدير[٣].

وقال الزهريُّ: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أنَّ المشركين لم يُقِرُّوا بهذه الكلمة؛ فخصَّ الله بها المؤمنين، وكلمةُ التَّقوَى: هي التي يُتَّقى بها من الشرك.

وعن مجاهد أيضاً: أنَّ كَلِمَةَ التَّقوى: الإخلاص[٤].

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي: أحقَّ بها من كفار مكَّة؛ لأنَّ الله تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيِّه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾

قال قتادة: كان رسولُ الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصِّفة؛ فلمَّا صالح قريشاً بالحُدَيبية ارتاب المنافقون، حتى قال رسول الله ﷺ: إنَّه يدخل

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١٣ . عدا أقوال ابن عمر، وسلمة بن كهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة بن مصرف، والربيع، والسدي. وذكر قول ابن عمر النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٠٣ ، وذكر قول السدي ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤١ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١١ ، ٣١٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٤ من طريق ابن جريج عن مجاهد وعطاء. وقول مجاهد فيه: كلمة التقوى: الإخلاص وسيأتي.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢١/ ٣١٤ .

مكَّة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنَّهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأنَّ رؤياه ﷺ حقٌّ[١]. وقيل: إنَّ أبا بكر هو الذي قال: إن المنام لم يكن مؤقَّتاً بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية[٢]، ورؤيا[٣] الأنبياء حقٌّ. والرؤيا أحدُ وجوه الوحي إلى الأنبياء.

﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي: في العام القابل ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنَّه حكايةُ ما قيل للنبي ﷺ في منامه؛ خُوطِبَ في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنّه قال ذلك، ولهذا استثنى؛ تأدَّبَ بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣][٤]. وقيل: خاطب الله العبادَ بما يُحبُّ[٥] أن يقولوه، كما قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون، قاله ثعلب[٦]. وقيل: كان الله علم أنه يُميتُ بعضَ هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية، فَوَقع الاستثناءُ لهذا المعنى، قاله الحسينُ بنُ الفضل[٧]. وقيل: الاستثناء من «آمِنِينَ»، وذلك راجعٌ إلى مخاطبة العباد على ما جَرت به العادة[٨]. وقيل: معنى «إنْ شَاءَ اللهُ» إنْ أمرَكُم الله بالدخول[٩]. وقيل: أي: إنْ سهَّل الله. وقيل: «إن شَاءَ اللهُ» أي:

---

(١) القول بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٢٢، وأخرجه مختصراً الطبري ٢١/ ٣١٦.

(٢) هو قول مجاهد. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٦، وذكر الألوسي ٢٦/ ١٢٠ أن قول من قال: إن الرؤيا قبل خروجه إلى الحديبية هو الأصح.

(٣) في (م): وإن رؤيا.

(٤) القول بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٥.

(٥) في (ظ): يجب.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥.

(٨) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٤ بنحوه، وعزاه للثعلبي.

(٩) هو قول الزجاج كما في معاني القرآن له ٥/ ٢٨.

كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: «إنْ» بمعنى «إذ»[١]، أي: إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] أي: إذ كنتم. وفيه بُعْدٌ، لأنَّ «إذ» في الماضي من الفعل، و«إذا» في المستقبل، وهذا الدُّخول في المستقبل، فوَعَدهم دخولَ المسجد الحرام وعلَّقه بشرط المشيئة، وذلك عامَ الحديبية؛ فأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا؛ ثم تأخَّر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءَهم ذلك واشتدَّ عليهم، وصالحهم ورجع؛ ثم أذِنَ الله في العام المقبل، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾. وإنَّما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شكٌّ كما زعم بعضُهم أنَّ الاستثناءَ يدلُّ على الشك، والله تعالى لا يَشكُّ، و«لَتَدْخُلُنَّ» تحقيقٌ، فكيف يكون شك. فـ«إنْ» بمعنى «إذا»[٢].

﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من العدوّ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليقُ والتقصير جميعاً للرجال، ولذلك غَلَّب المذكَّر على المؤنَّث. والحلقُ أفضل، وليس للنِّساء إلا التقصيرُ. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[٣]. وفي الصحيح أنَّ معاوية أخذ من شعر النبيِّ ﷺ على المَرْوَة بمِشْقَص[٤]. وهذا كان في العمرة لا في الحجّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حلَق في حَجَّته[٥].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من المحلِّقين والمقصِّرين، والتقدير: غير خائفين[٦]. ﴿فَعَلِمَ

---

(١) ذكره عن أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥ ، وأشار إليه النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٠٤ ، ثم ردَّه.

(٢) في النسخ الخطية: إذ، والمثبت من (م).

(٣) ٣/ ٢٨٧ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٨٨٥)، والبخاري (١٧٣٠)، ومسلم (١٢٤٦). والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. النهاية (شقص).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٧ وخبر حَلْق النبي ﷺ في حجته؛ أخرجه أحمد (٤٨٨٩)، والبخاري (١٧٢٦)، ومسلم (١٣٠٤).

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .

مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي: علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم(١). وذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام لما رجع، مضى منها إلى خَيْبرَ فافتتحها، ورجع بأموالِ خيبرَ، وأخذ من العُدَّة والقوَّة أضعافَ ما كان فيه في ذلك العام، وأقبلَ إلى مكة على أُهبةٍ وقوَّةٍ وعُدَّة بأضعاف ذلك.

وقال الكلبيُّ: أي علم أنَّ دخولها إلى سنةٍ، ولم تعلموه أنتم. وقيل: عَلِم أنَّ بمكَّةَ رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم(٢).

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبيِّ ﷺ فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك(٣). وقيل: فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية(٤)؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزُّهريُّ: ما فتحٌ(٥) في الإسلام كان أعظمَ من صلح الحديبية؛ لأنَّه إنَّما كان القتالُ حين تلتقي الناس، فلَّما كانت الهدنةُ؛ وَضعتِ الحربُ أوزارَها، وأَمِنَ الناس بعضُهم بعضاً؛ فالتقَوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يُكَلَّمْ أحدٌ بالإسلام يعقلُ شيئاً إلَّا دخل فيه، فلقد دخل في تَينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر(٦). يدلُّكَ على ذلك أنَّهم كانوا سنة ستٍّ يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة، وكانوا بعد عام الحديبية سنةَ ثمانٍ في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٤٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٢.

(٣) أخرج قول ابن زيد الطبري ٢١/ ٣١٩.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨.

(٥) في (ز) و(م): ما فتح الله.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨، وفيه: ما فُتح في الإسلام فتحٌ.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: يُعليه على كل الأديان. فالدين اسمٌ بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي: لِيُظهرَ رسولَه على الدين كلِّه ـ أي: على الدين الذي هو شَرْعُهُ ـ بالحجَّة، ثمَّ باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ «شَهِيداً» نصبٌ على التفسير، والباء زائدة، أي: كفى اللهُ شهيداً لنبيِّه ﷺ؛ وشهادته له تبيِّن صحة نبوَّته بالمعجزات. وقيل: «شَهِيداً» على ما أُرسل به؛ لأنَّ الكفارَ أبَوا أنْ يكتبوا: «هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله»[١].

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ «مُحَمَّدٌ» مبتدأ، و«رَسُولُ» خبره. وقيل: «مُّحَمَّدٌ» ابتداء، و«رَسُولُ اللَّهِ» نعته، «وَالَّذِينَ مَعَهُ» عطفٌ على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يُوقَفُ على هذا التقدير على «رَسُولُ اللَّهِ». وعلى الأول يُوقَف على «رَسُولُ اللَّهِ»؛ لأنَّ صفاتِه عليه الصلاة والسلام تزيد على ما وَصَفَ به[٢] أصحابَه؛ فيكون «مُحَمَّدٌ» ابتداءٌ، و«رَسُولُ اللَّهِ» الخبر؛ «وَالَّذِينَ مَعَهُ» ابتداءٌ ثانٍ، و«أَشِدَّاءُ» خبره، و«رُحَمَاء» خبر ثان[٣].

وكونُ الصفات في جملة أصحاب النبيِّ ﷺ هو الأشبه. قال ابن عباس: أهل

---

(١) سلفت القصة ١٦/٣١٦، ٣١٨.

(٢) لفظة: به. ليست في (م).

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٧٨-٦٧٩.

الحديبية أشدَّاءُ على الكفار، أي: غلاظٌ عليهم كالأَسد على فريسته[١]. وقيل: المراد بـ«الَّذِينَ مَعَهُ» جميع المؤمنين.

﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: يرحم بعضهم بعضاً. وقيل: متعاطفون متوادُّون[٢]. وقرأ الحسن: «أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفارِ رُحَماءَ بينهم» بالنصب على الحال[٣]، كأنَّه قال: والذين معه في حال شدَّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ إخبارٌ عن كثرة صَلاتهم .﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ أي: يطلبون الجنَّةَ ورضا الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ السِّيما: العلامة؛ وفيها لغتان: المدُّ والقصر، أي: لاحت علاماتُ التهجُّد بالليل وأمارات السهر.

وفي سنن ابن ماجه قال: حدَّثنا إسماعيل بن محمد الطَّلحِيُّ قال: حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد، عن شَريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُرتْ صلاته بالليل، حَسُنَ وجهُه بالنهار»[٤].

وقال ابن العربي[٥]: ودَسَّه قومٌ في حديث النبيِّ ﷺ على وجه الغلط، وليس عن النبيِّ ﷺ فيه ذكرٌ بحرف.

وقد روى ابن وهب عن مالك: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ ذلك مما يتعلَّق بجباههم من الأرض عند السجود؛ وبه قال سعيد بن جبير. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: صلَّى صبيحةَ إحدى وعشرينَ من رمضان، وقد وَكَفَ المسجدُ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٦ .

(٤) سنن ابن ماجه (١٣٣٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الكافي الشاف ص١٥٤ : واتفق أئمة الحديث وابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٩٨-١٦٩٩ .

وكان على عريش؛ فانصرف النبيُّ ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثرُ الماء والطين[١].

وقال الحسن: هو بياضٌ يكون في الوجه يومَ القيامة[٢]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً، ورواه العَوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقاله الزهري[٤].

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة، وفيه: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أنْ يُخرِجَ برحمته من أراد من أهل النار؛ أمر الملائكةَ أن يُخرجوا من النار مَن كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد اللهُ أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم[٥] بأثر السجود، تأكل النارُ ابنَ آدمَ إلا أثرَ السجود، حرَّم الله على النار أن تأكلَ أثرَ السجود»[٦].

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: يكون موضعُ السجود من وجوههم كالقمر ليلةَ البدر[٧].

وقال ابنُ عباسٍ ومجاهد: السِّيما في الدنيا، وهو السَّمْتُ الحسن. وعن مجاهدٍ أيضاً: هو الخشوع والتواضع. قال منصور: سألتُ مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثلُ رُكْبة العَنْز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنَّه نورٌ في وجوههم من الخشوع[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٢٠١٨)، وصحيح مسلم (١١٦٧): (٢١٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو عند أحمد (١١١٨٧). ومعنى وَكف: قطر. الصحاح (وكف).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٣.

(٣) رواية العوفي عن ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٤) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): قاله. دون واو. والمثبت من (خ) و(ظ) ورواية الزهري ذكرها الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٦.

(٥) لفظة: يعرفونهم. ليس في (ز) و(ق) و(م).

(٦) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٧١٧)، والبخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٨) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٣٢٣-٣٢٤.

وقال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء.

وقال شِمْر بن عطية: هو صفرةُ الوجه من قيام الليل[١].

قال الحسن: إذا رأيتَهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى. وقال الضَّحَّاك: أمَا إنَّه ليس بالنَّدْب في وجوههم، ولكنَّه الصُّفرة[٢].

وقال سفيان الثَّوريُّ: يصلُّون بالليل، فإذا أصبحوا رُؤي ذلك في وجوههم؛ بيانه قولُه ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقد مضى القول فيه آنفاً.

وقال عطاء الخُراسانيُّ: دخل في هذه الآية كلُّ من حافظ على الصلوات الخمس[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: فيه وجهان، إن شئتَ قلتَ: المعنى: ذلك مَثَلُهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً؛ كمثلهم في القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنْجيل». وإن شئت قلت: تمامُ الكلام: ذلك مَثَلهم في التوراة. ثم ابتدأ فقال: ومَثَلُهم في الإنجيل[٥]. وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مَثَلان؛ أحدهما في التوراة، والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على «التَّورَاةِ»[٦]. وقال مجاهد: هو مَثَل واحد[٧]؛ يعني أنَّ هذه صفتُهم في التوراة والإنجيل، فلا يوقف على «التَّورَاةِ» على هذا، ويوقف على «الإنْجِيل»، ويَبتدئ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ على معنى: وهُم كزرعٍ.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٥ بلفظ: تَهيُّج. بدل: صفرة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٩ .

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠١ ، وكلام الفراء السالف منه.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ دون نسبته إلى ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٩ .

و«شَطأَهُ» يعني فراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره[١]. وقال مقاتل: هو نبتٌ واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه[٢]. قال الجوهريُّ: شَطْءُ، الزرع والنبات: فراخُهُ، والجمعُ: أشطاء. وقد أشطأ الزرعُ: خرج شَطؤه. قال الأخفش في قوله: «أخْرَجَ شَطأَهُ» أي: طَرفَه[٣]. وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئٌ، إذا خرج. قال الشاعر:

أخرج الشَّطءَ على وجه الثَّرى ومن الأشجار أفنانَ الثمرْ[٤]

الزَّجّاج[٥]: أخرج شطأه، أي: نباته.

وقيل: إنَّ الشَّطءَ شوكُ السُّنْبُل، والعرب أيضاً تسمِّيه: السَّفَا، والبُهْمَى[٦]، قاله قُطْرُب. وقيل: إنَّه السنبل، فيخرج من الحبة عشرُ سنبلاتٍ وتسعٌ وثمانٍ؛ قاله الفرَّاء[٧]، حكاه الماورديُّ[٨].

وقرأ ابن كثير وابن ذَكوان: «شَطَأه» بفتح الطَّاء، وأَسكنَ الباقون[٩]. وقرأ أنسٌ ونصرُ بن عاصم وابنُ وثَّاب: «شَطَاه»، مثل: عصاه[١٠]. وقرأ الجحدريُّ وابن أبي

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) الصحاح (شطأ).

(٤) البيت للزبير بن العوام ﷺ. وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩، وفيه: يخرج. بدل: أخرج.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٩.

(٦) في النسخ الخطية: السفا والبهم، والمثبت من النكت والعيون والكلام منه. وقال في الصحاح: السَّفا: شوك البُهْمى، ونحوه في (م). وقال في القاموس: السَّفا: كل شجر له شوك. والبُهْمَى: هو نبت (يشبه الشعير) تَجِد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر، فإذا يبس هرَّ شوكه وامتنع. تهذيب اللغة ٦/ ٣٣٩.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٦٩.

(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٢٣.

(٩) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠٢.

(١٠) نسب هذه القراءة ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٧٧ لعيسى الهمداني، ونسبها أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٢ لزيد بن علي.

إسحاق: «شَطَه» بغير همز؛ وكلُّها لغاتٌ فيها[١].

وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى لأصحاب النبيِّ ﷺ؛ يعني أنَّهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون؛ فكان النبيُّ ﷺ حين بدأ بالدُّعاء إلى دينه ضعيفاً، فأجابه الواحدُ بعد الواحد حتى قَوِيَ أمرُه؛ كالزرع يبدو بعد البَذْر ضعيفاً، فيقوَى حالاً بعد حالٍ حتى يغلُظَ ساقُه[٢] وأفراخه. فكان هذا من أصحِّ مَثَلٍ، وأوضح[٣] بيان.

وقال قتادة: مَثَلُ أصحاب محمدٍ ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنَّه سَيَخرجُ من قومٍ ينبتون نباتَ الزَّرع يأمرون بالمعروف، وينهَوْن عن المنكر[٤].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوَّاه وأعانه وشدَّه؛ أي: قوَّى الشطءُ الزرعَ. وقيل بالعكس، أي: قوَّى الزرعُ الشطءَ[٥].

وقراءةُ العامة: «آزَرَهُ» بالمدِّ. وقرأ ابن ذكوانٍ وأبو حَيوةَ وحُميد بن قيس: «فَأَزَرَهُ» مقصورة، مثل: فَعَله[٦]. والمعروف المدُّ. قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَةٍ قد آزرَ الضَّالُ نَبْتَها مَجَرَّ جيوشٍ غانمينَ وخُيَّبِ[٧]

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: على عوده الذي يقوم عليه، فيكون ساقاً له[٨]. والسُّوق: جمع الساق.

---

(١) نسبها للجحدري أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٠٣ .

(٢) في (ز) و(م): نباته، وفي (ق): شانه.

(٣) في (م): وأقوى. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٣٢٤ والكلام منه.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ .

(٦) قراءة ابن ذكوان ـ وهو راوية ابن عامر ـ في السبعة ص٦٠٥ ، والتيسير ص٢٠٢ .

(٧) ديوان امرئ القيس ص٤٥ ، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي؛ وهو أخصب موضع فيه... وقوله: مجر جيوش. أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانم أو خائب، فلا ينزلُها أحدٌ ليرعاها خوفاً من الجيوش؛ فذلك أوفر لخصبها، وأتم لكلئها. اهـ. والضَّالُ: السِّدْر البَرّي، أو ما لا يسقيه إلا المطر منه. القاموس (ضال).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٢٣ .

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرعُ زُرَّاعَه. وهو مَثَلٌ كما بيَّنَّا، فالزرعُ محمدٌ ﷺ، والشطءُ أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فَقَوُوا، قاله الضحاك وغيره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ اللام متعلقة بمحذوف، أي: فَعَلَ الله هذا لمحمدٍ ﷺ وأصحابه، ليغيظ بهم الكفار(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة. ﴿مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أي: ثواباً لا ينقطع، وهو الجنَّة.

وليست «مِن» في قوله: «منهم» مبعِّضةً لقومٍ من الصحابة دون قوم، ولكنَّها عامةٌ مجنِّسة، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، لا يُقصد للتبعيض؛ لكنَّه يذهب إلى الجنس، أي: فاجتنبوا الرِّجس من جنس الأوثان، إذْ كان الرِّجس يقع من أجناسٍ شتّى؛ منها الزِّنى، والرِّبا، وشربُ الخمر، والكذب. فأدخل «مِن» يفيدُ بها الجنس، وكذا «منهم»، أي: من هذا الجنس، يعني: جنسَ الصحابة. ويقال: أَنفقْ نفقتَكَ من الدراهم، أي: اجعل نفقتَك هذا الجنس. وقد يُخصَّصُ أصحابُ محمدٍ ﷺ بوعد المغفرة تفضيلاً لهم، وإنْ وَعَدَ اللهُ جميعَ المؤمنين المغفرةَ.

وفي الآية جوابٌ آخر: وهو أنَّ «من» مؤكدةٌ للكلام، والمعنى وَعَدهم الله كلَّهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فجرى مجرى [قول](٢) العربي: قطعتُ من الثوب قميصاً؛ يريد قطعتُ الثوبَ كلَّه قميصاً. و«من» لم تبعِّض شيئاً. وشاهدُ هذا من القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ [الإسراء: ٨٢] معناه: وننزِّل القرآن شفاءً؛ لأنَّ كلَّ حرفٍ منه يَشفي، وليس الشِّفاءُ مختصًّا به بعضُه دون بعض. على أنَّ من اللُّغويين من يقول:

---

(١) الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ٣١٢ .

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

«من» مجنِّسة؛ تقديرها: نُنزِّل الشفاءَ من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زهير(١):

أمــن أُمِّ أوفــى دِمْــنَــةٌ لــم تَــكَــلَّــمِ

أراد: من ناحية أمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ، أم من منازلها دِمْنَة. وقال الآخر:

أخُو رغائبَ يُعطيها ويُسألُها يأبى الظُّلامةَ منه النَّوفَلُ الزُّفَرُ(٢)

فـ«من» لم تُبعِّض شيئاً، إذْ كان المقصد: يأبى الظُّلامةَ؛ لأنَّه نوفَلٌ زُفَرُ. والنَّوفَل: الكثير العطاء. والزُّفَر: حاملُ الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة: روى أبو عروةَ الزبيريُّ من ولد الزبير: كنَّا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقصُ أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالكُ هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾. فقال مالك: مَن أصبح من الناس في قلبه غَيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية؛ ذكره الخطيب أبو بكر(٣).

قلت: لقد أحسن مالكٌ في مقالته، وأصاب في تأويله. فمن نَقَصَ واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردَّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطلَ شرائعَ المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ الآية. وقال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. إلى غير ذلك من الآي التي تضمَّنت الثناءَ عليهم، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب:٢٣]. وقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

(١) في ديوانه ص٤، وسلف ٤/ ٤٧٣.

(٢) الكلام بنحوه في كتاب الأضداد للأنباري ص٢٥٢-٢٥٣. والبيت لأعشى باهلة كما في الأصمعيات ص٩٠.

(٣) لم نقف عليه عند الخطيب، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧.

[الحشر:٨]، ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآلِ أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: «خَيرُ الناسِ قَرني، ثم الذين يلونهم». وقال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً، لم يُدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه» خرَّجهما البخاري(١). وفي حديث آخر: «فلو أنَّ أحدكم أنفقَ ما في الأرض، لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»(٢).

قال أبو عبيد(٣): معناه لم يُدرك مُدَّ أحدهم إذا تصدَّق به، ولا نصفَ المُدِّ؛ فالنصيفُ هو النصفُ هنا. وكذلك يقال للعُشر: عَشِير، وللخُمس: خميس، وللتِّسع: تَسيع، وللثُّمن: ثَمين، وللسُّبع: سَبيع، وللسُّدس: سَدِيس، وللرُّبع: رَبيع. ولم تقل العرب للثلث ثليث.

وفي البزَّار عن جابرٍ مرفوعاً صحيحاً: «إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيِّين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا ـ فجعلهم أصحابي. وقال في أصحابي: كلُّهم خير»(٤).

وروى عُوَيم بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ اختارني واختار لي أصحابي، فجعل لي منهم وزراءَ وأختاناً وأصهاراً، فمن سَبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(٥).

---

(١) الحديث الأول أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، وهو عند أحمد (٣٥٩٤)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله بن مسعود ﷺ، والحديث الثاني أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، وهو عند أحمد (١١٠٧٩)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٣٩٧-٣٩٨ .

(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٧٦٣). قال البزار: لا نعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبد الله بن صالح في روايته هذه عن نافع بن يزيد أحد نعلمه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦ : رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٠)، والطبراني في الأوسط (٤٥٩)، والكبير ١٧/ (٣٤٩)، قال =

والأحاديث بهذا المعنى كثير[١]، فَحذَارِ من الوقوع في أحد منهم، كما فعل مَن طعن في الدِّين فقال: إنَّ المُعَوِّذَتين ليستا من القرآن، وما صحَّ حديثٌ عن رسول الله ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل، إلاَّ عن عقبةَ بن عامر[٢]، وعقبةُ بن عامرٍ ضعيفٌ لم يوافق غيره عليها، فروايته مُطَّرحة! وهذا ردٌّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطالٌ لما نقلَته لنا الصحابة من المِلَّة. فإنَّ عقبةَ بن عامر بن عيسى الجُهني، ممن رَوى لنا الشريعةَ في الصحيحين: البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم، وأثنى عليهم ووعدهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فمن نسبَه أو واحداً من الصحابة إلى كذبٍ، فهو خارجٌ عن الشريعة، مُبطِلٌ للقرآن طاعنٌ على رسول الله ﷺ. ومتى ألحِق واحدٌ منهم تكذيباً فقد سُبَّ؛ لأنَّه لا عارٌ ولا عيبٌ بعد الكفر بالله أعظمَ من الكذب، وقد لَعن رسول الله ﷺ من سَبَّ أصحابه؛ فالمكذِّب لأصغرهم ـ ولا صغيرَ فيهم ـ داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسولُ الله ﷺ، وألزمَها كلَّ مَن سبَّ واحداً من أصحابه، أو طعن عليه.

وعن عمر بن حبيب[٣] قال: حضرتُ مجلسَ هارونَ الرشيد. فجرتْ مسألةٌ تنازعها الحضور، وعلَتْ أصواتهم؛ فاحتجَّ بعضُهم بحديثٍ يرويه أبو هريرةَ عن رسول الله ﷺ؛ فرفع بعضُهم الحديث، وزادت المدافعةُ والخصام، حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرة مُتَّهمٌ فيما يرويه،

= الطبراني في المعجم الأوسط: لا يروى عن عويم بن ساعدة إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن طلحة التيمي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦ : وفيه من لم أعرفه. وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة ص٧٠-٧١ وقال: هذا حديث حسن.

(١) في (م): كثيرة.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٨١٤) عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة، لم ير مثلهن قط؟: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

(٣) هو العدوي البصري القاضي، قال البخاريُّ: يتكلمون فيه، وقال يحيى بن معين: ضعيف، كان يكذب. مات بالبصرة سنة سبع ومئتين. سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٩٠-٤٩١ .

وصَرَّحوا بتكذيبه، ورأيتُ الرشيدَ قد نحا نحوهم، ونَصَر قولهم، فقلت أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ النَّقل، صدوقٌ فيما يرويه عن نبيِّ الله ﷺ وغيره. فنظر إليَّ الرشيدُ نَظر مُغضَب، وقمتُ من المجلس فانصرفتُ إلى منزلي، فلم ألبثْ حتى قيل: صاحبُ البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتول، وتحنَّط وتكفَّن! فقلت: اللهُم إنَّك تعلم أنِّي دفعتُ عن صاحب نبيِّك، وأجللتُ نبيَّك أن يُطعنَ على أصحابه، فَسلِّمْني منه. فأُدخلتُ على الرشيد وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهب، حاسرٌ عن ذراعيه؛ بيده السيف، وبين يديه النِّطْع[(١)]؛ فلما بَصُرَ بي قال لي: يا عمرَ بنَ حبيب، أتتلقَّاني من الردِّ والدفع بما تلقَّيتني به! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي قُلتَه وجادلتَ عنه، فيه إزراءٌ[(٢)] على رسول الله ﷺ [وعلى ما جاء به]. إذا كان أصحابُه كذابين، فالشريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود؛ كلُّه مردودٌ غير مقبول! فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرَ بنَ حبيب أحياك الله، أحييتني يا عمرَ بن حبيب أحياك الله[(٣)]؛ وأمر لي بعشرة آلاف درهم[(٤)].

قلت: فالصحابة كلُّهم عدول، أولياءُ الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهبُ أهل السنة، والذي عليه الجماعةُ من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شِرذمةٌ لا مبالاةَ بهم إلى أنَّ حالَ الصحابة كحالِ غيرهم، فيلزمُ البحثُ عن عدالتهم.

---

(١) النطع: بساطٌ من الأديم. القاموس (نطع).

(٢) في (م) إزدراء.

(٣) قوله: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله. الثانية من (خ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/١٩٦ - ١٩٧ . والقصة مخرجة فيه. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرج هذه القصة الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١١/١٩٦-١٩٧ ، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال ٢١/ ٢٩٤-٢٩٥ . ولا يخفى ما في هذه القصة من نكارة، فصاحبها عمر بن حبيب العدوي ضعيف متهم بالكذب كما تقدَّم.

ومنهم من فرَّق بين حالهم في بَداءة الأمر فقال: إنَّهم كانوا على العدالة إذ ذاك؛ ثم تغيَّرت بهمُ الأحوالُ، فظهرتْ فيهم الحروب وسفك الدماء؛ فلا بُدَّ من البحث.

وهذا مردودٌ؛ فإنَّ خيارَ الصحابة وفضلاءهم كعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكَّاهم، ورضيَ عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصةً العشرةَ المقطوعَ لهم بالجنة بإخبار الرسول، هم القدوةُ مع علمهم بكثيرٍ من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيِّهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غيرُ مُسقطٍ من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمورُ مبنيةً على الاجتهاد، وكلُّ مجتهد مصيبٌ.

وسيأتي الكلامُ في تلك الأمور في سورة الحجرات مبيَّنةً إنْ شاء الله تعالى[1].

تمَّ تفسيرُ سورة الفتح، والحمد لله.

(١) ١٦/٣٢١-٣٢٢.

سُورَةُ الفَتحِ

مَدنيَّةٌ، نزلَتْ في مَرجعِ رسولِ اللهِ ﷺ مِن الحديبيَةِ، وآيُها تِسعٌ وعِشرونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وعدٌ بفتحِ مَكَّةَ عظَّمَها الله، والتَّعبيرُ عنه بالماضي لتَحقُّقِه، أو بما اتَّفَقَ له في تلكَ السَّنةِ كفتحِ خيبرَ وفَدَكَ.

أو إخبارٌ عَن صُلحِ الحُديبيةِ، وإنَّما سمَّاهُ فتحًا لأنَّه كانَ بعدَ ظُهورِه على المشركينَ حتَّى سَألُوا الصُّلحَ وتَسبَّبَ لفتحِ مَكَّةَ وفرغَ بِهِ رسولُ اللهِ لسائرِ العربِ فغَزاهُم وفتَحَ مواضِعَ وأدخلَ في الإسلامِ خَلقًا عظيمًا.

وظهرَ له في الحُدَيبيةِ آيةٌ عظيمةٌ وهي أَنَّهُ نُزِحَ ماؤُها بالكُلِّيَّةِ فتمضمضَ ثُمَّ مَجَّهُ فيها فدَرَّتْ بالماءِ حتَّى شَرِبَ جميعُ مَن كانَ معه[1].

أو فتحُ الرُّومِ فإنَّهُم غلَبُوا على الفُرسِ في تلكَ السَّنةِ، وقد عُرِفَ كونُه فتحًا للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ في سورةِ الرُّومِ.

وقيل: الفَتحُ بمَعنى القضاءِ، أي: قَضَينا لكَ أن تدخُلَ مكَّةَ مِن قابلٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧٧) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ عِلَّةٌ للفتحِ مِن حيثُ إنَّه مسبَّبٌ عَن جهادِ الكُفَّارِ والسَّعيِ في إزاحةِ الشِّركِ وإعلاءِ الدِّينِ وتكميلِ النُّفوسِ النَّاقصَةِ قَهْرًا ليصيرَ ذلك بالتَّدريجِ اختيارًا، وتخليصِ الضَّعفَةِ عَن أيدي الظَّلَمةِ.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميعَ ما فرطَ منكَ ممَّا يَصِحُّ أَنْ تُعاتَبَ عليه.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاءِ الدِّينِ وضمِّ الملكِ إلى النبوَّةِ.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تَبليغِ الرِّسالةِ وإقامةِ مَراسمِ الرِّئاسةِ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نصرًا فيه عِزٌّ ومَنَعةٌ، أو يَعِزُّ به المنصورُ، فوصفَ بوَصفِه مُبالغةً.

(٤) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثَّباتَ والطمأنينةَ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى يَثْبُتُوا حيثُ تَقلَقُ النُّفوسُ وتَدحَضُ الأقدامُ.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يقينًا مع يَقينِهم برُسوخِ العَقيدَةِ واطمئنانِ النَّفسِ عليها، أو أنزلَ فيها السُّكونَ إلى ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ ليزدادُوا إيمانًا بالشَّرائعِ مع إيمانِهم باللهِ واليومِ الآخرِ.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدبِّرُ أمرَها فيسلِّطُ بعضَها على بعضٍ تارةً، ويُوقِعُ فيما بينَهُم السِّلمَ أخرى كما تَقتَضيهِ حكمَتُه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمَصالحِ ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقدِّرُ ويدبِّرُ.

(٥) ـ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ عِلَّةٌ بما بعدَهُ؛ لِمَا دلَّ عليهِ قولُه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن مَعنى التَّدبيرِ أي: دبَّرَ ما دبَّرَ مِن تَسليطِ المؤمنينَ ليَعرِفُوا نعمةَ اللهِ فيه ويَشكُروها فيدخِلَهُم[1]

(١) في نسخة التفتازاني: «فيدخل»، وفي نسخة الفاروقي والطبلاوي: «فيدخلوا».

الجنَّـةَ ويُعـذِّبَ الكُفَّـارَ والمُنافقيـنَ لمـا غاظَهُـم مِن ذلـك، أو ﴿فَتَحْنَا﴾ أو ﴿أَنزَلَ﴾ أو جميـع ما ذُكِـرَ، أو ليـزدادُوا.

وقيل إنَّه بدلٌ منهُ بدلَ الاشتمالِ.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يُغطِّيها ولا يُظهرُها.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإدخالُ والتَّكفيرُ.

﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لأنَّه مُنتَهى ما يُطلبُ مِن جَلبِ نَفعٍ أو دفعِ ضرٍّ. و﴿عندَ﴾ حالٌ مِن الفوزِ.

(٦) ـ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على (يُدخل) إلَّا إذا جُعلَ بدلًا فيكونُ عطفًا على المبدلِ.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ ظنَّ الأمرِ السَّوءِ، وهو أنْ لا ينصرَ رسولَهُ والمؤمنينَ.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دائرةُ ما يَظنُّونَهُ ويَتربَّصونَه بالمؤمنينَ لا تتخطَّاهُم.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿دائرةُ السُّوءِ﴾ بالضَّمِّ[1] وهما لُغتانِ غيرَ أنَّ المفتوحَ غلبَ في أن يضافَ إليه ما يرادُ ذَمُّهُ، والمضمومُ جرى مجرى الشرِّ، وكلاهما في الأصلِ مَصدَرٌ.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ لِمَا استَحقُّوهُ في الآخرةِ على ما استَوْجَبُوهُ في الدُّنيا.

والواوُ في الأخيرينِ والموضِعُ مَوضِعُ الفاءِ؛ إذ اللَّعنُ سببٌ للإعدادِ والغضبُ سببٌ له= لاستقلالِ الكلِّ في الوعيدِ بلا اعتبارِ السَّببيَّةِ.

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنَّمُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٧ ـ ٨) ـ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على أُمَّتِك ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على الطَّاعةِ والمعصيَةِ.

(٩) ـ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ والأمَّةِ، أو لَهُم على أنَّ خِطابَه مُنزَّلٌ منزلةَ خِطابِهم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوهُ بتَقوِيَةِ دينِه ورَسولِه.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتُعظِّموهُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنزِّهوهُ، أو تُصلُّوا له.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غُدوةً وعَشِيًّا، أو دائمًا.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو الأفعالَ الأربعةَ بالياءِ[1].

وقُرِئَ: (تُعْزِرُوه) بسكونِ العينِ[2]، و: (تَعزُروه) بفتحِ التَّاءِ وضَمِّ الزَّايِ وكَسرِها[3]، و(تُعزِّزُوه) بالزَّاءينِ[4]، (وتُوقِرُوهُ) مِن أوقرَهُ بمعنى وَقَّرَه[5].

(١٠) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنَّه المقصودُ ببَيْعَتِه ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حالٌ أو استئنافٌ مؤكِّدٌ له على سبيلِ التَّخييلِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٣).

(٣) كلاهما مروي عن الجحدي، ونسب كسر الزاي أيضاً لجعفر بن محمد، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٢)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٢).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٥٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٢)، عن محمد بن السميفع اليماني.

(٥) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٣).

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العَهْدَ ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعودُ ضررُ نكثِه إلَّا عليه.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهَ﴾ وفَّى في مُبايعتِه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنَّةُ. وقُرِئَ: (عَهِدَ)[1].

وقرأ حفصٌ ﴿عليهُ﴾ بضمِّ الهاءِ[2]، وابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ ورَوْحٌ: ﴿فسَنُؤْتيهِ﴾ بالنُّونِ[3]، والآيةُ نزلَتْ في بيعةِ الرِّضوانِ.

(١١) - ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هُم أسلَمُ وجُهينةُ ومُزَينةُ وغِفارٌ استَنْفَرَهُم رسولُ اللهِ ﷺ عامَ الحُديبيةِ فتَخلَّفُوا واعتَلُّوا بالشُّغلِ بأَموالهم وأهاليهِم، وإنَّما خلَّفَهُم الخذلانُ وضعفُ العقيدةِ والخوفُ عَن مُقاتلَةِ قُريشٍ إن صَدُّوهُم[4].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذْ لَمْ يَكُن لنا مَنْ يَقومُ بأشغالِنا، وقُرِئَ بالتَّشديدِ للتَّكثيرِ[5].

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ مِن اللهِ على التَّخلُّفِ.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيبٌ لهم في الاعتذارِ والاستغفارِ.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمَنْ يمنعُكُم مِن مَشيئَتِه وقَضائِه.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٤)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٤) ذكره الثعلب في «تفسيره» (٢٤/ ٢٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، ورواه بنحوه عن مجاهد الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٥٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤).

(٥) حكاها الكسائي، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٢)، وقال في «البحر» (١٩/ ٢٨٥): وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يَضرُّكُم كقتلٍ وهَزيمَةٍ[١] وخللٍ في المالِ والأهلِ وعقوبةٍ على التَّخلُّفِ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ بالضَّمِّ[٢].

﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ما يُضادُّ ذلك.

وهو تعريضٌ بالرَّدِّ[٣].

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيعلمُ تخلُّفَكُم وقصدَكُم فيه.

(١٢) - ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظَنّكم[٤] أنَّ المُشركينَ يَستأصِلُونَهُم.

و(أهلون) جمعُ أَهْلٍ وقد يُجْمَعُ عَلى أَهْلاتٍ كأرْضاتٍ، على أنَّ أصلَهُ أَهْلَةٌ، وأمَّا أَهَالٍ فاسمُ جمعٍ كـ: لَيَالٍ.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكَّنَ فيها. وقُرِئَ على البناءِ للفاعلِ[٥] وهو اللهُ أو الشَّيطانُ.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظنَّ المذكورُ. والمرادُ التَّسجيلُ عليه بالسُّوءِ، أو هو وسائرُ ما يظنُّونَ باللهِ ورسولِه مِن الأمورِ الزَّائِغَةِ.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هالكينَ عندَ اللهِ لفَسَادِ عَقيدَتِكُم وسُوءِ نِيَّتِكُم.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أو هزيمة».

(٢) وقراءة الباقين بالفتح، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) أي: برد اعتذارهم.

(٤) في نسخة الفاروقي: «لظنهم».

(٥) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٦)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٤).

(١٣) ـ ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ وضعَ الكافرينَ مَوضِعَ الضَّميرِ إيذانًا بأنَّ مَن لم يجمَعْ بينَ الإيمانِ باللهِ وبرَسُولِه، فهو كافرٌ وأنَّه مُستوجِبٌ للسَّعيرِ بكُفرِه.

وتَنكيرُ ﴿سَعِيرًا﴾ للتَّهويلِ أو لأنَّها نارٌ مَخصوصَةٌ.

(١٤) ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدبِّرُه كيفَ يَشاءُ.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذ لا وُجوبَ عليهِ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فإنَّ الغُفرانَ والرَّحمةَ مِن ذاتِه[١]، والتَّعذيبُ داخلٌ تحتَ قضائِه بالعَرَضِ، ولذلك جاءَ في الحديثِ الإلهيِّ: «سَبقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[٢].

(١٥) ـ ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ يعني المذكورينَ ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يَعني مَغانِمَ خيبرَ، فإنَّه عليهِ السَّلامُ رجَعَ مِن الحُدَيبيةِ في ذي الحِجَّةِ مِن سنةِ سِتٍّ وأقامَ بالمَدينةِ بقيَّتَها وأوائلَ المحرَّمِ، ثمَّ غزَا خيبرَ بمَنْ شَهِدَ الحُديبيةَ ففتحَها وغنِمَ أموالًا كثيرةً فخصَّها بهم.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أن يُغيِّروهُ، وهو وعدُه لأهلِ الحديبيةِ أن يعوِّضَهُم اللهُ مِن مغانِمِ مكَّةَ مَغانِمَ خيبرَ.

وقيل: قولُه: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣]، والظَّاهرُ أنَّه في تَبُوك.

والكلامُ اسمٌ للتَّكليمِ، غُلبَ في الجملَةِ المفيدَةِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «دأبه» وفي هامشها نسخة كالمثبت، وفي هامش نسخة الطبلاوي نسخة: «ذاتية».

(٢) رواه البخاري في (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿كَلِمَ اللهِ﴾ وهو جمعُ كلمةٍ[١].

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ نفيٌ في مَعنى النَّهي.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ تَهيُّئِهم للخُروجِ إلى خيبرَ.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نُشارِكَكُم في الغنائمِ. وقُرِئَ بالكسرِ[٢].

﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمونَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلَّا فَهمًا قليلًا وهو فِطنَتُهم لأُمورِ الدُّنيا.

والإضرابُ[٣] الأوَّلُ رَدٌّ مِنهم أن يكونَ حكمُ اللهِ أَنْ لا يتبعوهُم وإثباتُ الحسدِ، والثَّاني ردٌّ مِن اللهِ لذلك وإثباتٌ لجَهْلِهم بأمورِ الدِّينِ.

(١٦) ـ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرَّرَ ذكرَهُم بهذا الاسمِ مُبالغَةً في الذمِّ وإشعارًا[٤] بشناعةِ التَّخلُّفِ.

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفةَ أو غيرِهم ممَّنِ ارتَدُّوا بعدَ رَسولِ اللهِ ﷺ، أو المشركينَ فإنَّه قال: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكونُ أحدُ الأمرينِ إمَّا المقاتلةُ أو الإسلامُ لا غير، كما دلَّ عليه قِراءةُ: (أو يُسْلِمُوا)[٥]، ومَن عَداهُم يُقاتَلُ حتَّى يُسلِمَ أو يُعطيَ الجزيةَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) وهي قراءة أبي حيوة وابن عون كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣).

(٣) في جميع النسخ عدا نسخة الفاروقي: «ومعنى الإضراب».

(٤) في نسخة الخيالي: «وإظهاراً».

(٥) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣)، ووردت دون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٢٦٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣).

وهو يدلُّ على إمامةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه إذ لم تَتَّفِقْ هذهِ الدَّعوَةُ لغيرِهِ إلَّا إذا صَحَّ أنَّهُم ثقيفٌ وهوازنُ فإنَّ ذلك كانَ في عَهدِ النبوَّةِ.

وقيل: فارسٌ والرُّومُ، ومَعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾ يَنقادونَ ليَتناولَ تَقبُّلَهُم الجِزيةَ.

﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغَنِيمةُ في الدُّنيا والجنَّةُ في الآخرةِ.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عَـن الحديبيـةِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتَضاعُـفِ جُرمِكُم.

(١٧) ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لَمَّا أوعدَ على التَّخلُّفِ نَفَى الحرجَ عَن هؤلاءِ المَعذورينَ[٦] استثناءً لهم عَن الوَعيدِ.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فصَّلَ الوعدَ وأجملَ الوعيدَ مبالغةً في الوعدِ لسبقِ رحمَتِه ثمَّ جبرَ ذلك بالتَّكريرِ على سبيلِ التَّعميمِ فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ التَّرهيبُ هاهنا أنفعُ مِن التَّرغيبِ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿نُدْخِلْهُ﴾ و﴿نُعَذِّبْه﴾ بالنُّونِ[٧].

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا نزلَ الحديبيةَ بعثَ جَوَّاسَ بنَ أُميَّةَ الخُزاعيَّ إلى أهلِ مَكَّةَ فهَمُّوا بـه فمنعَهُ الأَحابيشُ، فرجَعَ فبعثَ عُثمانَ بنَ عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، فحَبسُوهُ فأُرجِفَ بقَتلِهِ، فدَعا رسولُ اللهِ أصحابَهُ وكانُوا أَلْفًا وثلاثَمئةٍ أو أربعمئةٍ أو خمسمئةٍ وبايَعُهم على أن يُقاتِلُوا قريشًا ولا يَفِرُّوا عَنهُم وكان جالسًا تحتَ سَمُرةٍ أو سِدرَةٍ[٨].

---

(٦) في نسخة الخيالي: «المذكورين».

(٧) وقراءة الباقين بالياء، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٨) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٩١٠) عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة وفيه: خراش بن أمية، ولعل ما عند المؤلف محرف عنه. وانظر: «الطبقات الكبرى» (٢/ ٩٣).

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مِن الإخلاصِ.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطُّمأنينةَ وسكونَ النَّفسِ بالتَّشجيعِ أو الصُّلحِ.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتحَ خيبرَ غِبَّ انصرافِهم، وقيل: مَكَّةَ أو هَجَرَ.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني مَغانِمَ خيبرَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالبًا مراعيًا مقتضى الحِكمةِ.

(٢٠) ـ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما يُفِيءُ على المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني مَغانِمَ خيبرَ.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أيدِيَ أهلِ خيبرَ وحُلفائِهم مِن بَنِي أسَدٍ وغَطَفانَ، أو أيديَ قريشٍ بالصُّلحِ.

﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفَّةُ أو الغنيمَةُ.

﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَمارةً يعرفونَ بها أنَّهُم مِن اللهِ بمكانٍ، أو صِدْقَ الرَّسولِ في وَعدِهِم فتحَ خيبرَ في حينِ رُجوعِه عَنِ الحُدَيبيةِ، أو وعدَ المغانم، أو عنوانًا لفتحِ مكَّةَ.

والعَطفُ على مَحذوفٍ هو عِلَّةٌ لـ(كفَّ) أو (عجَّلَ) مثل: لتُسلِمُوا أو لِتَأخُذوا، أو العِلَّةُ لِمَحذوفٍ مثل: فعلَ ذلك.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثِّقَةُ بفضلِ اللهِ والتَّوكُّلُ عليه.

(٢١) ـ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ ومَغانِمَ أُخرى، معطوفةٌ على ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أو مَنصوبَةٌ بفعلٍ يُفسِّرُه: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ مثل: (قضى)[1]، ويُحتَمَلُ رَفعُها بالابتداءِ لأنَّها مَوصوفَةٌ، وجرُّها بإضمارِ (رُبَّ).

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «أي قدر».

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ بعدُ لِمَا كان فيها مِن الجَوْلَةِ.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ استَوْلَى فأظفرَكُم بها، وهي مَغانِمُ هوازنَ أو فارسَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأنَّ قُدرتَهُ ذاتِيَّةٌ لا تختصُّ بشيءٍ دونَ شيءٍ.

(٢٢) ـ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن أهلِ مَكَّةَ ولم يُصالِحُوا ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لانهزَمُوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرُسُهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرُهُم.

(٢٣) ـ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: سَنَّ غلبَةَ أنبيائِه سُنَّةً قديمةً فيمَنْ مَضى مِن الأُمَمِ كما قال: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادل: ٢١].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييرًا.

(٢٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي كفَّارِ مكَّة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخلِ مكَّةَ.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهرَكُم عليهم، وذلك أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسمئةٍ إلى الحُديبيةِ فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ خالدَ بنَ الوَليدِ على جُندٍ فهزَمهُم حتَّى أدخلَهُم حيطانَ مَكَّةَ ثمَّ عادَ(١).

وقيل: كان ذلك يومَ الفَتحِ، واستُشهِدَ به على أنَّ مَكَّةَ فُتِحَتْ عَنْوةً، وهو ضَعيفٌ إذ السُّورَةُ نزلَتْ قبلَهُ.

---

(١) رواه مطولًا الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩١) عن ابن أبزى. وفيه أن الذي أرسله النبي ﷺ إلى عكرمة فهزمه هو خالد بن الوليد رضي الله عنه، لكن تعقب الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٥٤) الخبر بقوله: وفي صحته نظر، لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية، وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية، فلو كانت في عمرة القضية لأمكن، مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن مُقاتَلَتِهِم أَوَّلًا طاعةً لِرَسُولِه، وكفِّهِم ثانيًا لتَعظيمِ بيتِه. وقرأ أبو عَمرٍو[١] بالياءِ[٢].

﴿بَصِيرًا﴾ فيُجازيهِم عليهِ.

(٢٥) ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك كان عامَ الحُديبيةِ، والهَدْيُ ما يُهدَى إلى مكَّةَ.

وقُرِئَ: (الهَدِيَّ)[٣] وهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، ومَحِلُّهُ مكانُه الذي يَحِلُّ فيه نَحرُه، والمرادُ مكانُه المعهودُ وهو مِنى، لا مَكانُه الذي لا يجوزُ أن يُنحَرَ في غيرِه، وإلَّا لَمَا نحرَهُ الرَّسولُ ﷺ حيثُ أُحصِرَ، فلا ينتهضُ حُجَّةً للحنفيَّةِ على أنَّ مَذبحَ هَديِ المحصَرِ هو الحرمُ.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تَعرِفُوهُم بأعيانِهم لاختِلاطِهِم بالمُشركينَ.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أن تُوقِعُوا بهم وتُبيدُوهُم، قال:

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنَقٍ ... وَطْءَ المُقَيَّدِ نَابِتَ الهَرْمِ[٤]

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «وأبو بكر» وهو خطأ.

(٢) وقراءة الباقين بالتاء، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) وهي رواية عصمة عن عاصم كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣)، ورواية خارجة عن أبي عمرو كما في «البحر» (١٩/ ٢٩٩).

(٤) البيت للحارث بن وعلة كما في «شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري (ص: ٥٤٩)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦٣)، و«الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١٤٩ ـ ١٥١). وبشرح التبريزي (١/ ٦٥)، وفيه: الوَطْء: الأخذة الشَّديدة، والحنق: الغيظ، والهرم: شجر ضَعِيف، والمعنى: أثَّرت فينا تأثير الحنِق الغضبان كما يُؤثر البعير المُقَيَّد إذا وطئ الشَّجرة الضعيفة، وإنما كانت وطأة المقيد ثقيلة لأنه لا يتمكَّن من وضع قوائمه على حسب إرادته.

وقال عليهِ السَّلامُ: «إنَّ آخرَ وَطأةٍ وَطِئَها اللهُ بوجٍّ»(١)، وهو وادٍ بالطائفِ كان آخرَ وقعةٍ للنبيِّ عليهِ السَّلامُ بها، وأصلهُ الدَّوْسُ، وهو بدلُ اشتِمالٍ مِن رجالٍ ونِساءٍ، أو مِن ضَميرِهِم في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ مِن جِهَتِهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ مكروهٌ كوُجوبِ الدِّيةِ والكفَّارةِ بقَتْلِهم والتَّأسُّفِ عليهم وتعييرِ الكفَّارِ بذلك والإثمِ بالتَّقصيرِ في البحثِ عَنهم، مَفْعَلَةٌ مِن عَرَّهُ: إذا عَرَاهُ ما يَكرَهُه.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تَطؤوهُم غيرَ عالِمينَ بهم، وجوابُ (لولا) مَحذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليه، والمَعنى: لولا كراهةُ أَنْ تُهلكوا ناسًا مُؤمنينَ بين أَظهُرِ الكافرينَ جاهِلينَ بهم فيُصيبكُم بإهلاكِهِم مَكروهٌ لَما كفَّ أَيدِيَكُم عنهم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ عِلَّةٌ لما دلَّ عليه كفُّ الأيدي مِن أهلِ مَكَّةَ صَوْنًا لِمَن فيها مِن المؤمنينَ؛ أي: كانَ ذلك ليُدخِلَ اللهُ في رَحمَتِه؛ أي: في تَوفيقِه لزيادةِ الخيرِ أو للإسلامِ.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن مُؤمنيهِم أو مُشركيهِم.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ لو تَفرَّقُوا وتميَّزَ بَعضُهُم مِن بعضٍ. وقُرِئَ: (تَزايَلُوا)(٢).

﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتلِ والسَّبيِ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٥٦٢) من حديث يعلى بن مرة رضي الله عنه. ورواه الإمام أحمد أيضاً (٢٧٣١٤) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها. وفي كل من إسناديهما مقال. قال ابن قتيبة: أُراه ـ والله أعلم ـ أن آخر ما أوقع الله بالمشركين بالطَّائِف، ووَجٌّ هي الطَّائف، وكذلك قال سفيان بن عُيَيْنة: آخر غزاة غزاها رسول الله ﷺ الطَّائف، وحنين وَادٍ قبل الطَّائف. وذهب أيضًا في تفسير هذا الحرف هذا المذهب. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٣٧) عن أبي حيوة وقتادة.

(٢٦) ـ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُقدَّرٌ بـ: اذكُرْ، أو ظرفٌ لـ(عَذَّبْنا) أو (صَدُّوكم).

﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأَنَفَةَ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمنعُ إذعانَ الحقِّ.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزلَ عليهم الثَّباتَ والوقارَ، وذلك ما رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا همَّ بقِتالِهم بعثُوا سهيلَ بنَ عمرٍو وحُويطِبَ بنَ عبدِ العُزَّى ومِكْرَزَ بنَ حَفْصٍ ليسألوهُ أن يرجِعَ مِن عامِه على أن تخليَ له قريشٌ مكَّةَ مِن القابلِ ثلاثةَ أيَّامٍ فأجابَهُم، وكتبوا بينَهُم كِتابًا فقالَ عليهِ السَّلامُ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنه: «اكتُب: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ» فقالوا: ما نعرِفُ هذا، اكتُبْ: باسمِك اللهمَّ، ثمَّ قالَ عليهِ السَّلامُ: «اكتُبْ: هذا ما صالحَ رَسولُ اللهِ أهلَ مكَّة» فقالوا: لو كنَّا نعلَمُ أنَّكَ رَسولُ اللهِ ما صَدَدْناكَ عن البيتِ وما قاتلناكَ، اكتُبْ: هذا ما صالحَ عليه مُحمَّدُ بن عبدِ اللهِ أهلَ مَكَّةَ، فقالَ عليه السَّلامُ: «اكتُبْ ما يُريدونَ»[١]، فهمَّ المؤمنونَ أَنْ يأبَوْا ذلك ويبطِشوا عليهِمْ، فأنزلَ اللهُ السَّكينةَ[٢] عليهم فتوقَّرُوا وتَحمَّلُوا.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ كلمةَ الشَّهادةِ، أو (بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ محمَّدٌ رسولُ اللهِ) اختارهما لهم، أو الثَّباتَ والوفاءَ بالعهدِ.

وإضافة (الكلمة) إلى (التقوى) لأنَّها سببُها أو كلمةُ أهلِها.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ مِن غيرِهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ والمُستأهِلَ لها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلمُ أهلَ كلِّ شيءٍ ويُيَسِّرُه له.

---

(١) قطعة من حديث الحديبية الطويل رواه البخاري (٢٧٣١) عن المسور ومروان، وفيه بدل «اكتُبْ ما يُرِيدُون»: «واللهِ إني لرسولُ الله وإنْ كذَّبتُموني، اكتب محمدُ بنُ عبد الله».

(٢) في نسخة الخيالي: «سكينته».

(٢٧) ـ ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رَأى عليهِ السَّلامُ أنَّه وأصحابَه دخَلُوا مكَّةَ آمنينَ وقد حلَّقوا وقصَّرُوا، فقَصَّ الرُّؤيَا على أصحابِه ففرِحُوا، وحَسِبُوا أنَّ ذلك يكونُ في عامِهِم، فلَمَّا تأخَّرَ قال بعضُهُم: واللهِ ما حَلَّقْنا ولا قَصَّرْنا ولا رأينا البيتَ، فنزَلَتْ[1]، والمعنى: صدقَهُ في رُؤياه.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُلتبِسًا بـه، فـإنَّ مـا أراهُ كائـنٌ لا محالـةَ فـي وقتـهِ المقـدَّرِ له وهو العـامُ القابِلُ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صِفَةَ مصدرٍ مَحذوفٍ أي: صِدْقًا مُلتَبِسًا بالحقِّ وهو القصدُ إلى الـمَيْزِ بينَ الثَّابتِ على الإيمانِ والمتزلزلِ فيه، وأن يكونَ قَسَمًا إمَّا باسمِ اللهِ تَعالى أو بنَقيضِ الباطلِ.

وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابُه، وعلى الأوَّلَيْنِ جوابُ قسمٍ مَحذوفٍ.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليقٌ للعِدَةِ بالمَشيئةِ تَعليمًا للعِبادِ، أو إشعارًا بأنَّ بعضَهُم لا يدخلُ لِمَوْتٍ أو غَيبةٍ، أو حكايةٌ لِمَا قالَهُ مَلَكُ الرُّؤيا أو النَّبيُّ لأَصحابِه.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ مِن الواوِ. والشَّرطُ مُعترِضٌ.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: مُحَلِّقًا بَعضُكُم ومُقَصِّرًا آخرون.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ أو استئنافٌ، أي: لا تخافونَ بعد ذلك ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ مِن الحكمةِ في تأخيرِ ذلك.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ مِن دونِ دُخولِكُم المسجدَ، أو فتحِ مَكَّة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتحُ خيبرَ لتَسْتَرْوِحَ إليه قلوبُ المُؤمنينَ إلى أن يتيسَّرَ الموعودُ.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٧) عن ابن زيد، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤) عن مجاهد.

(٢٨) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ مُلتَبِسًا به، أو بسببِهِ ولأَجلِهِ[١] ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ وبدينِ الإسلامِ.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليُغلِّبَهُ على جنسِ الدِّينِ كلِّه بنسخِ ما كانَ حقًّا وإظهارِ فسادِ ما كان باطلًا، أو بتَسليطِ المُسلِمينَ على أَهلِه إذ ما مِن أَهلِ دينٍ إلَّا وقد قَهرَهُم المُسلِمُونَ، وفيه تأكيدٌ لِمَا وعدَهُ مِن الفَتحِ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ على أنَّ ما وعدَهُ كائِنٌ، أو على نُبوَّتِه بإظهارِ المُعجِزَاتِ.

(٢٩) ـ ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ للمَشهودِ به، ويجوزُ أن يكونَ ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ صِفَةً و﴿مُّحَمَّدٞ﴾ خبرَ مَحذوفٍ، أو مبتدأً.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ معطوفٌ عليهِ، وخبرُهما: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وأَشِدَّاءُ جَمعُ شديدٍ، ورُحَماءُ جمعُ رَحيمٍ، والمعنى أَنَّهُم يَغلُظونَ على مَن خالفَ دينَهُم ويَتراحَمُونَ فيمَا بينَهُم كقولِه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ لأَنَّهُم مُشتَغِلونَ[٢] بالصَّلاةِ في أكثرِ أَوقاتِهم ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ الثَّوابَ والرِّضَا.

﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يريدُ السِّمَةَ التي تحدُثُ في جِباهِهِم مِن كثرةِ السُّجودِ، فِعْلى مِن سامَه: إذا أَعْلَمه، وقد قُرِئَت ممدودةً[٣]، و﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ بيانُها، أو حالٌ مِن المستكنِّ في الجارِّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوَصفِ المَذكورِ، أو إشارةٌ مبهمةٌ يُفسِّرُها ﴿كَزَرۡعٍ﴾.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «أو لأجله».

(٢) في نسخة الخيالي: «مشغولون».

(٣) قرئت: (سِيْمِيَاؤُهم) وفيها ثلاث لغات: هاتان والسيماء، وانظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣) ونسب القراءة لبعضهم.

﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ صِفَتُهم العَجيبةُ الشَّأنِ المَذكورةُ فيها.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ عليه، أي: ذلك مَثلُهم في الكتابَينِ، وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيلٌ مُستأنَفٌ، أو تَفسيرٌ، أو مُبتدأٌ و﴿كَزَرْعٍ﴾ خبرُه.

﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فِراخَه، يقال: أَشْطأَ الزَّرعُ: إذا أفرَخَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ بروايةِ ابنِ ذكوانَ: ﴿شَطَأَهُ﴾ بفتحاتٍ[1]، وهو لُغَةٌ فيه.

وقُرِئَ: (شَطَاهُ) بتَخفيفِ الهمزةِ، و: (شَطَاءَهُ) بالمدِّ، و: (شَطَهُ) بنقلِ حركةِ الهمزةِ وحَذفِها، و(شَطْوَهُ) بقلبِها واوًا[2].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقَوَّاه، مِن المُؤازرَةِ وهي[3] المُعاونَةُ، أو مِن الإيزارِ وهو الإعانَةُ. وقرأ ابنُ عامرٍ بروايةِ ابنِ ذَكوانَ: ﴿فَأَزَرَهُ﴾ كأَجَرَ في آجَرَ[4].

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصارَ مِن الدقَّةِ إلى الغِلَظِ[5] ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقامَ على قَصبِهِ، جمعُ ساقٍ. وعن ابنِ كَثيرٍ (سُؤْقِهِ) بالهمزةِ[6].

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكَثافَتِه وقُوَّتِه وغلظِه[7] وحُسنِ منظرِه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٢) انظر هذه القراءات مع قارئيها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧)، و«البحر» (١٩/ ٣١٣).

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «بمعنى».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٨).

(٥) في نسخة الخيالي: «الغلظة».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨).

(٧) في نسخة الخيالي: «وغلظته».

وهو مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ للصَّحابةِ قَلُّوا في بَدءِ الإسلامِ ثمَّ كَثُرُوا واستَحْكَمُوا فترقَّى أَمرُهُم بحيثُ أعجبَ النَّاسَ.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ عِلَّةٌ لتَشبيهِهِم بالزَّرعِ في زَكَائِه واستِحكامِه، أو لقولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإنَّ الكُفَّارَ لَمَّا سَمِعُوهُ غاظَهُم ذلك، و(منهم) للبَيانِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الفَتحِ فكأنَّمَا كانَ ممَّنْ شَهِدَ مَع مُحمَّدٍ فتحَ مكَّةَ»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٤٠٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٥)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع المروي في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩٩).

سورة الفتح(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ
جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ الآية، هذه السورة مدنية؛ فعن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة. والصحيح أنها نزلت بالطريق منصرفه من الحديبية سنة ستّ من الهجرة، فهي تُعدّ من المدني. ومناسبتها لما قبلها أنه [لمّا] تقدّم ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد] خطاباً لكفّار قريش، أخبر رسوله بالفتح العظيم. ولمّا قال ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [محمد] ناسب ذلك علوّ الإسلام بهذا الفتح العظيم.

---

(1) مدنية وهي تسع وعشرون آية.

وعلّل المغفرة باجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة، وهي المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكّة، ونصرناك على عدوّك، لنجمع لك بين عزّ الدارين وأغراض العاجل والآجل[١].

و«السكينة» هي الطمأنينة والسكون [قيل]: بسبب الصلح والأمن، ليعرفوا فضل الله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهدنة بعد القتال فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم.

والظاهر أن اللام في «ليدخل» تتعلق بمحذوف يدلّ عليه الكلام، وذلك أنه قال ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكان[٢] في ذلك دليل على أنه تعالى يبتلي بتلك الجنود من يشاء، فيقبل الخير من قضى له بالخير، والشّر من قضى له بالشّر، ليدخل المؤمنين جنات، ويعذّب الكفّار، فاللام تتعلّق بـ«يبتلي» هذه.

قرىء: لتؤمنوا[٣]، وعطف [عليه] ما بعده بتاء الخطاب. وبياء الغيبة. والضمير في «وتعزروه وتوقروه» عائد للرسول عليه السلام، وفي «وتسبحوه» عائد لله تعالى. وتقدّم لفظ التعزير[٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ

(١) هذا من كلام الزمخشري، انظر الكشاف ٣: ٥٤١.

(٢) ق: كان.

(٣) ق: ليؤمنوا.

(٤) انظر تفسير الآية ١٥٧ من الأعراف.

ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا
لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ
بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾
وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾
سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ
يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا
حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ
وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ هي بيعة الرضوان وبيعة الشجرة حين أخذ الرسول عليه السلام الأهبة لقتال قريش حين أرجف بقتل عثمان بن عفان، وقد بعثه إلى قريش يعلمهم أنه جاء معتمراً لا محارباً، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية، بايعهم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد. ولذلك قال سلمة بن الأكوع وغيره: بايعنا على الموت، وقال ابن عمر وجابر: [على] أن لا نفرّ.

وقال الزمخشري[1]: لمّا قال «إنما يبايعون الله» أكّده تأكيداً على طريقة

(١) الكشاف ٣: ٥٤٣.

التخييل فقال «يد الله فوق أيديهم» يريد أن [يد] رسول الله ﷺ التي تعلو [٥١٣/أ] أيدي[1] المبايعين هي يد الله. والله تعالى منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى تقرير[2] أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما كقوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] [والمراد بيعة الرضوان]. «فإنما ينكث على نفسه» فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه انتهى.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية، «المخلفون» قبائل من العرب مذكورون في البحر[3].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ هذا اعتلال منهم عن تخلّفهم، أي: لم يكن لهم من يقوم بحفظ أموالهم وأهليهم غيرهم. فبدؤوا بذكر الأموال لأنّ بها قوام العيش وعطفوا الأهل [عليها] لأنهم كانوا يحافظون على حفظ الأهل أكثر من حفظ المال.

وكان الرسول عليه السلام استنفرهم حين أراد المسير إلى مكّة، فتعلّلوا بهذا الاعتلال.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ الظاهر أنه راجع إلى الجملتين المقولتين من الشغل وطلب الاستغفار. لأن قولهم «شغلتنا» كذب، وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ﴾ أي: من يمنعكم من قضاء الله. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ من قَتْلٍ أو هزيمة. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ من ظفر

(١) ق: يدي.

(٢) ق: تقدير.

(٣) انظر ٨: ٩٢.

وغنيمة؛ إذ هو تعالى المتصرّف فيكم.

ولمّا أخبر تعالى أنهم قوم بور ذكر ما يدلّ عليه أنهم ليسوا بمؤمنين فقال ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ﴾، ثم ذكر جزاءهم وهو السعير.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ معناه أن يغيّروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة خيبر. وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر، إذا قفلوا موادعين، لا يصيبون منهم شيئاً. وأمره تعالى أن يقول لهم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، وأتى بصيغة «لن» وهي للمبالغة في النفي، أي: لا يتمّ لكم ذلك إذ[1] قد وعد تعالى أن ذلك لا يحضرها إلا أهل الحديبية فقط.

﴿كَذَٰلِكُمْ[2] قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يريد وعده قبل اختصاصهم بها.

﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: يعز عليكم أن نصيب مغنماً معكم، وذلك على سبيل الحسد أن نقاسمكم فيما تغنمون. ثم ردّ تعالى عليهم كلامهم هذا فقال ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من أمور الدنيا.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أمر تعالى نبيّه عليه السلام أن يقول لهم ذلك، ودلّ على أنهم كانوا يظهرون الإسلام. ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكونوا أهلاً لهذا الأمر.

وأبهم تعالى في قوله ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس: هم الفرس، وقيل غير ذلك. والظاهر أن هؤلاء المقاتلين ليسوا ممّن تؤخذ منهم الجزية؛ إذ لم يذكر هنا إلا القتال أو الإسلام.

---

(١) ق: أن.

(٢) ق: كذلك.

قال الزمخشري[1]: [٥١٣/ب] وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنهم لم يُدْعَوْا إلى حرب في أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن بعد وفاته انتهى.

هذا ليس بصحيح! قد حضر كثير منهم مع جعفر في مؤتة، وحضروا حرب هوازن مع رسول الله ﷺ، وحضروا معه في سفرة تبوك. ولا يتمّ قول الزمخشري إلاّ على قول من عيّن أنهم من أهل الردّة.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ أي: فيما تُدعون إليه. ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: في الخروج مع الرسول في زمان الحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ تقدم الكلام[2] [عليه].

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى
قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ
وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾
وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ
قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾
هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ

(١) الكشاف ٣: ٥٤٥.

(٢) انظر شرح الآية ٦١ من النور.

وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، لمّا ذكر حال من تخلّف عن السفر مع الرسول، ذكر حال المؤمنين الخلّص الذين سافروا معه. والآية دالّة على رضا الله تعالى عنهم، ولذا سمّيت بيعة الرضوان. والعامل في «إذ» «رضي». والرضا بمعنى إظهار النّعم عليهم، فهو صفة فعل لا صفة ذات لتقييده بالزمان. و«تحت» يحتمل أن يكون معمولاً لـ«يبايعونك»، أو حالاً من المفعول، لأنه عليه السلام كان تحتها جالساً في أصلها وكانت الشجرة سَمُرَة[1].

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان واتّباع الرسول.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قيل: هو فتح خيبر، وكان عقب انصرافهم من مكّة.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هذه المغانم الموعود بها هي المغانم التي كانت بعد هذه، وتكون إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ الإشارة بـ«هذه» إلى البيعة والتخلّص من أمر قريش بالصلح، قاله ابن عباس: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أهل مكة بالصلح.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ قال ابن عباس: بلاد فارس والروم وما فتحه

(١) السَّمُرة: من شجر الطلح، والجمع سَمُر.

المسلمون.

﴿وهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: قضى بينكم المكافّة والمحاجزة بعدما خوّلكم الظفر عليهم والغلبة. وروي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل، وخرجوا يطلبون غرّة[1] في عسكر رسول الله ﷺ. فلما أحسّ بهم المسلمون، بعث عليه السلام خالد بن الوليد - وسمّاه حينئذ سيف الله - في جملة من المسلمين، ففرّوا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكّة، وأسروا منهم جملة، وسيقوا إلى الرسول، فمنّ عليهم وأطلقهم[2].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكة. و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال أي: محبوساً.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ كان بمكّة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميّزين منهم ولا معروفي الأماكن، فقال تعالى «ولولا» أي: ولولا كراهة أن تُهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين، وأنتم غير عارفين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه [٥١٤/أ] ومشقّة - ما كفّ أيديكم عنهم. وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه.

قال الزمخشري[3]: ويجوز أن يكون «لو تزيّلوا» كالتكرير لـ«لولا رجال مؤمنون» لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون[4] «لعذّبنا» هو الجواب. انتهى.

قوله: لمرجعهما إلى معنى واحد، ليس بصحيح، لأن ما تعلّق به «ولولا»

---

(١) ق: عدة.

(٢) انظر الطبري ٢٦: ٥٩.

(٣) الكشاف ٣: ٥٤٨.

(٤) ق: ولكون.

الأولى غير ما تعلّق به الثانية. فالمعنى في الأولى: ولولا وطء قوم مؤمنين، والمعنى في الثانية: لو تميّزوا من الكفّار. وهذا المعنى[1] مغاير للأول مغايرة ظاهرة.

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ قال الزهري: حميتهم: أَنَفَتُهم من[2] الإقرار للرسول عليه السلام بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم. والذي امتنع من ذلك هو سهيل بن عمرو. والسكينة: الوقار والاطمئنان، فتوقّروا وحلموا.

و«كلمة التقوى» لا إله إلا الله، وروي ذلك عن النبي ﷺ[3]. والظاهر أن الضمير في «وكانوا» عائد على «المؤمنين» والمفضّل عليهم محذوف؛ أي: أحقّ بها من كفّار مكّة، لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيّه عليه السلام.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) ق: هذا معنا.

(٢) ق: في.

(٣) رواه الترمذي ٩: ١٧ عن أبي بن كعب، وقال: حديث غريب.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية، رأى الرسول عليه السلام في منامه قبل خروجه إلى الحديبية - وقال مجاهد: وكانت الرؤيا بالحديبية - أنه وأصحابه دخلوا مكّة آمنين، وقد حلّقوا وقصّروا. فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق. فلمّا تأخر ذلك، قال عبد الله بن أبيّ وناس معه: والله ما حلقنا ولا قصّرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت[1]. ولمّا نزلت هذه الآية علم المسلمون أنهم يدخلونها فيما يُستأنف. واطمأنّت قلوبهم، ودخلوها معه عليه السلام في ذي القعدة سنة سبع، وذلك ثلاثة أيام هو وأصحابه، وصدقت رؤياه عليه السلام. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي: ما قدّره من ظهور الإسلام في تلك المدّة ودخول الناس فيه، وما كان أيضاً بمكّة من المؤمنين الذين دفع الله بهم.

قال الزمخشري[2]: «فعلم ما لم تعلموا» من الحكمة والصواب في تأخّر فتح مكّة إلى العام القابل انتهى.

لم يكن فتح مكة في العام القابل إنما كان بعد ذلك بأكثر من عام؛ لأن الفتح كان سنة ثمانٍ من الهجرة، وكان خروجه من المدينة عام الحديبية في ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من شهداء الحديبية. ﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع شديد. ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ دليل على كثرة ذلك منهم. وهذه السّيما قال مالك بن أنس: كانت جباههم منيرة من كثرة السجود في التراب. ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: صفتهم في التوراة.

---

(١) انظر لباب النقول ص١٩٤.

(٢) الكشاف ٣: ٥٥٠.

[٥١٤/ب] و«مثلهم» هذا مبتدأ، و«كزرع» خبره. وقال قتادة: مَثَل أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من أمّة محمد قوم ينبتون[١] نباتاً كالزّرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. شَطَأَ الزرع وأشطأ إذا أخرج فراخه وهو في الحنطة والشعير. والضمير المنصوب في «فآزره» عائد على الزّرع، لأن الزّرع أول ما يطلع رقيق الأصل، فإذا خرجت فراخه، غلظ أصله وتقوّى. وكذلك أصحاب الرسول عليه السلام كانوا أقلّة ضعفاء، فلمّا كثروا وتَقَوَّوْا قاتلوا المشركين.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي: صار من الرّقة إلى الغلظ. ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: تم نباته. ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق، كناية عن أصوله. ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ جملة في موضع الحال. وإذا أعجب الزّراع فهو أحرى أن يعجب غيرهم لأنه لا عيب [فيه] إذ قد أعجب العارفين بعيوب الزّرع، ولو كان معيباً لم يعجبهم، وهنا تمّ المَثَل. و﴿لِيَغِيظَ﴾ متعلق بمحذوف يدلّ عليه الكلام قبله تقديره: جعلهم الله بهذه الصّفة ليغيظ بهم الكفار. والأجر العظيم: الجنّة.

(١) ق: من قوم محمد ينبتون. وفوقها في ق: كذا.

مفردات سورة الفتح

ظَفِرَ[1] بالشيء: غلبَ عليه، وأظفَرَه عليه غَلَّبَه[2].

المَعَرَّة: المكروه والمشقة اللّاصقة، مأخوذٌ من العُرِّ والعُرَّة: وهو الجرَبُ الصعب اللازم[3]. قال الشاعر:

كَـذِي الـعُـرِّ يُـكْـوَى غـيـرُهُ وهْـوَ راتِـعُ[4]

الشَّطْءُ: الفِراخ، أشطأ الزَّرْعُ: أفرخَ. والشجرةُ: أخرجَتْ غصونَها[5].

آزر: ساوى طُولاً. قال الشاعر:

بِـمَـحْـنِـيَّـةٍ قـد آزرَ الـضَّـالَ نَـبْـتُـهـا مَـجَـرَّ جـيـوشٍ غـانـمـيـنَ وخُـيَّـبِ[6]

أي: ساوى نبتُها الضالَ طولاً[7]. وهو شجرٌ، ووزنُه «أفْعَلَ»؛ لقولهم في المضارع: يُوزِرُ.

* * *

---

(١) هنا ينتهي الخرم الذي وقع في النسخة الأحمدية (أ)، والذي أشرنا إليه في سورة غافر، عند تفسير الآية (٥١).

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٣٧٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧.

(٤) قائله النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٨١، وصدره: لكلَّفتني ذنبَ امرئٍ وتَرَكْتَهُ.

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٩٢.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤٥. قال شارحه: المَحنيَّة: حيث ينحني الوادي، وهو أخصب موضعٍ فيه. وقوله: مجرَّ جيوش، أي: هذه المحنيَّة في موضع تمرُّ الجيوش به من غانم وخائب، فلا ينزلها أحدٌ ليرعاها خوفاً من الجيوش، فذلك أوفر لخصبها وأتمُّ لكلئها.

(٧) تهذيب اللغة ١٣/ ٢٤٧، وقال: الضال السِّدْر البرِّي.

سورة الفتح

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ
وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤
لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ
ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا
٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا
وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ
أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾.

هذه السورة مدنية، فعن ابن عباس أنَّها نزلت بالمدينة. ولعلَّ بعضاً منها نزل بالمدينة. والصحيح أنَّها نزلت بالطريق مُنْصرَفه ﷺ من الحُديبية سنة ستٍّ من الهجرة، فهي تُعَدُّ في المدني(١).

ومناسبتُها لِما قبلها أنَّه تقدَّم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ الآية [٣٨ من سورة محمد] وهو خطابٌ لكفَّارِ قريش، أخبرَ رسولَه بالفتح العظيم، وأنَّه بهذا الفتح حصل الاستبدال، وآمنَ كلُّ مَنْ كان بها، وصارت مكةُ دارَ إيمان، ولمَّا قفَلَ رسولُ الله ﷺ من صلح الحُديبية تكلَّم المنافقون وقالوا: لو كان محمدٌ نبيًّا ودينُه حقًّا(٢) ما صُدَّ عن البيت، ولكان فتحُ مكة. فأكذَبَهم اللهُ تعالى، وأضافَ عزَّ وجلَّ الفتحَ إلى نفسه إشعاراً بأنَّه من عند الله، لا بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَدٍ، وأكَّدَه بالمصدر، ووصفَه بأنَّه مُبيْنٌ مُظهِرٌ لِما تضمَّنه من النصر(٣) والتأييد.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.
(٢) في (يه): ودينُه دينَ حقٍّ.
(٣) في (يه): النصرة.

والظاهر أنَّ هذا الفتح هو فتح مكة. وقاله الكلبي[١] وجماعة[٢]، وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه، لمَّا قال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾الآية [محمد: ٣٨] بيَّن أنَّه فتحَ لهم مكة، وغنموا، وحصل لهم أضعافُ ما أنفقوا، ولو بخلوا لَضاعَ عليهم ذلك، فلا يكون بخلُهم إلَّا على أنفسهم. وأيضاً لـمَّا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] بيَّن برهانه بفتح مكَّة، فإنَّهم كانوا هم الأَعْلَين. وأيضاً لمّا قال: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥] كان فتحُ مكة حيثُ لم يلحقهم وَهْنٌ، ولا دَعَوا إلى صُلحٍ، بل أتى صناديدُ قريش مستأمِنين مستسلِمين مسلِمين[٣]. وكانت هذه البشرى بلفظ الماضي وإن كان لم يقع؛ لأنَّ إخباره تعالى بذلك لا بُدَّ من وقوعه، وكون هذا الفتح هو فتحُ مكة بدأ به الزمخشري[٤].

وقال الجمهور: هو فتح الحُديبية[٥]. وقاله أنس[٦]، والشَّعبي[٧]، والزُّهري[٨]. قال ابن عطية: وهو الصحيح. انتهى.

ولم يكن فيه قتالٌ شديد، ولكن تَرامٍ من القوم بحجارةٍ وسهام. وعن ابن عباس: رمَوا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم. وعن الكلبي: ظهروا عليهم حتى سألوه الصُّلح. قال الشَّعبي: بلغَ الهديُ مَحِلَّه، وظهرتِ الرُّوم على فارس، ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس، وأُطعموا نخلَ خيبر[٩]. وقال الزُّهري: لم يكن فتحٌ أعظمَ من فتح الحديبية، اختلطَ المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامَهم، وتمكَّن الإسلامُ من قلوبهم، وأسلمَ في ثلاثِ سنين خلقٌ كثيرٌ، وكثُرَ بهم سواد الإسلام[١٠].

---

(١) فيما ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.
(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٥/ ٤٨٧ عن أنس بن مالك ﷺ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٢٣ عن عائشة والسدي.
(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٨.
(٤) في الكشاف ٣/ ٥٤٠.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.
(٦) في (ع) والمطبوع: السدي. وأخرجه عن أنس ﷺ البخاريُّ (٤٨٣٤).
(٧) أخرجه عنه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٥، وابن سعد ٢/ ١٠٤، والطبري ٢١/ ٢٣٨.
(٨) أخرجه عنه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧.
(٩) الكشاف ٣/ ٥٤١.
(١٠) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٧.

قال القرطبي: فما مضَتْ تلك السنونُ إلَّا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف[١].

وقال موسى بن عقبة: قال رجل منصرفَهم من الحُديبية: ما هذا الفتح؟ لقد صدُّونا عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادكم بالرَّاح، ويسألوكم القضية، ويرغَبوا إليكم في الأمان، ورأوا منكم ما كرهوا» وكان في فتحها آيةٌ عظيمةٌ وذلك أنَّه نَزَحَ ماؤها حتى لم يبقَ فيها قطرةٌ، فتمضمض رسولُ الله ﷺ، ثمَّ مجَّه فيها، فدرَّتْ بالماء حتى شربَ جميعُ مَنْ كان معه[٢]. وقيل: فجاش الماءُ حتى امتلأت ولم ينفَدْ ماؤها بعدُ.

وقال الزمخشري[٣]: فإنْ قلتَ: كيف يكونُ فتحاً وقد أُحصِروا فنحروا وحلقوا بالحُديبية؟ قلت: كان ذلك قبل الهدنة، فلمَّا طلبوها وتمَّتْ كان فتحاً مبيناً. انتهى.

وفي هذا الوقت اتَّفقَتْ بيعة الرضوان وهو الفتحُ الأعظم. قاله جابر بن عبد الله والبراء بن عازب، وفيه استقبل فتح خيبر، وامتلأَتْ أيدي المؤمنين خيراً ولم يفتَحْها إلَّا أهل الحُديبية، ولم يشركهم أحدٌ من المتخلِّفين عن الحُديبية[٤]. وقال مجاهد: هو فتح خيبر[٥].

وفي حديث مُجَمِّع بن جارية: شهِدْنا الحُديبية، فلمَّا انصرَفْنا إذ الناسُ يهزُّون الأباعر، فقيل: ما بالُ الناس؟ قالوا: أوحى اللهُ للنبيِّ ﷺ. قال: فخرَجْنا نُوجِفُ، فوجدنا النبيَّ ﷺ عند كُراعِ الغَمِيم، فلمَّا اجتمع الناسُ قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال عمر بن الخطاب ﷺ: أوَفَتْحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لفَتْحٌ». فقُسِمَتْ خيبرُ على أهل الحُديبية، ولم يدخُلْ فيها أحدٌ إلَّا من شهد الحُديبية[٦].

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٦.
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٦٠.
(٣) في الكشاف ٣/ ٥٤١.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.
(٥) تفسير الثعلبي ٥/ ٤٨٧، وزاد المسير ٧/ ٤٢٣.
(٦) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٧. والحديث أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦)، =

وقال الضحَّاك: الفتحُ: حصول المقصود بغير قتال، وكان الصُّلحُ من الفتح[١]. وفتحُ مكة بغير قتال، فتناول الفتحين الحُديبية ومكة.

وقيل: فتحَ اللهُ تعالى له بالإسلام والنبوَّة والدعوة بالحجَّة والسيف، ولا فتْحَ أبْيَنُ منه وأعظَمُ، وهو رأس الفُتوح كُلِّها، إذ لا فتحَ من فُتوحِ الإسلام إلَّا وهو تحتَه ومتشعِّبٌ منه.

وقيل: قضينا لكَ قضاءً بيِّناً على أهل مكة أن تدخُلَها أنت وأصحابُك من قابل ليطوفوا بالبيت، من الفَتاحة: وهي الحكومة. وهذا عن قتادة.

قال الزمخشري: فإنْ قلتَ: كيفَ جُعِلَ فتحُ مكةَ عِلَّةً للمغفرة؟ قلت: لم يُجعَلْ عِلَّةً للمغفرة، ولكِنْ لاجتماع ما عُدِّدَ من الأمور الأربعة ـ وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ـ كأنَّه قيل: يَسَّرْنا لكَ فتحَ مكة ونصرناك على عدوِّك لنجمعَ لكَ بين عِزِّ الدَّارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتحُ مكة ـ من حيثُ إنَّه جهادٌ للعدوِّ ـ سبباً للغفران والثواب. والفتح: الظَّفَر بالبلد عَنوةً أو صلحاً بحربٍ أو بغير حرب؛ لأنَّه منغلِقٌ مالم يظفَرْ، فإذا ظفِرَ به وحصل في اليد فقد فُتح[٢]. انتهى.

وقال ابن عطية: المرادُ هنا أنَّ اللهَ فتحَ لكَ لكي يجعل ذلك علامةً لغُفرانِه لك، فكأنَّها لامُ صيرورة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ هي أحبُّ إليَّ مِن الدنيا»[٣]. انتهى.

= والثعلبي في تفسيره ٥/ ٤٨٧-٤٨٨. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٨: وفي إسناده ضعف.

وقوله: يهزُّون الأباعر، أي: يحثُّونها ويدفعونها. رقوله: نُوجِفُ؛ الإيجاف: سرعة السير. النهاية (وجف). وكُراع الغَميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة. معجم البلدان ٤/ ٤٤٣.

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ٤٨٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٤١.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٦. والحديث أخرجه البخاري (٤١٧٧) و(٤٨٣٣)، وأحمد (٢٠٩) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ. وفيه «ممَّا طلعت عليه الشمس» بدل «من الدنيا». وأخرجه مسلم (١٧٨٦)، وأحمد (١٣٢٤٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وفيه: «آية» بدل «سورة».

وقال صاحب «الغُنيان»: هي لام القسم، وكُسِرتْ لحذف النون من الفعل تشبيهاً بلام كي[١]. انتهى. ورُدَّ بأنَّ لام القسم لا تُكسَرُ ولا يُنصَبُ بها، ولو جاز هذا لجاز: لِيقومَ زيدٌ، في معنى لَيقومنَّ زيدٌ. انتهى.

أمَّا الكسر فقد عُلِّلَ بأنَّه شُبِّهت تشبيهاً بلام «كي»، وأمَّا النصب فله أن يقول: ليس هذا نصباً، لكنَّها الحركةُ التي تكون مع وجود النون بقِيَتْ بعدَ حذفِها دلالةً على الحذف، وبعد هذا فهذا القول ليس بشيء؛ إذ لا يُحفَظُ من لسانهم واللهِ لِيقوم ولا باللهِ لِيخرُجَ زيدٌ بكسرِ اللام وحذفِ النون وبقاءِ الفعل مفتوحاً.

﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾بإظهارك على عدوِّك، ورضاه عنك، وبفتح مكة والطائف وخيبر[٢].

﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾أي: بالظفر والتمكُّن من الأعداء بالغنيمة والأسر والقتل، نصراً فيه عِزٌّ ومَنَعةٌ، وأُسنِدَتِ العِزَّةُ إليه مجازاً، والعزيزُ حقيقةً هو المنصور ﷺ.

وأُعيدَ لفظُ «الله» في «وينصُرَكَ الله» لمَّا بَعُدَ عمَّا عطف عليه؛ إذ في الجملتين قبلَه ضميرٌ يعود على الله، وليكون المَبْدأ مسنداً إلى الاسم الظاهر، والمنتهى كذلك.

ولمَّا كان الغفرانُ وإتمامُ النِّعمة والهدايةُ والنصرُ يشتركُ في إطلاقها الرسولُ ﷺ وغيرُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] وكان الفتحُ لم يَبْقَ لأحدٍ إلَّا للرسول ﷺ، أسندَه تعالى إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه، وأسند تلك الأشياء الأربعة إلى الاسم الظاهر، واشتركت الخمسة في الخطاب له ﷺ تأنيساً له، وتعظيماً لشأنه، ولم يأتِ بالاسم الظاهر لأنَّ في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر[٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وهي الطُّمأنينة والسُّكون. قيل: بسبب الصُّلح والأمن؛ ليعرفوا فضلَ الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهدنة بعد القتال، فيزدادوا

(١) قول صاحب الغنيان ليس في المطبوع، وانظر تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٨.
(٢) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣١٠.
(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٩-٨٠ بنحوه.

يقيناً إلى يقينهم. وقيل: «السَّكينة» إشارة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع «ليزدادوا إيماناً» إلى «إيمانهم» وهو التوحيد. رُويَ معناه عن ابن عباس. وقيل: الوقار والعظمة لله ولرسوله. وقيل: الرحمة ليتراحموا. وقاله ابن عباس[١].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى تسليم الأشياء إليه تعالى، ينصر من شاء، وعلى أيِّ وجهٍ شاء، ومِنْ جُندِه السكينة ثبَّتت قلوبَ المؤمنين[٢].

«لِيُدْخِلَ» هذه اللام تتعلَّق قيل: بـ «إنَّا فتحنا لك». وقيل بقوله: «ليزدادوا». فإن قيل: «ويُعذِّب» عطف عليه، والازدياد لا يكون سبباً لتعذيب الكفار؟ وأُجيب عن هذا بأنَّه ذُكِرَ لكونه مقصوداً للمؤمن، كأنه قيل: بسبب ازديادكم في الإيمان يُدخِلُكم الجنة، ويُعذِّبُ الكفارَ بأيديكم في الدنيا. وقيل: بقوله: «وينصرك الله» أي: بالمؤمنين[٣]. وهذه الأقوال فيها بُعْدٌ.

وقال الزمخشري: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُسلِّطُ بعضها على بعض كما يقتضيه عِلْمُه وحكمتُه، ومن قضيَّتِهِ أنْ سَكَّنَ قلوبَ المؤمنين بصلح الحديبية، وأنْ وعدَهم أن يفتحَ لهم، وإنَّما قضى ذلك ليعرِفَ المؤمنون نعمةَ الله فيه ويشكروها فيستحقُّوا الثواب، فيُثيبَهم، ويُعذِّب الكافرين والمنافقين لِما غاظهم من ذلك وكرهوه[٤]. انتهى.

ولا يظهر من كلامه هذا ما تتعلَّق به اللَّام، والذي يظهر أنَّها تتعلَّق بمحذوف يدلُّ عليه الكلام، وذلك أنَّه قال: «ولله جنود السماوات والأرض» كان في ذلك دليلٌ على أنَّه تعالى يبتلي بتلك الجنود مَنْ شاء، فيقبل الخيرَ مَنْ قضى له بالخير، والشرَّ مَنْ قضى له بالشر «لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جَنّاتٍ» ويُعذِّب الكفار.

فاللَّام تتعلَّق بـ «يبتلي» هذه، وما تعلَّق بالابتلاء من قبول الإيمان والكفر، و«يُكَفِّر» معطوفٌ على «لِيُدْخِلَ» وهو ترتيبٌ في الذِّكر لا ترتيبٌ في الوقوع، وكأنَّ التبشيرَ بدخول الجنة أهَمُّ فبُدِئَ به.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤١-٥٤٢.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٧.
(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٨١-٨٢.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٤٢.

ولمَّا كان المنافقون أكثرَ ضرراً على المسلمين من المشركين بُدِئَ بذِكْرِهم في التعذيب[١].

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظاهر أنَّه مصدرٌ أُضيفَ إلى ما يسوء المؤمنين، وهو أنَّ المشركين يستأصلونهم ولا يُنْصَرون، ويدلُّ عليه ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ و﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]. وقيل: ظَنُّ السَّوء: ما يسوء المشركين من إيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوِّ كلمة الله، وتسليط رسوله قتلاً وأسراً ونهباً[٢].

ثمَّ أخبر أنَّهم يستعلي عليهم السُّوء ويُحيط بهم، فاحتمَلَ أن يكون خبراً حقيقةً، واحتمَلَ أن يكون هو وما بعده دعاءً عليهم. وتقدَّم الكلام على هذه الجملة في سورة براءة[٣].

وقيل: ظَنُّ السَّوء يشمل ظنونَهم الفاسدة من الشرك، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣و٢٨] ومن انتفاء رؤية الله تعالىٰ الأشياءَ وعلمِه بها، كما قال: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ﴾ [فصلت: ٢٢]، ومن خلق العالم كما قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٤] [ص: ٢٧]. وقيل: السَّوء هنا كناية عن الفاسد، كما تقول: هذا فِعْلُ سَوْءٍ[٥].

وقرأ الحسن: «السُّوء» فيهما بضمِّ السين[٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لمَّا تقدَّم تعذيبُ الكفار والانتقامُ منهم ناسبَ ذكر العِزَّة، ولمَّا وعد تعالى بمُغَيَّبات ناسب ذكر العلم، وقرن باللفظتين ذِكْرَ جنود السماوات والأرض فمنها السكينة التي للمؤمنين، والنِّقمة للمنافقين والمشركين، ومن جنود الله الملائكة في السماء والغزاة في سبيل الله في الأرض.

وقرأ الجمهور: «لِتُؤمنوا» وما عُطِفَ عليه بتاء الخطاب. وأبو جعفر، وأبو حَيْوة،

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٨٣ بنحوه.
(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٠٢ بنحوه.
(٣) عند تفسير الآية (٣٧) منها.
(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٨٤ بنحوه.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٤٢.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٨، وما بعده منه بنحوه.

وابنُ كثير، وأبو عمرو: بياء الغَيْبة[١]. والجَحْدريُّ بفتح التاء وضمِّ الزاي خفيف[٢]. وهو أيضاً وجعفر بن محمد كذلك إلَّا أنَّهم كسروا الزاي[٣]. وابنُ عباس واليماني بزايين[٤]، من العِزَّة. وتقدَّم الكلام في «وعزَّروه» في الأعراف[٥].

والظاهر أنَّ الضمائر عائدةٌ على الله تعالى، وتفريقُ الضمائر يجعلُ بعضَها للرسول ﷺ، وبعضَها لله تعالى، حيث يليقُ قولُ الضحَّاك[٦].

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قال ابن عباس: صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر[٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾هي بيعة الرضوان وبيعة الشجرة حين أخذ الرسول ﷺ الأُهبةَ لقتال قريش حين أُرجف بقتل عثمان بن عفان، وقد بعثَه إلى قريش يُعلِمُهم أنَّه جاء معتمراً لا محارباً، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية، بايعهم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد؛ ولذلك قال سَلَمَةُ بن الأَكْوَع وغيرُه: بايَعْنا على الموت[٨]. وقال ابن عمر وجابر: على أن لا نفِرَّ[٩].

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص٢٠١. وهي غير مشهورة عن أبي جعفر، والمشهور عنه كقراءة الجمهور. ينظر النشر ٢/ ٣٧٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٩ عن جعفر بن محمد.

(٤) اليماني: هو محمد بن السميفع، والقراءة عنهما في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٩، والقراءة عن محمد بن السميفع اليماني وحده في المحتسب ٢/ ٢٧٥، وزاد المسير ٧/ ٤٢٧.

(٥) في تفسير الآية (١٥٧) منها.

(٦) والمعنى أن القول الأول هو قول الضحاك، وهو الذي يليق، وقول الضحاك أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥١. وينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٩.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

(٨) أخرجه البخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠)، وأحمد (١٦٥٠٩) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٢٩٥٩)، ومسلم (١٨٦١)، وأحمد (١٦٤٦١) من حديث عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه.

(٩) أخرجه البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦)، وأحمد (١٥٢٥٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
ولم أجده من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بهذا اللفظ، وإنما أخرجه مسلم (١٨٥٨) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، وأما لفظ حديث ابن عمر فهو: كنَّا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة =

والمُبايَعَة مُفاعلَةٌ من البيع؛ لأنَّ الله ﴿أَشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] وبقي اسمُ البيعة بعدُ على مُعاهدَة الخلفاء والملوك.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾أي: صَفْقَتُهم إنَّما يُمضيها ويمنحُ الثمنَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

وقرأ تمَّام بن العباس بن عبد المطلب: «إنَّما يبايعون لِله»[1] أي: لأجل الله ولوجهه، والمفعول محذوفٌ، أي: إنَّما يبايعونَكَ لله.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾قال الجمهور: اليد هنا النِّعمة، أي: نعمةُ الله في هذه المُبايعة لِما يُستَقْبَل من محاسنها فوقَ أيديهم التي مدُّوها لبَيْعَتِك. وقيل: قوَّةُ الله فوق قُواهم في نصرك ونصرهم.

وقال الزمخشري[2]: لمَّا قال: «إنَّما يُبايعون الله» أكَّدَه تأكيداً على طريقة التخييل فقال: «يدُ الله فوق أيديهم» يريد أنَّ يدَ رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يدُ الله، والله تعالى مُنزَّهٌ عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنَّما المعنى تقريرُ أنَّ عقدَ الميثاق مع الرسول ﷺ كعَقْدِه مع الله تعالى من غير تفاوتٍ بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعودُ ضررُ نَكْثِه إلَّا عليه[3]. انتهى.

وقرأ زيد بن علي: «ينكِثُ» بكسر الكاف.

وقال جابر بن عبد الله: ما نكثَ أحدٌ مِنَّا البيعةَ إلَّا جِدُّ بنُ قيس وكان منافقاً، اختبأ تحت إبْطِ بعيره، ولم يَسِرْ مع القوم فحُرِمَ[4].

= يقول لنا: «فيما استطعتم». وأخرجه البخاري (٧٢٠٢)، ومسلم (١٨٦٧)، وأحمد (٤٥٦٥).
والكلام بتمامه من المحرر الوجيز ٥/ ١٢٩، وما بعده منه أيضاً.

(١) المحتسب ٢/ ٢٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٩، وما بعده منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٤٣.

(٣) في (ع) والمطبوع: على نفسه.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٤٣. وأخرج مسلم (١٨٥٦) (٦٩) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنَّا أربع عشرة مئة ـ يعني في الحديبية ـ فبايعناه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ وعمرُ آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهي سمُرة، فبايعناه غير جِدِّ بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره.

وقرأ الجمهور: «عليه اللهَ» بنصب الهاء[١]. وابنُ أبي إسحاق بالرَّفع على أنه هو المعاهِد.

وعنه وعن حفص «عليهُ» بضمِّ الهاء.

وقُرئ: «بما عَهِدَ» ثلاثيًّا.

وقرأ الجمهور: «فسيؤتيه» بالياء[٢]. والحرميان، وابن عامر، وزيد بن علي بالنون[٣].

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هي الجنة[٤]. و«أوفى» لغة تِهامة[٥].

❁ ❁ ❁

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

قال مجاهد وغيره ودخل كلامُ بعضِهم في بعض: «المُخلَّفون من الأعراب»: هم جُهَينة ومُزَينة وغِفار وأشجَع والدِّيل وأسْلَم، استنفرَهُم رسولُ الله ﷺ حين أراد

(١) يعني هاء لفظ الجلالة.

(٢) أثبتنا سياق (به) في هذه القراءات، لأن في المطبوع خللاً كبيراً، وانظر المحرر الوجيز ٥/ ١٣٠، والسبعة ٦٠٣، والتيسير ص١٤٤.

(٣) ينظر السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص١٤٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٠.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

المسيرَ إلى مكة عامَ الحُديبية معتمراً ليخرجوا معه؛ حَذَراً من قريش أن يَعْرِضوا له بحربٍ، أو يصدُّوه عن البيت، وأحرَمَ هو ﷺ وساقَ معه الهديَ؛ ليُعْلم أنَّه لا يُريدُ حرباً، ورأى أولئك الأعرابُ أنَّه يستقبل عدواً عظيماً[١] من قريشٍ وثَقيفٍ وكِنانة والقبائلِ المجاورين بمكة وهم الأحابيش، ولم يكُنِ الإيمان تمكَّنَ من قلوبهم، فقعدوا عن النبيِّ ﷺ وتخلَّفوا وقالوا: نذهبُ إلى قوم غَزَوه في عُقْرِ داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم؟! وقالوا: لن يرجع محمدٌ ولا أصحابُه من هذه السَّفرةِ. ففضحَهم اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه الآية، وأعلمَ رسولَه ﷺ بقولِهم واعتذارِهم قبل أن يصِلَ إليهم، فكان كذلك[٢].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾وهذا اعتلالٌ منهم عن تخلُّفِهم، أي: لم يكن لهم مَنْ يقوم بحفظِ أموالهم وأهليهم غيرُهم، وبدؤوا بذكر الأموال؛ لأنَّ بها قِوامَ العَيْش، وعطفوا الأهل لأنَّهم كانوا يحافظون على حفظ الأهل أكثرَ من حفظِ المال.

وقُرئ: «شَغَّلَتْنا» بتشديد الغين. حكاه الكسائي[٣]. وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة.

ولمَّا علموا أنَّ ذلك التخلُّفَ عن الرسول كان معصيةً سألوا أن يستغفِرَ لهم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾الظاهر أنَّه راجعٌ إلى الجملتين المقولَتَيْن من الشُّغل وطلب الاستغفار؛ لأنَّ قولَهم: «شغَلَتْنا» كذبٌ، وطلبَ الاستغفار خبثٌ منهم وإظهارُ أنَّهم مؤمنون عاصون.

وقال الطبري: هو راجعٌ إلى قولهم: «فاستغفِرْ لنا» يريد أنَّهم قالوا ذلك مصانعةً من غير توبةٍ ولا ندم[٤].

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ﴾أي: مَنْ يَمْنَعكم من قضاء الله «إن أراد بكم ضَرًّا» من قتلٍ أو هزيمةٍ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من ظَفَرٍ وغنيمة[٥]؟ أي: هو تعالى المتصرِّفُ فيكم،

(١) في (يه): ظالماً.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٠، والكشاف ٣/ ٥٤٣.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤١.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٠-١٣١.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

وليس حفظُكم أموالَكم وأهليكم بمانعٍ من ضياعها إذا أراده الله تعالى.

وقرأ الجمهور: «ضَرًّا» بفتح الضاد، والأخوان بضمِّها، وهما لغتان[1].

ثمَّ بيَّنَ تعالى لهم العِلَّة في تخلُّفِهم وهي ظنُّهم أنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام وأصحابَه لا يرجعون إلى أهليهم.

وتقدَّم الكلامُ على «أهل» وكيف جُمِعَ بالواو والنون في قوله: ﴿مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقرأ عبد الله: «إلى أهلهم» بغير ياء[2].

«وزُيِّنَ» قراءةُ الجمهور مبنيًّا للمفعول، والفاعل هو الله تعالى. وقيل: غيرُه ممَّن نُسِبَ إليه التزيينُ مجازاً.

وقُرئ: «وزَيَّنَ» مبنيًّا للفاعل[3].

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ احتمل أن يكون هو الظنُّ السابق، وهو ظنُّهم أن لا ينقلبوا، ويكون قد ساءَهم ذلك الظنُّ وأحزنَهم، حيث أخلفَ ظنَّهم. ويحتمل أن يكون غيرَه لأجل العطف، أي: ظنَنْتُم أنَّه تعالى يُخلِفُ وعدَه في نصرِ دينه وإعزازِ رسولِه ﷺ.

«بُوراً»: هَلْكَى. والظاهر أنَّه مصدرٌ كالهُلْك مِنْ هَلَكَ؛ ولذلك وُصِفَ به المفردُ المُذَّكرُ، كقول ابنِ الزِّبَعْرى[4]:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني ... راتِقٌ ما فتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

والمؤنث؛ حكى أبو عبيدة: امرأةٌ بُور، والمثنى والجموع.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٠. وينظر السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١، والحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٠٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٤٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٤.
(٤) في ديوانه ص٣٦.

وقيل: يجوز أن يكون جمع بائر، كحائل وحُول، هذا في المعتلِ، وبازِل وبُزْل في الصحيح[١].

وفُسِّرَ «بُوراً» بفاسدين هَلْكَى[٢]. وقال ابن بحر: أشرار[٣].

واحتمل «وكنتم» أن يكون المعنى: وصِرْتُم بذلك الظن[٤]، وأن يكون «وكنتم» على بابها، أي: وكنتم في الأصل قوماً فاسدين[٥]، أي: الهلاك سابقٌ لكم على ذلك الظنّ.

ولمَّا أخبر تعالى أنَّهم قومٌ بورٌ ذكرَ ما يدلُّ على أنَّهم ليسوا بمؤمنين، فقال ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ثمَّ ذكر جزاءهم وهو السَّعير.

و«مَنْ» شرطية أو موصولة، والعائدُ من الخبر أو من جواب الشرط هو الظاهر أُقيم مقام المُضمَر، تقديره: لهم، وجيء به ظاهراً إشعاراً بأنَّ من لم يؤمِنْ بالله ورسوله[٦] فهو كافر جزاؤه السَّعير.

ولمَّا كانوا ليسوا مجاهرين بالكفر، وكذلك اعتذروا وطلبوا الاستغفار، مزجَ وعيدَهم وتوبيخَهم ببعض الإمهال والترجئة[٧].

وقال الزمخشري: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾يُدَبِّره تدبيرَ قادرٍ حكيم، فيغفر ويُعذِّب بمشيئته، ومشيئتُه تابعةٌ لحكمته، وحكمتُه المغفرة للتائب، وتعذيبُ المُصِرّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾رحمتُه سابقةٌ لغضبِه، حيثُ يُكفِّرُ السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة[٨]. انتهى. وهو على مذهب الاعتزال.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾رُوِيَ أنَّ الله تعالى أمرَ نبيَّه ﷺ بغزوِ خيبر، ووعدَه بفتحِها، وأعلَمَه أنَّ المُخلَّفين إذا رأوا مسيرَه إلى خيبر وهم عدوٌّ مُستَضْعَفٌ طلبوا الكَوْنَ

(١) الكلام من الصحاح (بور)، والكشاف ٣/ ٥٤٤.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٠.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٤.
(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٨٩.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٤٤.
(٦) من قوله: ثم ذكر جزاءهم. . إلى هنا من (ز٢) و(يه).
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٣١.
(٨) الكشاف ٣/ ٥٤٤.

معه؛ رغبةً في عَرَض الدنيا من الغنيمة، فكان كذلك[(١)].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أن يُغيِّروا وعْدَه لأهل الحديبية بغنيمة خيبر، وذلك أنَّه وعدَهم أن يُعوِّضَهم من مَغانم مكة مغانمَ خيبرَ إذا قَفَلوا مُوادِعين لا يُصيبون منها شيئاً. قاله مجاهد وقتادة، وعليه عامة أهل التأويل[(٢)].

وقال ابن زيد: كلامُ الله: قولُه تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾[(٣)] [التوبة: ٨٣]. وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ هذه الآية نزلت مرجِعَ رسولِ الله ﷺ من تبوك في آخر عُمْرِه، وهذه السورة نزلت سنة الحديبية[(٤)]، وأيضاً فقد غَزَتْ مُزَينة وجُهَينة بعد هذه المدَّة معه عليه الصلاة والسلام، وفضَّلَهم بعد ذلك على تميم وغَطَفان وغيرِهم من العرب[(٥)].

وقرأ الجمهور: «كلامَ الله» بألف، والأخوان: «كَلِمَ الله» جمع كلمة[(٦)].

وأمرَه تعالى أن يقول لهم: «لن تتَّبِعونا»، وأتى بصيغة «لن» وهي للمبالغة في النفي، أي: لا يتِمُّ لكم ذلك؛ إذ قد وعد تعالى أنَّ ذلك لا يحضرها إلَّا أهلُ الحديبية فقط[(٧)].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يريد وعدَه قبل اختصاصهم بها. ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: يَعزُّ عليكم أن نُصيبَ مَغْنماً معكم[(٨)]. وذلك على سبيل الحَسَد أن نُقاسِمَكم فيما تغنمون[(٩)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣١، والكشاف ٣/ ٥٤٥. وقولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ٢١/ ٢٦١-٢٦٢ ورجحهما.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٣ وأنكره، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣١ وقال: هو قول ضعيف.

(٤) غزوة تبوك كانت في السنة التاسعة للهجرة، وسنة الحديبية كانت في السنة السادسة للهجرة. ينظر الفصول في سيرة الرسول ﷺ ص١٨٤ و٢١٠.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٣١.

(٦) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١.

(٧) تفسير الرازي ٢٨/ ٩١ بنحوه.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٣١.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ١٩٢، وزاد المسير ٧/ ٤٣١ بنحوه.

وقرأ أبو حَيْوة بكسر السين[(١)].

ثمَّ ردَّ عليهم تعالى كلامَهم هذا، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من أمور الدنيا، وظاهره ليس لهم فِكْرٌ إلَّا فيها، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] والإضراب الأول منهم رَدٌّ أن يكون حكمُ الله أن لا يتَّبعوهم وإثبات الحسد، والثاني إضرابٌ عن وصفِهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى ما هو أطَمُّ منه وهو الجهلُ وقِلَّةُ الفقه.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أمرَ تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول لهم ذلك، ودلَّ على أنَّهم كانوا يُظهِرون الإسلام، ولو لم يكن الأمرُ كذلك لم يكونوا أهلاً لذلك الأمر، وأبهم تعالى في قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فقال عكرمة وابن جُبير وقتادة: هم هوازن ومَنْ حاربَ الرسولَ ﷺ في حُنَين. وقال كعب: الروم الذين خرجَ إليهم عامَ تبوك، والذين بَعَث إليهم في غزوة مُؤتة. وقال الزُّهريُّ والكلبيُّ: أهل الرِّدَّة وبنو حَنيفة باليمامة. وعن رافع بن خَديج: إنَّا كُنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلَمُ مَنْ هم، حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حَنيفة، فعَلِمْنا أنَّهم أُريدوا بها. وقال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعطاء الخراساني وابن أبي ليلى: هم الفرس. وقال الحسن: فارس والروم. وقال أبو هريرة: قومٌ لم يأتوا بعد[(٢)]. وظاهر الآية يردُّ هذا القول[(٣)].

والذي أقولُه إنَّ هذه الأقوال تمثيلاتٌ من قائليها لا أنَّ المعنى بذلك ما ذكروا، بل أخبر بذلك مُبهَماً، دلالةً على قوة الإسلام، وانتشار دعوته، وكذا وقع حُسْنُ إسلام تلك الطوائف، وقاتلوا أهلَ الرِّدَّة زمان أبي بكر، وكانوا في فتوح البلاد أيامَ عمر، وأيامَ غيرِه من الخلفاء.

والظاهر أنَّ هؤلاء المقاتلين ليسوا ممَّن تؤخذُ منهم الجِزية؛ إذ لم يُذكر هنا إلَّا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٢، والكشاف ٣/ ٥٤٥. وتنظر هذه الأقوال في تفسير الثعلبي ٥/ ٤٩٣، والنكت والعيون ٥/ ٣١٥-٣١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٢، وزاد المسير ٧/ ٤٣١-٤٣٢. وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٦، والبيهقي في الدلائل ٤/ ١٦٦. وقول الحسن أخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٦.

(٣) قاله القرطبي في تفسيره ١٩/ ٣١٢.

القتال أو الإسلام، ومذهبُ أبي حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه أنَّ الجزية لا تُقبل من مُشْركي العرب ولا من المُرتدِّين، وليس إلَّا الإسلامُ أو القتل، وتُقبَلُ ممَّن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس، ومذهبُ الشافعيِّ رحمه الله تعالى: لا تُقبَلُ إلَّا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب.

وقال الزمخشريُّ[١]: وهذا دليلٌ على إمامة أبي بكر الصديق ﷺ؛ فإنَّهم لم يُدْعَوا إلى حربٍ في أيام الرسول ﷺ، ولكن بعد وفاته. انتهى. وهذا ليس بصحيح، فقد حضر كثيرٌ منهم مع جعفر في مؤتة، وحضروا حربَ هَوازن مع رسول الله ﷺ، وحضروا معه في سفرة تبوك، ولا يتمُّ قولُ الزمخشريّ إلَّا على قولِ مَنْ عَيَّنَ أنَّهم أهلُ الرِّدَّة.

وقرأ الجمهور: «أو يُسْلِمون» مرفوعاً. وأُبيٌّ وزيدُ بن علي بحذف النون[٢] منصوباً بإضمار «أنْ» في قولِ جمهورِ البصريين غير الجَرْمي[٣]، وبها في قول الجَرْميِّ والكسائيِّ، وبالخلاف في قول الفرَّاء[٤] وبعض الكوفيين، فعلى قول النصب بإضمار «أنْ» هو عطفُ مصدرٍ مُقدَّرٍ على مصدرٍ متوَهَّم، أي: يكون قتالٌ أو إسلامٌ، أي: أحدُ هذين، ومِثْله في النصب قولُ امرئ القيس[٥]:

فقلتُ له لا تبكِ عينُكَ إنَّما نُحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرا

والرفع على العطف على «تقاتلونهم» أو على القطع، أي: أو هم يسلمون دون قتال.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾أي: فيما تُدعَون إليه[٦] ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾أي: في الخروج مع الرسول ﷺ في زمان الحديبية[٧] ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾يحتمل أن يكون في الدنيا، وأن يكون في الآخرة[٨].

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٤٥، وما قبله منه.
(٢) القراءة عن أبي في الشاذة ص١٤٢.
(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٠.
(٤) انظر معاني القرآن له ٣/ ٦٦.
(٥) في ديوانه ص٦٦.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٣.
(٧) الكشاف ٣/ ٥٤٥.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٣.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ نفى الحَرَجَ عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلُّف عن الغزو، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجْرُهم فيه مضاعَفٌ، والأعرج أحرى بالصبر وأن لا يفِرَّ، وقد غزا ابنُ أمِّ مَكْتوم ـ وكان أعمى ـ في بعض حروب القادسية، وكان ﷺ يمسك الراية[1]، فلو حُصِر المسلمون فالغرض مُتوجِّهٌ بحسب الوُسع في الغزو.

وقرأ الجمهور: «يُدخِلْه» و«يُعذِّبْه» بالياء. والحسن، وقتادة، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وابن عامر، ونافع بالنون[2].

❋ ❋ ❋

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٤٤)، وأبو يعلى (٣١٢٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ. والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٣.

(٢) ينظر السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٢٤٨. والكلام في المحرر الوجيز ١٣٣/٥.

لمَّا ذكر تعالى حالَ مَنْ تخلَّفَ عن السفر مع الرسول ﷺ ذكَرَ حالَ المؤمنين الخُلَّص الذين سافروا معه.

والآية دالَّةٌ على رضا الله تعالى عنهم؛ ولذا سُمِّيتْ بيعةَ الرضوان، وكانوا فيما رُوي ألفاً وخمسَ مئةٍ وخمسةً وعشرين[1]. وقال ابنُ أبي أوفى: وثلاث مئة[2].

وأصل هذه البَيعة أنَّ رسولَ الله ﷺ حين نزل الحُديبية بعث خِراش[3] بن أمية الخُزاعيّ رسولاً إلى أهل مكة، وحمله على جمل يُقال له: الثعلب، يُعلِمُهم أنَّه جاء مُعتَمِراً لا يريد قتالاً، فلمَّا أتاهم وكلَّمهم عقروا جمَلَه وأرادوا قَتْلَه، فمنعَتْه الأحابيش، وبلغ ذلك الرسولَ ﷺ، فأراد بَعْثَ عمر، فقال: قد علِمْتَ فَظاظَتي وهم يُبغضوني، وليس هناك من بني عَديٍّ مَنْ يحميني، ولكن أدلُّكَ على رجلٍ هو أعزُّ منِّي وأحَبُّ إليهم؛ عثمانُ بن عفان، فبعَثَه فخبَّرَهم أنَّه لم يأتِ لحربٍ، وإنَّما جاء زائراً لهذا البيت مُعظِّماً لحُرْمَتِه، وكان أبان بن سعيد بن العاص حين لقيه نزلَ عن دابَّتِه وحملَه عليها وأجارَه، فقالت له قريشٌ: إنْ شِئْتَ فطُفْ بالبيت، وأمَّا دخولُكم علينا فلا سبيلَ إليه. فقال: ما كنتُ لِأَطوفَ بهِ حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ ـ وكانتِ الحُدَيْبيةُ من مكة على عشرة أميال ـ فصرخَ صارخٌ من العسكر: قُتِلَ عثمانُ، فحمِيَ رسولُ الله ﷺ والمؤمنون، وقالوا: لا نبرَحُ إنْ كان هذا حتى نلقى القومَ. فنادى مُنادي رسولِ الله ﷺ: أيُّها الناس البيعةَ البيعةَ، نَزَلَ[4] روحُ القدس. فبايَعوا كلُّهم إلَّا الجَدَّ بنَ قيس المنافق.

---

(١) في (ز٢) والمطبوع: ألفاً وخمسَ مئة وعشرين، والمثبت من (به) و(ع) والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٤ والكلام منه، وهو قول ابن عباس فيما أخرجه عنه الطبري ٢١/ ٢٧٧، وبه قال ابن سعد في الطبقات ٢/ ٩٥.
(٢) أخرجه البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).
(٣) تصحف في النسخ والمطبوع والكشاف ٣/ ٥٤٦ إلى: جواس، والمثبت من السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٤، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٣، والكلام منهما. ونصَّ على ضبطه الآلوسي في روح المعاني ٢٥/ ٢٦٩. وينظر الإصابة ٣/ ٨٥.
(٤) في (ز٢) و(ع) والمطبوع: فنزل.

وقال الشَّعبي: أولُ مَنْ بايعَ أبو سنان بن وَهْب الأسدي[١].

والعامل في «إذ» «رضي»، والرِّضا على هذا بمعنى إظهار النِّعم عليهم، فهو صفةُ فِعْلٍ لا صفةُ ذاتٍ؛ لتقييده بالزمان[٢]. و«تحت» يَحتملُ أن يكون معمولاً لـ«يُبايعونك»، أو حالاً من المفعول؛ لأنَّه ﷺ كان تحتها جالساً في أصلها، قال عبد الله بن المُغَفَّل: وكنتُ قائماً على رأسه وبيَدي غصنٌ من الشجرة أذُبُّ عنه، فرفعتُ الغصنَ عن ظهره؛ وبايَعوه على الموت دونَه وعلى أن لا يفِرُّوا، فقال لهم ﷺ: «أنتُم اليومَ خيرُ أهل الأرض»[٣]. وكانتِ الشجرةُ سَمُرةً[٤]. قال بُكير بن الأشج: بفَجٍّ نحوَ مكة[٥]. قال نافع: كان الناس يأتون تلك الشجرة يُصَلُّون عندها، فبلغَ عمرَ، فأمرَ بقَطْعِها[٦]. وكانت هذه البَيعةُ سنة ستٍّ من الهجرة[٧]. وفي الحديث عنه ﷺ: «لا يدخلُ النَّارَ مَنْ شهِدَ بيعة الرضوان»[٨].

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال قتادة وابن جُريج: من الرضا بالبيعة أن لا يفِرُّوا.

---

(١) أخرجه ابن سعد ٢/ ١٠٠، وابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٤، وهو في السيرة النبوية ٢/ ٢١٦، والدرر في اختصار المغازي والسير ص٢٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٣ بنحوه.

(٣) هكذا ساقه الزمخشري في كشافه ٣/ ٥٤٦. وأخرج الطبري بعضه بلفظ: كنا مع النبي ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن، وكان غصنٌ من أغصان تلك الشجرة على ظهر النبي ﷺ، فرفعته عن ظهره. وهو عنده بسياق أطول، وكذلك في مسند أحمد (١٦٨٠٠). وقد تقدم من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ وغيره أنهم بايعوه ﷺ على الموت، ومن حديث جابر ﷺ على أن لا يفِرُّوا.
وقوله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» أخرجه البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦) (٧١)، وأحمد (١٤٣١٣) من حديث جابر ﷺ.

(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٨٥٦) (٦٩) من حديث جابر ﷺ.

(٥) في (يه) والمطبوع: يوم بفتح مكة. وفي (ز٢) و(ع): فتح مكة. والمثبت من تفسير الطبري ٢١/ ٢٧٥، وزاد المسير ٧/ ٤٣٤.

(٦) أخرجه ابن سعد ٢/ ٩٢.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.

(٨) لم أجده بهذا اللفظ. وأخرجه أحمد (١٤٧٧٨)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعاً بلفظ: «لا يدخلُ النارَ أحدٌ ممَّن بايع تحت الشجرة». وأخرجه بنحوه مسلم (٢٤٩٦) من حديث جابر ﷺ، عن أم مبشر ﷺ.

وقال الفرَّاء: من الصدق والوفاء[١]. وقال الطبري ومنذر بن سعيد: من الإيمانِ وصحَّتِه والحُبِّ في الدين والحرصِ عليه. وقيل: من الهَمِّ والانصرافِ عن المشركين، والأنَفةِ في ذلك على نحو ما خاطب به عمرُ وغيرُه. وهذا قولٌ حسنٌ يترتَّب معه نزولُ السكينة والتعريضُ بالفتح القريب. والسكينةُ تقريرُ قلوبهم وتذليلُها لقبول أمر الله تعالى[٢]. وعلى الأقوال السابقة قبل هذا القول لا يظهرُ احتياجٌ إلى إنزال السكينة إلَّا أن يُجازى بالسكينة والفتح القريب والمغانم.

وقال مقاتل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾من كراهة البيعة على أن يُقاتِلوا معه على الموت ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا[٣]. قال ابن عطية[٤]: وهذا فيه مذمَّةٌ للصحابة ﷺ. انتهى.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾قال قتادة وابنُ أبي ليلى: فتح خيبر[٥]. وكان عقب انصرافهم من مكة. وقال الحسن: فتح هَجَر، وهو أجَلُّ فتحٍ، اتَّسعوا بثمرها زمناً طويلاً[٦]. وقيل: فتح مكة[٧]. والقُربُ أمرٌ نِسْبيٌّ، لكنَّ فتحَ خيبر كان أقرب.

وقرأ الحسن ونوح القارئ: «وآتاهم» أي: أعطاهم[٨]. والجمهور: «وأثابَهم» من الثواب.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾أي: مغانمَ خيبر، وكانت أرضاً ذاتَ عقارٍ وأموالٍ، فقسمَها

(١) تفسير القرطبي ١٩/٣١٩، وقول الفراء في النكت والعيون ٥/٣١٦.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٤. وقول الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٧٧-٢٧٨ بنحوه.
(٣) تفسير القرطبي ١٩/٣١٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣١٦.
(٤) في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٤ بعد أن ذكره من دون نسبة.
(٥) أخرجهما الطبري ٢١/٢٧٨، وهما في النكت والعيون ٥/٣١٦، وقول ابن أبي ليلى في معاني القرآن للنحاس ٦/٥٠٦.
(٦) الكشاف ٣/٥٤٦.
(٧) هو قول الحسن وقتادة فيما ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥. وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٧، والطبري ٢١/ ٢٨٦.
(٨) الذي في القراءات الشاذة ص١٤١-١٤٢: «وأتابهم» مكان «وآتاهم» بالتاء، أي: أعطاهم. الحسن ونوح القارئ!

عليهم[١]. وقيل: مغانم هجر. وقيل: مغانم فارس والروم[٢].

وقرأ الجمهور: «يأخذونها» بالياء على الغَيبة في «وأثابهم» وما قبله من ضمير الغَيبة.

وقرأ الأعمش، وطلحة، ورُويس عن يعقوب، ودُلْبَة[٣] عن يونس عن ورش، وأبو دِحْية، وسَقْلاب[٤] عن نافع، والأنطاكي عن أبي جعفر: بالتاء على الخطاب[٥]، كما جاء بعدُ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ بالخطاب.

وهذه المغانمُ الموعودُ بها هي المغانمُ التي كانت بعد هذه، وتكون إلى يوم القيامة. قاله ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسِّرين[٦].

ولقد اتَّسع نطاقُ الإسلام، وفتحَ المسلمون فتوحاً لا تُحصى، وغَنِموا مغانمَ لا تُعَدُّ، وذلك في شرق البلاد وغربِها، حتى في بلاد الهند، وفي بلاد السودان في عصرنا هذا، وقدِمَ علينا حاجًّا أحدُ ملوك غانة من بلاد التكرور، وذكرَ عنه أنَّه استفتح أزْيَدَ من خمسةٍ وعشرين مملكةً من بلاد السودان وأسلموا، وقدِمَ علينا ببعضِ ملوكِهم يحُجُّ معه.

وقيل: الخطاب لأهل البَيعة، وأنَّهم سيغنَمون مغانِمَ كثيرة[٧].

وقال زيد بن أسلم وابنُه: المغانمُ الكثيرة: مغانمُ خيبر[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩٤، والكشاف ٣/ ٥٤٦.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٩٦ و٩٧.
(٣) هو عبد الله بن أحمد بن الهيثم، أبو العباس البلخي. معرفة القراء ٢/ ٥٢٤.
(٤) هو سَقْلاب بن شُنَينة، أبو سعيد المصري. توفي سنة (١٩١هـ). معرفة القراء ١/ ٣٣٣.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٤ عن رويس عن يعقوب. ووقع في القراءات الشاذة ص١٤٢ عن الأعمش وطلحة: «يأخذونها» بالياء. والظاهر أنه تصحيف. والمشهور عن يعقوب ونافع وأبي جعفر «تأخذونها» كقراءة الجمهور.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٧، وزاد المسير ٧/ ٤٣٥، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٢٠. وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٧٩-٢٨٠ عن مجاهد.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٦٩٥٦.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥، وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٢٨٠، وهو في النكت والعيون ٥/ ٣١٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٢٠ عن ابن زيد.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾الإشارة بـ «هذه» إلى البَيعة والتخلُّص من أمر قريش بالصلح. قاله ابن عباس وزيد بن أسلم وابنُه[١]. وقال مجاهد: مغانم خيبر[٢].

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أهل مكة بالصلح[٣]. وقال ابن عباس: عُيَينة بن حِصْن الفَزاري وعوف بن مالك النَّصْري ومَنْ كان معهم؛ إذ جاؤوا لينصروا أهلَ خيبرَ والرسولُ عليه الصلاة والسلام محاصِرٌ لهم، فجعلَ اللهُ في قلوبهم الرعب، وكفَّهم عن المسلمين[٤]. وقال ابن عباس أيضاً: أسد وغَطَفان حلفاء خيبر[٥]. وقال الطبري: كفَّ اليهودَ عن المدينة بعد خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية وإلى خيبر[٦].

﴿وَلِتَكُونَ﴾أي: هذه الكفَّةُ آيةً للمؤمنين، وعلامةً يعرِفون بها أنَّهم من الله تعالى بمكان، وأنَّه ضامنٌ نصرَهم والفتحَ عليهم. وقيل: رأى رسولُ الله ﷺ فتحَ مكة في منامه ـ ورؤيا الأنبياء حقٌّ ـ فتأخَّرَ ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتحَ خيبر علامةً وعنواناً لفتح مكة[٧]. فيكون الضمير في «ولتكون» عائداً على «هذه» وهي مغانم خيبر[٨].

والواو في «ولِتكونَ» زائدةٌ عند الكوفيين، وعاطفةٌ على محذوفٍ عند غيرهم، أي: ليشكروه ولِتَكون[٩]. أو وعدَ فعجَّلَ وكفَّ لينفَعَكم بها ولِتَكون. أو يُقدَّر ما يتعلَّق به متأخِّراً، أي: فعَلَ ذلك[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ دون نسبته إلى زيد وابنه.
(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٢٠. وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٢٨٠.
(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٢٠.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠١، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٢٠.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٧، والكشاف ٣/ ٥٤٧ من دون نسبة، ونسبه الثعلبي في تفسيره ٥/ ٤٩٥ لقتادة، ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٣٥ لمقاتل.
(٦) هذا قول قتادة، أخرجه عنه الطبري ٢١/ ٢٨٢ ورجَّحه، ونقله عنهما القرطبي ١٩/ ٣٢٠.
(٧) الكشاف ٣/ ٥٤٧.
(٨) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠١.
(٩) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٢١ بنحوه.
(١٠) ذكر معناهما الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤٧.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: طريقَ التوكُّلِ وتفويضَ الأمورِ إليه[١]. وقيل: بصيرةً وإيقاناً[٢].

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ قال ابن عباس والحسن ومقاتل: بلاد فارس والروم وما فتحَه المسلمون[٣]. وقال الضحَّاك وابن زيد وابن إسحاق: خيبر[٤]. وقال قتادة والحسن: مكة. وهذا القول يتَّسِقُ معه المعنى ويتأيَّد[٥].

وفي قوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ دلالةٌ على تقدُّم محاولةٍ لها وفَواتِ درك المطلوب في الحال كما كان في مكة[٦].

وقال الزمخشري: هي مغانم هوازن في غزوة حُنَيْن. وقال: «لم تقدِروا عليها» لِما كان فيها من الجَوْلَة. وجَوَّز الزمخشريُّ في «وأُخرى» أن تكون مجرورةً بإضمار «رُبَّ»، وهذا فيه غرابةٌ؛ لأنَّ رُبَّ لم تأتِ في القرآن جارَّةً مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب، فكيف يؤتى بها مُضمَرَةً؟ وإنَّما يظهر أنّ «وأُخرى» مرفوعٌ بالابتداء، فقد وُصِفَتْ بالجملةِ بعدَها، و«قد أحاط اللهُ بها» هو الخبر. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ بمضمَرٍ يُفسِّره معنى «قد أحاطَ اللهُ بها»: قد قدرَ عليها واستولى، وأظهركم عليها وغنمكموها. وقيل: «قد أحاط الله بها»[٧] أي: وقضى اللهُ أُخرى. وقد ذكر الزمخشري[٨] هذين الوجهين.

ومعنى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ بالقُدْرَة والقَهْر لأهلها، أي: قد سبق في علمه

---

(١) زاد المسير ٧/ ٤٣٦.

(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ٤٩٥، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٤، والكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ٥٠٠، والنكت والعيون ٥/ ٣١٨، وزاد المسير ٧/ ٤٣٦. وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٨٤ عن ابن عباس والحسن.

(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٢١، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ عن الضحاك. وأخرجه عنهم الطبري ٢١/ ٢٨٥.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥، ورجَّحه من قبله الطبري ٢١/ ٢٨٦.

(٦) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٢٢، ونسبه للقشيري.

(٧) من قوله: قد قدر عليها. . . إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٨) في الكشاف ٣/ ٥٤٧.

ذلك، وظهر فيها أنَّهم لم يقدروا عليها[١].

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾هذا ينبني على الخلاف في قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أهُمْ مشركو مكة أو ناصرو أهل خيبر أو اليهود؟

﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: لغُلِبوا وانهزموا. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكِّد لمضمون الجملة قبلَه، أي: سَنَّ اللهُ عليه أنبياءَه سُنَّةً، وهو قوله ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[٢] [المجادلة: ٢١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: قضى بينكم المُكافَّة والمُحاجَزة بعد ما خوَّلكم الظَّفَرَ عليهم والغَلَبة.

وروي في سببها أنَّ قريشاً جمعت جماعةً من فتيانها وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل، وخرجوا يطلبون غِرَّةً[٣] في عسكرِ رسولِ الله ﷺ، فلمَّا أحَسَّ بهم المسلمون بعثَ عليه الصلاة والسلام خالدَ بن الوليد، وسمَّاه حينئذٍ سيفَ الله في جملةٍ من الناس، ففَرُّوا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة، وأسروا منهم جملةً، وسِيقوا إلى الرسول ﷺ، فمنَّ عليهم وأطلقَهم. وقال قتادة: كان ذلك بالحديبية عند عسكره وهو ببطن مكة[٤].

وعن أنس: هبطَ ثمانون رجلاً من أهل مكة على رسول الله ﷺ من جبل التَّنعيم مُسلَّحين يريدون غِرَّتَه، فأخذناهم، فاستحياهم[٥].

وفي حديث عبد الله بن مُغَفَّل: أنَّ رسولَ الله ﷺ دعا عليهم، فأخذَ اللهُ أبصارَهم، فقال لهم: «هَلْ جئتم في عهدٍ؟ وهل جعل لكم أحدٌ أماناً؟» قالوا: اللهمَّ لا. فخلَّى سبيلَهم[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٧، وما بعده منه.
(٣) الغِرَّة: الغفلة. الصحاح (غرر).
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥.
(٥) أخرجه مسلم (١٨٠٨)، وأحمد (١٢٢٥٤).
(٦) أخرجه أحمد (١١٨٠٠) مطولاً، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٧).

وقال الزمخشري[(١)]: كان ـ يعني هذا الكفُّ ـ يومَ الفتح، وبه استشهد أبو حنيفة على أنَّ مكة فُتِحَت عَنوةً لا صُلحاً. وقيل: كان ذلك في غزوة الحديبية؛ لِما رُوِيَ أنَّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمس مئة، فبعث رسولُ الله ﷺ مَنْ هزَمَه وأدخله حيطان مكة. وعن ابن عباس: أظهرَ اللهُ المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. انتهى.

وقرأ الجمهور: «بما تعملون» على الخطاب. وأبو عمرو بالياء، وهو تهديد للكفار[(٢)].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني أهل مكة[(٣)].

قال ابن خالويه[(٤)]: يقال: الهَدْيُ والهَدِيُّ والهَداء ثلاث لغات. انتهى.

وقرأ الجمهور: «الهَدْيَ» بسكون الدال، وهي لغة قريش. وابن هُرْمُز، والحسن، وعِصمة عن عاصم، واللؤلؤي، وخارجة عن أبي عمرو: «الهَدِيَّ» بكسر الدال وتشديد الياء[(٥)]، وهما لغتان، وهو معطوف على الضمير في «صَدُّوكم».

و﴿مَعۡكُوفًا﴾ حال، أي: محبوساً؛ عكَفْتُ الرجُلَ عن حاجته: حبَسْتُه عنها. وأنكر أبو عليٍّ تعدية «عكَفَ»، وحكاه ابنُ سيدَه والأزهريُّ[(٦)] وغيرهما. وهذا الحبس يجوز أن يكون من جهة المشركين بصَدِّهم، أو من جهة المسلمين، لتردُّدهم[(٧)] ونظرِهم في أمرهم.

وقرأ الجُعْفيُّ عن أبي عمرو: «والهَدْيِ» بالجرِّ معطوفاً على «المسجد الحرام» أي: وعن نحر الهدي[(٨)]. وقُرِئ بالرفع على إضمار: وصُدَّ الهَدْيُ.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٤٧.
(٢) ينظر السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١. والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦.
(٤) في القراءات الشاذة ص١٤٣.
(٥) هذه القراءة في القراءات الشاذة ص١٤٢-١٤٣ عن عصمة عن عاصم، وفي المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ ـ والكلام منه ـ عن ابن هرمز الأعرج والحسن البصري. والمشهور عن عاصم وأبي عمرو كقراءة الجمهور.
(٦) في تهذيب اللغة ١/ ٣٢١.
(٧) في (يه): لثروتهم! وفي المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ والكلام منه: لرؤيتهم.
(٨) ينظر الكشاف ٣/ ٥٤٧، والمشهور عن أبي عمرو كقراءة الجمهور.

وكان خرج عليه السلام ومعه مئة بَدَنَة. قاله مقاتل[١]. وقيل: بسبعين، وكان الناسُ سبعَ مئة رجلٍ، فكانت البدنةُ عن عشرة. قاله المِسْوَر بن مَخْرَمَة ومروان بن الحكم[٢].

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ قال الشافعي: الحَرَم. وبه استدلَّ أبو حنيفة أنَّ مَحِلَّ هَدْيِ المُحْصَرِ الحَرَمُ، لا حيثُ أُحصِرَ. وقال الفرَّاء: حيثُ يحِلُّ نحرُه[٣].

و«أن يبلغَ» يَحتمل أن يتعلَّق بالصدِّ، أي: وصدُّوا الهديَ وذلك على أن يكون بدلَ اشتمال، أي: وصدُّوا بلوغَ الهدي محِلَّه. أو على أنَّه مفعولٌ من أجله، أي: كراهة أن يبلُغَ مَحِلَّه[٤]. ويحتمل أن يتعلق بـ «معكوفاً» أي: محبوساً لأجل أن يبلغ محِلَّه، فيكون مفعولاً من أجله[٥]، ويكون الحبسُ من المسلمين، أو: محبوساً عن أن يبلغ مَحِلَّه، فيكون الحبس من المشركين.

وكان بمكة قومٌ من المسلمين مختلطين بالمشركين غيرَ متميِّزين منهم ولا معروفي الأماكن، فقال تعالى: ولولا كراهةُ أن تُهلِكوا أناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غيرُ عارفينَ لهم، فيُصيبَكم بإهلاكهم مكروهٌ ومشقَّةٌ، ما كَفَّ أيديكم عنهم. وحذفَ جواب «لولا»؛ لدلالةِ الكلام عليه.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون «لو تَزَيَّلوا» كالتكرير لـ «لولا رجالٌ مؤمنون»؛ لمرجعهما إلى معنًى واحد، ويكون «لعَذَّبْنا» هو الجواب[٦]. انتهى. وقوله: لمرجعهما إلى معنًى واحد ليس بصحيح؛ لأنَّ ما تعلَّق به «لولا» الأولى غيرُ ما تعلَّق به الثانية، فالمعنى في الأولى: ولولا وطءُ قومٍ مؤمنين، والمعنى في الثانية: لو تميَّزوا من الكفار، وهذا معنًى مُغايرٌ للأول مغايرةً ظاهرة.

---

(١) تفسير مقاتل ٣/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٥٧)، وأحمد (١٨٩١٠).

(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٢٧. وقول الشافعي في النكت والعيون ٥/ ٣١٩، وقول أبي حنيفة في الكشاف ٣/ ٥٤٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٦٨، والنكت والعيون أيضاً.

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٦.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ بنحوه.

(٦) الكشاف ٣/ ٥٤٨، وما قبله منه.

و﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال من «رجال» وما بعده[١]. وقيل: بدلٌ من الضمير في «تعلموهم» أي: لم تعلموا وطأتهم، أي: إنَّه وطءُ مؤمنين[٢]. وهذا فيه بُعدٌ.

والوَطْءُ: الدَّوْس[٣]. وعبَّرَ به عن الإهلاك بالسيف وغيره، قال الشاعر:

وَوَطِئْتَنا وَطْئاً على حَنَقٍ وَطْءَ المُقَيَّدِ نابِتَ الهَرْمِ[٤]

وفي الحديث: «اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَر»[٥].

و«لم تعلموهم» صفة لـ «رجال» و«نساء»؛ غلِّبَ فيها المذكَّر. والمعنى: لم تعرفوا أنَّهم مؤمنون[٦].

وقال ابن زيد: المَعَرَّة: المأثَم. وقال ابن إسحاق: الدِّية[٧]. وقال ابن عطية: وهذا ضعيف[٨]؛ لأنَّه لا إثمَ ولا دِيةَ في قتلِ مؤمنٍ مستورِ الإيمان بين أهل الحرب.

وقال الطبري: هي الكفارة[٩]. وقال منذر بن سعيد: المعرَّة: أن يعيبهم[١٠] الكفار ويقولوا: قتلوا أهلَ دينهم. وقيل: الملامةُ وتألُّمُ النفس منه في باقي الزَّمَن.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٨. وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧.

(٣) اللسان (وطأ).

(٤) قائله الحارث بن وَعْلة الذُّهلي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٦، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ لزهير، ولم أجده في ديوانه.
والهَرْم: نبْتٌ خفيف ترعاه الإبل، أو ضربٌ من الحمض فيه ملوحة، وهو أذلُّه وأشدُّه انبساطاً على الأرض. معجم متن اللغة ٥/ ٦٢٨.

(٥) أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، وأحمد (٧٢٦٠) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٦) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٠ بنحوه.

(٧) هذان القولان في تفسير الثعلبي ٥/ ٥١٠، والنكت والعيون ٥/ ٣٢٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٧، وزاد المسير ٧/ ٤٤٠. وأخرجهما الطبري ٢١/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٨) في المحرر الوجيز: وهذان ضعيفان.

(٩) تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧، وذكره الثعلبي في تفسيره ٥/ ٥١٠ دون نسبة.

(١٠) تصحفت في (ز٢) و(ع) والمطبوع إلى: يعنفهم. وهذا القول والقول الآتي ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ بعد قول الطبري وقال عن الثلاثة: وهذه أقوال حِسان.

ولفَّق الزمخشري[١] من هذه الأقوال جواباً وسؤالاً على عادته في تلفيق كلامه من أقوالهم، وإيهامِه أنَّها سؤالاتٌ له. فقال: فإنْ قلتَ: أيُّ معرَّةٍ تُصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون؟ قلت: يُصيبهم وجوبُ الدِّية والكفارةُ وسوءُ مقالة المشركين أنَّهم فعلوا بأهل دينهم مثلَ ما فعلوا بنا من غير تمييزٍ، والمأثَمُ إذا جرى منهم بعضُ التقصير. انتهى.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ إخبارٌ عن الصحابة وعن صفتِهم الكريمة من العِفَّة عن المعصية والامتناع من التعدِّي، حتى إنَّهم لو أصابوا من ذلك أحداً لكان من غير قصدٍ، كقول النملة عن جُندِ سليمان: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢] [النمل: ١٨].

و«بغير علم» متعلِّقٌ بـ «أنْ تطؤوهم»[٣]. وقيل: مُتعلِّقٌ بقوله: «فتُصيبَكم منهم مَعَرَّةٌ» من الذي يَعُرُّكم ممَّن يَعيبُ عليكم[٤].

وقرأ الجمهور: «لو تزيَّلوا». وابنُ أبي عبلة، وابن مِقْسَم، وأبو حَيْوة، وابن عون: «لو تَزايلوا» على وزن تفاعلوا[٥].

و«ليُدخِلَ» متعلِّقٌ بمحذوف دلَّ عليه المعنى، أي: كان انتفاءُ التسليط على أهل مكة وانتفاءُ العذاب لِيُدخِلَ اللهُ في رحمته من يشاء. وهذا المحذوف هو مفهومٌ من جواب «لو».

ومعنى: «تزيَّلوا»: لو ذهبوا عن مكة[٦]. أي: لو تزيَّلَ المؤمنون من الكفار وتفرَّقوا منهم[٧]. ويجوز أن يكون الضمير للمؤمنين والكفار[٨]. أي: لو افترقَ بعضُهم من بعض.

---

(١) في الكشاف ٣/٥٤٨.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥. ونقله عنه القرطبي في تفسيره ١٩/ ٣٣١.
(٣) الكشاف ٣/٥٤٨.
(٤) في النسخ والمطبوع: الذين بعدكم ممَّن يعتب عليكم. والمثبت من تفسير الرازي ٢٨/ ٩٩. وينظر روح المعاني ٢٥/ ٢٨٨.
(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ عن أبي حيوة وقتادة.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧.
(٧) زاد المسير ٧/ ٤٤١ بنحوه.
(٨) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٠ بنحوه.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ «إذ» معمولٌ لـ «عذَّبْنا»، أو لـ «وصَدُّوكم» أو لـ «اذْكُرْ» مضمرة[١].

والحَمِيَّة: الأَنَفة، يُقال: حَمِيتُ عن كذا حَمِيَّةً، إذا أَنِفْتَ منه وداخَلَكَ عارٌ وأَنَفَةٌ لِفعْلِه[٢]، قال المتلمِّس:

ألا إنَّني منهُمْ وعِرضي عِرْضُهمْ　　كذي الرأسِ يحمي أنْفَه أنْ يُهَشَّما[٣]

وقال الزُّهري: حميَّتهم: أَنَفَتُهم من الإقرار لرسول الله ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم[٤]. والذي امتنع من ذلك هو سهيل بن عمرو[٥].

وقال ابن بحر: حَمِيَّتهم: عصبيتهم لآلهتهم، والأَنفَة أن يعبدوا غيرها[٦]. وقيل: قتلوا آباءنا وإخواننا، ثمَّ يدخلون علينا في منازلنا؟! واللّاتِ والعُزَّى لا يدخُلُها أبداً[٧].

وكانت حميَّةً جاهليةً؛ لأنَّها بغير حُجَّة، وفي غيرِ موضعها، وإنَّما ذلك محضُ تعصُّبٍ؛ لأنَّه ﷺ إنَّما جاء مُعظِّماً للبيت لا يُريد حرباً[٨]، فهم في ذلك كما قال الشاعر في حميَّة الجاهلية:

وهل أنا إلَّا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ　　غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ[٩]

و«حَمِيَّةَ» بدل من «الحميَّة»[١٠].

---

(١) ينظر الكشاف ٣/ ٥٤٨-٥٤٩، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٨.
(٢) الصحاح (حمى)، والكلام من تفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٥.
(٣) هكذا البيت في تفسير الثعلبي ٥/ ٥١١، والدر المصون ٩/ ٧١٨. ولفظه في تفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٥: كذي الأنفِ يحمي أنفه أن يُكَشَّما. وكذلك هو في خزانة الأدب ١٠/ ٥٨ إلا أنَّ فيه: تهشَّما.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠.
(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٤ عن مقاتل.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨.
(٩) البيت لدريد بن الصمة، وسلف عند تفسير الآية (٢١٠) من سورة البقرة.
(١٠) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٣٩.

و«السكينة»: الوَقار والاطمئنان، فتوقَّروا وحَلُموا[١].

و﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لا إله إلَّا الله. رُويَ ذلك عن النبيِّ ﷺ[٢]. وبه قال علي وابن عباس وابن عمر وعمرو بن ميمون وقَتادة ومجاهد وعكرمة والضحَّاك وسلمة بن كُهَيل وعُبيد بن عُمير وطلحة بن مُصَرِّف والربيع والسُّدِّي وابن زيد[٣].

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير[٤].

وقال علي بن أبي طالب وابن عمر ﷺ أيضاً: لا إله إلا الله والله أكبر[٥].

وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني: لا إله إلَّا الله، محمدٌ رسول الله ﷺ[٦].

وأُضيفَت الكلمةُ إلى التقوى، لأنَّها سببُ التقوى وأساسُها. وقيل: هو على حذف مضاف، أي: كلمة أهل التقوى[٧].

وقال المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم: كلمة التقوى هنا هي بسم الله

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٩.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٥٥)، والترمذي (٣٦٢٥) من حديث أُبي بن كعب ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قَزَعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث، فلم يعرِفْه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

(٣) ذكر هذه الأقوال القرطبي في تفسيره ١٩/ ٣٣٥-٣٣٦، وذكرها الثعلبي في تفسيره ٥/ ٥١١ دون قول علي وابن عمر، وذكر النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٠٣ قول ابن عمر، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٢١ قول ابن عباس. وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤١ قول السدي. وأخرج الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١٣ ـ من هذه الأقوال ـ قولَ علي، وابن عباس، وعمرو بن ميمون، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وابن زيد.

(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٦ عنهما، وذكره الثعلبي في تفسيره ٥/ ٥١١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨ عن عطاء وحده، ويؤيِّدهما أن الطبري أخرجه ٢١/ ٣١٤ من طريق ابن جريج، عن مجاهد وعطاء، إلا أنه ذكر قول مجاهد فيه: كلمة التقوى: الإخلاص.

(٥) تفسير الثعلبي ٥/ ٥١١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٨، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٦، وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١١ و٣١٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٣، والطبراني في الدعاء (١٦١٨) عن عطاء الخراساني.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٤٩.

الرحمن الرحيم، وهي التي أباها كفارُ قريش، فألزمَها اللهُ المؤمنين وجعلَهم أحَقَّ بها[(١)]. وقيل: قولهم: سمعاً وطاعة[(٢)]. والظاهرُ أنَّ الضمير في «وكانوا» عائدٌ على المؤمنين، والمُفضَّلَ عليهم محذوف، أي: أحَقَّ بها من كفار مكة؛ لأنَّ الله تعالى اختارَهم لدينه وصحبة نبيِّه ﷺ[(٣)]. وقيل: من اليهود والنصارى، وهذه الأحقيَّة هي في الدنيا. وقيل: أحَقَّ بها في علم الله تعالى. وقيل: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ في الآخرة بالثواب[(٤)].

وقيل: الضمير في «وكانوا» عائدٌ على كفار مكة[(٥)]؛ لأنَّهم أهلُ حَرَم الله، ومنهم رسولُه، لولا ما سُلِبوا من التوفيق.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ إشارةٌ إلى عِلْمِه بالمؤمنين، ودَفْعِ الكفار عنهم، وإلى علمه بالمصلحة في الحديبية؛ إذ كان سبباً لامتزاج العرب وإسلام كثيرٍ منهم وعُلُوِّ كلمة الإسلام، وكانوا عامَ الحُديبية ألفاً وأربعَ مئة، وبعده بعامين ساروا إلى مكة في عشرة آلاف[(٦)].

وقال أبو عبد الله الرازي[(٧)]: في هذه الآية لطائفُ معنوية؛ وهو أنَّه تعالى أبانَ غايةَ البَوْنِ بين الكافر والمؤمن، بايَنَ بينَ الفاعِلَين؛ إذ فاعِلُ «جعَلَ» هو الكفار، وفاعِلُ «أنزَلَ» هو الله تعالى. وبينَ المفعولَين؛ إذ تلكَ حميَّةٌ، وهذه سكينةٌ. وبينَ الإضافَتَين؛ أضافَ الحميَّةَ إلى الجاهلية، وأضافَ السكينة إليه. وبينَ الفعل «جعَلَ» و«أنزَلَ»، فالحميَّةُ مجعولةٌ في الحال في العَرَض الذي لا يبقى، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها، والحميَّةُ قبيحةٌ مذمومةٌ في نفسها، وازدادَتْ قُبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينةُ حسنةٌ في نفسِها، وازدادَتْ حُسناً بإضافتها إلى الله تعالى. والعطفُ في «فأنزَلَ» بالفاء لا بالواو يدلُّ على المُقابَلة، تقول:

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢١.
(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٦، وهو في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٣ بنحوه.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨.
(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٤، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٥.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٨.
(٧) في تفسيره ٢٨/ ١٠٢-١٠٣.

أكرَمني زيدٌ فأكرمْتُه. فدلَّتْ على المجازاة للمُقابَلة، وكذلك «جعل» «فأنزل». ولمَّا كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أولاً إلى الصُّلح، وكان المؤمنون عازِمين على القتال وأنْ لا يرجِعوا إلى أهلهم إلَّا بعدَ فتحِ مكة أو النَّحْر في المَنْحر، وأبَوا إلَّا أن يكتبوا: محمدٌ رسول الله ﷺ وباسم الله = قال تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ولمَّا سكَنَ هو ﷺ للصُّلح سكَنَ المؤمنون، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ولمَّا كان المؤمنون عند الله تعالى أُلزِموا تلك الكلمة قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وفيه تلخيصٌ، وهو كلامٌ حسن.

❋ ❋ ❋

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

رأى رسولُ الله ﷺ قبلَ خروجه إلى الحُديبية ـ وقال مجاهد: كانت الرؤيا بالحُديبية ـ أنَّه وأصحابَه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصَّروا، فقَصَّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسبوا أنَّهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إنَّ رؤيا رسول الله ﷺ حَقٌّ. فلمَّا تأخَّر ذلك قال عبد الله بن أُبي وعبد الله بن نُفَيل ورِفاعة بن الحارث: واللهِ ما حلَقْنا ولا قَصَّرْنا ولا رأَيْنا المسجد الحرام. فنزلت(١).

(١) هكذا ساقه الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤٩ دون قول مجاهد. وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٤: لم أجده هكذا مفسَّراً.
وقول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٣١٦، وهو في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٩.
وذكر الآلوسي في روح المعاني ٢٥/ ٣٠٠ أن القول الأول ـ يعني أن الرؤيا قبل خروجه إلى الحديبية ـ هو الأصح.

ورُويَ أنَّ رُؤياه إنَّما كانت أنَّ ملَكاً جاءه فقال له: «لتدخلنّ» الآية[١].

ومعنى «صدقَ اللهُ»: لم يَكْذِبْه، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الكذب وعن كلِّ قبيح[٢].

و«صدَقَ» يتعدَّى إلى اثنين؛ الثاني بنفسه وبحرف الجر؛ تقول: صدقتُ زيداً الحديث، وصدقتُه في الحديث[٣]. وقد عدَّها بعضُهم في أخوات استغفر وأمر. وقال الزمخشري[٤]: فحذف الجارَّ، وأوصَلَ الفعلَ، كقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. انتهى. فدلَّ كلامُه على أنَّ أصلَه حرف الجر.

«وبالحقِّ» مُتعلِّقٌ بمحذوف، أي: صِدقاً ملتبساً بالحقِّ[٥].

«لَتَدْخلُنَّ» اللام جواب قسم محذوف. ويبعُدُ قولُ مَنْ جعلَه جوابَ «بالحقِّ»، و«بالحقِّ» قسَمٌ لا تعَلُّقَ له بـ «صَدَقَ».

وتعليقُه على المشيئة؛ قيل: لأنَّه حكايةُ قولِ الملَك للرسول ﷺ. قاله ابن كيسان. وقيل: هذا التعليق تأدُّبٌ بآداب الله تعالى، وإن كان الموعودُ به متحقِّقَ الوقوع، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٦] [الكهف: ٢٣-٢٤].

وقال ثعلب: استثنى فيما يعلم؛ ليستثنيَ الخلقُ فيما لا يعلمون[٧].

وقال الحسين[٨] بن الفضل: كان اللهُ عَلِمَ أنَّ بعض الذين كانوا بالحديبية

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٢٥٨، والمحرر الوجيز ٥/١٣٩.
(٢) الكشاف ٣/٥٤٩ بنحوه.
(٣) الكلام في المحرر الوجيز ٥/١٣٩، وتفسير الرازي ٢٨/١٠٤.
(٤) في الكشاف ٣/٥٤٩.
(٥) الكشاف ٣/٥٤٩. وذكر صاحب الدر المصون ٩/٧١٩ ثلاثة أوجُهٍ أُخر؛ أحدُها: أن يتعلَّق بـ «صَدَقَ» والثاني: أن يتعلَّق بمحذوف على أنه حال من «الرؤيا» أي: ملتبسةً بالحق. والثالث: أنَّه قسَمٌ وجوابه «لتدخُلُنَّ»، وعلى هذا يوقف على «الرؤيا» ويُبتدأ بما بعدها.
(٦) تفسير الثعلبي ٥/٥١٢، وتفسير البغوي ٤/٢٠٥، وذكره القرطبي ١٩/٣٣٧ بنحوه.
(٧) الوسيط للواحدي ٤/١٤٥، وزاد المسير ٧/٤٤٣. ونقله عنهما القرطبي ٩/٣٣٧.
(٨) تحرف في (يه) و(ع) والمطبوع إلى: الحسن، وقوله الآتي في تفسير الثعلبي ٥/٥١٢، والبغوي ٤/٢٠٥، والقرطبي ١٩/٣٣٧.

يموت، فوقع الاستثناءُ لهذا المعنى.

وقال أبو عبيدة وقومٌ: «إنْ» بمعنى «إذ»، كما قيل في قوله: «وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحِقون»[(١)].

وقيل: هو تعليقٌ في قوله: «آمنين» لا لأجل إعلامه بالدخول، فالتعليق مقدَّمٌ على موضعه. وهذا القولُ لا يُخرِجُ التعليقَ عن كونه مُعلَّقاً على واجِب؛ لأنَّ الدخولَ والأمنَ أخبر بهما تعالى، ووقعت الثقةُ بالأمرين، وهما الدخولُ والأمنُ الذي هو قَيدٌ في الدخول[(٢)].

و«آمنين» حالٌ مقارِنةٌ للدخول، و«مُحلِّقين» و«مُقَصِّرين» حالٌ مُقدَّرةٌ، و«لا تخافون» بيانٌ لكمال الأمن بعد تمام الحج[(٣)].

ولمَّا نزلت هذه الآية عَلِمَ المسلمون أنَّهم يدخلونها فيما يُستأنَفُ، واطمأنَّتْ قلوبُهم، ودخلوها معه عليه الصلاة والسلام في ذي القَعدة سنة سبعٍ ـ وذلك ثلاثة أيام ـ هو وأصحابُه، وصدقَتْ رؤياه ﷺ.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: ما قدَّره من ظهورِ الإسلام في تلك المدَّة، ودخولِ الناس فيه، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفعَ اللهُ بهم. قاله ابن عطية[(٤)].

وقال الزمخشري: «فعَلم ما لم تعلموا» من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل[(٥)]. انتهى. ولم يكن فتحُ مكةَ في العام القابل، إنَّما كان بعد ذلك بأكثرَ من عام؛ لأنَّ الفتحَ كان سنةَ ثمانٍ من الهجرة، وكان خروجُه من المدينة

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٩٧٤)، وأحمد (٢٥٤٧١) عن عائشة ﵂، وأوله: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين».
وقول أبي عبيدة في تفسير الثعلبي ٥/ ٥١٢، والوسيط للواحدي ٤/ ١٤٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٥، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٨، وفيه عندهم: كقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] بدل قوله: كما قيل في قوله: «وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون».
وذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٠٤ دون نسبة، وبالمثالين معاً، وردَّه.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٩ بنحوه.
(٣) ينظر إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٩.
(٤) في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٩-١٤٠.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٥٠.

عام الحديبية في ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة[١].

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من قبل ذلك، أي: من زمانٍ دون ذلك الزمان الذي وُعِدوا فيه بالدخول فيه.

﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال كثيرٌ من الصحابة: هذا الفتح القريب هو بيعة الرضوان[٢]. وقال مجاهد وابن إسحاق: هو صلح الحديبية. وقال ابن زيد: خيبر[٣]. وُضعِّف قولُ من قال: إنَّه فتحُ مكة؛ لأنَّ فتحَ مكة لم يكن من دونِ دخولِ الرسول ﷺ وأصحابِه مكة، بل كان بعد ذلك[٤].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ فيه تأكيدٌ لصدق رؤياه ﷺ وتبشيرٌ بفتح مكة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، وتقدَّم الكلامُ على مُعظَم هذه الآية[٥].

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنَّ ما وعدَه كائنٌ. وعن الحسن: ﴿شَهِيدًا﴾ على نفسه أنَّه سيُظهِرُ دينَك[٦].

والظاهرُ أنَّ «محمدٌ رسولُ الله» مبتدأٌ وخبر. وقيل: «رسولُ الله» صفة[٧]. وقال الزمخشري: عطف بيان «والذين» معطوفٌ، والخبر عنه وعنهم «أشِدَّاءُ». وأجاز الزمخشريُّ أن يكون «محمدٌ» خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو محمدٌ؛ لتقدُّمِ قولِه: «هو الذي أرسل رسولَه»[٨].

وقرأ ابن عامر في رواية: «رسولَ الله» بالنصب على المدح[٩].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٠. وقوله: . . . وكان خروجه من المدينة . . . إلى هنا، ليست في المطبوع.

(٢) وقد تقدم ذلك في بداية السورة عن جابر بن عبد الله والبراء بن عازب. والكلام من المحرر الوجيز ٥/ ١٤٠.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٣١٨-٣١٩، وذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٤.

(٤) إلى هنا من المحرر الوجيز ٥/ ١٤٠.

(٥) عند تفسير الآية (٣٣) من سورة التوبة.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٠. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٥. والكلام من الكشاف ٣/ ٥٥٠.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٠.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٥٠.

(٩) القراءات الشاذة ص١٤٢ من رواية الأهوازي عن ابن عامر، والمشهور عنه كقراءة الجمهور.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ هم مَن شَهد الحُدَيبية. قاله ابن عباس. وقال الجمهور: جميع أصحابه[(١)].

﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع شَديد، كقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وكقوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)] [التوبة: ١٢٨].

وقرأ الحسن: «أشِدَّاءَ» «رُحَماءَ» بنصبهما[(٣)]. قيل: على المدح، وقيل: على الحال، والعاملُ فيهما العامل في «معه»، ويكون الخبرُ عن المبتدأ المتقدِّم «تراهم»[(٤)].

وقرأ يحيى بن يَعْمَر: «أشِدًّا» بالقصر[(٥)]، وهي شاذة؛ لأنَّ قصْرَ الممدودِ إنَّما يكون في الشِّعر، نحو قوله:

لا بُدَّ مِنْ صَنْعا وإنْ طالَ السَّفَرْ[(٦)]

وفي قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ دليلٌ على كثرة ذلك منهم[(٧)].

وقرأ عمرو بن عبيد: «ورُضواناً» بضمِّ الراء[(٨)].

وقُرئ: «سيمياؤهُم» بزيادة ياء والمد[(٩)]، وهي لغةٌ فصيحةٌ كثيرةٌ في الشعر، قال الشاعر:

غُلامٌ رَماهُ اللهُ بالحُسْنِ يافعاً   له سِيمياءُ لا تَشُقُّ على البَصَرْ[(١٠)]

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٠-١٤١.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٠.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٢، والمحتسب ٢/ ٢٧٦.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٥٠ بنحوه.
(٥) القراءات الشاذة ص١٤٢
(٦) لم أقف على قائله، وذكره ابن جنيّ في سر صناعة الإعراب ٢/ ٥١٧، وتتمته كما في العين ٢/ ٢١٩: وإنْ تحَنَّى كُلُّ عَوْدٍ وانْقَعَرْ. والعَوْد: الطريق القديم.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ بنحوه.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٤١، وذكرها صاحب النشر ٢/ ٢٣٨ عن شعبة.
(٩) القراءات الشاذة ص١٤٢.
(١٠) البيت لابن عنقاء الفزاري، وسلف عند تفسير الآية (٢٦٦) من سورة البقرة.

وهذه السِّيما، قال مالك بن أنس: كانت جباهُهم مُتْرَبَةً[١] من كثرة السجود في التراب. وقال ابن عباس وخالد الحنفي وعطية: وَعْدٌ لهم بأن يجعل لهم نوراً يوم القيامة من أثر السجود. وقال ابن عباس أيضاً: السَّمْتُ الحَسَن، وخشوعٌ يبدو على الوجه. وقال الحسن وشِمْر بن عطية: بياضٌ وصُفْرةٌ وتَهيُّجٌ يعتري الوجهَ من السَّهَر. وقال عطاء والربيع بن أنس: حُسْنٌ يعتري وجوهَ المُصلِّين. وقال منصور: سألتُ مجاهداً: هذه السِّيما هي الأثرُ يكون بين عَينَي الرجل؟ قال: لا؛ وقد يكون مثلَ رُكْبَةِ البعير، وهي أقسى قلباً من الحجارة. وقال ابن جُبير: ذلك ممَّا يتعلَّقُ بجباههم من الأرض عند السجود[٢].

وقال الزمخشري[٣]: المُرادُ بها السِّمة التي تحدُثُ في جبهة السُّجَّاد من كثرة السجود. وقوله: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ يفسِّرها، أي: من التأثير الذي يؤثِّره السجود، وكان كُلٌّ من العَلِيَّيْنِ علي بن الحسين زينِ العابدين وعلي بن عبد الله بن العباس أبي الأملاك يُقال له: ذو الثَّفِنات؛ لأنَّ كثرةَ سجودِهما أحدثَتْ في مواقعه منهما أشباهَ ثَفِنات البعير. انتهى.

وقرأ ابن هُرْمُز: «إِثْرِ» بكسر الهمزة وسكون الثاء[٤]. والجمهور بفتحهما. وقرأ قتادة: «من آثار السجود» بالجمع[٥].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوصفُ من كونِهم أشداءَ، رحماءَ، مُبتَغِين، سيماهم في وجوههم، صفتُهم في التوراة.

قال مجاهد والفرَّاء: هو مثَلٌ واحد، أي: ذلك صفتُهم في التوراة والإنجيل،

---

(١) تحرفت في النسخ والمطبوع إلى: منيرة، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ١٤١ والكلام منه.
(٢) وهذه الأقوال ـ دون قول مالك ـ أخرجها بنحوها الطبري في تفسيره ٢١/ ٣٢٢-٣٢٥. ويُنظر تفسير القرطبي ١٩/ ٣٤٢-٣٤٣.
(٣) في الكشاف ٣/ ٥٥٠.
(٤) وقع في مطبوع القراءات الشاذة ص١٤٢ بفتح الهمزة.
(٥) نسبها في القراءات الشاذة ص١٤٢ لعيسى الحجازي والحسن، وهي في الكشاف ٣/ ٥٥٠ دون نسبة.

فيوقَفُ على الإنجيل. وقال ابن عباس: هما مَثَلان، فيُوقَفَ على ذلك في التوراة[١].

و«كزَرْعٍ» خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: مثَلُهم كزرعٍ، أو هُمْ كزرعٍ[٢]. وقال الضحَّاك: المعنى: ذلك الوصْفُ هو مثَلُهم في التوراة، وتَمَّ الكلامُ، ثمَّ ابتدأ: «ومثَلُهم في الإنجيل كزرع»[٣]. فعلى هذا يكون «كزَرْعٍ» خبرَ «ومَثَلُهم».

وقال قتادة: مثَلُ أصحابِ النبيِّ ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنَّه سَيَخرجُ من قومٍ[٤] ينبتون نباتاً كالزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقال الزمخشري[٥]: ويجوز أن يكون «ذلك» إشارةً مُبهَمةً أُوضِحَتْ بقوله: «كزرعٍ أخرجَ شَطْأه»، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الحجر: ٦٦].

وقال ابن عطية[٦]: وقوله: «كزرع» هو على كلِّ الأقوال، وفي أيِّ كتابٍ أُنزِلَ: فَرْضُ مثَلٍ للنبيِّ ﷺ وأصحابِه في أنَّ النبيَّ ﷺ بُعِثَ وحدَه، فكان كالزرع حبةً واحدةً، ثمَّ كثُرَ المسلمون، فهُمْ كالشَّطْءِ، وهو فراخُ السُّنْبُلةِ التي تَنبُتُ حولَ الأصل. انتهى.

وقال ابن زيد: «شَطْأه»: فراخه وأولاده[٧]. وقال الزجَّاج[٨]: نَباتَه. وقال قُطْرُب: شَوْك السُّنْبُل. وقيل: السُّنْبُل، يَخرجُ من الحبَّة عشرُ سُنبُلاتٍ وتسعٌ وثمانٍ.

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٤٣، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٩، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٦٩ بنحوه.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٨.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ ونقله عن الطبري أيضاً، وهو في تفسيره ٢١/ ٣٢٩.
(٤) بعدها في النسخ والمطبوع زيادة كلمة: محمد، والكلام في تفسير القرطبي ١٩/ ٣٤٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.
(٥) في الكشاف ٣/ ٥٥٠.
(٦) في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢.
(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.
(٨) في معاني القرآن له ٥/ ٢٩.

قاله الفرَّاء[١]. وقال الكسائي والأخفش: طَرَفه[٢]. قال الشاعر:

أخـرَجَ الـشَّـطْءَ عـلـى وجـهِ الـثَّـرى ومِـنَ الأشـجـارِ أفـنـانَ الـثَّـمَـرْ[٣]

وقرأ الجمهور: «شَطْأه» بإسكان الطاء والهمز. وابنُ كثير وابنُ ذكوان بفتحهما[٤]. وكذلك وبالمدِّ أبو حَيْوة، وابنُ أبي عبلة، وعيسى الكوفي[٥]. وبألفٍ بدل الهمزة زيدُ بن علي[٦]. فاحتَمَل أن يكون مقصوراً، وأن يكون أصلُه الهمز، فنقلَ الحركةَ وأبدلَ الهمزة ألفاً، كما قالوا في المَرْأة والكَمْأة: المَرَاة والكَمَاة، وهو تخفيفٌ مَقيسٌ عند الكوفيين، وهو عند البصريين شاذٌّ لا يُقاسُ عليه[٧].

وقرأ أبو جعفر: «شَطَهُ» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء، ورُوِيَتْ عن شيبة ونافع والجَحْدري[٨]. وعن الجحدريِّ أيضاً: «شَطْوَهُ» بإسكان الطاء وواوٍ بعدَها. وقال أبو الفتح[٩]: هي لغة، أو بدَلٌ من الهمزة، ولا يكون الشَّطْء إلَّا في البُرِّ والشعير، وهذه كلُّها لغات.

وقال صاحب «اللوامح»: شَطَأ الزَّرعُ وأشطأ، إذا أخرج فراخَه، وهو في الحِنْطةِ والشعيرِ وغيرِهما.

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٦٩.
(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره ٥/ ٥١٤ عن الكسائي، والجوهري في الصحاح (شطأ) عن الأخفش.
(٣) البيت للزبير بن العوام ﷺ، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩، وفيه: «يخرج» بدل «أخرج». والكلام بتمامه في تفسير القرطبي ١٩/ ٣٤٤.
(٤) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠٢.
(٥) يعني: «شَطَاءَهُ». القراءات الشاذة ص١٤٢، والمحتسب ٢/ ٢٧٦.
(٦) يعني «شَطَاهُ». المحتسب ٢/ ٢٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤٢، ونسباها لعيسى بن عمر الهمداني.
(٧) ينظر الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٠٤ باختصار.
(٨) القراءات الشاذة ص١٤٢ عن الجحدري، والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢، وهذه القراءة ليست مشهورة عن أبي جعفر ونافع، والمشهور عنهما كقراءة الجمهور. ينظر السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٥.
(٩) في المحتسب ٢/ ٢٧٧، والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢.

وقرأ ابن ذكوان: «فأَزَرَه» ثلاثياً، وباقي السبعة: «فآزَرَه» على وزن أفعَلَه[١].

وقُرئ: «فأزَّرَهُ» بتشديد الزاي[٢]. وقولُ ابنِ مجاهد[٣] وغيرِه: «آزره» فاعَلَه، خطأٌ؛ لأنَّه لم يُسمَعْ في مضارعه إلَّا «يُؤْزِر» على وزن «يُكْرِم».

والضمير المنصوب في «آزَرَهُ» عائدٌ على الزرع؛ لأنَّ الزرع أولَ ما يطلَعُ رقيقُ الأصل، فإذا خرجت فراخُه غَلُظَ أصلُه وتقوَّى، وكذلك أصحابُ الرسول ﷺ كانوا أقِلَّةً ضُعفاءَ، فلمَّا كَثُروا وتقوَّوا قاتلوا المشركين[٤].

وقال الحسن: «آزَرَه»: قوَّاه وشدَّ أزْرَه[٥]. وقال السُّدِّي: صار مثلَ الأصل في الطول[٦].

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: صار من الرِّقَّة إلى الغِلَظ[٧]﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾أي: تَمَّ نباتُه[٨] ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾جمع ساق، كنايةً عن أصوله[٩].

وقرأ ابن كثير: «على سُؤْقِه» بالهمز[١٠]. قيل: وهي لغة ضعيفة، يهمزون الواو التي قبلها ضمَّة. ومنه قول الشاعر:

أَحَبُّ المُؤْقِدَينِ إليَّ مُؤْسى[١١]

---

(١) السبعة ص٦٠٥، والتيسير ص٢٠٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥١.
(٣) في السبعة ص٦٠٥. ووقع في جميع النسخ والمطبوع: مجاهد، وكذا في الدر المصون ٩/ ٧٢٣، وروح المعاني ٢٥/ ٣١٦، والتصويب من المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ والكلام منه.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٢٣-٣٢٤ بنحوه.
(٥) تفسير الثعلبي ٥/ ٥١٤ دون نسبة.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٢٣ بنحوه.
(٧) الكشاف ٣/ ٥٥١.
(٨) تفسير الثعلبي ٥/ ٥١٤.
(٩) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٩، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٢.
(١٠) وهي رواية قنبل عنه كما في السبعة ص٦٠٥، والتيسير ص١٦٨. والكلام من المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢.
(١١) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٨٨، وفيه: لَحَبَّ الواقدان. وعجز البيت: وجَعْدةُ لو أضاءَهُما الوقودُ. وسلف عند تفسير الآية (٤٤) من سورة النمل.

«يُعجِبُ الزُّرَّاع» جملة في موضع الحال، وإذا أعجبَ الزُّرَّاعَ فهو أحرى أن يُعجِبَ غيرَهم؛ لأنَّه لا عيبَ فيه، إذ قد أعجبَ العارفين بعيوب الزرع، ولو كان مَعيباً لم يُعجِبْهم، وهنا تَمَّ المثَلُ و«لِيَغِيظَ» مُتعلِّقٌ بمحذوف يدلُّ عليه الكلامُ قبلَه، تقديره: جعلَهم اللهُ بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار[١].

وقال الزمخشري[٢]: فإنْ قلتَ: «ليَغيظَ بهم الكفار» تعليلٌ لماذا؟ قلت: لِما دَلَّ عليه تشبيهُهم بالزرع من نمائهم وترقِّيهم في الزيادة والقوَّة، ويجوز أن يُعلَّلَ به «وعدَ اللهُ الذين آمنوا»؛ لأنَّ الكفارَ إذا سمعوا بما أُعِدَّ لهم في الآخرة مع ما يُعِزُّهم به في الدنيا، غاظَهم ذلك. ومعنى «منهم» للبيان، كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال ابن عطية: وقوله: «منهم» لبيان الجنس، وليست للتبعيض؛ لأنَّه وعدُ تَرَجٍّ للجميع[٣].

وقال ابن جرير: «منهم» يعني: من الشَّطْء الذي أخرجه الزَّرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة. فأعادَ الضميرَ على معنى الشطء لا على لفظه. والأجر العظيم: الجنة[٤].

وذُكِرَ عند مالك بن أنس رجلٌ ينتقِصُ الصحابة، فقرأ مالك هذه الآية، وقال: مَنْ أصبحَ من الناس في قلبه غيظٌ [على أحدٍ] من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابَتْه هذه الآية[٥]. والله الموفق.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٤٢-١٤٣.
(٢) في الكشاف ٣/٥٥١.
(٣) في النسخ والمطبوع: لأنه وعد مدح الجميع، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/١٤٣.
(٤) تفسير الطبري ٢١/٣٣٣-٣٣٤.
(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٣٢٧، وما بين حاصرتين منه.

(٤٨) سورة الفتح مدنية وآياتها تسع وعشرون

روى الإمام أحمد عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره (سورة الفتح) على راحلته، فرجّع فيها، قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عزَّ وجلَّ هذه السورة، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح (فتح مكة) ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[2]؛ وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليَّ، قال: فقلت في نفسي ثكلتك أمك يا ابن الخطاب،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه البخاري.

ألححت، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ! قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري، فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمناد: يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء، قال، فقال النبي ﷺ: «نزل عليَّ البارحة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾»[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليَّ الليلة آية أحب إليَّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، بيّن الله عزَّ وجلَّ ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار - حتى بلغ - فوزاً عظيماً﴾[2]. وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى تورمت قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً ؟»[3]، وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقــدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: «يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً ؟»[4].

فقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أي بيناً ظاهراً، والمراد به (صلح الحديبية) فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان، وقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة، حبسها حابس الفيل، ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»[5] فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك﴾ أي في الدنيا والآخرة، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عزَّ وجلَّ يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله عزَّ وجلَّ إلا رفعه الله تعالى»، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبتَ أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وبقية الجماعة إلا أبا داود.

(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٥) أخرجه البخاري وهو جزء من حديث طويل.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أي جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة، وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم؛ ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال سبحانه: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً، ﴿ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ أي خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر، ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾، كقوله جلَّ وعلا: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾، وقوله تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم﴾ أي أبعدهم من رحمته، ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي على الخلق، ﴿ومبشراً﴾ أي للمؤمنين، ﴿ونذيراً﴾ أي للكافرين، ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه، ﴿وتوقروه﴾ من التوقير، وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وتسبحوه﴾ أي تسبحون الله، ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، ثم قال عزَّ وجلَّ لرسوله تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾، كقوله جلَّ وعلا:

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله، كقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله»[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله ليبعثنه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة له عينان ينظر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[2]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً، وهذه البيعة هي (بيعة الرضوان) وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة، روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، حتى رووا كلهم، وفي رواية في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

«ذكر سبب هذه البيعة العظيمة»

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي ابن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان رضي الله عنه نبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره، حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد صبأ إليها، يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما أمر رسول الله ﷺ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي جرير مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله» فضرب باحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم[1]. قال البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال: يعني عمر رضي الله عنه، يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ، فوجدهم يبايعون، فبايع، ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه فخرج فبايع[2]، وروى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال يزيد: قلت يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وثبت في الصحيحين عن سعيد بن المسيب قال: «كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها»[3]، وروى الحميدي عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[4]. وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب، الذين اختاروا المقام في أهليهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾، ثم قال تعالى: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون

---

(١) أخرجه الحافظ البيهقي عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه الشيخان عن سعيد بن المسيب.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم من حديث سفيان.

إلى أهليهم أبداً﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا﴾ أي هلكى، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فاسدين، ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، ثم بيّن تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السماوات والأرض: ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه.

* سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها، أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، ولهذا قال تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ قال مجاهد وقتادة: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر، لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية، وقال ابن جريج: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد، ﴿قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ أي أن نشرككم في المغانم، ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

* قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال، (**أحدها**): أنهم هوازن، قاله سعيد ابن جبير وعكرمة، ، (**الثاني**): ثقيف، قاله الضحاك، (**الثالث**): بنو حنيفة، قاله جويبر، وروي مثله عن سعيد وعكرمة، (**الرابع**): هم أهل فارس، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن عطاء والحسن: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وقال ابن أبي حاتم عن الزهري في قوله تعالى:

﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ قال: لم يأت أولئك بعد، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة» قال سفيان: هم الترك. وقوله تعالى: ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ولكم النصرة عليهم، ﴿أو يسلمون﴾ فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ فإن تطيعوا﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً﴾ . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ، ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يعذبه عذاباً أليماً﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم .

* لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية، روى البخاري عن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ فعلم ما في قلوبهم﴾ أي من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة ﴿ فأنزل السكينة﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وهو ما أجرى الله عزَّ وجلَّ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾، روى ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس: البيعة البيعة، نزل روح القدس، قال: فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ قال: فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف» .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ

وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني فتح خيبر، وروى العوفي عن ابن عباس ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني صلح الحديبية ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها؟ فقال ابن عباس: هي خيبر، وقال الضحاك وقتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يقول عزَّ وجلَّ مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل، إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وكثرة المشركين، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم، فأخذوا، قال عفان: فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية: ﴿وهو الذي

كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[1]. وقال أحمد أيضاً عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب باسمك اللهم - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة» فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله! اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[2] الآية.

وروى ابن إسحاق عن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال: إن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأُتي بهم رسولُ الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ الآية.

* هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب، من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هم الذين كفروا﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ أي وأنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم، خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد والنسائي.

منهم معرة﴾ أي إثم وغرامة ﴿بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لو تزيلوا﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي لسلطانكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً. عن جنيد بن سبيع قال: «قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفينا نزلت: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾، قال: كنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين»[1]. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ وهي قول: لا إله إلا الله، كما قال ابن جرير عن رسول الله ﷺ يقول: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: «لا إله إلا الله»[2]، وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب إن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزَّ وجلَّ»، وأنزل الله عزَّ وجلَّ في كتابه وذكر قوماً فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾، وقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة[3]، وقال مجاهد: كلمة التقوى الاخلاص، وقال عطاء: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وقال علي رضي الله عنه: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلا الله والله أكبر، وقال ابن عباس ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى، وقال سعيد بن جبير: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ لا إله إلا الله والجهاد في سبيله، ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

(ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح)

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما قالا: خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها

(١) أخرجه الحافظ الطبراني، قال ابن كثير: الصواب عن حبيب بن سباع.
(٢) أخرجه ابن جرير ورواه الترمذي، وقال: حديث غريب.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: ورواه بهذه الزيادات ابن جرير، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري.

عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عزَّ وجلَّ أو تنفرد هذه السالفة» ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت» وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا» قالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا (بديل بن ورقاء) في رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه فاتهموهم[1].

وروى البخاري رحمه الله في صحيحه، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً من خزاعة وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن نميل على عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فامضوا على اسم الله تعالى»، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقالت الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»؛ ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهم، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء (بديل بن ورقاء) الخزاعي في نفر من قومه من

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وعبد الرزاق، وقد اقتصرنا على هذا القدر لنذكر رواية البخاري رحمه الله.

خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عدا مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره» قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال أي قوم: ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: وألست بالولد؟ قالوا بلى، قال فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبا بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه، وقال: من هذا؟ قال: المغيرة ابن شعبة، قال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ -وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم- فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء»، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له ﷺ؛ فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال النبي ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مكرز ابن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»

فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم إذ جاء سهيل بن عمرو ، وقال معمر : أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « قد سهل لكم من أمركم ». قال معمر ، قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل ابن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه، وقال: « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم »، فقال سهيل بن عمرو : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال: « هذا ما قضى عليه محمد رسول الله »، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، فقال النبي ﷺ : « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني ، اكتب: محمد بن عبد الله » .

قال الزهري: وذلك لقوله: « والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها »، فقال له النبي ﷺ : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به »، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ فبينما هم كذلك إذ جاء (أبو جندل) بن سهيل ابن عمرو يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد »، قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي »، قال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: « بلى فافعل »، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز : بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندي: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عزّ وجلّ، قال عمر رضي الله عنه : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ : « بلى »، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ : « بلى »، قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً ؟ قال ﷺ : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : « بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام »، قلت: لا ، قال ﷺ : « فإنك آتيه ومطوف به، قال، فأتيت أبا بكر ، فقلت: يا أبا بكر ! أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به .

قال الزهري : قال عمر رضي الله عنه : فعملت لذلك أعمالاً ، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « قوموا فانحروا ثم احلقوا »، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أمّ سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - حتى بلغ - بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان ابن أميّة، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت منه، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر، حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عزّ وجل: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة - حتى بلغ - حمية الجاهلية﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت[1].

وقال الإمام أحمد، عن أنَس رضي الله عنه قال: إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم (سهيل بن عمرو) فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال ﷺ: «اكتب من محمد رسول الله»، قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: «اكتب من محمد بن عبد الله»، واشترطوا عليه ﷺ، أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال ﷺ: «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله»[2]. وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة، فيها جمل لأبي جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها[3].

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحُدَيبية لم يشكَّ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به»، وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله عزّ وجلّ: ﴿آمنين﴾ أي في حال دخولكم، وقوله: ﴿محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟، قال ﷺ: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تخافون﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحُدَيْبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة، وبعضها صلحاً، وقسمها بين (أهل الحديبية) وحدهم ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة (جعفر بن أبي طالب) وأصحابه و (أبو موسى الأشعري) وأصحابه رضي الله عنهم ولم يغب منهم أحد، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج النبي ﷺ إلى مكة معتمراً، هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وصار أصحابه يلبُّون، فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث (محمد ابن سلمة) بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا، فأخبروا أهل مكة، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش (مكرز بن حفص) فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح، فقال ﷺ: «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفّار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب (ناقته القصواء) التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... إني شهيد أنه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله ... يا رب إني مؤمن بقيله

نحن قتلناكم على تأويلـــه كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهـــام عن مقيله ويذهل الخليـل عن خليله

روى الإمام أحمد. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قـد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من النـاحية التي تلي الحِجْر فأطلع الله تعالى نبيّه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابـه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا ابقـاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قـد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا[1]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنمـا سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليرى المشركون قوته، وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر ﷺ من العام المقبل، فدخلها، كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً، أمروه أن يخرج فخرج ﷺ[2]. وقوله تعالى: ﴿فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي فعلم الله عزّ وجلّ من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فجعل من دون ذلك﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تبارك وتعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي بالعلم النـافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم، وعمل ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: ﴿محمد رسول الله﴾ وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحمـاء

(١) أخرجه أحمد والشيخان.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

بينهم﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً على الكفار، رحيماً بالأخيار، عبوساً في وجه الكافر، بشوشاً في وجه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[١]. وفي الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبّك بين أصابعه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ وصفهم بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عزّ وجلّ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو (الجنة) المشتملة على فضل الله عزّ وجلّ، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وقوله جل جلاله: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال ابن عباس: يعني السمت الحسن، وقال مجاهد: يعني الخشوع والتواضع، وقال السدي: الصلاة تحسّن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار[٢]. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال عثمان رضي الله عنه: «ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه» والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عزّ وجلّ ظاهره للناس، كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته»، وقال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[٣]. وفي الحديث: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[٤]. فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم، في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾، ثم قال: ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي فراخه ﴿فآزره﴾ أي شدّه ﴿فاستغلظ﴾ أي شبّ وطال ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ، آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾، ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك.

---

(١) أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير.

(٢) أسنده ابن ماجة في سننه والصحيح أنه موقوف.

(٣) أخرجه الطبراني عن جندب بن سفيان البجلي.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال، الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»(٣).

[آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة]

* * *

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

تفسير سورة الفتح

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد[١]: حدثنا وَكِيع، حدثنا شُعْبَة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية[٣].

وقال[٤] البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس عل شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه[٦]، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، قال: فسألته عن شىء ـ ثلاث مرات ـ فلم

(١) فى ت: «وروى البخارى ومسلم والإمام أحمد» .
(٢) المسند (٥/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٩٤).
(٣) رواه الطبرى (٢٦/ ٤٤).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤١٥٠).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

يرد على، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت[١] على الليلة[٢] سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾».

ورواه البخاري، والترمذي، والنسائي من طرق، عن مالك، رحمه الله[٣]، وقال على بن المديني: هذا إسناد مديني [جيد][٤] لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئا مريئا يا نبي الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب، قال: سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبي يزيد الأنصاري عن عمه مجمع بن جارية الأنصاري ـ وكان أحد[٧] القراء الذين قرؤوا القرآن ـ قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أى رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إى والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهما.

رواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به[٨].

وقال[٩] ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول[١٠]: لما

---

(١) في م: «نزل». (٢) في ت، م: «البارحة».

(٣) المسند (١/ ٣١) وصحيح البخاري برقم (٤٨٣٣) وسنن الترمذي برقم (٣٢٦٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٩٩).

(٤) زيادة من م.

(٥) المسند (٣/ ١٩٧) وصحيح البخاري برقم (٤١٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٦).

(٦) في ت: «وروى». (٧) في ت: «أحب».

(٨) المسند (٣/ ٤٢٠) وسنن أبي داود برقم (٢٧٣٦).

(٩) في ت: «وروى». (١٠) في ت: «عن ابن مسعود قال».

أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا»[(١)]. فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك [يفعل][(٢)] من نام أو نسي». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها[(٣)]، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه [الوحى][(٤)] اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائي من غير وجه، عن جامع بن شداد به[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة ابن شعبة[(٦)] يقول: كان النبي[(٧)] ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أخرجاه[(٨)] وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به[(٩)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه[(١٠)].

فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذ وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به[(١١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز ـ وكان ثقة بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر[(١٢)] حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه[(١٣)].

---

(١) فى م: «أنصتوا». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «فركب». (٤) زيادة من م.
(٥) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣) والمسند (١/ ٤٦٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٥٣).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٧) فى أ: «رسول الله».
(٨) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٩) المسند (٤/ ٥٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٩) وسنن الترمذى برقم (٤١٢) وسنن النسائى (٣/ ٢١٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٤١٩).
(١٠) فى أ: «ينفطر قدماه».
(١١) المسند (٦/ ١١٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠).
(١٢) فى أ: «بشير».
(١٣) ورواه أبو يعلى فى المسند (٥/ ٢٨٠) من طريق عبد الله بن عون الخراز به، ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٨٠) «كشف الأستار» من طريق الحسين بن الأسود عن محمد بن بشر به، وقال البزار: «لا نعلم أحدا حدث بهذا الحديث بهذا الإسناد إلا الحسين بن بشر وعبد الله بن عون الخراز، وقد رواه غيرهما عن محمد بن بشر عن مسعر، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، وهو الصواب» ،فكلام الإمام البزار هنا موضح لقول الحافظ ابن كثير: «غريب من هذا الوجه».

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أى: بينا ظاهرا، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض[1]، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ : هذا من خصائصه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ التى لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم[2] تعظيما لأوامره[3] ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»[4]. فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[5]. وعن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][6] أنه قال: ما عاقبت ـ أى فى الدنيا والآخرة ـ أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار فى قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

---

(١) فى م: «بعضا». (٢) فى ت، أ: «وأشدهم». (٣) فى ت: «لأوامر الله».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٦) زيادة من ت.

وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء ـ أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ـ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه[1] ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أى: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أى: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أى: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب»[2] ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَيُوَقِّرُوهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَيُسَبِّحُوهُ﴾ أى: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أى: أول النهار وآخره.

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله

---

(١) فى ت،م: «صلى الله عليه وسلم».
(٢) عند الآية الخامسة والأربعين.

ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال[١] ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنبارى، حدثنا على بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه فى سبيل الله، فقد بايع الله»[٢].

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ فى الحجر: «والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٣].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غنى عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلاً. وهذه البيعة هى بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط[٤] أصح.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك:

قال البخارى: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة.

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به[٥]. وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبى الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده فى ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم[٦].

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعوه فى بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا[٧]. وفى رواية [فى][٨] الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة[٩].

(١) فى ت: «وروى».
(٢) ورواه ابن مردويه كما فى الجامع الصغير، ورمز له السيوطى بالضعف.
(٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٩٦١) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله: «يشهد على من استلمه بالحق» ولم يذكر الآية، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».
(٤) فى ت: «والأول».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٦٣٩).
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة.

قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة(١).

قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة(٢).

وروى العوفى عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين. والمشهور الذى رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذى رواه البيهقى، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدورى، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة(٣). وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين(٤).

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغنى عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة(٥).

كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ فى الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظى(٦) عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته.

(١) صحيح البخارى برقم (٤١٥٣).
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٧).
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٨).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٥٥)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٨).
(٦) فى ت،م: «غلظتى».

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله [ﷺ](١) ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألاَّ نفر.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل.(٢)

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود(٣)، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق، وزاد فى سياقه: أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان [بن عفان](٤) سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين(٥) بعض المسلمين وبعض المشركين، وترامو بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادى رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا، فأرعب ذلك المشركين(٦)، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمتام(٧)، حدثنا الحسن بن بشر(٨)، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس(٩) بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان [رضى الله عنه](١٠) رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم(١١).

---

(١) زيادة من ت،م.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٥).
(٣) فى ت: «أبى الأسود».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى م «من».
(٦) فى ت: «المشركون» وهو خطأ.
(٧) فى أ،م: «هشام».
(٨) فى أ: «بشير».
(٩) فى ت: «وروى البيهقى بسنده».
(١٠) زيادة من ت.
(١١) لم أجده فى دلائل النبوة، ولعله فى غيره.

قال ابن هشام[١]: وحدثنى من أثق به عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبى مليكة[٢]، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وقال عبد الملك بن هشام النحوى: فذكر وكيع، عن إسماعل بن أبى خالد، عن الشعبى: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدى[٣].

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبى خالد، عن الشعبى، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان [الأسدى رضى الله عنه][٤]، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبى ﷺ: «علام تبايعنى؟». فقال أبو سنان: على ما فى نفسك. هذا أبو سنان [بن][٥] وهب الأسدى [رضى الله عنه][٦] [٧].

وقال البخارى: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر [بن الربيع][٨]، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر[٩] أسلم قبل عمر.

ثم قال البخارى: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمرى، أخبرنى نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبى ﷺ فقال ـ يعنى عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع.

وقد أسنده البيهقى عن أبى[١٠] عمرو الأديب، عن أبى بكر الإسماعيلى، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثنى الوليد بن مسلم فذكره[١١].

وقال الليث، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه[١٢].

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس[١٣]، وأنا رافع

(١) فى أ: «شهاب». (٢) فى أ: « عن أبى بكر بن أبى مليكة».
(٣) السيرة النبوية (٢/٣١٦).
(٤) زيادة من أ . (٥، ٦) زيادة من م، أ.
(٧) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٣٧) من طريق الحميدى به.
(٨) زيادة من ت، أ. (٩) فى أ: «عبد الله بن عمر». (١٠) فى أ: «ابن».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤١٨٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٣) فى م: «والناس يبايعون النبى».

غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر[١].

وقال البخارى: حدثنا المكى بن إبراهيم، عن زيد بن أبى عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم[٢]، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[٣].

وقال البخارى أيضا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبى عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «ياسلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته ياسلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبى عبيد[٤]. وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت[٥].

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهم، حدثنا أبو عامر العقدى عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامى، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة[٦] بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ـ يعنى الركى ـ فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأيضا». قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك[٧] فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه[٨] وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت[٩] فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٥٨).
(٢) فى م: «سلمة».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٦٠).
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٦٠).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٥٩).
(٦) فى ت: «وقال البيهقى بسنده عن سلمة».
(٧) فى ت: «بايعت».
(٨) فى ت، م: «وأجنبه».
(٩) فى ت،م،أ: «واضطجعت»

رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا في يدى، ثم قلت[١]: والذى كرم وجه محمد ﷺ، لايرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله [عز وجل][٢]: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤].

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريبا منه[٣].

وثبت فى الصحيحين من حديث أبى عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم[٤].

وقال أبو بكر الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا[٥] جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره».

رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به[٦].

وقال الحميدى أيضا: حدثنا سفيان[٧]، عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر[٨] لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه من حديث سفيان[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث. عن أبى الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»[١٠].

وقال[١١] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمى، حدثنا سعد بن عمرو الأشعثى، حدثنا محمد بن ثابت العبدى، عن خداش بن عياش، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيرى أحب إلى من أن أبايع[١٢].

---

(١) فى ت،م: «وقلت». (٢) زيادة من ت،م.
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/ ١٣٨)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠٧).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٦٤) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٩). واللفظ لمسلم.
(٥) فى م: «عن».
(٦) مسند الحميدى (٢/ ٥٣٧) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) فى ت: «وفى الصحيحين من حديث سفيان». (٨) فى ت،م: «أنظر».
(٩) مسند الحميدى (٢/ ٥١٤) ،وصحيح البخارى برقم (٤١٥٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٠) المسند (٣/ ٣٥٠).
(١١) فى ت: «وروى».
(١٢) وفى إسناده محمد بن ثابت العبدى، ضعفه ابن معين، وشيخه خداش بن عياش وثقه ابن حبان، وقال الترمذى: «لا نعرف خداشًا هذا من هو».

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا قرة، عن أبى الزبير(١)، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بنى(٢) الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله [ﷺ](٣). فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة(٤). رواه مسلم عن عبيد الله، به(٥).

وقال ابن جريج: أخبرنى أبو الزبير، أنه سمع جابرا يقول: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبى ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢]، رواه مسلم(٦).

وفيه أيضا عن قتيبة، عن الليث، عن أبى الزبير، عن جابر؛ أن عبدًا لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية»(٧).

ولهذا قال تعالى فى الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾.

---

(١) فى ت: «وقال عبد الله بن أحمد بسنده».
(٢) فى أ: «من».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ضالته».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٠).
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

يقول تعالى مخبرا رسوله[١] ـ صلوات الله وسلامه عليه[٢] ـ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم[٣]، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول[٤] ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا**﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا[٥]؛ ولهذا قال: ﴿**بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾.

ثم قال: ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا**﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا**﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿**وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا**﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هى بلغة عمان.

ثم قال: ﴿**وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿ **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة[٦] الحديبية، إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم فى ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا[٧] يقع غير ذلك شرعا وقدرا؛ ولهذا قال: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ**﴾. قال مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير[٨].

---

(١) فى ت،م: «لرسوله».
(٢) فى ت: «ﷺ».
(٣) فى ت،أ: «والشغل بهم».
(٤) فى م: «رسول الله».
(٥) فى ت: «أو نافقتمونا».
(٦) فى ت،م،أ: «عمرة».
(٧) فى ت: «ولا».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٥٠).

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التى فى «براءة» نزلت فى غزوة تبوك، وهى متأخرة عن غزوة[(١)] الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعنى: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم[(٢)] الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى: أن نشرككم فى المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم[(٣)].

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾ .

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال:

أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة[(٤)]، أو جميعا ـ ورواه هُشيم عن أبى بشر، عنهما. وبه يقول قتادة فى رواية عنه.

الثانى: ثقف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهرى. وروى مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة ـ فى إحدى الروايات عنه.

وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريرى، عن مَعْمَر[(٥)]، عن

---

(١) فى ت،م،أ: «عمرة». (٢) فى ت،م: «قبل أن يسالوكم». (٣) فى ت،أ: «لأنهم عدو لهم».
(٤) فى ت: «هوازن قاله عكرمة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

الزهري، فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد.

وحدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبى خالد، عن أبيه، عن أبى هريرة فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

قال: وحدثنا سفيان، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الآنف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة». قال سفيان: هم الترك[1].

قال ابن أبى عمر: وجدت فى مكان[2] آخر: ابن أبى خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قومًا نعالهم الشَّعْر»، قال: هم البارزون، يعنى الأكراد[3].

وقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعنى: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم[4] فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر الأعذار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

---

(١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف برقم (١٩١٩٩) والبخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٩) من طريق سفيان عن الزهرى بإسناده: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كأن وجوههم المجان المطرقة» ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٨) من طريق صالح، عن الأعرج عن أبى هريرة بنحوه.

(٢) فى ت: «وقال ابن أبى عمرو وحديث فى موضع».

(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب بابك المخرمى كانوا ينتعلون الشعر، فهم المقصودون بهذا الحديث.

(٤) فى ت: «ذهبتم».

قال البخارى: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، فقلت[١]: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم[٢].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهى الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا[٣] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قال[٤] ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى ـ يعنى ابن عبيدة ـ حدثنى إياس[٥] بن سلمة، عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذا نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى[٦]: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[قال][٧]: فبايع لعثمان بإحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئًا لابن عفان، طوف بالبيت ونحن[٨] هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا سنة ما طاف حتى أطوف»[٩].

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)﴾.

---

(١) فى م: «وقلت».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٦٣).
(٣) فى ت: «تأخذونها».
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «عن أبان».
(٦) فى ت، م: «فذلك قوله تعالى».
(٧) زيادة من ت، م.
(٨) فى ت، م: «وذكر».
(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٩٠) من طريق عبيد الله بن موسى به، قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٨٤): «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ : هى جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: فتح خيبر.

وروى العوفى عن ابن عباس: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: صلح الحديبية.

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أى: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدى الناس [عنكم](١) الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾أى: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر، كما قال: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله(٢).

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أى: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العَوْفى عن ابن عباس: هى خيبر. وهذا على قوله فى قوله تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ :إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هى مكة. واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبى ليلى، والحسن البصرى: هى فارس والروم.

وقال مجاهد: هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحَنَفى، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال: هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم(٣).

وقوله: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار(٤) فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه(٥) المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى: هذه سنة الله وعادته فى خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم(٦).

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت، م: «لرسوله».
(٣) فى ت: « إلى يوم القيامة».
(٤) فى م: «الكفر».
(٥) فى ت، أ: « ولعباده».
(٦) فى ت، م: «ومددهم».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم، فلم يصل[١] إليهم منهم سوء، وكفّ أيدى المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاًّ من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة. وقد تقدم فى حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدى رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه». قال: وفى ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدن غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونزلت هذه الآية: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ورواه مسلم وأبو داود فى سننه، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به[٢].

وقال أحمد ـ أيضا ـ: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَانى، عن[٣] عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بن أبى طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب فى قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب فى قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا فى[٤] وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم فى عهد أحد؟ أو: هل[٥] جعل لكم أحد أمانا؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. رواه النسائى من حديث حسين بن واقد، به[٦].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب القُمّى، حدثنا جعفر، عن ابن أبْزَى قال: لما

---

(١) فى ت: «تصل».

(٢) المسند (٣/١٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (٢٦٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١٠).

(٣) فى ت: «بن». (٤) فى ت، م: «إلى». (٥) فى ت: «وهل».

(٦) المسند (٤/٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١١).

خرج النبى ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة، قال له عمر: يا نبى الله، تدخل على قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعا ولا سلاحا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبى جهل قد خرج عليك فى خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك فى الخيل[١]»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله ـ فيومئذ سمى سيف الله ـ يا رسول الله، ارم بى أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة فى الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ [مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ][٢] ﴾ إلى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فكف الله النبى عنهم من بعد أن أظفره[٣] عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل[٤].

ورواه ابن أبى حاتم عن ابن أبزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين[٥] يومئذ، كما ثبت فى الصحيح. ولا يجوز أن يكون فى عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتى من العام المقبل[٦] فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَدياً، وإنما جاء محاربا مقاتلا فى جيش عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شىء فليتأمل، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثنى من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفُوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأُخذُوا أخذاً، فأُتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى[٧] عسكر رسول الله ﷺ[٨] بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفى ذلك أنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية[٩].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُنَيم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلا، فأتوه باثنى عشر فارسًا من الكفار، فقال لهم: «هل لكم على عهد؟ هل لكم على ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله فى ذلك: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية.

---

(١) فى أ: «الجبل». (٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أظفركم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/ ٥٩).
(٥) فى أ: «للمشركين».
(٦) فى ت: «قابل». (٧) فى أ: «فى».
(٨) فى ت، م: «عسكر المسلمين».
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ٥٩).

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالأهم[١] على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: وأنتم أحق به، وأنتم أهله فى نفس الأمر، ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أى: وصدوا الهدى أن يصل[٢] إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدىُ سبعين بدنة، كما سيأتى بيانه.

وقوله:﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أى: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة[٣] القتل؛ ولهذا قل: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أى: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا.

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو الزِّنْباع ـ روح بن الفرج ـ حدثنا عبد الرحمن بن أبى عباد المكى، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله[٤] أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف[٥] يقول[٦]: سمعت[٧] جنيد بن سبع يقول[٨]: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفينا نزلت:﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين[٩].

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكى به، وقال فيه: عن أبى جمعة جنيد بن سبع، فذكره[١٠] والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبى حاتم من حديث حجر بن خلف[١١]،

(١) فى ت، أ: «ولا هم». (٢) فى ت: «يبلغ». (٣) فى أ: «حال».
(٤) فى م، أ: « عبيد الله». (٥) فى أ: «عمرو». (٦) فى ت: «روى الحافظ الطبرانى بسنده».
(٧) فى ت: «عن». (٨) فى ت: «قال».
(٩) المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠).
(١٠) المعجم الكبير (٤/ ٢٤).
(١١) فى أ: «حنيف».

به. وقال: كنا ثلاثة[١] رجال وتسع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن جبلة، عن أبى حمزة[٢]، عن عطاء، عن سعيد بن جبير[٣]، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، وهى قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو على البصرى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير[٤]، عن أبيه، عن الطفيل ـ يعنى: ابن أبى بن كعب [٥] [رضى الله عنه] [٦]ـ عن أبيه، [أنه][٧] سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: «لا إله إلا الله».

وكذا رواه الترمذى عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرْعَة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب[٩]، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله فى كتابه، وذكر قوما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون[١٠] يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة.

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهرى[١١]، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبى رباح: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

---

(١) فى م: «ثلاث». (٢) فى أ: «عن أبى هريرة». (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده».
(٤) فى أ: «ثور». (٥) فى ت: «كما روى ابن جرير بسنده عن أبى بن كعب».
(٦) زيادة من ت. (٧) زيادة من ت، م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦) وزوائد عبد الله على المسند (٥/١٣٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٥).
(٩) فى ت: «وروى بن أبى حاتم بسنده». (١٠) فى أ: «قريش».
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦).

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن عروة، عن المسور: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن عَبَاية بن رِبْعِى، عن على: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضى الله عنهما.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهى رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد فى سبيله.

وقال عطاء الخراسانى: هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن الزهرى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال قتادة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر.

وقد قال النسائى: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبى رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبى إدريس، عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله[(١)].

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى[(٢)]، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر

---

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٥).

(٢) فى ت: «بشر بن كعب الكلبى».

الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله [عليهم][١] دخلوا فى الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض على طريق تخرجه[٢] على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، و ما ذلك[٣] لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». [ثم][٤] قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادى من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهرى: [و][٥] كانت خزاعة فى عَيْبَة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنْوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كَلَّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله [ﷺ][٦]؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْى» فى وجهه، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى[٧]، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صَدّه، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد، وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج[٨] حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «يحرصه».
(٣) فى ت: «وما ذاك».
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) زيادة من ت، م.
(٦) زيادة من ت، م.
(٧) فى ت: «فلما رجع إلى أصحابه».
(٨) فى أ: «ثم خرج».

ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد[١]، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ـ والله ـ لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. قال: فقام من عند رسول الله [ﷺ][٢] وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت مَلكا قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت[٣] به قرش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قرش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائرا لهذا البيت، معظما لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله [ﷺ][٤] قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأت أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر،

---

(١) فى ت: «بالحدد».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «عثرت».
(٤) زيادة من ت، أ.

الزم غرزه حيث كان، فإنى أشهد أنه رسول الله. [ثم][١] قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من[٢] الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب [رضى الله عنه][٣] فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح[٤] عليه محمد رسول الله، سهل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل ابن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله[٥] من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ[٦] لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان فى شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف فى القرب، فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ[٧] قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله [ﷺ][٨] على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجت[٩] القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردوننى إلى أهل الشرك فيفتنونى فى دينى؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا[١٠]، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع [أبى][١١] جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب،

---

(١) زيادة من م،أ.
(٢) فى ت: «عن».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ما صالح».
(٥) فى أ: «محمداً».
(٦) زيادة من ت.
(٧) زيادة من ت.
(٨) زيادة من ت،أ.
(٩) فى ت، أ: «تمت».
(١٠) فى ت،م،أ: «عهدنا».
(١١) زيارة من ت،م، أ.

وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا[١] واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل.

فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكَلِّمهن[٢] منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بُكَيْر وزياد البكائى، عن ابن إسحاق، بنحوه[٣]، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، به نحوه[٤] وخالفه فى أشياء وقد رواه البخارى، رحمه الله، فى صحيحه، فساقه سياقة[٥] حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال فى كتاب الشروط[٦] من صحيحه:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر: أخبرنى الزهرى: أخبرنى عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال: « أشيروا أيها الناس علىّ، أترون أن نميل عل عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفى لفظ: «أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقًا من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفى لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر [رضى الله عنه][٧]: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفى لفظ: فقال أبو بكر، رضى الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذن»، وفى لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة،

---

(١) فى ت، أ: «انحروا فى الحرم». (٢) فى ت، أ: «فلا تكلمن».
(٣) المسند (٤/ ٣٢٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٦).
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٢٨) من طريق عبد الرزاق به.
(٥) فى م: «بسياقات». (٦) فى ت، م: «الشرط». (٧) زيادة من أ.

فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: « والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث[1] الناس حتى نزحوه، وشكى[2] إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله [ﷺ][3] من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبى ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددنهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذن[4] الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال: ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا[5] من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: امصص بَظْر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لو لا يد كانت لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضى الله عنه قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك من لحية النبى ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شىء».

---

(١) فى ت، م: «يلبثه». (٢) فى أ: «شكوا». (٣) زيادة من م.
(٤) فى ت، م: « أو لينفذن». (٥) فى أ: « أوباشاً».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه[١]، قال: فوالله ما تنخم رسول الله [ﷺ][٢] نخامة إلاوقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيما له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشْد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال النبى ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْن، فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال[٣] رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعونى آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ: «هذا مكرز [بن حفص][٤] وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرنى أيوب، عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ: « قد سَهُل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك[٥] كتابا فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ: «[اكتب][٦]: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل [بن عمرو][٧]: أما «الرحمن» فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهرى: وذلك لقوله: «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل

(١) فى ت: «بعينه». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «فقام».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «بينكم».
(٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، م.

ابن عمرو يرسُفُ فى قيوده، قد[١] خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إلى، فقال النبى ﷺ: « إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أصالحك على شىء أبدا. فقال النبى ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذابا شديدا فى الله عز وجل. قال عمر [بن الخطاب][٢] رضى الله عنه: فأتيت نبى الله ﷺ، فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه[٣] العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطوَّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول[٤] الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز جل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفَرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله[٥] ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال:

---

(١) فى ت: «حتى».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى ت: «أنك تأتيه».
(٤) فى ت: «النبى».
(٥) فى م: «النبى».

قتل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ثم نجانى الله منهم، فقال النبى ﷺ: «ويل أمّه مِسْعَرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبى ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخارى هاهنا(١)، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عمرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرى، به(٢) ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن [مَخْرَمة](٣)، عن رجال من أصحاب النبى ﷺ بذلك(٤). وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخارى فى التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِى، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْف: اتهمُوا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعنى: الصلح الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح(٥).

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع أخر ومسلم والنسائى من طرق أخر عن أبى وائل سفيان(٦)

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٨٠).

(٣) زيادة من م.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى أول الشروط برقم (٢٧١١).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٤) .

(٦) فى هـ: «شقيق».

ابن سلمة، عن سهيل[(١)] بن حنيف به[(٢)]، وفى بعض ألفاظه: «يأيها الناس، اتهموا الرأى، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفى رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشا صالحوا النبى ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبى ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: «اكتب من محمد رسول الله». قال: لو نعلم[(٣)] أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبى ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبى ﷺ أن[(٤)] من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به[(٥)].

وقال أحمد أيضا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثنى سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامى، بنحوه[(٦)].

وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس،رضى الله عنهما، قال:نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحِنُّ إلى أولادها[(٧)].

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ .

---

(١) فى م: «سهل».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨١، ٧٣٠٨، ٤١٨٩، ٣١٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٤).

(٣) فى م: «علمنا». (٤) فى م: «أنه».

(٥) المسند (٣/ ٢٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٤).

(٦) المسند (١/ ٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣٧).

(٧) المسند (١/ ٣١٤).

كان رسول الله ﷺ قد أُرِىَ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر[١] هذا العام، فلما قع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شىء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه[٢] عامك هذا» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضى الله عنه، أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾: [و][٣]هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شىء، [وقوله][٤]: ﴿آمِنِينَ﴾ أى: فى حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم فى حال حرمهم[٥] لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فى الثالثة أو الرابعة[٦].

وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل[٧] والزروع، فاستخدم[٨] من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، كما هو مقرر فى موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة [فى][٩] سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز

(١) فى أ: «تتعين». (٢) فى ت، م: «آتيه». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، م. (٥) فى م، أ: «دخولهم».
(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٢٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٧) فى أ: «النخيل». (٨) فى ت: «واستخدم». (٩) زيادة من ت.

ابن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال[١]: دخلت: علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و[لا][٢] إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينُه ... باسم الذى محمدٌ رسوله
خَلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيله ... اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضرباً يزيلُ الهام عَن مَقِيله
ويُذْهِل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحف تتلى على رسُوله ... بأن خير القَتْل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر[٣] بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ﷺ[٤]، وهو يقول:

خلّوا بنى الكفار عن سبيله ... إنى شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ
خلوا فكل[٥] الخير فى رسوله ... يا رب إنى مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٦]

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفى رواية وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

---

(١) فى ت،م: «فقال». (٢) زيادة من ت،م،أ. (٣) فى ت: «محمد».
(٤) فى ت: «مشى عبد الله بن رواحة بين يديه». (٥) فى ت: «وكل».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٧١).

خلوا بنـى الكفـار عن سبيله قـد نـزل الرحـمن فى تنزيله
بأن خير القتـل فـى سبيله يا رب إنـى مؤمـن بقيـله
نحـن قتلناكـم على تأويله كمـا قتلناكـم عـلى تنزيله
ضرباً يزيل الهـام عـن مقيله ويذهـل الخليل عـن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعنى: ابن زكريا ـ عن عبد الله ـ يعنى: ابن عثمان ـ عن أبى الطُّفَيْل(١)، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرَّ الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا [تقول](٢): ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَونا من مَرَقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى(٣) من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يرى(٤) القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَل، حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتنقُزُون نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع(٥).

وقال(٦) أحمد أيضا: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمَّى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ [أصحابه](٧) أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به(٨) وفى لفظ: قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

---

(١) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «إلىّ». (٤) فى ت: «ألا ترى».
(٥) المسند (١/ ٣٠٥).
(٦) فى ت: «وروى». (٧) زيادة من ت.
(٨) المسند (١/ ٢٩٥) وصحيح البخارى برقم (٤٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦٦).

قال البخارى: وزاد ابن سلمة ـ يعنى: حماد بن سلمة ـ عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبى ﷺ لعامه الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان.

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبى ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته[١].

ورواه فى مواضع أخر، ومسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به[٢].

وقال أيضا: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، سمع ابن أبى أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم[٣].

وقال[٤] البخارى أيضا: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثنى محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا ، أمروه أن يخرج فخرج.

وهو فى صحيح مسلم أيضا[٥]:

وقال البخارى أيضا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٧).
(٢) صحيح البخارى برقم(١٦٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٦٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٩٧٣).
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٥).
(٤) فى ت: «روى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٢).

وجعفر، فقال عليّ: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه[١].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أى: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أى: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه][٢] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعى صحيح، والعمل الشرعى مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين[٣] ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه[٤]، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفاً على الكفار، رحيما براً بالأخيار، غضوباً عبوساً فى وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥١).
(٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «مسلمين».
(٤) فى ت: «ﷺ»، وفى م: «صلوات الله وسلامه عليه».

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر»[(١)]، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[(٢)] كلا الحديثين فى الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة[(٣)] الصلاة، وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز جل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة[(٤)] المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعنى: السمت الحسن.

وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطُّنَافسى، حدثنا حسين الجَعْفى، عن زائدة[(٥)]، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه، فقال: ربما كان بين عينى من هو أقسى قلبا من فرعون.

وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم.

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجه فى سننه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحى، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله[(٦)] ﷺ: «من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف[(٧)].

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه.

والغرض أن الشىء الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمود بن محمد المروزى، حدثنا حامد بن آدم المروزى،

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠١١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(٣) فى ت، م: «وذكر». (٤) فى م: «المحبة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٦) فى ت: «عن النبى».
(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٣).

حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمى، عن سلمة بن كُهَيْل[(١)]، عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلى قال: قال النبى ﷺ:«ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»، العرزمى متروك[(٢)].

وقال[(٣)] الإمام أحمد: حدثنا حسن بن[(٤)] موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال:«لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما[(٥)] كان»[(٦)].

وقال[(٧)] الإمام أحمد [أيضا][(٨)]: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا قابوس بن أبى ظَبْيَان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال:«إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلى، عن زهير، به[(٩)].

فالصحابة [رضى الله عنهم][(١٠)] خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه فى سمتهم وهديهم.

وقال مالك، رحمه الله: بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا فى ذلك، فإن هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[(١١)]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ **ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ** ﴾، ثم قال: ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ** [**فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ** ﴾: ﴿ **أَخْرَجَ شَطْأَهُ**][(١٢)]﴾ أى: فراخه، ﴿ **فَآزَرَهُ** ﴾ أى: شده ﴿ **فَاسْتَغْلَظَ** ﴾ أى: شب وطال، ﴿ **فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿ **لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمه الله، فى رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة[(١٣)]، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

---

(١) فى ت:«وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده».
(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٧١) وحامد بن آدم كذاب.
(٣) فى ت:«وروى». (٤) فى أ:«عن». (٥) فى ت:«من».
(٦) المسند (٣/ ٢٨).
(٧) فى ت:«وروى». (٨) زيادة من ت.
(٩) المسند (١/ ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٧٦).
(١٠) زيادة من ت، م، أ.
(١١) فى م:«المقدسة». (١٢) زيدة من م. (١٣) فى م:«كبيرة».

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ «من» هذه لبيان الجنس، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم(١)، وقد فعل.

قال مسلم فى صحيحة: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (٢).

آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة

(١) فى ت، م، أ: «مثواهم».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

قال الإمام أحمد(١) : حدثنا وكيع ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرة ؛ قال[١] : سمعت عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عام الفتح [في مسيره][٢] سورة الفتح علىٰ راحلته فرجّع فيها . قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم[٣] قراءته . أخرجاه من حديث شعبة به .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلىٰ المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلىٰ المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلىٰ ذلك علىٰ تكرّه من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله . فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع ، أنزل الله - عز وجل - هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره[٤] أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتحَ مكة ، ونحن نعد الفتحَ صلحَ الحديبية .

وقال الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ؛ قال : ما كنّا نعدّ الفتح إلا يوم الحديبية .

وقال البخاري(٢) : حدثنا عبيد الله بن موسىٰ ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن

(١) - المسند (٥/٥٤) ، وأخرجه أحمد أيضًا في (٤/٨٥،٥٥،٥٦) ، والبخاري في المغازي ، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ؟ حديث (٤٢٨١) ، وأطرافه في (٤٨٣٥،٥٠٣٤،٥٠٤٧، ٧٥٤٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ، حديث (٧٩٤) من طريق شعبة به .

(٢) - صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب : غزوة الحديبية ، حديث (٤١٥٠) ، والحديث في المسند أيضًا (٤/٢٩٠،٣٠١) من طريق إسرائيل به .

[١] - سقط من ز .

[٢] - في ز ، خ: أي .

[٣] - سقط من ز ، خ .

[٤] - في ز ، خ : أو غيره .

البراء؛ قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعدُّ الفتح بيعةَ الرضوان يوم الحديبية ، كنا معَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أربع عَشرةَ مائة ، والحديبيةُ [بئر ، فنزحناها فلم نَتْرُكْ[١]][٢] فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فأتاها فجلس علىٰ شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ، ثم صَبَّه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدَرَتْنا ما شئنا نحن وركائبنا .

وقال الإمام أحمد(٣) : حدثنا أبو[٣] نوح ، حدثنا مالك بن أنس ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب؛ قال : كنا مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في سفر ، قال[٤] : فسألته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد عليّ ، قال : فقلت لنفسي : ثَكلتك أمك يا بن الخطاب نَزَرْتَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يرد عليك[٥] ؟ قال : فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل[٦] فيَّ شيء ، قال : فإذا أنا بمناد ينادي[٧] : يا عمر ،[أين عمر][٨] ؟ . قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء ، قال : فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **نزلت عليّ الليلة[٩] سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها : ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾** » .

ورواه البخاري ، والترمذي ، والنسائي ، من طرق عن مالك رحمه الله .

وقال عليّ بن المديني : هذا إسناد مديني لم نجده إلا عندهم .

وقال الإمام أحمد(٤) : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : نزلت علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ مَرْجِعَه من الحديبية . قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **لقد أنزلت**

---

(٣) - المسند (٣١/١) (٢٠٩) ، وأخرجه البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية حديث (٤١٧٧) ، وأطرافه في (٥٠١٢،٤٨٣٣) ، والترمذي في تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الفتح ، حديث (٣٢٦٤) ، والنسائي في التفسير (٥١٩) من طريق مالك به .

(٤) - المسند (١٩٧/٣) ، وأخرجه الترمذي في تفسير القرآن ، باب : « ومن سورة الفتح » ، =

---

[١] - في ز : نقول .

[٢] - ما بين المعكوفين في خ : « هي قبر حساها فلم تقول » .

[٣] - سقط من ز ، خ .

[٤] - في ز : ما . وسقط من خ .

[٥] - في خ : على .

[٦] - سقط من ز ، خ .

[٧] - سقط من ز ، خ .

[٨] - سقط من ز ، خ .

[٩] - في حاشية ز : البارحة . وعليها علامة « خـ » وتعني : نسخة .

عليّ آية أحب إليّ مما على الأرض » ، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : هنيئًا[١] مريئًا يا نبي الله ؛ لقد[٢] بين الله - عز وجل - ما ذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت[٣] عليه : ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات﴾ حتى بلغ ﴿فوزًا عظيمًا﴾ . أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به .

وقال الإمام أحمد (٥) : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا مجمع بن يعقوب ؛ قال[٤] : سمعت أبي يحدث ، عن عمه عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري ، عن عمه مجمع بن جارية[٥] الأنصاري - وكان أحد القراء الذين قرءوا القرآن - قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس يُنْفِرُونَ[٦] الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نوجفُ[٧] ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند[٨] كراع الغَميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾ قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيْ رسولَ الله ؛ وَفَتْحٌ هو ؟ قال : « إي والذي نفس محمد بيده ، إنه لفتح » . فقسمت[٩] خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على[١٠] ثمانية عشر سهمًا ، [وكان الجيش][١١] ألفًا وخمسمائة [منهم ثلاثمائة][١٢] فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهمًا . ورواه أبو داود [في الجهاد][١٣] عن محمد بن [عيسى عن مُجَمِّع][١٤] بن يعقوب به[١٥] .

= حديث (٣٢٦٣) عن عبد بن حميد ، عن عبد الرزاق به . وأخرجه البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية ، حديث (٤١٧٢) ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، حديث (١٧٨٦) من طريق قتادة عن أنس به نحوه .

(٥) - المسند (٣/٤٢٠) ، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب : فيمن أسهم له سهمًا ، حديث (٢٧٣٦) ، وفي كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب : ما جاء في حكم أرض خيبر ، حديث (٣٠١٥) من حديث مجمع بن يعقوب به .

---

[١] - سقط من ز ، خ .
[٢] - سقط من ز ، خ .
[٣] - في ز : فأنزلت .وسقط من خ .
[٤] - سقط من ز ، خ .
[٥] - في ز : حارثة .
[٦] - في ز ، خ : يتفرقون .
[٧] - في ز : فوجف .
[٨] - سقط من خ .
[٩] - في ز ، خ : فسمت .
[١٠] - سقط من ز ، خ .
[١١] - في ز ، خ : « وجاءوا بجيش » .
[١٢] - سقط من ت .
[١٣] - بياض في ز .
[١٤] - في ز ، خ : عبد الله عن محمد .
[١٥] - سقط من ز ، خ .

وقال ابن جرير(٦) : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا أبو بحر[١] ، حدثنا شعبة[٢] ، حدثنا جامع بن شداد ، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة ؛ قال : سمعت عبد الله ابن مسعود ؛ يقول : لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا ، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم نائم .

قال : فقلنا : « امضوا » . فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « افعلوا كما[٣] كنتم تفعلون ، [وكذلك][٤] من نام أو نسي » . قال : وفقدنا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامُها بشجرة ، فأتيته بها فركبها ، فبينا نحن[٥] نسير إذ أتاه الوحي ، قال : وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فلما سُري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ﴾ .

وقد رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي من غير وجه عن جامع بن شداد به .

وقال الإمام أحمد (٧) : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن زياد بن علاقة ؛ قال : سمعتُ المغيرةَ بن شعبة ؛ يقول : كان النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يصلي[٦] حتىٰ تَرِم[٧] قدماه ، فقيل له : أليس قد غَفَر الله لك ما تقدم من ذنبِك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ » .

أخرجاه ، وبقية الجماعة إلا أبا داود ، من حديث زياد به .

وقال الإمام أحمد(٨) : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ،

(٦) - تفسير الطبري (٦٩/٢٦)

(٧) - المسند (٢٥٥/٤) ، وأخرجه في (٢٥١/٤، ٢٥٥) ، والبخاري في التهجد ، باب : قيام النبي ﷺ ، حديث (١١٣٠) ، وطرفاه في (٤٨٣٦، ٦٤٧١) ، ومسلم في صفات المنافقين ، حديث (٢٨١٩) ، والترمذي في الصلاة ، باب : ما جاء في الاجتهاد في الصلاة ، حديث (٤١٢) ، والنسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب : الاختلاف على عائشة في إحياء الليل (٢١٩/٣) ، وفي الكبرى (١٣٢٥، ١١٥٠١) ، وابن ماجة حديث في إقامة الصلاة ، باب : ما جاء في طول القيام في الصلوات حديث (١٤١٩) وابن خزيمة (١١٨٢ ، ١١٨٣) من طرق عن زياد بن علاقة به .

(٨) - المسند (١١٥/٦) ، وأخرجه مسلم في صفات المنافقين حديث (٢٨٢٠) عن هارون =

[١] - بياض في ز ، خ .

[٢] - بياض في ز ، خ .

[٣] - في خ : ما .

[٤] - في ز : « فكذلك يفعل » . وفي خ : « فكذلك يفعل » .

[٥] - سقط من ز ، خ .

[٦] - سقط من ز .

[٧] - في ز ، خ : تورم .

عن ابن قسيط ، عن عروة [بن][١] الزبير ، عن عائشة ؛ قالت : كان رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم إذا صلىٰ قام حتىٰ تَتَفطر رجلاه ، فقالت له عائشة : يا رسول اللّٰه ، أتصنع[٢] هذا وقد غفر لك اللّٰه ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « **يا عائشة ؛ أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟** » .

أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد اللّٰه بن وهب به .

وقال ابن أبي حاتم(٩) : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد اللّٰه بن عون الخراز - وكان ثقة بمكة - حدثنا محمد[٣] بن بشر ، حدثنا مسعر ، [عن قتادة][٤] ، عن أنس ، قال : قام رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم حتىٰ تورمت قدماه - أو قال : ساقاه - فقيل له : أليس قد غفر اللّٰه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « **أفلا أكون عبدًا شكورًا** » . غريب من هذا الوجه .

فقوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا** ﴾ أي : بيّنًا ظاهرًا ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض[٥] ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإِيمان .

وقوله : ﴿ **ليغفر لك اللّٰه ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ : هذا من خصائصه - صلوات اللّٰه وسلامه عليه - التي لا يشاركه فيها[٦] غيره . وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غَفَر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وهو - صلوات اللّٰه وسلامه عليه - في جميع أموره علىٰ الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بَشَرٌ سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو أكمل البشر علىٰ الإِطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة .

=ابن معروف ، وهارون بن سعيد الأيلي ، عن ابن وهب به .

وأخرجه البخاري في التفسير ، باب : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ...﴾ حديث (٤٨٣٧) من طريق أبي الأسود ، عن عروة به بنحوه وفيه زيادة في آخره .

(٩) - أخرجه أبويعلى في مسنده (٢٩٠٠) والطبراني في الأوسط (٥٧٣٧) عن عبد الله بن عون الخراز به .

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٣/٢٤٥) من طريق محمد بن بشر به . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٤) : رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح) .

---

[١] - في ز : « عن ابن » . وفي خ : « عن أبي » . [٢] - في ز ، خ : أتفعل .

[٣] - سقط من ز ، خ . [٤] - سقط من خ .

[٥] - في ز : بعضًا . [٦] - سقط من ز ، خ .

ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة: « **حبسها حابس الفيل** ». ثم قال: « **والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حُرمات الله إلا أجبتهم إليها** »(١٠).

فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك** ﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿ **ويهديك صراطًا مستقيمًا** ﴾ أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿ **وينصرك الله نصرًا عزيزًا** ﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك. كما جاء في الحديث الصحيح(١١): « **وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله** ». وعن عمر بن الخطاب أنه قال: ما عاقبت - [أي: في الدنيا والآخرة][1] - أحدًا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيعَ الله فيه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ **هو الذي أنزل السكينة** ﴾ أي: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

---

(١٠) - جزء من حديث المسور بن مخرمة، ومروان في قصة الحديبية، أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، حديث (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(١١) - جزء من حديث أبي هريرة تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء وأوله: « ما نقص مال من صدقة».

---

[١] - ما بين المعكوفين سقط من ز، خ.

وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين . وهم الصحابة يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك ، واستقرت ، زادهم إيمانًا مع إيمانهم .

وقد استدل به البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب .

ثم ذكر تعالىٰ أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال : ﴿ **ولله جنود السماوات والأرض** ﴾ أي : ولو أرسل عليهم مَلَكًا واحدًا لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالىٰ شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة القاطعة ، والبراهين الدامغة ، ولهذا قال : ﴿ **وكان الله عليمًا حكيمًا** ﴾ ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ ، قد تقدم حديث أنس (١٢) : قالوا : هنيئًا لك يا رسول الله ؛ هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ أي : ماكثين فيها أبدًا ، ﴿ **ويكفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أي : خطاياهم وذنوبهم ، فلا يعاقبهم[١] عليها ، بل يعفو ويصفح ويغفر ، ويستر ويرحم ويشكر ، ﴿ **وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا** ﴾ . كقوله : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ وقوله : ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء** ﴾ أي : يتهمون الله في حكمه ، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال : ﴿ **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم** ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ، ﴿ **وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا** ﴾ .

ثم قال مؤكدًا لقدرته علىٰ الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : ﴿ **ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزًا حكيمًا** ﴾ .

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾

(١٢) - تقدم تخريجه برقم (٤) .

[١] - في ز : يقابلهم .

يقول تعالىٰ لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - : ﴿ **إنا أرسلناك شاهدًا** ﴾ أي: علىٰ الخلق ، ﴿ **ومبشرًا** ﴾ أي : للمؤمنين ، ﴿ **ونذيرًا** ﴾ أي : للكافرين . وقد تقدم تفسيرها في « **سورة الأحزاب** » .

﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه** ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه . ﴿ **وتوقروه** ﴾ ، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ **وتسبحوه** ﴾ أي : يسبحون الله ﴿ **بكرة وأصيلًا** ﴾ أي : أول النهار وآخره .

ثم قال تعالىٰ لرسوله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا : ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** ﴾ ، كقوله : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ .

﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ أي : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرىٰ مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالىٰ هو المبايع[١] بواسطة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم ، كقوله : ﴿ **إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفىٰ بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الفضل بن يحيىٰ الأنباري ، حدثنا علي بن بكار ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة؛ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **من سل سيفه في سبيل الله ، فقد بايع الله** » .

وحدثنا أبي(١٣) ، حدثنا يحيىٰ بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس؛ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في الحَجَر : « **والله ليبعثنه[٢] الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد علىٰ من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله** » ، ثم قرأ : ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم** ﴾ .

ولهذا قال هاهنا : ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث علىٰ نفسه** ﴾ أي : إنما يعود وَبَالُ ذلك

(١٣) - أخرجه الترمذي في الحج ، باب : ما جاء في الحجر الأسود ، حديث (٩٦١) من طريق جرير ، عن ابن خثيم به .

وأخرجه أحمد (٢٤٧/١،٢٦٦،٢٩١،٣٠٧،٣٧١) ، والدارمي (١٨٤٦) ، وابن ماجة (٢٩٤٤) ، وابن خزيمة (٢٧٣٥،٢٧٣٥) من طرق عن ابن خثيم به .

---

[١] - في ز ، خ : البايع . [٢] - في ت : ليبعثه .

علىٰ الناكث ، واللَّه غني عنه ، ﴿ ومن أوفىٰ بما عاهد عليهُ اللَّه فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾ أي : ثوابًا جزيلًا . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية ، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يومئذ قيل : ألف[١] وثلثمائة . وقيل : أربعمائة[٢] . وقيل : وخمسمائة . والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

قال البخاري(١٤) : حدثنا قتيبة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن جابر؛ قال : كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة . ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به . وأخرجاه(١٥) أيضًا من حديث الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر؛ قال : كنا يومئذ ألفًا وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فنبع الماء[٣] من بين أصابعه ، حتىٰ رَوَوْا كلهم .

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم أعطاهم سهمًا من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء ، حتىٰ كفتهم ، فقيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفًا وأربعمائة ، ولو كنا مائة ألف لكفانا . وفي رواية في[٤] الصحيحين(١٦) عن جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

ورویٰ البخاري(١٧) من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة .

[قلت : فإن جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنهما - قال : كانوا أربع عشرة مائة . قال رحمه اللَّه : وَهِمَ ، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة . قال البيهقي : هذه الرواية تدل علىٰ أنه كان في القديم يقول : خمس عشرة مائة ، ثم ذكر الوهم فقال : أربع عشرة مائة][٥] .

(١٤) - صحيح البخاري في التفسير ، باب : ﴿ إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ ، حديث (٤٨٤٠) ، وأخرجه مسلم فيالإمارة ، حديث (١٨٥٦) (٧١) من طرق عن سفيان به وعنده زيادة مرفوعة .

(١٥) - أخرجه البخاري في الأشربة ، باب : شرب البركة والماء المبارك حديث (٥٦٣٩) ، ومسلم في كتاب الإمارة ، حديث (١٨٥٦) (٧٤) من طريق الأعمش به .

(١٦) - صحيح البخاري في الأشربة ، باب : شرب البركة والماء المبارك ، حديث (٥٦٣٩) ومسلم في الإمارة حديث (١٨٥٦) (٧٢) من حديث عمرو بن مرة عن سالم عن جابر .

(١٧) - هذا نص رواية البيهقي في الدلائل (٩٧/٤) من طريق قرة بن خالد عن قتادة به. وأخرجه =

[١] - في ز : ألفا .
[٢] - في خ : وأربعمائة .
[٣] - سقط من ز ، خ .
[٤] - سقط من ت ، خ .
[٥] - ما بين المعكوفين سقط من ز ، خ .

وروى العوفي[١] عن ابن عباس؛ أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين. والمشهور الذي رواه غير واحد عنه أربع عشرة مائة، وهذا هو الذي رواه البيهقي(١٨)، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن يحيىٰ بن معين[٢]، عن شَبَابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه؛ قال: كنا مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تحت الشجرة ألفًا وأربعمائة. وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع(١٩)، ومعقل بن يسار(٢٠)، والبراء بن عازب(٢١). وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح(٢٢) من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة؛ قال[٣]: سمعت عبد الله بن أبي أوفىٰ؛ يقول: كان أصحاب الشجرة ألفًا وأربعمائة[٤]، وكانت أَسْلَمُ يومئذ ثُمُنَ المهاجرين.

وروىٰ محمد بن إسحاق في السيرة(٢٣)، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المشور [ابن مخرمة][٥] ومَرْوان بن الحكم أنهما حدثاه؛ قالا: خرج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر. وكان جابر بن عبد الله - فيما بلغني عنه - يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة كذا قال ابن إسحاق، وهو [معدود من أوهامه[٦]][٧]، فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

= البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٣) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به نحوه.

(١٨) - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/٩٨).

(١٩) - أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد، والسير، حديث (١٨٠٧) من حديث إياس بن مسلمة عن أبيه.

(٢٠) - أخرجه أحمد (٥/٢٥)، ومسلم في الإمارة، حديث (١٨٥٨) من حديث الحكم بن عبد الله الأعرج عن معقل بن يسار.

(٢١) - تقدم في رقم (٢).

(٢٢) - أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٥) ومسلم في الإمارة، حديث (١٨٥٧) قال البخاري: قال عبيد الله بن معاذ، وقال مسلم: حدثنا عبيد الله بن معاذ، عن أبيه، عن شعبة به.

(٢٣) - سيرة ابن هشام (٣/٢٦٥)، وأخرجه أحمد (٤/٣٢٣)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٩٠٦) من طريق ابن إسحاق به. =

---

[١] - سقط من ز، خ.

[٢] - في خ: المغيرة.

[٣] - سقط من ز، خ.

[٤] - في ز: وثلثمائة.

[٥] - سقط من ز، خ.

[٦] - في ز: رواته.

[٧] - ما بين المعكوفين في خ: « معذور ومن رواية ».

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار في السيرة(٢٤) : ثم دعا رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم عمر ابن الخطاب ليبعثه إلىٰ مكة ، ليبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول اللّٰه ؛ إني أخاف قريشًا علىٰ نفسي ، وليس بمكة من بني عَديّ بن كعب من يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغِلَظي عليها ، ولكني أدلك علىٰ رجل أعَزّ بها مني ، عثمان بن عفان ، فبعثه إلىٰ أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت ، ومعظّمًا لحرمته .

فخرج عثمان إلىٰ مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتىٰ بَلّغ رسالة رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فانطلق عثمان حتىٰ أتىٰ[١] أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول اللّٰه ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ . فقال : ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به[٢] رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسولَ اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قُتل .

قال ابن إسحاق (٢٥) : فحدثني عبد اللّٰه بن أبي بكر ؛ أن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم، قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : **« لا نبرح حتىٰ نناجز القوم »** . ودعا رسول اللّٰه - صلىٰ اللّٰه عليه وسلم - الناسَ إلىٰ البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم[٣] رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، علىٰ الموت . وكان جابر بن عبد اللّٰه؛ يقول : إن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم لم يبايعهم علىٰ الموت ، ولكن بايعنا علىٰ أن لا نفرّ .

فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجدّ بن قيس أخو بني سلمة[٤] ، فكان جابر يقول : واللّٰه لكأني[٥] أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته ، قد ضبأ إليها[٦] يستتر[٧]

= وأصل الحديث في صحيح البخاري في الحج ، باب من أشعر وقلد بذي الحليفة ثم أحرم ، حديث (١٦٩٤،١٦٩٥) وانظر أطرافه هناك .

(٢٤) - سيرة ابن هشام (٣/٢٧١) .

(٢٥) - المصدر السابق (٣/٢٧٢) .

---

[١] - في ز ، خ : بلغ .

[٢] - سقط من ز ، خ .

[٣] - في ز : بايعتم .

[٤] - في ز ، خ : مسلم .

[٥] - في ز : فكأني .

[٦] - سقط من خ .

[٧] - في ز : يستر .

بها من الناس ثم أتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن الذى كان من أمر عثمان باطل .

وذكر ابن لَهِيعة (٢٦) ، عن الأسود ، عن عروة بن الزبير قريبًا من هذا السياق ، وزاد في سياقه : أن قريشًا بعثوا وعندهم عثمان [ ][١] سهيلَ بن عمرو ، وحُويطب بن عبد العُزَّىٰ ، ومكرز بن حفص إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فبينما هم عندهم[٢] إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنَّبْل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل من الفريقين مَنْ عنده من الرسل ، ونادىٰ منادي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : ألا إن[٣] روح القدس قد نزل علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فأمر[٤] بالبيعة ، فاخرجوا علىٰ اسم الله فبايعوا . فسار المسلمون إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه علىٰ أن لا يفروا أبدًا ، فأرعب ذلك المشركين ، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ، ودعوا إلىٰ الموادعة والصلح .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد[٥] الصفار ، حدثنا تمتام[٦] ، حدثنا الحسن بن بشر ، حدثنا الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك ؛ قال : لما أمر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسولَ رسولِ الله صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **اللَّهم ؛ إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله** » . فضرب بإحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ ، فكانت يد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم .

قال ابن هشام(٢٧) : وحدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عمر ؛ قال[٧] : بايع [رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم][٨] لعثمان ، فضرب بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ .

وقال عبد الملك بن هشام النحوي(٢٨) : فذكر وكيع ، عن إسماعيل بن[٩] أبي خالد ،

(٢٦) - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١١٢/٤) بسنده إلى ابن لهيعة به .

(٢٧) - سيرة ابن هشام (٢٧٢/٣) ، ونقله المصنف في تاريخه (٢١٥/٦، ٢١٢٦، هجر) .

(٢٨) - سيرة ابن هشام (٢٧٢/٣) .

[١] - في ز ، خ : بن .

[٢] - في خ : عنده .

[٣] - في ز : وإن .

[٤] - في ت : وأمر .

[٥] - في ز ، خ : عبد .

[٦] - في ز ، خ : تمام .

[٧] - سقط من ز ، خ .

[٨] - ما بين المعكوفين سقط من ز .

[٩] - في ز : عن .

عن الشعبي أن أول من بايع رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم بيعة الرضوان أبو سنَان الأسدي. وقال أبو بكر عبد اللّٰه بن الزبير الحميدي (٢٩) : حدثنا سفيان ، حدثنا ابن أبي خالد ، عن الشعبي؛ قال : لما دعا رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم الناس إلىٰ البيعة ، كان أول من انتهىٰ إليه أبو سنان ، فقال : ابسط يدك أبايعك . فقال النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **علام تبايعني ؟** » . فقال أبو سنان : علىٰ ما في نفسك . هذا أبو سنان وَهبُ الأسدي ، رضي الله عنه .

وقال البخاري(٣٠) : حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر[١] بن محمد، حدثنا صخر[٢] ، عن نافع؛ قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عُمَر أسلم قبل عُمَر ، وليس كذلك ، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد اللّٰه إلىٰ فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه ، ورسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يبايع عند الشجرة ، وعمر لا يدري بذلك ، فبايعه عبد اللّٰه ، ثم ذهب إلىٰ الفرس فجاء به إلىٰ عمر ، وعمر يستلئم[٣] للقتال ، فأخبره أن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يُبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتىٰ بايع رسولَ اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر .

ثم قال البخاري (٣١) : وقال هشام بن عمار : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عُمَر بن محمد العُمَري ، أخبرني نافع ، عن ابن عمر ؛ أن الناس كانوا مع رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم [يوم الحديبية][٤] قد تفرقوا في ظلال الشجر ، فإذا الناس مُحدقونَ[٥] بالنبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فقال - يعني عمر - : يا عبد اللّٰه ؛ انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم . فوجدهم يبايعون ، فبايع ثم رجع إلىٰ عمر فخرج فبايع .

وقد أسنده البيهقي عن أبي[٦] عمرو الأديب ، عن أبي بكر الإِسماعيلي ، عن الحسن بن سفيان ، عن دحيم : حدثني الوليد بن مسلم ، فذكره .

---

(٢٩) - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٣٧/٤) بسنده إلى الحميدي به .

(٣٠) - صحيح البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية (٤١٨٦) .

(٣١) - صحيح البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية حديث (٤١٨٧) قال الحافظ في الفتح : كذا وقع بصيغة التعليق ، وفي بعض النسخ " قال لي " وقد وصله الاسماعيلي عن الحسن بن سفيان عن دحيم وهو ابن عبد الرحمن بن إبراهيم عن الوليد بن مسلم بالإسناد المذكور .

---

[١] - في ز ، خ : المنصور .

[٢] - في خ : صخر بن الربيع .

[٣] - في خ : مسلم .

[٤] - سقط من خ .

[٥] - في خ : سحدثون .

[٦] - في ز ، خ : ابن .

وقال الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ؛ قال : كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة ، وقال : بايعناه على أن لا نفرّ ، ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم(٣٢) ، عن قتيبة ، عنه .

وروى مسلم(٣٣) عن يحيى بن يحيى ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن خالد ، عن الحكم بن عبد الله بن[١] الأعرج ، عن معقل بن يَسَار ؛ قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس ، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفرّ .

وقال البخاري(٣٤) : حدثنا المكي بن إبراهيم ، عن يزيد بن أبي عبيد ، عن سلمة بن الأكوع ؛ قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال يزيد : قلت : يا أبا مسلم ، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت .

وقال البخاري أيضًا(٣٥) : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا يزيد بن أبي عُبَيد ، عن سَلَمة ؛ قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ثم تنحيت ، فقال : « **يا سلمة ؛ ألا تبايع ؟** » قلت : قد بايعت . قال : « **أقبل فبايع** » . فدنوت فبايعته ، قلت : علام بايعته يا سلمة ؟ قال : على الموت .

وأخرجه مسلم من وجه أخر عن يزيد بن أبي عبيد . وكذا روى البخاري(٣٦) عن عباد ابن تميم : أنهم بايعوه على الموت .

وقال البيهقي(٣٧) : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم ؛ حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو عامر العَقَدي عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عكرمة ابن عمار اليمامي ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه سلمة بن الأكوع ؛ قال : قَدمنا

(٣٢) - صحيح مسلم في كتاب الإمارة ، حديث (١٨٥٦) .

(٣٣) - تقدم تخريجه برقم (٢٢) .

(٣٤) - صحيح البخاري في الجهاد والسير ، باب : البيعة في الحرب ، حديث (٢٩٦٠) .

(٣٥) - صحيح البخاري في الأحكام ، باب : من بايع مرتين ، حديث (٧٢٠٨) وأخرجه مسلم في الإمارة ، حديث (١٨٦٠) من طريق يزيد بن أبي عبيد به .

(٣٦) - أخرجه البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية ، حديث (٤١٦٧) من حديث عباد بن تميم ، عن ابن زيد به .

(٣٧) - دلائل النبوة (١٣٩/٤، ١٤٠) ، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير ، حديث (١٨٠٧) عن إسحاق بن إبراهيم به .

[١] - سقط من خ .

الحديبية مع رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا تُرْوِيها[١] ، فقعد رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم علىٰ جَبَاها - يعني الرَّكي - فإما دعا وإما بَصَق[٢] فيها ، فجاشت فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم دعا إلىٰ البيعة في أصل الشجرة ، فبايعتُه أول الناس ، ثم بايع وبايع ، حتىٰ إذا كان في وسط الناس قال [صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : **« بايعني يا سلمة »** . قال : قلت : يا رسول اللّٰه ، قد بايعتك في أول الناس][٣] . قال : **« وأيضًا »** . قال[٤] : ورآني رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، عَزِلًا فأعطاني حجفة - أو دَرَقَة - ثم بايع حتىٰ إذا كان في آخر الناس قال صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : **« ألا تبايع يا سلمة ؟ »** . قال : قلت : يا رسول اللّٰه ؛ قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم . قال : **« وأيضًا »** . فبايعته الثالثة ، فقال : **« يا سلمة ؛ أين حَجَفَتك أو دَرَقَتك التي أعطيتك ؟ »** . قال : قلت : يا رسول اللّٰه ؛ لقيني عامر عزلًا فأعطيتها أياه ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : **« إنك كالذي قال الأول : اللّهم ؛ أبغني حبيبًا هو أحب إليّ من نفسي »** . قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتىٰ مشىٰ بعضنا في بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادمًا لطلحة بن عُبَيد اللّٰه -رضي اللّٰه عنه- أسقي فرسه وأَحُسّهُ[٥] وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مُهَاجرًا إلىٰ اللّٰه ورسوله . فلما اصطلحنا نحن وأهلُ مكة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فَكَسَحْتُ[٦] شوكها[٧] ، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها ، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فأبغضتهم ، وتحولت إلىٰ[٨] شجرة أخرىٰ فَعلّقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادىٰ منادٍ من أسفل الوادي : [يا للمهاجرين][٩] ، قُتل ابن زُنَيم . فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثًا في يدي ، ثم قلت : والذي كَرّم وجهَ محمد صلىٰ اللّٰه عليه وسلم لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه . قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلىٰ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم . قال : وجاء عمي عامر برجُل من العَبَلات يقال له : **« مكرز[١٠] »** من المشركين يقوده ، حتىٰ وقفنا بهم علىٰ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم وقال : **« دعوهم يكن لهم بَدْءُ الفجور وثِنَاه »** . فعفا عنهم رسول اللّٰه صلىٰ

---

[١] - في ز ، خ : يرونها .
[٢] - في ز : بسق .
[٣] - ما بين المعكوفين سقط من ز ، خ .
[٤] - سقط من ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : وأجنبه .
[٦] - في ز ، خ : فكشحت .
[٧] - في خ : بشوكها .
[٨] - سقط من خ .
[٩] - في خ : « يا آل المهاجرين » .
[١٠] - في ز ، خ : مشكور .

اللَّه عليه وسلم وأنزل اللَّه : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ ... الآية .

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهوية بسنده نحوه أو قريبًا منه .

وثبت في الصحيحين(٣٨) من حديث أبي عوانة ، عن طارق ، عن سعيد بن المسيب ؛ قال : كان أبي ممن بايع رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجين ، فخفي علينا مكانها ، فإن كان تَبَيَّنتْ[١] لكم فأنتم أعلم .

وقال أبو بكر الحميدي(٣٩) : حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزبير ، حدثنا جابر ؛ قال : لما دعا رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم الناس إلىٰ البيعة ، وجدنا رجلًا منا يقال له : « **الجد ابن قيس** » مختبئًا تحت إبط بعيره[٢] .

رواه مسلم من حديث ابن جُرَيج ، عن ابن الزبير به .

وقال الحميدي أيضًا(٤٠) : حدثنا سفيان ، عن عمرو ، سمع جابرًا قال : كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة ، فقال لنا رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أنتم خير أهل[٣] الأرض اليوم** » . قال جابر : لو كنت أبصرُ لأريتكم موضع الشجرة . قال سفيان : إنهم اختلفوا في موضعها . أخرجاه من حديث سفيان .

وقال الإمام أحمد (٤١) : حدثنا يونس ، حدثنا الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أنه قال : « **لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة** » .

وقال ابن أبي حاتم (٤٢) : حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي ، حدثنا سَعيدُ[٤] بن

(٣٨) - أخرجه البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية ، حديث (٤١٦٣،٤١٦٤،٤١٦٥) ، ومسلم في الإمارة ، حديث (١٨٥٩) ، من طريق طارق بن عبد الرحمن به .

(٣٩) - مسند الحميدي (١٢٧٧) ، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة ، حديث (١٨٥٦) (٦٩) من طريق ابن جريج عن أبي الزبير به مطولًا بمعناه .

(٤٠) - مسند الحميدي (١٢٢٥) ، وأخرجه البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية ، حديث (٤١٥٤) ، ومسلم في الإمارة ، حديث (١٨٥٦)(٧١) من طريق سفيان به .

(٤١) - المسند (٣/٣٥٠) ، وفيه قال أحمد : حدثنا حجين ، ويونس عن الليث به .

وأخرجه أبوداود في السنة ، باب : في الخلفاء ، حديث (٤٦٥٣) والترمذي في المناقب ـ باب : في فضل=

[١] - في ز : ثبت .
[٢] - في ز : بعير .
[٣] - سقط من خ .
[٤] - في ز ، خ : معتمر .

عمرو الأشعثي ، حدثنا محمد بن ثابت العبدي ، عن خداش بن عياش ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحبُ الجمل الأحمر** » . قال : فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره ، فقلنا : تعال فبايع . فقال : أصيبُ بعيري أحبَّ إليّ من أن أبايع .

وقال عبد الله بن أحمد(٤٣) : حدثنا عبيد الله بن معاذ ، حدثنا أبي ، حدثنا قُرّة ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي - صلىٰ الله عليه وسلم - أنه قال : « **من يصعد الثنية ثَنيّة المُرَار**[١] **فإنه يُحطّ عنه ما حُطّ**[٢] **عن بني إسرائيل** » . فكان أول من صَعد خيل[٣] بني[٤] الخزرج ، ثم تبادر الناس بعد فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **كلكم مغفور له**[٥] **إلا صاحب الجمل الأحمر** » . فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحبّ إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم . فإذا هو رجل يَنْشُدُ ضالة . رواه مسلم عن عُبَيد الله به .

وقال ابن جُرَيج : أخبرني أبو الزبير ، أنه سمع جابرًا؛ يقول : أخبرتني أم مبشر، أنها سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم؛ يقول عند حفصة : « **لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد** » . قالت : بلىٰ يا رسول الله . فانتهرها . فقالت لحفصة : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ ، فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **قد قال الله : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا ﴾** » . رواه مسلم (٤٤) .

وفيه أيضًا عن قتيبة (٤٥) ، عن الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ؛ أن [عبدًا لحاطب][٦] بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبًا ، فقال : يا رسول الله ؛ ليدخلن حاطب النار ، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **كذبت : لا يدخلها ؛ فإنه قد شهد بدرًا والحديبية** » .

= من بايع تحت الشجرة ، حديث (٣٨٦٠) ، والنسائي في تفسيره (٥٢٨) من طرق عن الليث به .

(٤٢) - أخرجه الترمذي في المناقب ، حديث (٣٨٦٣) من طريق سليمان التيمي عن خداش به نحوه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٤٣) - لم أقف عليه في المسند ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث (٢٨٨٠) عن عبيد الله بن معاذ العنبري به .

(٤٤) - تقدم تخريجه في تفسير سورةمريم الآية (٧١)

(٤٥) - صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث (٢١٩٥)

---

[١] - في ز ، خ : الدار .
[٢] - في ز : يحط .
[٣] - في خ : جبل .
[٤] - في ز ، خ : من .
[٥] - سقط من خ .
[٦] - في ز ، خ : عبد حاطب .

ولهذا قال تعالىٰ في الثناء عليهم : ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللَّه يد اللَّه فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث علىٰ نفسه ومن أوفىٰ بما عاهد عليهُ اللَّه فسيؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾ ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **لقد رضي اللَّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا** ﴾ .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا رسوله[١] - صلوات اللَّه وسلامه عليه - بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المُقام في أهليهم وشغلهم ، وتركوا المسير مع رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وذلك قول منهم لا علىٰ سبيل الاعتقاد ، بل علىٰ وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من اللَّه شيئًا إن أراد بكم ضرًا أو أراد بكم نفعًا** ﴾ أي : لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم - تعالىٰ وتقدس - وهو العليم بسرائركم وضمائركم ، وإن صانعتمونا وتابعتمونا ؛ ولهذا قال : ﴿ **بل كان اللَّه بما تعملون**[٢] **خبيرًا** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبدًا** ﴾ أي : لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص ، بل تخلف نفاق ، ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبدًا** ﴾ أي : اعتقدتم أنهم يُقتلون وتُستأصل شأفتهم ، وتستباد خَضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبر ، ﴿ **وظننتم ظن السوء وكنتم قومًا بورًا** ﴾ أي :

---

[١] - في ز : لرسوله . [٢] - في ز : يعملون .

هلكىٰ . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد . وقال قتادة : فاسدين . وقيل: هى بلغة عمّان .

ثم قال : ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله** ﴾ أي : من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالىٰ سيعذبه في السعير ، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر .

ثم بين تعالىٰ أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السماوات والأرض : ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورًا رحيمًا** ﴾ أي : لمن تاب إليه وأناب ، وخضع لديه .

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم في غزوة الحديبية ، إذ ذهب النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه إلىٰ خيبر يفتتحونها : إنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلىٰ المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم[١] ومصابرتهم ، فأمر الله رسوله صلىٰ الله عليه وسلم أن لا يأذن لهم في ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالىٰ وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها[٢] غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا ؛ ولهذا قال : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ . قال مجاهد ، وقتادة ، وجويبر : وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية . واختاره ابن جرير .

وقال ابن زيد : هو قوله : ﴿ **فإن رجعك الله إلىٰ طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾.

وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر ؛ لأن هذه الآية التي في « براءة » نزلت في غزوة تبوك ، وهي متأخرة عن غزوة الحديبية .

وقال ابن جريج : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ يعني : بتثبيطهم[٣] المسلمين عن

---

[١] - في ز ، خ : ومجادلتهم . [٢] - سقط من خ .
[٣] - في ز : تثبطهم .

الجهاد .

﴿ قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ أي : وعد الله أهل الحديبية [قبل سؤالكم][١] الخروج معهم ، ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ أي : أن نشرككم في المغانم ، ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم ، الذين هم أولو بأس شديد على أقوال :

أحدها : أنهم هَوَازن ؛ رواه شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير - أو عكرمة ، أو جميعًا - ورواه هشيم عن أبي بشر ، عنهما . وبه يقول قتادة في رواية عنه .

الثاني : ثقيف . قاله الضحاك :

الثالث : بنو حنيفة ، قاله جويبر ، ورواه محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، ورُوي مثله عن سعيد وعكرمة .

الرابع : هم أهل فارس . رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، وبه يقول عطاء ، ومجاهد ، وعكرمة [٢] - في إحدىٰ الروايات عنه .

وقال كعب الأحبار : هم الروم . وعن ابن أبي ليلىٰ ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة : هم فارس والروم . وعن مجاهد : هم أهل الأوثان . وعنه أيضًا : هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعين فرقة . وبه يقول ابن جريج ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الأشج ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريري ، عن معمر ، عن الزهري في قوله : ﴿ ستدعون إلىٰ قوم أولي بأس شديد ﴾ ، قال : لم يأت أولئك بعد .

وحدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي خالد ، عن أبيه ، عن

---

[١] - بياض في ز ، خ .

[٢] - سقط من ز ، خ .

أبي هريرة في قوله : ﴿ **ستدعون إلىٰ قوم أولي بأس شديد** ﴾ ، قال : هم البارزون .

قال(٤٦) : وحدثنا سفيان ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم ؛ قال : « **لا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا قومًا صغار الأعين ذُلْف[١] الآنف ، كأن وجوههم المجان المطرقة** » . قال سفيان : هم الترك .

قال ابن أبي عمر[٢] : وجدت في مكان آخر : ابن أبي خالد عن أبيه قال : نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **تقاتلون قومًا نعالهم[٣] الشعر** » . قال : هم البارزون ؛ يعني : الأكراد .

وقوله : ﴿ **تقاتلونهم أو يُسلمون** ﴾ ، يعني يشرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمرًا عليهم ، ولكم النصرة عليهم ، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

ثم قال : ﴿ **فإن تطيعوا** ﴾ أي : تستجيبوا وتنفروا[٤] في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ، ﴿ **يؤتكم الله أجرًا حسنًا وإن تتولوا كما توليتم من قبل** ﴾ ، يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ، ﴿ **يعذبكم عذابًا أليمًا** ﴾ .

ثم ذكر تعالىٰ الأعذار في ترك الجهاد ، فمنها لازم كالعمىٰ والعَرَج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أيامًا ثم يزول ، فهو في حال مرضه مُلحَقٌ بذوي الأعذار اللازمة حتىٰ يبرأ .

ثم قال تعالىٰ مرغبًا في الجهاد وطاعة الله ورسوله : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول** ﴾ أي : ينكلُ[٥] عن الجهاد ، ويُقبل علىٰ المعاش ﴿ **يعذبه عذابًا أليمًا** ﴾ ، في الدنيا بالمذلة ، وفي الآخرة بالنار .

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

(٤٦) – أخرجه الحميدي (١١٠٠) ، وأحمد (٢/٢٣٩) ، والبخاري في الجهاد والسير ، باب : قتال اللذين ينتعلون الشعر ، حديث (٢٩٢٩) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ، حديث (٢٩١٢) ، من طريق سفيان به.

[١] – في ز : دلف .
[٢] – في ز : عمرو .
[٣] – في ز ، خ : يقال لهم .
[٤] – في خ : وتستقروا .
[٥] – في ز : نكل .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالىٰ عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تحت الشجرة ، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة ، وأن الشجرة كانت سَمُرةً بأرض الحديبية .

قال البخاري(٤٧) : حدثنا محمود ، حدثنا عبيد[١] الله ، عن إسرائيل ، عن طارق بن[٢] عبد الرحمن؛ قال : انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون ، فقلت[٣] : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة ، حيث بايع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بيعة الرضوان .فأتيتُ سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فلما خرجنا من العام المقبل نَسيناها فلم نَقدِر عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد صلىٰ الله عليه وسلم لم يعلموها وعُلّمتموها[٤] أنتم ، فأنتم أعلم .

وقوله : ﴿ **فعلم ما في قلوبهم** ﴾ أي : من الصدق والوفاء ، والسمع والطاعة ، ﴿ **فأنزل [ ][٥] السكينة** ﴾ ، وهي الطمأنينة ، ﴿ **عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا** ﴾ ، وهو ما أجرىٰ الله علىٰ أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ **ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيمًا** ﴾ .

قال ابن أبي حاتم(٤٨) : حدثنا [أحمد بن محمد][٦] بن يحيىٰ بن سعيد القطان ، حدثنا عبيد الله بن موسىٰ ، أخبرنا موسىٰ - يعني ابن عبيدة - حدثني إياس بن سلمة ، عن

---

(٤٧) - صحيح البخاري في المغازي ، باب : غزوة الحديبية ، حديث (٤١٦٣) وقد تقدم قريباً .

(٤٨) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨٦/٢٦) عن محمد بن عمارة الأسدي عن عبيدالله بن موسى به وعزاه السيوطي أيضاً في الدرالمنثور (٨١/٦) إلى ابن مردويه .

---

[١] - في خ : عبد .

[٢] - في ز ، خ : أبي .

[٣] - في ز : قلت .

[٤] - في ز : علمتوها .

[٥] - في ز : الله .

[٦] - في خ : « محمد بن أحمد » .

أبيه ؛ قال : بينما نحن قائلون إذ نادىٰ منادي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : [أيها الناس ؛ البيعةَ البيعةَ ، نزل روح القدس . قال : فثُرنا إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم][١] وهو تحت شجرة سَمُرة فبايعناه[٢] ، فذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ ، فبايع لعثمان بإحدىٰ[٣] يديه علىٰ الأخرىٰ ، فقال الناس : هنيئًا لابن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هاهنا . فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **لو مكث كذا كذا سنةً ما طاف حتىٰ أطوف** » .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قال مجاهد في قوله : ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ ، هي جميع المغانم إلىٰ اليوم ، ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ ، يعني فتح خيبر .

وروىٰ العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ ، يعني صلح الحديبية .

﴿ **وكف أيدي الناس عنكم** ﴾ أي : لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال . وكذلك كف أيدي الناس الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم ، ﴿ **ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ أي : يعتبرون بذلك ، فإن الله حافظهم وناصرهم علىٰ سائر الأعداء ، مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور ، وأن الخيرَة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر ، كما قال : ﴿ **وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم** ﴾ .

---

[١] - ما بين المعكوفين سقط من خ .

[٢] - في ز : فبايعنا .

[٣] - في ز : إحدى .

﴿ ويهديكم صراطًا مستقيمًا ﴾ أي : بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته ، وموافقتكم رسوله .

وقوله : ﴿ وأخرىٰ لم تقدروا عليها قد أحاط اللَّه بها وكان اللَّه علىٰ كل شيء قديرًا ﴾ أي : وغنيمة أخرىٰ وفتحًا آخر معينًا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يَسَّرها اللَّه عليكم ، وأحاط بها لكم ؛ فإنه تعالىٰ يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون .

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ، ما المراد بها ؟ فقال العوفي ، عن ابن عباس : هي خيبر . وهذا علىٰ قوله في قوله تعالىٰ : ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ : إنها صلح الحديبية . وقاله الضحاك ، وابن إسحاق ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال قتادة : هي مكة . واختاره ابن جرير .

وقال ابن أبي ليلىٰ ، والحسن البصري : هي فارس والروم .

وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلىٰ يوم القيامة .

وقال أبو داود الطيالسي(٤٩) : حدثنا شعبة ، عن سماك الحَنَفي ، عن ابن عباس : ﴿ وأخرىٰ لم تقدروا عليها قد أحاط اللَّه بها ﴾ ، قال : هذه الفتوح التي[١] تفتح إلىٰ اليوم .

وقوله : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليًا ولا نصيرًا ﴾ يقول تعالى مبشرًا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر اللَّه رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفار[٢] فارًا مدبرًا لا يجدون وليًا ولا نصيرًا ؛ لأنهم محاربون للَّه ولرسوله ولحزبه المؤمنين .

ثم قال : ﴿ سنة اللَّه التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة اللَّه تبديلًا[٣] ﴾ أي : هذه سنة اللَّه وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر اللَّه الإيمان علىٰ الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالىٰ يوم بدر بأوليائه[٤] المؤمنين نصرهم علىٰ

(٤٩) - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٦٣/٤) من طريق يحيى بن أبي زائدة عن شعبة به بلفظ هو ما أصبتم بعده .

وعزاه السيوطي في الدرالمنثور (٨٣/٦) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، وابن المنذر وابن مردوية والبيهقي في الدلائل باللفظ الذي ذكره المصنف .

[١] - سقط من ز ، خ .
[٢] - في ز : الكفر .
[٣] - في ز : تحويلًا .
[٤] - في ز ، خ : بأولئك .

أعدائه من المشركين ، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم ، وكثرة المشركين وعُددهم .

وقوله : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرًا** ﴾ : هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكفّ أيدي المؤمنين عن[١] المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلًّا من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحًا فيه خِيَرَةٌ للمؤمنين ، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة . وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليهم وقال : « **أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثِنَاه**[٢] » . قال : وفي ذلك أنزل الله : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم** ﴾ ... الآية .

وقال الإمام أحمد(٥٠) : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك؛ قال : لما[٣] كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غِرّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم فأخذوا - قال عفان : فعفا عنهم - ونزلت هذه الآية : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ .

ورواه مسلم وأبو داود في سننه ، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما ، من طرق ، عن حماد بن سلمة به .

وقال أحمد أيضًا[٤] (٥١) : حدثنا زيد[٥] بن الحباب ، حدثنا الحسين بن واقد ، حدثنا ثابت البُناني ، عن عبد الله بن [مغفل المزني][٦] ؛ قال : كنا مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك

---

(٥٠) - المسند (١٢٢/٣،١٢٤) ، وأخرجه أيضاً في (٢٩٠/٣) ، وعبد بن حميد (١٢٠٨) ومسلم في الجهاد والسير ، حيدث (١٨٠٨) وأبو داود في الجهاد ، باب في المن على الأسير بغير نداء حديث (٢٦٨٨) ، والترمذي في تفسير القرآن ، باب ومن سورة الفتح حديث (٣٢٦٤) والنسائي في التفسير (٥٣٠) من طرق عن حماد بن سلمة به .

(٥١) - المسند (٨٦/٤) ، وأخرجه النسائي في التفسير (٥٣١) عن محمد بن عقيل عن علي بن الحسين بن واقد عن أبيه به .

وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره (٩٣/٢٦-٩٤) ، والحاكم في المستدرك (٤٦٠/٣-٤٦١) ، والبيهقي (٣١٩/٦) من طريق الحسين بن واقد به .

---

[١] - في ت : من .
[٢] - في ز : وثناؤه .
[٣] - سقط من ز .
[٤] - سقط من ز ، خ .
[٥] - في خ : يزيد .
[٦] - في ز ، خ : المغفل الذي .

الشجرة على ظهر رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم وعليّ بن أبي طالب، وسهيلُ بن عمرو بين يديه - فقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم لعليّ: «**اكتب: بسم اللَّه الرحمن الرحيم**». فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. [قال: «**اكتب باسمك اللَّهم**». وكتب: «**هذا ما صالح عليه محمد رسول اللَّه أهل مكة**». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف][١] . فقال: «**اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللَّه**». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم، فأخذ اللَّه بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم: «**هل جئتم في عهد أحد؟**» أو: «**هل جعل لكم أحد أمانا؟**». فقالوا: لا. فخلىٰ سبيلهم، فأنزل اللَّه: ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان اللَّه بما تعملون بصيرًا** ﴾. رواه النسائي من حديث حسين بن واقد به.

وقال ابن جرير(٥٢) : حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القُمّي، حدثنا[٢] جعفر، عن ابن أبزىٰ؛ قال: لما خرج النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم بالهدي وانتهىٰ إلىٰ ذي الحليفة قال له عمر: يا نبي اللَّه؛ تدخلُ[٣] علىٰ قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُراع؟ قال: فبعث إلىٰ المدينة، فلم يدع فيها كُراعًا ولا سلاحًا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتىٰ أتىٰ منىٰ، فنزل بمنىٰ [فأتاه عينه][٤] أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «**يا خالد؛ هذا [ ][٥] ابن عمك أتاك في الخيل**». فقال خالد: أنا سيف اللَّه، وسيف رسوله - فيومئذ سُمي سيف اللَّه - يا رسول اللَّه؛ ارم بي أين شئت. فبعثه علىٰ خيل، فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتىٰ أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتىٰ أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتىٰ أدخله حيطان مكة، فأنزل اللَّه: ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة** ﴾ إلىٰ ﴿ **عذابًا أليمًا** ﴾. قال: فكف اللَّه النبي عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا[٦] من المسلمين كانوا بقوا[٧] فيها كراهية أن تطأهم الخيل.

---

(٥٢) - تفسير الطبري (٢٦،٩٥)، وعزاه السيوطي أيضاً في الدر المنثور (٨٧/٦) إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

---

[١] - ما بين المعكوفين سقط من خ.

[٢] - في ز، خ: عن.

[٣] - في ز: ندخل.

[٤] - بياض في ز، خ.

[٥] - في ت: ابن.

[٦] - بياض في ز، خ.

[٧] - بياض في ز، خ.

ورواه ابن أبي حاتم(٥٣) عن ابن أبزى[١] بنحوه . وهذا السياق فيه نظر ، فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية ؛ لأن خالدًا لم يكن أسلم ، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ ، كما ثبت في الصحيح . ولا يجوز أن يكون [في عمرة القضاء][٢] ؛ لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل[٣] فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام ، فلما قدم لم يمانعوه[٤] ولا حاربوه ولا قاتلوه . فإن قيل : فيكون يوم الفتح ؟ فالجواب : ولا يجوز أن يكون يوم الفتح ؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَدْيًا[٥] وإنما جاء محاربًا مقاتلًا في جيش عَرَمْرَم ، فهذا السياق فيه خلل ، وقد وقع فيه شيء فليتأمل ، والله أعلم .

وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم ، عن عكرمة مولى ابن عباس؛ أن قريشًا بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يُطيفُوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا من أصحابه أحدًا ، فأُخِذُوا أخذًا ، فَأُتي بهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم وخلّى سبيلهم ، وقد كانوا رَموا إلى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : وفي ذلك أنزل الله : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم** ﴾ ... الآية .

وقال قتادة(٥٤) : ذُكر لنا أن رجلًا يقال له : « ابن زُنيم » اطلع على الثنية من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلًا فأتوه باثني عشر فارسًا من الكفار ، فقال لهم : « **هل لكم عليّ عهد ؟ هل لكم علي ذمة ؟** » . قالوا : لا . فأرسلهم ، وأنزل الله في ذلك : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم** ﴾ ... الآية .

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ

(٥٣) - سيرة ابن هشام (٣/٢٧١) ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/٩٤) .
(٥٤) - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/٨٣) ، وعزاه السيوطي أيضاً في الدرالمنثور (٦/٨٣)

[١] - في ز : بزى . وفي خ : ندى .
[٢] - بياض في ز ، خ . وقبله : ابن .
[٣] - في ز : القابل .
[٤] - في ز ،خ : يتابعوه .
[٥] - في ز ، خ : هذا .

حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٢٦)

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومَن مالأهم علىٰ نصرتهم علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **هم الذين كفروا** ﴾ أي : هم الكفار دون غيرهم ، ﴿ **وصدوكم عن المسجد الحرام** ﴾ أي : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله في نفس الأمر ، ﴿ **والهدي معكوفًا أن يبلغ محله** ﴾ أي : وصدوا الهدي أن يصل إلىٰ محله ، وهذا [من بغيهم][١] وعنادهم ، وكان الهديُ سبعين بدنة كما سيأتي بيانه .

وقوله : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ أي : بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة علىٰ أنفسهم من قومهم ، لكنا سلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خَضْراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال : ﴿ **لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة** ﴾ أي : إثم وغرامة ﴿ **بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء** ﴾ أي : يؤخر عقوبتهم ليخلّص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلىٰ الإسلام .

ثم قال : ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ أي : لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ **لعذبنا الذين كفروا منهم عذابًا أليمًا** ﴾ أي : لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلًا ذريعًا .

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني(٥٥) : حدثنا أبو الزنباع[٢] روح بن الفرج ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو[٣] سعيد - مولىٰ بني هاشم - حدثنا حجر بن خلف : سمعت عبد الله بن عوف[٤] ؛ يقول[٥] : سمعت جُنَيْدَ بن سَبُع ؛ يقول : قاتلت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أول النهار كافرًا وقاتلت معه آخر النهار مسلمًا ، وفينا نزلت : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ . قال : كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين .

---

(٥٥) - ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠/٧) وقال : (رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات) . والحديث أخرجه أوبو يعلى في مسنده (١٥٦٠) من طريق أبي سعيد مولى بني هاشم به .

---

[١] - بياض في خ .
[٢] - في خ : الدباع .
[٣] - في ز ، خ : ابن .
[٤] - في ز ، خ : عمر .
[٥] - سقط من ز ، خ .

ثم رواه من طريق أخرىٰ عن محمد بن عباد المكي به ، وقال فيه : عن أبي[١] جمعة جُنيد بن سبع ... فذكره ، والصواب أبو جعفر : حبيب بن سباع . ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر ابن خلف به . وقال : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة ، وفينا نزلت : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم (٥٦) : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري ، حدثنا عبد الله بن عثمان[٢] بن جَبَلَة ، عن أبي حمزة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ **لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابًا أليمًا** ﴾ ، يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين ، لعذبهم الله عذابًا أليمًا بقتلهم إياهم .

وقوله : ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** ﴾ ، وذلك حين أبوا أن يكتبوا « **بسم الله الرحمن الرحيم** » ، وأبوا أن يكتبوا : « **هذا ما قاضىٰ عليه محمد رسول الله** » ، ﴿ **فأنزل الله سكينته علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين وألزمهم كلمة التقوىٰ** ﴾ ، وهي قول « **لا إله إلا الله** » ، كما قال ابن جرير ، وعبد الله بن الإمام أحمد (٥٧) : حدثنا الحسن بن قَزَعة أبو علي البصري ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا شعبة ، عن ثُوَيْر ، عن أبيه ، عن الطفيل[٣] - يعني ابن أبيّ بن كعب - عن أبيه : سمع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوىٰ** ﴾ ، قال : « **لا إله إلا الله** » .

وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة ، وقال : « **غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه** » .

وقال ابن أبي حاتم (٥٨) : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث ، حدثني عبد الرحمن بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ؛ أن أبا هريرة أخبره ؛ أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، قال : « **أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه علىٰ الله** » . وأنزل الله في كتابه ، وذكر قومًا فقال : ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم**

---

(٥٦) - ذكره السيوطي في الدرالمنثور (٨٧/٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم ، وابن المنذر .

(٥٧) - أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٤/٢٦) ، وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٨/٥) ، والترمذي في تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الفتح حديث (٣٢٦٥) عن الحسن بن قزعة به .

(٥٨) - تقدم تخريجه ، وانظر تفسير سورة الصافات الآية (٣٥) .

---

[١] - في ز ، خ : ابن .

[٢] - في ز : عيار . كذا بلا نقط . وفي خ : عباد .

[٣] - في ز : الطفيلي .

لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ . وقال الله جل ثناؤه : **﴿ وألزمهم كلمة التقوىٰ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾** ، وهي : « **لا إله إلا الله ، محمد رسول الله** » ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، وكاتبهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ قضية المدة .

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري . والظاهر أنها مُدرجة[١] من كلام الزهري ، والله أعلم .

وقال مجاهد : **﴿ كلمة التقوىٰ ﴾** : الإخلاص . وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

وقال يونس بن بكير(٥٩) ، عن ابن إسحاق ، عن الزهري ، عن عروة ، عن المسور : **﴿ وألزمهم كلمة التقوىٰ ﴾** ، قال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

وقال الثوري(٦٠) ، عن سلمة بن كهيل ، عن عَبَاية بن ربعي ، عن عليٍّ : **﴿ وألزمهم كلمة التقوىٰ ﴾** ، قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر . وكذا [قال ابن عمر -رضي الله عنهما-][٢] وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : **﴿ وألزمهم كلمة التقوىٰ ﴾** ، قال : يقول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهي رأس كل تقوىٰ .

وقال سعيد بن جبير : **﴿ وألزمهم كلمة التقوىٰ ﴾** ، قال : لا إله إلا الله ، والجهاد في سبيله .

وقال عطاء الخراساني : هي لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وقال عبد الله بن المبارك(٦١) ، عن معمر ، عن الزهري : **﴿ وألزمهم كلمة التقوىٰ ﴾** ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال قتادة : **﴿ وألزمهم كلمة التقوىٰ ﴾** ، قال : لا إله إلا الله .

[**﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾** ،][٣] كان المسلمون أحق بها وكانوا[٤] أهلها .

---

(٥٩) - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٨/٦) عن السور ، ومروان وعزاه إلى ابن أبي حاتم والدارقطني في الأفراد .

(٦٠) - تفسير الطبري (١٠٤/٢٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨٨/٦) إلى ابن أبي الحسن بن مروان في فوائده .

(٦١) - أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٦/٢٦) عن محمد بن عيسى عن ابن المبارك به ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨٩/٦) إلى عبدالرزاق ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

---

[١] - في ز : مندرجة .

[٢] - سقط من ز ، خ .

[٣] - سقط من خ .

[٤] - سقط من ز ، خ .

﴿ وكان اللَّه بكل شيء عليمًا ﴾ أي : هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر .

وقد قال النسائي(٦٢) : حدثنا إبراهيم بن سعيد[١] ، حدثنا شبابة بن سوار ، عن أبي رزين ، عن[٢] عبد اللَّه بن العلاء بن زَبْر ، عن [بُشر بن عُبيد اللَّه][٣] ، عن أبي إدريس ، عن أُبيّ بن كعب ؛ أنه كان يقرأ : **﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾** ، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام . فبلغ ذلك عمر فأغلظ له ، فقال : إنك لتعلم أني كنت أدخل علىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فيعلمني مما علمه اللَّه . فقال عمر : بل أنت رجل عندك[٤] علم وقرآن ، فاقرأ وعلم مما علمك اللَّه ورسوله .

(وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقضية الصلح)

قال الإمام أحمد (٦٣) : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار ، عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن المسور بن مَخْرَمة ومَروان بن الحكم ؛ قالا : خرج رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم [عام الحديبية][٥] يريد زيارة البيت لا يريد قتالًا ، وساق معه الهَدي سبعين بَدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت كل بَدنة عن عشرة ، وخرج رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم حتىٰ إذا كان بعُسْفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، فقال : يا رسول اللَّه ؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبست جلود النمور ، يعاهدون اللَّه أن لا تدخلها عليهم عَنوة أبدًا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قَدّموه إلي كُرَاع الغميم ، فقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **يا ويح قريش ! قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلّوا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني اللَّه دخلوا في الإسلام وهم وافرون ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فماذا تظن قريش ؟ فواللَّه لا أزال أجاهدهم علىٰ الذي بعثني اللَّه به[٦] حتي يظهرني اللَّه أو تنفرد هذه السالفة** » .

ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين[٧] ظهري الحمض علىٰ طريق تخرجه علىٰ ثنية المرار[٨] والحديبية من أسفل مكة . قال : فسلك بالجيش تلك الطريق ، فلما رأت خيل

(٦٢) - أخرجه النسائي في تفسيره (٥٢٥) ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٢٢٥-٢٢٦) من طريق أبي زيد به ، وصححه على شرط الشيخين .

(٦٣) - المسند (٤/٣٢٣) ، والحديث رواه الشيخان من غير طريق ابن إسحاق ، وقد تقدم تخريجه .

[١] - في ز ، خ : شهيد .
[٢] - سقط من خ .
[٣] - في ز : « بشر بن عبد الله » .
[٤] - في ز ، خ : عندي .
[٥] - سقط من ز ، خ .
[٦] - في ز : له .
[٧] - في ز ، خ : من .
[٨] - في ز : المدار .

قريش قُتْرَة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ، ركضوا راجعين الي قريش ، فخرج رسول صلىٰ الله عليه وسلم - حتي إذا سلك ثنية المرار[١] ، بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت . فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **ما خلأت ، وما ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، والله لا تدعوني[٢] قريش اليوم إلىٰ خطة يسألوني[٣] فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها** » .

ثم [٤] قال للناس : « **انزلوا** » . قالوا : يا رسول الله ؛ ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس . فأخرج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم سهمًا من كنانته ، فأعطاه رجلًا من أصحابه ، فنزل في قَليب من تلك القُلُب ، فغرزه[٥] فيه فجاش بالماء حتىٰ ضرب الناس عنه بعَطَن . فلما اطمأن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إذا بُديل بن ورقاء في رجال من خزاعة ، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلىٰ قريش فقالوا : يا معشر قريش ؛ إنكم تَعجَلون علىٰ محمد ، وإن[٦] محمدًا لم يأت لقتال ، إنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحقه ، فاتهموهم .

قال محمد بن إسحاق : قال الزهري : كانت[٧] خزاعة في عَيْبة[٨] [ ][٩] رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مشركها ومسلمها ، لا يخفون علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم شيئًا كان[١٠] بمكة ، فقالوا : وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبدًا علينا عَنوة ، ولا يتحدث بذلك العرب . ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أحد بني عامر بن لؤي ، فلما رآه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **هذا رجل غادر** » . فلما انتهىٰ إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كلّمه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بنحو مما كَلّم به أصحابه ، ثم رجع إلىٰ قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ، فبعثوا إليه الحليس[١١] بن علقمة الكناني ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - قال : « **هذا من قوم يتألهون[١٢] ، فابعثوا الهَدْي [في وجهه** »][١٣] ، فبعثوا الهدي][١٤] ، فلما رأىٰ الهدي يسيل عليه من عُرْض الوادي في قلائده قد أكل أوتاره[١٥] من طول الحبس عن

---

[١] - في ز : المدار .

[٢] - في ز ، خ : تعصوني . كذا .

[٣] - في ز : فسألوني .

[٤] - سقط من ت .

[٥] - في ز : فغرسه .

[٦] - في ز : إن .

[٧] - في ز : وكانت .

[٨] - في ز ، خ : غيبة .

[٩] - في ت : في .

[١٠] - سقط من خ .

[١١] - في ز : الجليس .

[١٢] - في ز ، خ : يياهلون .

[١٣] - سقط من ز .

[١٤] - سقط من ز ، خ .

[١٥] - في ز ، خ : أوباره .

محله ، رجع ولم يصل إلىٰ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم إعظامًا لما رأىٰ ، فقال : يا معشر قريش ، قد رأيت ما لا يحل صَده ، الهدي في قلائده قد أكل أوتاره[١] من طول الحبس عن محله . قالوا : اجلس ، إنما أنت أعرابي لا علم لك . فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي ، فقال : يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما يلقىٰ منكم من تبعثون إلىٰ محمد إذا جاءكم ، من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني[٢] من قومي ، [ثم جئت][٣] حتىٰ آسيتكم[٤] بنفسي . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتىٰ أتىٰ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فجلس بين يديه ، فقال : يا محمد ، جمعت أوباش الناس ، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضّها ، إنها قريش قد خرجت معها العُوذ المطافيل ، قد لبسوا جلُود النمور ، يعاهدون اللّٰه أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا . وايم اللّٰه لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا . قال : وأبو بكر قاعد خلف رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فقال : امصص بَظر اللات ! أنحن ننكشف عنه ؟ ! قال : من هذا يا محمد ؟ قال : « **هذا ابن أبي قُحافة** » . قال : أما واللّٰه لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها . ثم تناول لحية رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم والمغيرة بن شعبة واقف علىٰ رأس رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم [في الحديد][٥] ، قال : فقَرع يده . ثم قال : أمسك يدك عن لحية رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم [قبل - واللّٰه - لا تصل إليك[٦] . قال : ويحك ! ما أفظك[٧] وأغلظك ! فتبسم رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ،][٨] قال : من هذا يا محمد ؟ قال صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة** » قال : أغُدَرُ ، وهل غسلت[٩] سوأتك إلا بالأمس ؟ ! قال : فكلمه رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم بمثل ما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربًا . قال[١٠] : فقام من عند رسول اللّٰه و قد رأىٰ ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه ، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلىٰ قريش فقال : يا معشر قريش ، إني جئتُ كسرىٰ في ملكه ، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما ، واللّٰه ما رأيت مَلكا قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدًا ، فرَوا رأيكم . قال : وقد كان رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعي إلىٰ مكة ، وحمله علىٰ جمل له يقال له :

---

[١] - في ز ، خ : أوباره .
[٢] - في ز : طاعني .
[٣] - في ز : فجئت .
[٤] - في ز : آسيكم .
[٥] - في ز : بالحديد .
[٦] - في ز : إليه .
[٧] - في ت : أفظعك .
[٨] - ما بين المعكوفين سقط من خ .
[٩] - في خ : علمت .
[١٠] - في ز : فقال .

« **الثعلب** » ، فلما دخل مكة عقرت به قريش ، وأرادوا قتل خراش ، فمنعتهم الأحابيش حتىٰ أتىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فدعا عمر ليبعثه إلىٰ مكة ، فقال : يا رسول اللَّه ، إني أخاف قريشًا علىٰ نفسي ، وليس بها من بني عَدي أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي[١] عليها ، ولكن أدلّك على رجل هو أعز مني : عثمان بن عفان . قال : فدعاه رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم [فبعثه إلىٰ قريش][٢] يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد ، وإنما[٣] جاء زائرًا لهذا البيت ، معظمًا لحرمته . فخرج عثمان حتىٰ أتىٰ مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ، فنزل عن دابته وحمله[٤] بين يديه ورَدِف خلفه ، وأجاره حتىٰ بَلّغَ رسالة رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فانطلق عثمان حتىٰ أتىٰ أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلّغهم عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ما أرسله به ، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ به . فقال : ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به[٥] رسول اللَّه قال : واحتبسته قريش عندها ، قال : وبلغ رسول اللَّه أن عثمان قد قُتل .

قال محمد : فحدثني الزهري : أن قريشًا بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا : ائت محمدًا فصالحه ولا تكن[٦] في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فواللَّه لا تَحدّثُ العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدًا . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم؛ قال : « **قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل** » . فلما انتهىٰ إلىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم تكلما وأطالا الكلام ، وتراجعا حتىٰ جرىٰ بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأتىٰ أبا بكر فقال : يا أبا بكر ؛ أو ليس برسول اللَّه ؟ أوَ لسنا بالمسلمين ؟ أوَ ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلىٰ . قال : فعلام نعطي الذلة في ديننا ؟ فقال أبو بكر : [يا عمر][٧] ؛ الزم غَرْزَه حيث كان فإني أشهد أنه رسول اللَّه . قال عمر : وأنا أشهد . ثم أتىٰ رسول اللَّه فقال : يا رسول اللَّه ، أوَ لسنا بالمسلمين ؟ أوَ ليسوا بالمشركين ؟ قال : « **بلىٰ** » . قال : فعلام نعطي الذلة في ديننا ؟ فقال : « **أنا عبد اللَّه ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني** » . ثم قال عمر : ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتىٰ رجوت أن يكون خيرًا . قال : ثم دعا رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم علي بن أبي طالب فقال : « **اكتب بسم اللَّه الرحمن الرحيم** » . [فقال سهيل بن عمرو][٨] : ولا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللَّهم . فقال رسول اللَّه : « **اكتب باسمك اللَّهم . هذا ما صالح**[٩] **عليه محمد**

---

[١] - في ز : غلظي .

[٢] - سقط من ز ، خ .

[٣] - في ز : وإنه .

[٤] - في ز : وحمل .

[٥] - سقط من خ .

[٦] - في ت : يكون .

[٧] - سقط من خ .

[٨] - سقط من ز ، خ .

[٩] - في ت : صلح .

رسول الله [سهيل بن عمرو » ،][١] **فقال سهيل بن عمرو : ولو**[٢] شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب هذا ما صالح [٣] عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو ، علىٰ وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، علىٰ أنه من أتىٰ رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن أتىٰ قريشًا ممن مع رسول الله لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة[٤] ، وأنه لا أسلال ولا أغلال ، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب : أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد رسول الله وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم . وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك ، وأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير[٥] السيوف في القرب ، فبينا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلىٰ رسول الله ،قال : وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل رسول الله علىٰ نفسه ، دخل الناس من ذلك أمر عظيم ، حتىٰ كادوا أن يهلكوا . فلما رأىٰ سهيل أبا جندل قام إليه [فضرب وجهه][٦] وقال : يا محمد ، قد لجّت[٧] القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : « **صدقت** » . فقام إليه فأخذ بتلابيبه[٨] . قال : وصرخ أبو جندل بأعلىٰ صوته : يا معاشر المسلمين ، أتردونني إلىٰ أهل الشرك فيفتنوني في ديني ؟ قال : فزاد الناس شرًّا إلىٰ ما بهم ، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **يا أبا جندل [اصبر و]**[٩] **احتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا فأعطيناهم [علىٰ ذلك وأعطونا عليه]**[١٠] **عهدًا ، وإنا لن نغدر بهم** » . قال : فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشي مع أبي جندل إلىٰ جنبه و هو[١١] يقول : اصبر أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدني[١٢] قائم السيف منه ، قال : يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه .

---

[١] - سقط من ز ، خ .
[٢] - في ز : إن .
[٣] - في ث : اصطلح .
[٤] - في ز ، خ : مكتوبة .
[٥] - في ز ، خ : معي .
[٦] - في خ : « فضربه » .
[٧] - في ز : تمت .
[٨] - في ز : بتلبيبه .
[٩] - سقط من ز ، خ .
[١٠] - ما بين المعكوفين في ز : « وأعطونا على ذلك » .
[١١] - سقط من ز .
[١٢] - في ز ، خ : وبدا .

قال : فضِّ الرجل بأبيه . قال[١] : ونفذت القضية ، فلما فرغا من الكتاب ، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يصلي في الحرم ، وهو مضطرب في الحل ، قال : فقام رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس ، انحروا واحلقوا » . قال : فما قام أحد . قال : ثم عاد بمثلها ، فما قام رجل [حتىٰ عاد صلىٰ الله عليه وسلم بمثلها ، فما قام رجل][٢] .

فرجع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فدخل علىٰ أم سلمة فقال : « يا أم سلمة ، ما شأن الناس ؟ » . قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت ، فلا تُكلِّمنَّ منهم إنسانًا ، واعمد إلىٰ هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لا يكلم أحدًا حتىٰ أتىٰ هديه فنحره ، ثم جلس فحلق ، قال : فقام الناس ينحرون ويحلقون . قال : حتىٰ إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح .

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه ، وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي عن ابن إسحاق بنحوه وفيه إغراب . وقد رواه أيضًا عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، به نحوه ، وخالفه في أشياء . وقد رواه البخاري رحمه الله في صحيحه ، فساقه سياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة ، فقال في كتاب الشروط من صحيحه(٦٤) :

حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، أخبرني الزهري، أخبرني عروة بن الزبير ، عن المسور بن مخرمة ومَروان بن الحكم ، يصدّق كل واحد منهما حديث صاحبه ، قالا : خرج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم زَمَن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتىٰ ذا الحليفة قَلَّدَ الهدي وأشعره ، وأحرم منها بعُمرة وبعث عينًا له من خزاعة[٣] ، وسار حتىٰ إذا كان بغدير الأشطاط[٤] أتاه عينه فقال : إن قريشًا قد جَمَعوا لك جموعًا ، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك . فقال : « أشيروا -أيها الناس- عليّ ، أترون أن نميل علىٰ عيالهم . وذراريّ هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » - وفي لفظ : « أترون أن نميل علىٰ ذراري هؤلاء الذين أعانوهم . [فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنقًا من المشركين وإلا تركناهم محزونين » . وفي

(٦٤) - صحيح البخاري في الشروط ، ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، حديث (٢٧٣١،٢٧٣٢) وانظر التخريج السابق .

[١] - سقط من خ .

[٢] - ما بين المعكوفين سقط من ز ، خ .

[٣] - في خ : جماعة .

[٤] - في ز : الأشظاظ .

لفظ][١]: « **فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين**[٢] **محروبين**[٣] **وإن نجوا**[٤] **يكن عُنُقًا قطعها الله ، أم تَرَوْن أن نَؤُمّ البيت فمن صَدّنا عنه قاتلناه**[٥] ؟ » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ؛ خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربًا . فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه - وفي لفظ : فقال أبو بكر رضي الله عنه : الله ورسوله أعلم[٦] إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن مَن حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **فروحوا إذن** » . وفي لفظ : « **فامضوا علىٰ اسم الله** » .

حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **إن**[٧] **خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين** » . فوالله ما شعر بهم خالد حتىٰ إذا هم بقَتَرة الجيش ، فانطلق يركض نذيرًا لقريش ، وسار النبي صلىٰ الله عليه وسلم حتىٰ إذا كان بالثنية التي يُهبَطُ عليهم منها ، بَرَكت به راحلته ، فقال الناس : حَلْ حَلْ ، فَأَلَحّت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل** » . ثم قال : « **والذي نفسي بيده ، لا يسألوني خُطّة يعظمون فيها حرمات الله ، إلا أعطيتهم إياها** » . ثم زجرها فوثبت ، فعدل عنهم حتىٰ نزل بأقصىٰ الحُديبية علىٰ ثَمَدٍ قليل الماء يتبرّضه الناس تَبَرّضًا ، فلم يلبث[٨] الناس حتىٰ نزحوه ، وشُكي إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم العطش ، فانتزع من كنانته سهمًا ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّي حتىٰ صدروا عنه . فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عَيْبَة[٩] نصح رسول الله من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر ابن لؤي ، نزلوا أعدادًا[١٠] مياه الحديبية معهم العُوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشًا قد نَهَكَتْهُم الحرب فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم**[١١] **مُدة ويُخَلّوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جَمّوا**[١٢] ، **وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم علىٰ أمري هذا حتىٰ تنفرد سالفتي ، و**[١٣] **لينفذن الله أمره** » . قال بُديل : سأبلغهم[١٤] ما تقول . فانطلق حتىٰ أتىٰ

---

[١] - ما بين المعكوفين بياض في ز . وسقط من خ .

[٢] - في ز : مجهورين .

[٣] - سقط من خ .

[٤] - في ز : بياض . وسقط من خ .

[٥] - في ز : قاتلنا .

[٦] - في ت ، خ : علم .

[٧] - في خ : أتى .

[٨] - في ز : يلبثه .

[٩] - في ز ، خ : عبيد .

[١٠] - في ت : أعداد .

[١١] - في ز : مادوتهم .

[١٢] - في ز : حموا .

[١٣] - في خ : أو .

[١٤] - في ز : سأسمعهم .

قريشًا فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولًا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فقام عروة بن مسعود فقال : أيْ قوم ، ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلىٰ . قال : أو لست بالولد ؟ قالوا : بلىٰ . قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا . قال : ألستم تعلمون أني استنفَرتُ أهل عكاظ ، فلما بَلَّحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلىٰ . قال : فإن هذا قد عَرض عليكم خُطة رُشد فاقبلوها ودعوني آته . قالوا : ائته . فأتاه فجعل يكلم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم له نحوًا من قوله لبُديل بن ورقاء . فقال عروة عند ذلك : أيْ محمد ، أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تك الأخرىٰ فإني والله لأرىٰ وجوهًا ، وإني لأرىٰ أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويَدَعوك . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : امصص بَظر اللات ! أنحن نفرّ وندعه ؟! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يَد كانت[١] لك عندي لم أجزك بها ، لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم علي رأس النبي صلىٰ الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المِغْفَر ، فكلما أهوىٰ عروة بيده إلى لحية النبي صلىٰ الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف ، وقال له[٢] : أخِّرْ يدك عن لحية النبي صلىٰ الله عليه وسلم . فرفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أي غُدر ، ألست أسعىٰ في غَدْرتك ؟ ! وكان المغيرة بن شعبة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال : النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **أما الإِسلام فأقبلُ ، وأما المالُ فلست منه في شيء** » . ثم إن عروة جعل يَرمُق أصحاب[٣] النبي صلىٰ الله عليه وسلم بعينيه ، قال : فوالله ما تنخم رسول الله نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فَدلَك بها وجهه وجلْده ، وإذا أمَرَهم ابتدَرُوا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علي وَضُوئه ، وإذا تكلم خَفَّضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدون النظر إليه ، تعظيمًا له صلىٰ الله عليه وسلم . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أيْ قوم ، والله لقد وفدت علىٰ الملوك ، ووفدت[٤] علىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي ، والله إنْ رأيت مَلِكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علي وَضُوئه ، وإذا تكلم خفَّضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدون النظر إليه تعظيمًا له . وإنه قد عَرَض عليكم خُطة

---

[١] - سقط من ز .

[٢] - سقط من ز ، خ .

[٣] - سقط من خ .

[٤] - في ز : وفدت .

رشْد فاقبلوها . فقال رجل منهم من بني كنانة : دعوني آته . فقالوا :ائته . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البُدْن ، فابعثوها له** » ، فبُعثَتْ له ، واستقبله الناس يُلبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت . فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشْعِرَت ، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت . فقام[١] رجل منهم يقال له : « **مكرَز بن حفص** » ، فقال : دعوني آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **هذا مكرز ، وهو رجل فاجر[٢]** » . فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو .

وقال معمر : أخبرني أيوب ، عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **قد سَهُل لكم من أمركم** » .

قال معمر : قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا و بينك كتابًا . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **اكتب[٣] بسم الله الرحمن الرحيم** » . فقال سهيل : أما « الرحمن » فوالله ما أدري ما هو ؟ ، ولكن اكتب : باسمك اللّهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا[٤] نكتبها إلا : « **بسم الله الرحمن الرحيم** » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **اكتب : باسمك اللّهم** » . ثم قال :هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **والله إني لرسول الله وإن كذبتموني . اكتب محمد بن عبد الله** » . قال الزهري : وذلك لقوله : « **والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها** » . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « **على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به** » . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنَا ضُغْطَة ، ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب ، فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددتَه إلينا . فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يُرَد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا ؟ ! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر[٥] المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إليّ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « **إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد** » . قال : فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبدًا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

---

[١] - في ت : فقال .
[٢] - في خ : تاجر .
[٣] - سقط من ت .
[٤] - في ز : ما .
[٥] - سقط من خ .

« **فَأجِزْه لي** » . فقال : ما أنا بمجيز ذلك لك . قال : « **بلى**[١] **فافعل** » . قال : ما أنا بفاعل . قال مكْرَز : بلىٰ قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أُرَدّ إلىٰ المشركين وقد جئت مسلمًا ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ ! وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله عز وجل . قال عمر رضي الله عنه : فأتيت نبي الله صلىٰ الله عليه وسلم فقلتُ : ألستَ نبي الله حقًّا ؟ قال صلىٰ الله عليه وسلم : « **بلىٰ** » . قلت : ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل ؟ قال : « **بلىٰ** » . قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : إني رسول الله ؛ ولستُ أعصيه ، وهو ناصري . قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « **بلىٰ ، أفأخبرتك**[٢] **أنا نأتيه العام ؟** » . قلت : لا . قال : « **فإنك آتيه ومُطَّوِّف به** » . قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر ؛ أليس هذا نبي الله حقًّا ؟ قال : بلىٰ . قلت : ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل ؟ قال : بلىٰ . قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل ؛ إنه رسول الله ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغَرْزه ، فو الله إنه علىٰ الحق . قلت : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلىٰ . قال : [أفأخبرك أنك تأتيه][٣] العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به .

قال الزهري : قال عمر : فعملت لذلك أعمالًا . قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لأصحابه : « **قوموا فانحروا ثم احلقوا** » . قال : فوالله ما قام منهم رجل حتىٰ قال ذلك ثلاث مرات ! ! فلما لم يقم منهم أحد دخل علىٰ أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت له أم سلمة : يا نبي الله ؛ أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتىٰ تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتىٰ فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا ، حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا ، ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ حتىٰ بلغ : ﴿ **بعِصَم الكوافر** ﴾ . فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية ابن أبي سفيان ، والأخرىٰ صفوان بن أمية . ثم رجع النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، فقالوا : العهدَ الذي جعلت لنا ؟ . فدفعه إلىٰ الرجلين فخرجا به حتىٰ بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرىٰ سيفك هذا يا فلان جيدًا . فاستلّه الآخر . فقال : أجَل والله إنه لجيد ، لقد جرّبت منه ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر

---

[١] - في ز : بلى . [٢] - في ز : فأخبرتك .

[٣] - في ز : فأخبرك أنه يأتيه » .

إليه . فأمكنه منه فضربه حتىٰ بَرَد ، وفرّ الآخر حتىٰ أتىٰ المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم حين رآه : « **لقد رأىٰ هذا ذُعْرًا** » . فلما انتهىٰ إلىٰ النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال : قُتل واللّٰه صاحبي ، وإني لمقتول . فجاء أبو بصير فقال : يا رسول اللّٰه ؛ قد - واللّٰه - أوفىٰ اللّٰه ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم نجاني اللّٰه منهم . فقال النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **ويل أمّه مِسْعَرَ حرب ! لو كان له أحد** » . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتىٰ أتىٰ سِيفَ البحر : قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتىٰ اجتمعت منهم عصابة ، فواللّٰه ما يسمعون بعِيْرٍ خرجت لقريش إلىٰ الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلىٰ النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم تناشده اللّٰه والرحم لمَّا أرسل إليهم : « **فمن أتاه منهم فهو آمن** » . فأرسل النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم إليهم وأنزل اللّٰه عز وجل : ﴿ **وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة** ﴾ حتىٰ بلغ : ﴿ **حمية الجاهلية** ﴾ ، وكانت حميتهم أنهم لم يُقروا أنه رسول اللّٰه ، ولم يقروا بسم اللّٰه الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت .

هكذا ساقه البخاري هاهنا . وقد أخرجه في التفسير . وفي عُمرة الحديبية ، وفي الحج ، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة ، كليهما[١] عن الزهري به . ووقع في بعض الأماكن عن الزهري ، عن عروة ، عن[٢] مروان والمسور ، عن رجال من أصحاب النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم بذلك . وهذا أشبه واللّٰه أعلم . ولم يسقه أبسط من هاهنا ، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع ، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلىٰ ما هاهنا ، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه ، واللّٰه المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العزيز الحكيم .

وقال البخاري في التفسير(٦٥) : حدثنا أحمد بن إسحاق السّلَمي ، حدثنا يعلىٰ ، حدثنا عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبي ثابت ؛ قال : أتيت أبا وائل أسأله فقال : كنا بصفين فقال رجل : ألم تر إلىٰ الذين يُدعون إلىٰ كتاب اللّٰه ؟ فقال علي بن أبي طالب : نعم . فقال سهل بن حُنَيف : اتّهِمُوا[٣] أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني الصلح الذي كان بين النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم و[بين][٤] المشركين - ولو نرىٰ قتالًا لقاتلنا ،

---

(٦٥) - صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب : (إذ يبايعونك تحت الشجرة) حديث (٤٨٤٤) ، وأخرجه البخاري أيضاً في الجزية والموادعة ، حديث (٣١٨٢) ومسلم في الجهاد والسير ، حديث (١٧٨٥) والنسائي في التفسير (٥٢٤) من طريق عبد العزيز بن سيارة به وأخرجه البخاري في (٤١٨٩-٧٣٠٨) ، ومسلم في (١٧٨٥) من طرق عن أبي وائل به .

---

[١] - في ز : كلاهما .
[٢] - في ز : بن .
[٣] - في ز : إنهم .
[٤] - سقط من ت .

فجاء عمر فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ فقال : « بلىٰ » . قال : ففيم نُعطي الدنية في ديننا ونرجع ولمّا يحكم اللَّه بيننا ؟ فقال : « **يا بن الخطاب ؛ إني رسول اللَّه ، ولن يضيعني اللَّه أبدًا** » . فرجع مُتَغَيِّظًا فلم يصبر حتىٰ جاء[١] أبا بكر فقال : يا أبا بكر ؛ ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فقال : يا بن الخطاب ؛ إنه رسول اللَّه ، ولن يضيعه اللَّه[٢] أبدًا . فنزلت سورة الفتح .

وقد رواه البخاري أيضًا في مواضع أخر ، ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي وائل سفيان[٣] بن سلمة ، عن سهيل[٤] بن حنيف به . وفي بعض ألفاظه : يا أيها الناس ؛ اتهموا الرأي ، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أمره لرددته . وفي رواية : فنزلت سورة الفتح ، فدعا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عمر بن الخطاب فقرأها عليه .

وقال الإمام أحمد(٦٦) : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس أن قريشا صالحوا النبي صلى اللَّه عليه وسلم فيهم سهيل[٥] بن عمرو ، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم لعليّ : « **اكتب : بسم اللَّه الرحمن الرحيم** » . فقال سهيل : لا ندري ما بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللّهم . فقال : « **اكتب من محمد رسول اللَّه** » . قال : لو نعلم[٦] أنك رسول اللَّه لاتبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « **اكتب من محمد بن عبد اللَّه** » . واشترطوا على النبي صلى اللَّه عليه وسلم أن من جاء منكم لا[٧] نرده عليكم ، ومن جاءكم[٨] منا رددتموه علينا . فقال : يا رسول اللَّه ؛ أنكتب[٩] هذا ؟ قال : « **نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده اللَّه** » . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به[١٠] .

وقال أحمد أيضًا(٦٧) : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا عكرمة بن عمار

(٦٦) - المسند (٣/٢٦٨) ، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير ، حديث (١٧٨٤) عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان به .

(٦٧) - المسند (٣٤٢/١) ، وأخرجه النسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٥٦٨٠) عن عمرو بن على الفلاس عن عبدالرحمن بن مهدي به .

[١] - في ز : أتى . [٢] - سقط من ز ، خ .

[٣] - كذا في كل الأصول سفيان ، ولعل الصواب : شقيق .

[٤] - في ز ، خ : سهل . [٥] - في خ : سهل .

[٦] - في ز : علمنا . [٧] - في ز : لم .

[٨] - في خ : جاء . [٩] - في ت : أتكتب .

[١٠] - سقط من خ .

قال[١] : حدثني سماك ، عن عبد الله بن عباس قال : لما خرجت الحرورية اعتزلوا[٢] ، فقلت لهم : إن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يوم الحديبية صالح المشركين ، فقال لعليّ : « **اكتب يا عليّ ؛ هذا ما صالح عليه محمد رسول الله** » . قالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك . فقال رسول الله : « **امح يا علي ؛ اللّهم ؛ إنك تعلم أني رسولك ، امح يا عليّ واكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله** » . والله لرسول الله خير من علي ، وقد محا نفسه ، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم .

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامي ، بنحوه .

وروىٰ الإمام أحمد(٦٨) ، عن يحيىٰ بن آدم : [حدثنا زهير][٣] ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ ، عن الحكم ، عن مقْسم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ قال : نحر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل ، فلما صُدّت عن البيت حَنَّت كما تَحِنّ إلىٰ أولادها .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قد أُرِيَ في المنام أنه دخل مكة وطاف [ ][٤] بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ، ورجعوا عامهم ذلك علىٰ أن يعودوا من قابل ، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء ، حتىٰ سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « **بلىٰ** ، [ ][٥] **أفأخبرتك أنك تأتيه[٦] عامك هذا ؟** » . قال : لا ، قال : « **فإنك آتيه ومُطوِّف به** » . وبهذا أجاب الصديق ، رضي الله عنه ، أيضا حَذْو [القُذّة

(٦٨) - المسند (٣١٤/١) وقد حسن إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند .

[١] - سقط من خ .
[٢] - في ز : اعزلوا .
[٣] - في ز ، خ : عن ابن نمير .
[٤] - في ز : بها .
[٥] - في ز : قال .
[٦] - في ز : آتيه .

بالقُذّة][١] . ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه** ﴾ : هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء في شيء ، ﴿ **آمنين** ﴾ أي : في حال دخولكم . وقوله : ﴿ **محلقين رءوسكم ومقصرين** ﴾ ، حال مقدرة ، لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره .

وثبت في الصحيحين(٦٩) أن رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم قال : « **رحم اللّه المحلقين** » . قالوا : والمقصرين يا رسول اللّه ؟ قال : « **رحم اللّه المحلقين** » . قالوا : والمقصرين يا رسول اللّه ؟ قال : « **رحم اللّه المحلقين** » . قالوا : والمقصرين يا رسول اللّه ؟ قال : « **والمقصرين** » في الثالثة أو الرابعة .

وقوله : ﴿ **لا تخافون** ﴾ : حال مؤكدة في المعنىٰ ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفىٰ عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد . وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلىٰ المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم ، وخرج في صفر إلىٰ خيبر ففتحها اللّه عليه بعضها عَنوة وبعضها صلحًا ، وهي إقليم عظيم كثير النخيل[٢] والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها علىٰ الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة ، جعفر ابن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسىٰ الأشعري وأصحابه ، ولم يغب منهم أحد - قال ابن زيد : إلا أبا دجانة [سماك بن خرشة][٣] ، كما هو مقرر في موضعه - ثم رجع إلىٰ المدينة . فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج إلىٰ مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحُلَيفة ، وساق معه الهَدْي ، قيل : كان ستين بدنة . فلبّىٰ وسار وأصحابه يُلَبّون . فلما كان قريبا من مَرّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رُعبوا رعبًا شديدًا وظنوا[٤] أن رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين ، وذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم فنزل بمر[٥] الظهران حيث ينظر إلىٰ أنصاب الحرم بعث السلاح من[٦] القسي والنبل والرماح إلىٰ بطن يَأجج ، وسار إلىٰ مكة بالسيوف مغمدة في قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء

---

(٦٩) - تقدم في تفسير سورة البقرة عن الآية (١٩٦) .

---

[١] - في خ : بعده .
[٢] - في ت : النخل .
[٣] - بياض في ز ، خ .
[٤] - في ز : فظنوا .
[٥] - في ز : مر .
[٦] - في ز : مع .

الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا مُحمد ، ما عرفناك تنقض العهد . قال : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال : « **لم يكن**[١] **ذلك ، وقد بعثنا به إلىٰ يأجج** » . فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رءوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم وإلىٰ أصحابه غيظًا وحنقًا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلىٰ البيوت ينظرون إلىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يُلبّون ، والهدي قد بعثه إلىٰ ذي طُوَىٰ وهو راكب ناقته القصواء[٢] التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد اللَّه بن رَوَاحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يقودها ، وهو يقول :

باسْم الذي لا دينَ إلا دينُهُ   باسْم الذي محمدٌ رَسُولُه
خَلّوا بَني الكُفّار عَنْ سَبِيله   اليَوْمَ نَضْرِبكُم عَلَىٰ تَأْويله
كَمَا ضَرَبْنَاكُم عَلىٰ تَنْزيله   ضَرْبًا يُزيلُ الهَام عَنْ مَقِيله
وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَن خليله   قَدْ أَنْزَلَ الرّحْمَنُ في تَنْزيله
في صُحُف تُتْلَىٰ عَلىٰ رَسُوله   بِأَن خَير القَتْل في سَبِيله
يارَب إنـي مُؤْمِنٌ بِقِيلـه

فهذا مجموع من روايات متفرقة .

قال يونس بن بكير (٧٠) ، عن محمد بن إسحاق : حدثني عبد اللَّه بن أبي بكر بن حزم قال : لما دخل رسول اللَّه - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - مكة في عُمرة القضاء ، دخلها وعبد اللَّه بن رواحة آخذ بخطام ناقته صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وهو يقول :

خَلّوا بَني الكُفّار عَنْ سَبِيله   إنّي شَهِيدٌ أنه رَسُولُه
خَلّوا فَكلّ الخَيْر في رَسُوله   يَارَبّ إنّي مُؤْمنٌ بقيله
نَحن قَتَلْنَاكُم عَلىٰ تَأْويله   كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَىٰ تَنْزيله
ضَرْبًا يُزيل الهَام عَنْ مَقيله   وَيُذهلُ الخَليلَ عَن خَليله

وقال عبد الرزاق(٧١) : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك ؛ قال : لما دخل رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم مكة في عمرة[٣] القضاء ، مشىٰ عبد اللَّه بن رواحة بين

(٧٠) - سيرة ابن هشام (٣/٣٢٠-٣٢١) ، ومن طريقه أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٢٣) .
(٧١) - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٢٢) بسنده إلى عبدالرزاق به .

[١] - سقط من ز ، خ .
[٢] - في ز : القصوى .
[٣] - في ز ، خ : غزوة .

يديه ، وفي رواية : وابن رواحة آخذ بغَرْزه ، وهو يقول :

خَلّوا بَنِي الكُفَّار عَن سَبيله قَدْ نَزّل الرّحْمَنُ في تنزِيله
بأَنّ خَيْر القَتْل في سَبيله يارَبّ إنّي مُؤمِنٌ بقيله
نَحن قَتَلنَاكمْ عَلىٰ تَأوِيله كَمَا قَتَلنَاكُم عَلىٰ تَنزِيله
ضَربًا يُزِيل الهَام عَنْ مَقيله ويُذْهِل الخَلِيل عَنْ خَليله

وقال الإمام أحمد (٧٢) : حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا إسماعيل - يعني ابن زكريا - عن عبد الله - يعني ابن عثمان - عن أبي الطفيل ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لما نزل مَرّ الظهران في عمرته ، بلغ أصحابَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أن قريشًا ما يتباعثون من العَجَف ، فقال أصحابه : لو انتحرنا[١] من ظهرنا فأكلنا من لحمه ، وحَسَونا من مَرَقه ، أصبحنا غدًا حين ندخل علىٰ القوم وبنا جَمَامَة . قال : « **لا تفعلوا ولكن اجمعوا لي من أزوادكم** » . فجمعوا له وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتىٰ تركوا ، وحثا[٢] كل واحد منهم في جرَابه . ثم أقبل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حتىٰ دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر ، فاضطبع[٣] بردائه ، ثم قال : « **لا يرىٰ القوم فيكم غميزة** » . فاستلم الركن ثم رمل حتىٰ إذا تغيب بالركن اليماني مشىٰ إلىٰ الركن الأسود ، فقالت قريش : ما ترضون بالمشي أما إنكم [لتنقُزُون نَقْزَ][٤] الظباء ، [ففعل ذلك ثلاثة أشواط][٥] ، فكانتْ سُنَّة . قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فعل ذلك في حجة الوداع .

وقال أحمد أيضًا(٧٣) : حدثنا يونس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد [ ][٦] بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه مكة

---

(٧٢) - المسند (١/٣٠٥) ، وأخرجه أيضاً في (١/٢٤٧،٢٩٥،٣٠٦،٣١٤) ، وأبو داود في المناسك ، باب في الرمل حديث (١٨٨٩،١٨٩٠) - مختصراً - ، وابن ماجه في المناسك باب : الرمل حول البيت ، حديث (٢٩٥٣) - مختصراً - من طريق عبدالله بن عثمان بن خيثم به .

(٧٣) - المسند (١/٢٩٤) ، وأخرجه أحمد في (١/٢٩٠) والبخاري في كتاب الحج ، باب : كيف كان بدء الرمل ؟ حديث (١٦٠٢) ومسلم في كتاب الحج ، حديث (١٢٦٦) وأبو داود في كتاب المناسك ، باب : في الرمل ، حديث (١٨٨٦) والنسائي في مناسك الحج ، باب العلة التي من أجلها سعى النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت (٥/٢٣٠-٢٣١) من حديث حماد بن زيد به .

---

[١] - في خ : استحرنا .
[٢] - في ز : وحسا .
[٣] - في ز : فاضطجع .
[٤] - في ز ، خ : لتنقرون نقر .
[٥] - في ز ، خ : « يفعل ذلك ثلاثة أطواف » .
[٦] - في ز : عن .

وقد وَهَنتهم حُمَّىٰ يثرب ، ولقوا منها سوءًا ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمىٰ يثرب ولقوا منها شرًا . وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر ، فأطلع الله نبيه صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ ما قالوا ، فأمر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أن يَرمُلوا الأشواط الثلاثة ليرىٰ المشركون جَلَدهم ، قال : فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون ، ولم يمنع النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم ، فقال المشركون : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمىٰ قد[١] وهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا .

أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد ، به . وفي لفظ : قدم النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه صبيحة رابعة ، أي من ذي القعدة ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم و[فد][٢] قد وهنتهم حمىٰ يثرب . فأمرهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

قال البخاري (٧٤) : وزاد ابن[٣] سلمة - يعني حماد بن سلمة - عن أيوب ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس؛ قال : لما قدم النبي صلىٰ الله عليه وسلم لعامه الذي استأمن قال : « ارملوا » . ليُرِيَ المشركين[٤] قوتهم ، والمشركون من قبل قُعَيقعَان[٥] .

وحدثنا محمد(٧٥) ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس؛ قال : إنما سعىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم بالبيت وبالصفا والمروة ، ليرىٰ المشركون[٦] قوته .

ورواه في مواضع أخر ، ومسلم والنسائي ، من طرق ، عن سفيان بن عيينة به .

وقال أيضًا(٧٦) : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد سمع ابن أبي أوفىٰ؛ يقول : لما اعتمر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم سترناه من غلمان المشركين . ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم. انفرد به البخاري دون مسلم .

---

(٧٤) - صحيح البخاري في المغازي ، باب : عمرة القضاء حديث (٤٢٥٦) ، وانظر السابق .

(٧٥) - صحيح البخاري في المغازي ، باب : عمرة القضاء ، حديث (٤٢٥٧) ، انظر الحديث (٢٨) .

(٧٦) - صحيح البخاري كتاب المغازي ، باب : عمرة القضاء ، حديث (٤٢٥٥) وأطراف الحديث عند البخاري في (١٦٠٠،١٧٩١،٤١٨٨) .

---

[١] - سقط من ز ، خ .

[٢] - سقط من ز .

[٣] - في ز : أبو .

[٤] - في ز : المشركون .

[٥] - في ز ، خ : قيقعان .

[٦] - في ز : المشركين .

وقال البخاري أيضًا (٧٧) : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا فُلَيح (ح)[١] وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، حدثنا فُليح بن سليمان ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم خرج معتمرا ، فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية ، وقاضاهم علىٰ أن يعتمر العام المقبل ، ولا يحمل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا ، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا . فاعتمر من العام المقبل ، فدخلها كما كان صالحهم ، فلما أن أقام بها ثلاثًا[٢] أمروه أن يخرج ، فخرج .

وهو في صحيح مسلم أيضًا .

وقال البخاري أيضًا(٧٨) : حدثنا عبيد الله بن موسىٰ ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ؛ قال : اعتمر النبي صلىٰ الله عليه وسلم في ذي القعدة ، فأبىٰ أهل مكة أن يَدعوه يدخل مكة حتىٰ قاضاهم علىٰ أن يُقيم[٣] بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : « **هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله** » . قالوا : لا نقر بهذا ، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا ، ولكن أنت محمد بن عبد الله . قال : « **أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله** » . ثم قال لعلي بن أبي طالب : « **امحُ رسول الله** » . قال : لا ، والله لا أمحوك أبدًا ؛ فأخذ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم الكتاب ، وليس يحسن يكتبُ ، فكتب : « **هذا ما قاضىٰ عليه محمد بن عبد الله : لا يُدْخِلُ مكة السلاحَ إلا السيف في القِرَاب ، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يقيم بها** » . فلما دخلها ومضىٰ الأجل ، أتوا عليًا فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضىٰ الأجل . فخرج النبي صلىٰ الله عليه وسلم فتبعته ابنة حمزة تنادي : يا عمّ يا عمّ . فتناولها عليّ فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة : دونك ابنةَ عمك . فحملتها[٤] ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ، فقال عليّ : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي . وقال زيد : ابنة أخي . فقضىٰ بها النبي صلىٰ الله عليه وسلم لخالتها ، وقال : « **الخالة بمنزلة الأم** » . وقال لعلي : « **أنت مني وأنا منك** » . وقال لجعفر : « **أشبهت خَلقي وخُلُقي** » . وقال لزيد : « **أنت أخونا ومولانا** » . قال علي : ألا تتزوج ابنة حمزة ؟

(٧٧) - صحيح البخاري كتاب الصلح ، باب : الصلح مع المشركين ، حديث (٢٠٧١) ، وفي المغازي ، باب عمرة القضاء ، حديث (٤٢٥٢) وأخرجه مسلم في الحج ، حديث (١٢٢٧) من طريق سالم عن ابن عمر به .

(٧٨) - صحيح البخاري في المغازي ، باب عمرة القضاء ، حديث (٤٢٥١) .

[١] - سقط من خ .
[٢] - سقط من ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : يقيموا .
[٤] - في ز : فاحتملتها .

قال : « إنها ابنة أخي من الرضاعة » . انفرد به من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ **فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا** ﴾ أي فعلم[١] اللّٰه تعالىٰ من الخيرة والمصلحة في صَرْفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم ، ﴿ **فجعل من دون ذلك** ﴾ أي : قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فتحًا قريبًا ، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

ثم قال تعالىٰ مبشرًا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات اللّٰه عليه علىٰ عدوه وعلىٰ سائر أهل الأرض : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق** ﴾ ، أي : بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل علىٰ شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ، ﴿ **ليظهره علىٰ الدين كله** ﴾ ، أي : علىٰ أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض ، من عرب وعجم ، ومليين[٢] ومشركين ، ﴿ **وكفىٰ باللّٰه شهيدًا** ﴾ ، أي : أنه رسوله ، وهو ناصره .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عن محمد - صلوات اللّٰه وسلامه عليه - أنه رسوله حقًّا بلا شك ولا ريب ، فقال : ﴿ **محمد رسول اللّٰه** ﴾ ، وهذا مبتدأ وخبر[٣] ، وهو مشتمل علىٰ كل وصف جميل . ثم ثنىٰ بالثناء علىٰ أصحابه فقال : ﴿ **والذين معه أشداء علىٰ الكفار رحماء بينهم** ﴾ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فسوف يأتي اللّٰه بقوم يحبهم ويحبونه أذلة علىٰ المؤمنين أعزة علىٰ الكافرين** ﴾ . وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا علىٰ الكفار ، رحيمًا برًّا بالأخيار ، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر ، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** ﴾ . وقال النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم**

---

[١] - في ز : يعلم .

[٢] - في خ : مسلمين .

[٣] - في خ : وخبره .

كمثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالحمىٰ والسهر » . وقال : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** » . وشبك بين أصابعه . كلا الحديثين في الصحيح .

وقوله : ﴿ **تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من اللّٰه ورضوانًا** ﴾ ، وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإِخلاص فيها للّٰه - عز وجل - والاحتساب عند اللّٰه جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة علىٰ فضل اللّٰه ، وهو سعة الرزق عليهم ، ورضاه تعالىٰ عنهم وهو أكبر من الأول[١] ، كما قال : ﴿ **ورضوان من اللّٰه أكبر** ﴾ .

وقوله : ﴿ **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : سيماهم في وجوههم يعني : السمت الحسن .

وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع .

وقال ابن أبي حاتم (٧٩) : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا حسين الجعفي ، عن زائدة ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ ، قال : الخشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه . فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسىٰ قلبًا من فرعون .

وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم .

وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار .

وقد أسنده ابن ماجة في سننه (٨٠) ، عن إسماعيل بن محمد الطّلْحي[٢] ، عن ثابت بن موسىٰ ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار** » . والصحيح أنه[٣] موقوف .

وقال بعضهم : إن للحسنة نورًا[٤] في القلب ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس .

---

(٧٩) - أخرجه أيضاً الطبري في تفسيره (١١١/٢٦) ، وانظر الدرالمنثور (٩١/٦) .

(٨٠) - سنن ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما جاء في قيام الليل ، حديث (١٣٣٣)،

---

[١] - في ز : الأولى .
[٢] - في ز : الصالحي .
[٣] - سقط من ز ، خ .
[٤] - في ز ، خ : لنورًا .

وقال أمير المؤمنين عثمان[١] : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللّٰه علىٰ صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر علىٰ صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع اللّٰه أصلح اللّٰه ظاهره للناس ، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه أنه قال : من أصلح سريرته أصلح اللّٰه علانيته .

وقال[٢] أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمود بن محمد المروزي ، حدثنا حامد بن آدم المروزي ، حدثنا الفضل بن موسىٰ ، عن محمد بن عبيد اللّٰه العَرْزَمي ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن جندَب بن سفيان البجلي ؛ قال : قال النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه اللّٰه رداءها ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر** » . العرزمي متروك .

وقال الإمام أحمد(٨١) : حدثنا حسن بن موسىٰ ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم أنه قال : « **لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائنًا ما كان** » .

وقال الإمام أحمد(٨٢) : حدثنا حسن ، حدثنا زُهير ، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان ؛ أن أباه حدثه عن ابن عباس ، عن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم؛ قال : « **إن الهدي الصالح ، والسمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة** » . ورواه أبو داود عن عبد اللّٰه بن محمد النفيلي ، عن زهير به .

فالصحابة ، رضي الله عنهم ، خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم .

وقال[٣] مالك -رحمه اللّٰه- : بلغني أن النصارىٰ كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : « **واللّٰه لهؤلاء[٤] خير من الحواريين فيما بلغنا[٥]** » . وصدقوا في ذلك ،

وأخرجه العقيلي في الضعفاء (١٧٦/١) وابن عدي في الكامل (٣٠٤/٢) ، (٢٠١/٣) ، والخطيب في التاريخ (٣٤١/١) من طريق شريك به وهو حديث لا أصل له ، انظر الفوائد الحيدعة (ص٣٥) .

(٨١) - المسند (٢٨/٣)

(٨٢) - المسند (٢٩٦/١) ، واخرجه في (٢٩٦/١) ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٦٨، ٧١٩) ، وأبو داود في الأدب ، باب : في الوقار حديث (٤٧٧٦) من طرق عن قابوس بن أبي ظبيان به .

---

[١] - سقط من ز ، خ .

[٢] - في ز : قال .

[٣] - في ز : قال .

[٤] - في ز : هؤلاء .

[٥] - في خ : بلغوا .

فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم وقد نوه اللّٰه بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **ذٰلك مثلهم في التوراة** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه** ﴾ أي : فراخه ، ﴿ **فآزره** ﴾ أي : شده ﴿ **فاستغلظ** ﴾ أي : شب وطال ﴿ **فاستوىٰ علىٰ سوقه يعجب الزراع** ﴾ أي : فكذلك أصحاب محمد صلىٰ اللّٰه عليه وسلم آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ، ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه اللّٰه في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ، قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء علىٰ ذلك . والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم[١] بمساءة كثيرة ، ويكفيهم ثناء اللّٰه عليهم ، ورضاه عنهم .

ثم قال : ﴿ **وعد اللّٰه الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم** ﴾ ، « من » هذه لبيان الجنس ﴿ **مغفرة** ﴾ أي : لذنوبهم ، ﴿ **وأجرًا عظيمًا** ﴾ أي : ثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا ، ووعد اللّٰه حق وصدق ، لا يُخلَف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم[٢] ، ولهم[٣] الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، رضي اللّٰه عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل .

قال مسلم في صحيحه(٨٣) : حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ؛ قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه** » .

آخر تفسير سورة الفتح ، ولله الحمد والمنة .

☆ ☆ ☆

(٨٣) - صحيح مسلم في فضائل الصحابة ، حديث (٢٥٤٠) ، وأخرجه أيضاً النسائي في فضائل الصحابة (٢٠٤) وابن ماجه في المقدمة ، فضل أهل بدر ، حديث (١٦١) من طريق أبي صالح به .

[١] - سقط من خ .
[٢] - في ز ، خ : جملتهم .
[٣] - في ز : وله .

/ سورة الفتح [١٠٤ظ]

مدنيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾ فتحُ البلد عبارة عن الظفر به عَنوةً أو صلحًا، بحِراب أو بدونه، فإنّه ما لم يُظفَر به مُنْغَلَق، مأخوذ مِن "فتح باب الدار". وإسناده إلى نون العظَمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقًا وإيجادًا. والمراد به فتح مكّة، وهو المرويّ عن أنس رضي الله عنه،[1] بُشِّر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند انصرافه عن الحُدَيبية. والتعبير عنه بصيغة الماضي على سَنن سائر الأخبار الربّانيّة للإيذان بتحقّقه لا محالةَ تأكيدًا للتبشير، كما أنّ تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك. وفيه مِن الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبِر جلّ جلاله وعزّ سلطانه ما لا يخفى.

وقيل: هو ما أُتيح له عليه السلام في تلك السَّنة مِن فتح خيبر، وهو المرويّ عن مجاهد.[2]

وقيل: هو صُلح الحُديبية، فإنّه وإن لم يكن فيه حِراب شديد؛ بل تَرامٍ بين الفريقين بسهام وحجارة، لكن لمّا كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحًا بلا ريب. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «رمَوا المشركين حتّى أدخلوهم ديارَهم».[3] وعن الكلبي: «ظهروا عليهم حتّى سألوا الصلح».[4]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤١/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٤/١٧.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤١/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٤/١٧.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٣/٩.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٣/٩.

وقد رُوي أنّه عليه السلام حين بلغه أنّ رجلًا قال: «ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا»، قال: «بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرّاح، ويسألوكم القضيّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأَوا منكم ما يكرهون».[1]

وعن الشعبي: «نزلت بالحُديبية، وأصاب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم في تلك الغزوة ما لم يُصِب في غزوةٍ، حيث أصاب أن بُويع بيعة الرضوان، وغُفر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، وبلغ الهديُ مَحِلّه، وأُطعِموا نخل خيبر، وظهرت الروم على فارس، ففرِح به المسلمون».[2]

وكان في فتح الحُديبية آية عظيمة، هي أنّه نُزِحَ ماؤها حتّى لم يبقَ فيها قطرة، فتمضمَض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم مَجّه فيها فدرَّت بالماء حتّى شرب جميع مَن كان معه.[3] وقيل: فجاش الماء حتّى امتلأت، ولم ينفَد ماؤها بعدُ.

وقيل: هو جميعُ ما فُتِح له عليه السلام مِن الفتوح. وقيل: هو ما فَتح الله له عليه السلام مِن الإسلام والنبوّة والدعوة بالحجّة والسيف، ولا فتحَ أبينُ منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كافّةً؛ إذ لا فتحَ مِن فتوح الإسلام إلّا وهو شعبة مِن شُعَبِه، وفرع مِن فروعه. / وقيل: "الفتح" بمعنى القضاء، ومنه [١٠٥و]
"الفُتاحة" للحكومة، والمعنى: قضينا لك على أهل مكّة أن تدخلها مِن قابل، وهو المرويّ عن قتادة رضي الله عنه.[4]

وأيًا ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيذانِ بأنّ مناطَ التبشير نفسُ الفتح الصادر عنه سبحانه، لا خصوصيّةُ المفتوح.

﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بيّنًا ظاهرَ الأمر، مكشوفَ الحال، أو فارقًا بين الحقّ والباطل.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوّة، ١٦٠/٤.

[2] جامع البيان للطبري، ٢٤٤/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢/٩.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. والقصّة في صحيح البخاري، ١٩٣/٤ (٣٥٧٧)؛ وصحيح مسلم، ١٤٣٣/٣ (١٨٠٧).

[4] م - رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ٢٣٨/٢١؛ تفسير عبد الرزّاق، ٢١٠/٣.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ غايةٌ للفتح مِن حيث إنّه مترتّب على سعيه عليه السلام[1] في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابَدة مشاقّ الحروب، واقتحامِ موارد الخطوب. والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأنّ كلّ واحدٍ ممّا انتظم في سِلك الغاية مِن أفعاله تعالى صادرٌ عنه تعالى مِن حيثيّةٍ غيرِ حيثيّة الآخر مترتّبةٍ على صفة مِن صفاته تعالى.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: جميعَ ما فرَط منك مِن ترك الأَولى. وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وضمِّ المُلك إلى النبوّة وغيرهما ممّا أضافه عليه مِن النعم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة، وإقامةِ مراسم الرياسة. وأصلُ الاستقامة وإن كانت حاصلةً قبلَ الفتح لكن حصل بعد ذلك مِن اتّضاح سُبل الحقّ واستقامةِ مناهجه ما لم يكن حاصلًا قبلُ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارُ الاسم الجليل لكونه خاتمةَ الغايات، ولإظهار كمال العناية بشأن النصر كما يُعرِب عنه تأكيده بقوله تعالى: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: نَصرًا فيه عِزّة ومَنَعة، أو قويًا مَنيعًا على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازًا للمبالغة، أو عزيزًا صاحبُه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

---

[1] وفي هامش م: فإنّه وإن كان مِن حيث الخلق والإيجادُ مستندًا إلى الله عز وجلّ، لكن مِن حيث الكسبُ مستند إليه عليه السلام، مترتّب على ما ذُكر مِن المساعي الجميلة الحقيقة باستتباع تلك الغايات الجليلة. «منه».

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ بيان لِما أفاضَ عليهم مِن مبادي الفتح مِن الثبات والطُّمأنينة، أي: أنزلَها ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بسبب الصلح والأمنِ إظهارًا لِفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، / ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ أي: يقينًا [١٠٥ظ]
منضمًّا إلى يقينهم، أو أنزلَ فيها السكون إلى ما جاء به عليه السلام مِن الشرائع ليزدادوا إيمانًا بها مقرونًا مع إيمانهم بالوحدانيّة واليوم الآخر. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «أنّ أوّل ما أتاهم به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم التوحيد، ثمّ الصلاة والزكاة، ثمّ الحجّ والجهاد، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم».[٢] أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبّر أمرَها كيفما يريد، يسلّط بعضها على بعض تارةً، ويُوقع بينهما السِّلم أخرى، حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكم والمصالح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغًا في العلم بجميع الأمور، ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ متعلّق بما يدلّ عليه ما ذُكر مِن كون جنود السماوات والأرض له تعالى مِن معنى التصرّف والتدبير، أي: دبَّر ما دبَّر مِن تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها فيُدخلهم الجنّة، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: يُغطّيَها ولا يظهرَها. وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدرُه؛ لأنّه مُنتَهى ما يمتدّ إليه أعناق الهِمم مِن جلب نفع ودفعِ ضرّ.

---

[١] م - رضي الله عنهما.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٥/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٩.

و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حال مِن ﴿فَوۡزًا﴾؛ لأنّه صفته في الأصل، فلمّا قُدِّم عليه صار حالًا، أي: كائنًا عند الله، أي: في علمه وقضائه. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٦﴾

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿يُدۡخِلَ﴾.[1] وفي تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى مِن الدلالة على أنّهم أحقّ منهم بالعذاب. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي: ظنَّ الأمر السَّوء، وهو أن لا يَنصر رسوله والمؤمنين.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي: ما يظنّونه ويتربّصونه بالمؤمنين، فهو حائق بهم، ودائر عليهم. وقُرئ: "دَائِرَةُ السُّوءِ" بالضمّ،[2] وهما لغتان مِن "سَاءَ"، كـ"الكَرْه" و"الكُرْه"، خلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمُّه مِن كلّ شيء، وأمّا المضموم فجارٍ مَجرى الشرّ.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ لِما استحقّوه / في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا. و"الواو" في الأخيرين مع أنّ حقّهما "الفاء" المفيدة لِسببيّة ما قبلها لِما بعدها للإيذان باستقلال كلٍّ منها في الوعيد وأصالتِه مِن غير اعتبار استتباع بعضها لبعضٍ. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ أي: جهنّم. [١٠٦و]

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ إعادة لِما سبَق، قالوا: فائدتها التنبيه على أنّ لله تعالى[3] جنودَ الرحمة وجنودَ العذاب، وأنّ المراد ههنا جنودُ العذاب، كما ينبئ عنه التعرّض لوصف العزّة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٠.

٣ س - تعالى.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي: على أمّتك، لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ على الطاعة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ على المعصية.

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأمّته، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بتقوية دينه ورسوله، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنَزِّهوه، أو تصلّوا له، مِن "السُّبحة"، ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ غُدوةً وعَشيًّا. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[1] «صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر».[2]

وقُرئ الأفعال الأربعة بـ"الياء" التحتانيّة.[3] وقُرئ: "وتُعْزِرُوهُ" بضمّ "التاء" وتخفيف "الزاء" المكسورة.[4] وقُرئ بفتح "التاء" وضمّ "الزاء"[5] وكسرها،[6] و"تُعَزِّزُوهُ" بزاءَين.[7] و"تُوقِرُوهُ"،[8] مِن "أَوْقَرَهُ" بمعنى "وَقَّره".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: على قتالِ قريش تحت الشجرة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، يعني: أنّ مبايَعتك هي مبايَعة الله عزّ وجلّ؛ لأنّ المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ حال أو استئناف مؤكِّد له على طريق التخييل، والمعنى: أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعَقْده مع الله تعالى مِن غير تفاوت

---

١ م - رضي الله عنهما.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٥/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤]. وقُرئ: "إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ"،[١] أي: لأجله ولوجهه.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: فمَن نقَض عهدَه فإنّما يعود ضررُ نكثه على نفسه. وقُرئ بكسر "الكاف".[٢] ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضمّ "الهاء"، فإنّه أُبقِيَ بعد حذف "الواو"[٣] / توسّلًا بذلك إلى تفخيم لام الجلالة. [١٠٦ظ]
وقُرئ بكسرها.[٤] أي: ومَن وَفَى بعهده.

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنّة. وقُرئ: "بِمَا عَهِدَ".[٥] وقُرئ: "فَسَنُؤْتِيهِ" بنون العظَمة.[٦]

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم أعراب غِفارٍ ومُزَينة وجُهَينة وأشجَع وأسلَم والدِّيل،[٧] تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين استنفر مَن حول المدينة مِن الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه عند إرادته المسيرَ إلى مكّة عام الحُديبية معتمِرًا حذَرًا مِن قريش أن يَعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرَم عليه السلام وساق معه الهدي ليُعلَم أنّه لا يريد الحرب، وتثاقلوا عن الخروج، وقالوا: «نَذهَبُ إلى قوم قد غزَوه في عُقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن تمّام بن العبّاس بن عبد المطّلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٢ أي: "يَنكِثُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٣ وفي هامش م: حُذفت "الواو" لسكونها وسكونِ "اللام"، وبقيت الضمّة تدلّ عليها. كواشي. | تفسير الكواشي، ٥٠٣و.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٧ بنو الدِّيل: بطن مِن عبد القيس بن ربيعة مِن العدنانيّة، قال الجوهري: وهما دِيلان، أحدهما: الدِّيل بن شدّاد بن أقصى بن عبد القيس، والثاني: الدِّيل بن عمرو بن وديعة بن أقصى بن عبد القيس. قال الجوهري: ومنهم أهل عُمان. والنسب إلى الديل: "دِيلي". نهاية الأرب للقلقشندي، ٥٦/١.

فنُقاتلهم»»، فأوحى الله تعالى إليه عليه السلام بأنّهم سَيَعتَلُّون ويقولون: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾، ولم يكن لنا مَن يَخلفُنا فيهم، ويقوم بمصالحهم، ويحميهم مِن الضياع.[١] وقُرئ: "شَغَّلَتْنا" بالتشديد[٢] للتكثير. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلُّفَنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيارٍ؛ بل عن اضطرارٍ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ بدل مِن ﴿سَيَقُولُ﴾، أو استئناف لتكذيبهم في الاعتذار والاستغفار.

﴿قُلْ﴾ ردًّا لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: فمَن يقدر لأجلكم مِن مشيئة الله تعالى وقضائه على شيءٍ مِن النفع ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أي: ما يضرّكم مِن هلاك الأهل والمال وضياعهما حتّى تتخلّفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما. وقُرئ: "ضُرًّا" بالضمّ.[٣] ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: ومَن يقدر على شيءٍ مِن الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم مِن حفظ أموالكم وأهليكم، فأيّ حاجة إلى التخلّف لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحقّ، وردّ لهم بموجَب ظاهر مقالتهم الكاذبة.

وتعميم الضرّ والنفع لِما يتوقّع على تقدير الخروج مِن القتل والهزيمة والظفَر والغنيمة يَردّه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ / فإنّه إضراب [١٠٧و]
عمّا قالوا، وبيان لكذبه، بعد بيان فساده على تقدير صِدقه، أي: ليس الأمر كما تقولون؛ بل كان الله خبيرًا بجميع ما تعملون مِن الأعمال التي مِن جملتها تخلّفكم وما هو مِن مباديه.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾... إلخ بدل مِن ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾... إلخ[٤] مفسِّر لِما فيه مِن الإبهام، أي: بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٢٥٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩/٤٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَنبوذ عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٤ في الآية السابقة.

بأن يستأصلهم المشركون بالمرّة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلّفتم، لا لِما ذكرتم مِن المعاذير الباطلة. و"الأهلون" جمع "أهل"، وقد يجمع على "أهلات" كـ"أرضات" على تقدير تاء التأنيث، وأمّا "الأهالي" فاسم جمع كـ"الليالي". وقُرئ: "إِلَى أَهْلِهِمْ".[١]

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقبِلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم غيرَ مبالِين بهم. وقُرئ: "زَيَّنَ"[٢] على البناء للفاعل بإسناده إلى الله سبحانه، أو إلى الشيطان، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ المراد به إمّا الظنّ الأوّل، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيلِ عليه بالسوء، أو ما يَعمّه وغيرَه مِن الظنون الفاسدة التي مِن جملتها الظنّ بعدم صحّة رسالته عليه السلام، فإنّ الجازم بصحّتها لا يحومُ حول فكره ما ذُكر مِن الاستئصال.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هالِكين عند الله مستوجِبين لسخَطه وعقابه، على أنّه جمع "بائر"، كـ"عائذ" و"عُوذ"،[٣] أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم، لا خيرَ فيكم. وقيل: "البُور" مِن "بارَ"، كـ"الهُلك" مِن "هلك" بناءً ومعنًى، ولذلك وُصف به الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كلام مبتدأ مِن جهته تعالى، غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، مقرِّرٌ لبَوارِهم، ومبيِّن لكيفيّته، أي: ومَن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: لهم، وإنّما وضع موضع الضمير "الكافرون" إيذانًا بأنّ مَن لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، وأنّه مستوجِب للسعير بكفره. وتنكير ﴿سَعِيرًا﴾ للتهويل، أو لأنّها نار مخصوصة.

---

١ قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٢ قراءة شاذّة، مروية عن ابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ س: كعائد وعود. | وفي هامش م: وهو الحديث السنّ مِن الظباء والإبل. «منه».

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

[١٠٧ظ] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ/ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما، يتصرّف في الكلّ كيف يشاء، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه مِن غير دخل لأحدٍ في شيء منهما وجودًا وعدَمًا، وفيه حسمٌ لأطماعهم الفارغة في استغفاره عليه السلام لهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالِغًا في المغفرة والرحمة لمَن يشاء، ولا يشاء إلّا لمَن يقتضي الحكمةُ مغفرته ممّن يؤمن به وبرسوله، وأمّا مَن عداه مِن الكافرين فهم بمَعزِل مِن ذلك قطعًا.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: المذكورون. وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ ظرف لِما قبله، لا شرطٌ لِما بعده، أي: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إيّاها وخصّكم بها عِوضًا ممّا فاتكم مِن غنائم مكّة: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، ونَشهَدْ معكم قتالَ أهلها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم التي خصّها بأهل الحديبية، فإنّه عليه السلام رجع مِن الحديبية في ذي الحجّة مِن سنة ستٍّ، وأقام بالمدينة بقيّتَها وأوائلَ المحرَّم مِن سنة سبعٍ، ثمّ غزا خيبر بمَن شهد الحديبية، ففتَحها وغنِم أموالًا كثيرةً، فخصّها بهم حسبما أمره الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "كَلِمَ اللهِ"،[١] وهو جمع "كلِمة". وأيًّا ما كان فالمراد ما ذُكِر مِن وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصّةً، لا قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة، ٩/٨٣]، فإنّ ذلك في غزوة تبوك.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

﴿قُل﴾ إقناطًا لهم: ﴿لَن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتّبعونا، فإنّه نفي في معنى النهي للمبالغة. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: عند الانصراف مِن الحديبية. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: ليس ذلك النهيُ حُكمَ الله؛ بل تَحسدوننا أن نشارككم في الغنائم. وقُرئ: "تَحْسِدُونَنَا" بكسر "السين".[1]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا فهمًا قليلًا، وهو فِطنتهم لأمور الدنيا، ردٌّ لقولهم الباطل، ووصفٌ لهم بما هو أعظم مِن الحسد، وأطمّ مِن الجهل المُفرِط، وسوء الفهم في أمور الدين.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ / مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان مبالغةً في ذمّهم: [١٠٨و] ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو[2] حَنيفة قومُ مسيلِمة الكذّاب، أو غيرهم ممَّن ارتدّوا بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو المشركين،[3] لقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين، إمّا المقاتَلة أبدًا، أو الإسلامُ لا غيرُ، كما يُفصِح عنه قراءة: "أَوْ يُسْلِمُوا".[4] وأمّا مَن عداهم فينتهي قتالهم بالجِزية كما ينتهي بالإسلام. وفيه دليل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه؛ إذ لم يتّفق هذه الدعوة لغيره إلّا إذا صحّ أنّهم ثقيف وهوازن، فإنّ ذلك كان في عهد النبوّة، فيُخَصُّ دوام نفي الاتّباع بما في غزوة خيبر كما قاله محيي السنّة.[5] وقيل: هم فارس والروم، ومعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾: ينقادون، فإنّ الروم نصارى، وفارسَ مجوس يُقبل منهم الجِزية.

---

١ قراءة شاذّة، مروية عن أبي حَيوة وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٢ م: بنوا.

٣ وفي هامش م: أي: مشركو العرب.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٥ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٠٢/٧.

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنّة في الآخرة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعُف جرمكم.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلّف عن الغزو لِما بهم مِن العُذر والعاهة، فإنّ التكليف يدور على الاستطاعة. وفي نفي الحرَج عن كلٍّ مِن الطوائف المعدودة مزيد اعتناءٍ بأمرهم، وتوسيعٌ لدائرة الرخصة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ذُكر مِن الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. وقُرئ: "نُدْخِلْهُ" بنون العظَمة.[1] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ وقُرئ بالنون[2] ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم الذين ذُكِر شأن مبايعتهم. وبهذه الآية سمّيت بيعة الرضوان. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ منصوب بـ﴿رَضِىَ﴾. وصيغة المضارع لاستحضار صورتها، و﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ متعلّق به، أو بمحذوف هو حال مِن مفعوله.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا نزل الحديبية بعثَ جوّاس بن أميّة الخزاعي[3] رسولًا إلى أهل مكّة، فهمّوا به، فمنعه الأحابيش، فرجع، فبعث عثمانَ بن عفّان، فأخبرهم أنّه عليه السلام لم يأتِ لحرب، وإنّما جاء زائرًا لِهذا البيت،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٣ جوّاس بن أميّة؛ كذا في الأصول الخطّية بالجيم والواو وآخره سين، وهو كذلك في «

/ معظِّمًا لحُرمته، فوقَّروه، وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: [١٠٨ظ]
ما كنتُ لأطوفَ قبل أن يطوف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واحتبس عندهم، فأُرْجِفَ بأنّهم قتلوه، فقال عليه السلام: «لا نبرَح حتّى نُناجزَ القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فبايَعوه تحت الشجرة -وكانت سَمُرةً، وقيل: سِدرةً- على أن يُقاتلوا قريشًا، ولا يفِرّوا. ورُوي على الموت دونه وأن لا يفرّوا، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنتم اليومَ خير أهل الأرض»، وكانوا ألفًا وخمسَمائة وخمسةً وعشرين.[١] وقيل: ألفًا وأربعَمائة. وقيل: ألفًا وثلثمائة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، لِما عرفتَ مِن أنّه بمعنى: بايَعوك، لا على ﴿رَضِيَ﴾، فإنّ رضاه تعالى عنهم مترتّب على علمه تعالى بما في قلوبهم مِن الصدق والإخلاص عند مبايَعتهم له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿رَضِيَ﴾، أي: فأنزل عليهم الطُّمأنينة والأمن وسكونَ النفس بالربط على قلوبهم، وقيل: بالصلح. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غِبَّ انصرافهم مِن الحديبية كما مرّ تفصيله. وقُرئ: "وَآتَاهُمْ".[٣]

← مطبوع الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٢٩/٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٢/٩. ولم أجد ذكرًا له في كتب التراجم بهذا الاسم. والصواب "خِراش بن أميّة"؛ بالخاء والراء وآخره شين؛ كما في جامع البيان للطبري، ٢٧٢/٢١؛ ومسند أحمد، ٢١٦/٣١ (١٨٩١٠)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩. وهو خِراش بن أميّة بن ربيعة بن الفضل بن منقذ بن عفيف بن كليب بن حبشيّة بن سلول الخزاعي ثمّ الكُلَيبي، يُكنى أبا نَضلة (ت. نحو ٦٠هـ/٦٨٠م). وهو حليف بني مخزوم، شهد المرَيسيع والحديبية، وحلَق رأس النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يومئذ، أو في العمرة التي تليها. وذكَر ابن الكلبي أنّه كان حجّامًا، وأنّه رمى بنفسه على عامر بن أبي ضرار الخزاعي يوم المرَيسيع مخافةَ أن يقتله الأنصار. تُوفّي في آخر خِلافة معاوية. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤٤٥/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٢٣١/٢.

١ س ي: وعشروين.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤. وانظر: صحيح البخاري، ١٢٣/٥ (٤١٥٤)؛ وصحيح مسلم، ١٤٨٤/٣ (١٨٥٦).

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾[١] أي: مغانم خيبر. والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع[٢] لتشريفهم في مقام الامتِنان. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبًا ﴿حَكِيمًا﴾ مراعيًا لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ما يُفِيؤه على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لكلّ واحدة منها. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: غنائمَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أيديَ أهل خيبر وحُلَفائهم مِن بني أسد وغطَفان حيث جاءوا لِنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فنكَصوا. وقيل: أيديَ أهل مكّة بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها صدقَ الرسول في وعده إيّاهم عند رجوعه مِن الحديبية ما ذُكر مِن المغانم وفتحِ مكّة ودخولِ المسجد
[١٠٩و] الحرام. و"اللام" متعلِّقة إمّا بمحذوف مؤخَّر، / أي: ولِتكون آيةً لهم فعَلَ ما فعَلَ مِن التعجيل والكفّ، أو بما تعلّق به علّة أخرى محذوفة مِن أحد الفعلَين، أي: فعَجل لكم هذه أو كفّ أيدي الناس لتغتنموها ولِتكون... إلخ. فـ"الواو" على الأوّل اعتراضيّة، وعلى الثاني عاطفة.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى، والتوكّلُ عليه في كلّ ما تأتون وما تذَرون.

---

١ س: تأخذونها. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ س. وهي بـ"التاء" قراءة شاذّة كما سيأتي.

٢ م س ي – على قراءة الأعمش وطلحة ونافع ["صح" في هامش م]. | أي: "تَأْخُذُونَهَا". وهي قراءة شاذّة عنهم. أمّا القراءة المشهورة عن نافع فهي بـ"الياء" كالجمهور. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٣/٩.

﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾

﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿هَٰذِهِۦ﴾،[1] أي: فعجّل لكم هذه المَغانم ومَغانمَ أخرى ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووَصْفُها بعدم القدرة عليها لِما كان فيها مِن الجَوْلة قبل ذلك لِزيادة ترغيبهم فيها. وقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ صفةٌ أخرى لِـ﴿أُخۡرَىٰ﴾، مفيدةٌ لسهولةِ تَأَتّيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة مَنالها بالنظر إلى قدرتهم، أي: قد قدَر الله عليها واستولى، وأظهركم عليها. وقيل: حفِظها لكم، ومنعَها مِن غيركم.

هذا، وقد قيل: إنّ ﴿أُخۡرَىٰ﴾ منصوب بمضمَر يفسِّره ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، أي: وقضى الله أخرى، ولا ريبَ في أنّ الإخبار بقضاء الله إيّاها بعد اندراجها في جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾،[2] ليس فيه مزيد فائدة، وإنّما الفائدة في بيان تعجيلها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ لأنّ قدرته تعالى ذاتيّة لا تختصّ بشيء دون شيء.

﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾

﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أهل مكّة ولم يصالحوكم، وقيل: حُلَفاء خيبر، ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ أي: سنَّ الله غلبةَ أنبيائه سنّةً قديمةً فيمَن مضى مِن الأمم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي: تغييرًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ﴾[3] أيديَ كفّار مكّة ﴿عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أي: في داخلها ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ وذلك أنّ عكرمة بن أبي جهل

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] س ي + أي.

خرج في خمسمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد على جند فهزَمهم حتّى أدخلهم حيطان مكّة ثمّ عاد. وقيل: كان يوم الفتح، وبه استشهَد أبو حنيفة على أنّ مكّة فُتحت عَنوةً لا صلحًا.[1]

[١٠٩ظ] / ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن مقاتَلتهم وهَزمِهم أوّلًا والكفِّ عنهم ثانيًا لتعظيم بيته الحرام. وقُرئ بـ"الياء".[2] ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم بذلك، أو يجازيهم.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ﴾ بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في ﴿صَدُّوكُمۡ﴾. وقُرئ بالجرّ[3] عطفًا على ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ بحذف المضاف، أي: ونحرِ الهدي، وبالرفع على "وصُدَّ الهديُ". وقوله تعالى: ﴿مَعۡكُوفًا﴾ حال مِن ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾، أي: محبوسًا.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾، أو منصوب بنزع الخافض، أي: محبوسًا مِن أن يبلغ مكانه الذي يحِلّ فيه نحره، وبه استدلّ أبو حنيفة رحمه الله[4] على أنّ المحصَر محلّ هديه الحرَمُ.[5] قالوا: بعض الحديبية مِن الحرَم. ورُوي أنّ خيامه عليه السلام كانت في الحِلّ، ومصلّاه في الحرَم.[6] وهناك نُحِرت هداياه عليه السلام. والمراد صدُّها عن محلّها المعهود الذي هو منًى.

﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ لم تَعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم، وهو صفة لـ﴿رِجَالٞ﴾ و﴿نِسَآءٞ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أي: تُوقِعوا بهم وتُهلكوهم، بدل اشتمال منهم، أو مِن الضمير[7] المنصوب في ﴿تَعۡلَمُوهُمۡ﴾.

---

١ انظر: المبسوط للسرخسي، ٣٧/١٠.

٢ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٥/٩.

٤ س – رحمه الله.

٥ انظر: بدائع الصنائع للكاساني، ١٧٤/٢.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٢/٤. وفي مسند أحمد، ٢٢٠/٣١ (١٨٩١٠)، في حديث طويل: «وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُصلّي في الحرَم، وهو مضطرِب في الحِلّ».

٧ وفي هامش م: فيه بحث.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: مِن جهتهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: مشقّة ومكروه، كوجوب الدية أو الكفّارة بقتلهم، والتأسّفِ عليهم، وتعييرِ الكفّار، وسوءِ قالتهم، والإثمِ بالتقصير في البحث عنهم. وهي "مَفْعَلَة" مِن "عَرَّه" إذا عَراه ودَهاه ما يكرهه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، أي: غير عالمين بهم، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه. والمعنى: لولا كراهةُ أن تُهلِكوا أُناسًا مؤمنين بين الكافرين غيرَ عالمين بهم فيصيبكم بذلك مَكروه لَما كفَّ أيديكم عنهم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّق بما يدلّ عليه الجواب المحذوف، كأنّه قيل عقيبَه: لكن كفّها عنهم ليُدخل بذلك الكفّ المؤدّي إلى الفتح بلا مَحذور في رحمته الواسعة بقسمَيها ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم المؤمنون، فإنّهم كانوا خارجين مِن الرحمة الدنيويّة التي مِن جُملتها الأَمْنُ، مستَضعَفين تحت أيدي الكفَرة، وأمّا الرحمة الأخرويّة فهم وإن كانوا غيرَ مَحرومين منها بالمَرّة لكنّهم كانوا قاصرين في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها / على الوجه الأتمّ إدخال لهم في الرحمة الأخرويّة. [١١٠و]

وقد جُوِّز[١] أن يكون ﴿مَن يَشَآءُ﴾ عبارةً عمَّن رغِب في الإسلام مِن المشركين، ويأباه قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾... إلخ، فإنّ فَرض التزيّل وترتيبَ التعذيب عليه يقتضي تحقّق المباينة بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيّل حتمًا، أي: لو تفرّقوا وتميّز بعضهم مِن بعض. وقُرئ: "لَوْ تَزَايَلُوا".[٢] ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بقتل مُقاتِلتهم وسَبْيِ ذراريهم. والجملة مستأنفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منصوب بـ"اذكر" على المفعوليّة، أو بـ﴿عَذَّبْنَا﴾[٣] على الظرفيّة. وقيل: بمُضمَر هو "أحسَن الله إليكم". وأيًّا ما كان فوضع الموصول

---

١ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٣٤٤/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٣ في الآية السابقة.

موضعَ ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة وتعليلِ الحكم به. و"الجَعلُ" إمّا بمعنى الإلقاءِ، فقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أي: الأنَفَةَ والتكبّرَ؛ متعلِّقٌ به، أو بمعنى التصيير، فهو متعلّق بمحذوف هو مفعول ثانٍ له، أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم. ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾، أي: حميّةَ المِلّة الجاهليّة، أو الحميّةَ الناشئة مِن الجاهليّة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الأوّل عطفٌ على ﴿جَعَلَ﴾، والمراد تذكير حُسن صنيعِ الرسول عليه السلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى، وسُوءِ صنيع الكفرة، وعلى الثاني على ما يدلّ عليه الجملة الامتناعيّة، كأنّه قيل: لم يتزيّلوا فلم نعذِّب فأنزَل... إلخ. وعلى الثالث على المضمَر تفسير له. و"السكينة" الثبات والوَقار.

يُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا نزل الحديبيةَ بعث قريش سُهيلَ بنَ عمرو القرشي،[1] وحويطبَ بن عبد العُزّى،[2] ومِكْرَزَ بن حفص بن الأحنَف،[3] على أن يَعرضوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يرجع مِن عامه ذلك على أن تُخلّي له قريش مكّة مِن العام القابل ثلاثةَ أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتابًا، فقال عليه السلام لعليّ رضي الله عنه: «اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"»،

---

[1] هو سُهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، مِن لؤيّ، أبو يزيد (ت. ١٨هـ/٦٣٩م). خطيب قريش، وأحد سادتها في الجاهليّة. أسَره المسلمون يوم بدر، وافتُدي، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكّة، فأسلم، وسكَنها، ثمّ سكن المدينة. وهو الذي تولّى أمر الصلح بالحديبية. رُوي عن الشافعي: «كان سُهيل محمودَ الإسلام مِن حين أسلم». مات بالطاعون في الشام. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٧٧/٣؛ **الأعلام** للزركلي، ١٤٤/٣.

[2] هو حُوَيطب بن عبد العزّى بن أبي قيس القرشي العامري، أبو محمّد، أو أبو الأصبغ (ت. ٥٤هـ/٦٧٤م). أسلمَ عام الفتح. وشهِد حُنينًا، وكان مِن المؤلّفة، وجدّد أنصاب الحرَم في عهد عمر. كان حُويطب يقول: «انصرفتُ مِن صلح الحديبية وأنا مستيقِن أنّ محمّدًا سيظهر». عاش مائة وعشرين سنةً. ومات في خلافة معاوية. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٢٤/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٨٩/٢.

[3] كذا في الأصول الخطّيّة: "الأحنَف" بالحاء وبعدها نون، والصواب: "الأخيَف" بالخاء وبعدها ياء. هو مِكْرَز بن حفص بن الأخيَف بن علقمة القرشي العامري (ت. بعد ٢هـ/٦٢٤م). قال ابن حبّان: «يُقال: له صحبة»، قال ابن حجَر: «ولم أرَه لغيره. وذكره المرزباني في معجم الشعراء، ووصفه بأنّه جاهلي، ومعناه أنّه لم يُسلم، وإلّا فقد ذَكر هو أنّه أدرك الإسلام، وقدِم المدينة بعد الهجرة لمّا أُسر سُهيل بن عمرو يوم بدر فافتداه». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٦٣/٦؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٨٤/٧.

فقالوا: «ما نعرف ما هذا، اكتب "باسمك اللّهمّ"»، ثمّ قال: «اكتب: هذا ما صالحَ رسول الله عليه السلام[١] أهلَ مكّة»، فقالوا: «لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صدَدناك عن البيت، وما قاتَلناك، اكتب: هذا ما صالح عليه[٢] محمّد بن عبد الله / أهلَ مكّة»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «اكتب ما يريدون»، [١١٠ظ] فهمّ المؤمنون أن يأبَوا ذلك ويبطشوا بهم، فأنزل عليه الله السكينة عليهم، فتوقّروا وحَلُموا.[٣]

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلمةَ الشهادة، أو "بسم الله الرحمن الرحيم"، أو "محمّد رسول الله". وقيل: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هي الوفاء بالعهد والثباتُ عليه، وإضافتها إلى ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لأنّها سبب التقوى وأساسُها، أو كلمةُ أهلِها.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ متّصفين بمزيد استحقاقٍ لها، على أنّ صيغة التفضيل للزيادة مطلقًا. وقيل: أحقَّ بها مِن الكفّار ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المستأهِلَ لها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم حقَّ كلّ شيء، فيَسوقه إلى مستحِقّه.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل خروجه إلى الحديبية كأنّه وأصحابَه قد دخلوا مكّة آمنين، وقد حلّقوا رءوسَهم وقصّروا، فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسِبوا أنّهم داخلوها في عامهم، فلمّا تأخّر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبدُ الله بن نُفَيل ورفاعةُ بن الحارث: «واللهِ ما حلّقنا ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام»، فنزلت.[٤] أي:

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ س – عليه.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٤/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣١/٥. وانظر: صحيح البخاري، ١٩٣/٣ (٢٧٣١).

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٩/٩.

صَدَقَه عليه السلام في رؤياه، كما في قولهم: «صدَقَني سِنَّ بَكْرِه»،[١] وتحقيقه: أَراهُ الرؤيا الصادقة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر مؤكِّد محذوف، أي: صِدقًا ملتبسًا بالحقّ، أي: بالغرض الصحيح والحكمةِ البالغة التي هي التمييز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزِل فيه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، أي: ملتبسةً بالحقّ ليست مِن قَبيل أضغاث الأحلام.

وقد جُوّز أن يكون قسَمًا بالحقّ الذي هو مِن أسماء الله تعالى، أو بنقيض الباطل، وقولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابه. وهو على الأوّلَين جواب قسم محذوف، أي: واللهِ لتدخلُنَّ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق للعِدَة بالمشيئة لتعليم العباد، أو للإشعار بأنّ بعضهم لا يدخلونه لموتٍ أو غيبةٍ أو غير ذلك، أو هي حكاية لِما قاله ملَك الرؤيا لرسول الله عليه السلام،[٢] أو لِما قاله عليه السلام لأصحابه.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، والشرط معترِض، وكذا قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محلِّقًا بعضُكم ومقصِّرًا آخرون. وقيل: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال مِن ضمير ﴿ءَامِنِينَ﴾، فتكون متداخلة.

[١١١و] ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكِّدة مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، أو ﴿ءَامِنِينَ﴾، / أو ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، أو ﴿مُقَصِّرِينَ﴾، أو استئناف أي: لا تخافون بعد ذلك.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ عطفٌ على ﴿صَدَقَ﴾، والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلي المتعلّق بأمر حادث بعد المعطوف عليه، أي: فعلِمَ عقيبَ ما أراهُ الرؤيا الصادقةَ ما لم تعلموا مِن الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهَد بالصدق علمًا فِعليًا، ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: مِن دون تحقّق مصداق ما أراه مِن دخول المسجد

---

[١] «صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه» يُضرب مَثَلًا في الصدق، والبَكْر: الفَتِيّ مِن الإبل. وأصله أنّ رجلًا ساوَم رجلًا في بَكْر، فقال: «ما سِنُّه؟» فقال صاحبه: «هِدَعْ هِدَعْ»، وهذه لفظة يُسكَّن بها الصغار مِن الإبل، فلمّا سمع المشتري هذه الكلمة قال: «صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه». ونصب "سِنّ" على معنى: عرَّفَني سِنّ. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/٣٩٢.

[٢] س: صلّى الله عليه وسلّم.

الحرام آمنين... إلخ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر. والمراد بجَعلِه وَعْدَه وإنْجازَه مِن غير تسويف ليُستدَلّ به على صدق الرؤيا حسبما قال: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

وأمّا جعلُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ عبارةً عن الحكمة في تأخير فتح مكّة إلى العام القابل كما جنَحَ إليه الجمهور،[2] فيأباه "الفاء"، فإنّ علمه تعالى بذلك متقدِّم على إراءة الرؤيا قطعًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ملتبسًا به، أو بسببه ولأجله، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليُغلِبَه على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقًّا مِن بعض الأحكام المتبدّلة بتبدُّل الأعصار، وإظهارِ بُطلان ما كان باطلًا، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان؛ إذ ما مِن أهل دين إلّا وقد قهرهم المسلمون. وفيه فضلُ تأكيد لِما وعد مِن الفتح، وتوطينٌ لنفوس المؤمنين على أنّه تعالى سيَفتح لهم مِن البلاد، ويُتيحُ لهم مِن الغلَبة على الأقاليم ما يستقلّون إليه فتحَ مكّة.[3]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن لا محالةَ، أو على نبوّته عليه السلام بإظهار المعجزات.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

---

[1] الفتح، ٢٠/٤٨.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٣١٧/٢١؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣١/٥.

[3] وفي هامش م: أي: يعدّون قليلًا بالنسبة إليه فتحَ مكّة. «منه».

﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بدل، أو بيان، أو نعت، أي: ذلك الرسول المرسَل بالهدى ودين الحقّ محمّد رسولُ الله. وقيل: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ / خبره، والجملة مبيّنة للمشهود به. [١١١ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ و﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع "شديد"، و﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع "رحيم". والمعنى: أنّهم يُظهرون لمَن خالف دينهم الشدّةَ والصلابةَ، ولمَن وافقهم في الدين الرحمةَ والرأفةَ، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة، ٥/٥٤]. وقُرئ: "أَشِدَّاءَ" و"رُحَمَاءَ"[١] بالنصب على المدح، أو على الحال مِن المستكِنّ في ﴿مَعَهُۥ﴾، لوقوعه صِلة، فالخبر حينئذ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: تشاهدهم حالَ كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات. وهو على الأوّل خبرٌ آخَر، أو استئناف.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ثوابًا ورِضًا؛ إمّا خبرٌ آخَر، أو حال مِن ضمير ﴿تَرَىٰهُمْ﴾، أو مِن المستتِر في ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنّه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلًا... إلخ.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: سِمَتُهم. وقُرئ: "سِيمْيَاؤُهُمْ" بـ"الياء" بعد "الميم" والمدّ،[٢] وهما لغتان، وفيها لغة ثالثة هي "السّيماء" بالمدّ. وهو مبتدأ خبرُه: ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي: في جباههم.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال مِن المستكنّ في الجارّ، أي: مِن التأثير الذي يؤثّره كثرةُ السجود. وما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن قوله عليه السلام: «لا تَعْلُبُوا صُوَرَكم»،[٣] أي: لا تَسِمُوها؛ إنّما هو فيما إذا اعتمد بجبهته

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٤٧/٤؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٢٧/٩.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٣٤٧/٤. ولم أجده مرفوعًا في مصادر الحديث. وفي غريب الحديث لأبي عبيد، ٢٥٣/٤، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه رأى رجلًا بأنفه أثر السجود، قال: «لا تَعلُب صورتَك». يقول: لا تؤثّر فيها أثرًا، يُقال: "عَلَبتُ الشيءَ أَعلُبه عَلْبًا وعُلوبًا" إذا أثّرتَ فيه.

على الأرض ليُحدث فيها تلك السِّمة، وذلك مَحض رياء ونفاق، والكلام فيما حدث في جبهة السَّجّاد الذي لا يسجد إلّا خالِصًا لوجه الله عزّ وجلّ. وكان الإمام زين العابدين[١] وعليّ بن عبد الله بن العبّاس[٢] رضي الله عنهما يقال لهما: "ذُو الثَّفِنَاتِ"، لِما أحدثت كثرة سجودهما في مواقعه منهما أشباهَ ثَفِناتِ البعير،[٣] قال قائلهم:

ديـار عـلـيّ والـحسين وجعفـرٍ   وحـمـزةَ والـسَّـجّـادِ ذي الـثَّـفِـنـاتِ[٤]

وقيل: صُفرة الوجه / مِن خشية الله تعالى. وقيل: نَدَى الطهور وتراب الأرض. وقيل: استنارةُ وجوههم مِن طول ما صَلَّوا بالليل، قال عليه السلام: «مِن كثُر صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار».[٥] وقُرئ: "مِنْ آثَارِ السُّجُودِ"،[٦] و"مِنْ إِثْرِ السُّجُودِ" بكسر "الهمزة".[٧] [١١٢و]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن نُعوتهم الجليلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلوّ شأنه، وبُعد منزلته في الفضل، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وَصفُهم العجيبُ الشأنِ الجاري في الغَرابة مَجرى الأمثال. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حال مِن ﴿مَثَلُهُمْ﴾، والعامل معنى الإشارة.

---

١ هو عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب الهاشمي العلوي المدني، زين العابدين، أبو الحسين، ويقال: أبو الحسن (ت. ٩٤هـ/٧١٢م). السيّد، الإمام. حدث عن أبيه الحسين، وكان معه يوم كربلاء، وله ثلاث وعشرون سنةً، وكان يومئذ مَوعوكًا، فلم يقاتل، ولا تعرّضوا له، بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد، وردّه مع آله إلى المدينة. كان ثقة، مأمونًا، كثير الحديث، عاليًا، رفيعًا، ورِعًا. أُحصي بعدَ موته عدد مَن كان يقوتهم سِرًّا، فكانوا نحو مائة بيت. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٤٨٦؛ والأعلام للزركلي، ٤/٢٧٧.

٢ هو عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب الهاشمي، أبو محمّد (ت. ١١٨هـ/٧٣٦م). الإمام، السيّد، السَّجّاد. ولد عام قُتل عليّ رضي الله عنه، فسمّي باسمه. وأمّه هي ابنة مشرح بن عديّ الكِندي؛ أحدِ الملوك الأربعة. كان رحمه الله عالمًا عاملًا جسيمًا وسيمًا مَهيبًا. رُوي أنّه كان يسجد كلّ يوم ألفَ سجدة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/٢٥٣؛ والأعلام للزركلي، ٤/٣٠٢.

٣ ثَفِناتِ البعير: هي ما يقع على الأرض مِن أعضائه إذا استناخ وغَلُظ، كالركبتين وغيرهما. الصحاح للجوهري، «ثفن».

٤ لدُعبل الخزاعي في ديوانه، ص ٧٩، مِن قصيدة يمدح فيها آل البيت.

٥ سنن ابن ماجه، ٢/٣٥٨ (١٣٣٣)؛ مسند الشهاب للقضاعي، ١/٢٥٢ (٤٠٨)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤/٤٧١ (٢٨٣٠).

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأوّل، كأنّه قيل: ذلك مَثَلهم في التوراة والإنجيل. وتكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾ لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها.

وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾... إلخ تمثيل مستأنَف، أي: هم كزرع أخرج فِراخه. وقيل: هو تفسير لـ﴿ذَٰلِكَ﴾،[1] على أنّه إشارة مبهَمة. وقيل: خبر لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ على أنّ الكلام قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وقُرِئ: "شَطَأَهُ" بفتحاتٍ.[2] وقُرِئ: "شَطَاهُ" بفتح "الطاء" وتخفيفِ "الهمزة"،[3] و"شَطَاءَهُ" بالمدّ،[4] و"شَطَهُ" بحذف "الهمزة" ونقلِ حركتها إلى ما قبلها،[5] و"شَطْوَهُ" بقلبها واوًا.[6]

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه، مِن "المُؤازرة" بمعنى المعاونة، أو مِن "الإيزار"، وهي الإعانة. وقُرِئ: "فَأَزَرَهُ" بالتخفيف،[7] و"أَزَّرَهُ" بالتشديد،[8] أي: شَدّ أَزْرَه وقوّاه. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار غليظًا بعد ما كان دقيقًا، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على قَصَبه، جمع "ساق". وقُرِئ: "سُؤْقِهِ" بـ"الهمزة".[9]

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوّته وكثافته وغِلَظه وحُسن منظره، وهو مَثَل ضَربه الله عزّ وعلا[10] لأصحابه صلّى الله عليه وسلّم قلّوا في بَدْء الإسلام، ثمّ كَثُروا واستحكموا، فترقّى أمرهم يومًا فيومًا بحيث أعجَب الناس. وقيل: مكتوب في الإنجيل: «سيخرج قوم يَنبتون نباتَ الزرع، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر».[11]

---

[1] وفي هامش م: لفظ.

[2] قرأ بها ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الهمداني وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[5] قرأ بها حمزة في حالة الوقف. وأمّا في الوصل فهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وشيبة والجَحدري. انظر: النشر لابن الجزري، ٤٤٨١/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[7] قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[9] قرأ بها قُنبل عن ابن كثير في أحد الوجهين عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[10] س: عزّ وجلّ.

[11] جامع البيان للطبري، ٣٣٠/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٦/٩.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علّة لِما يُعرِب عنه الكلام مِن تشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه، أو لِما بعده مِن قوله تعالى: / ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإنّ الكفّار إذا سمِعوا بما أُعدّ للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا مِن العزّة غاظَهم ذلك أشدَّ غيظٍ. و﴿مِنْهُم﴾ للبيان. [١١٢ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفتح فكأنّما كان ممّن شهد مع محمّد رسول الله عليه الصلاة والسلام[١] فتحَ مكّة».[٢]

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٨/١٠ (سورة النصر)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٤٩/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٨

سُورَةُ الفَتْح

مدنية، تسعٌ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾: قضَينا بفتح مكّة وغيرها، المُستقبلَ عَنوةً بجِهادك، ﴿فَتْحًا مُبِينًا﴾: بيِّنًا ظاهرًا،

٢ ـ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ بجِهادك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ منه لترغب أُمّتك في الجهاد ـ وهو مُؤوّل لِعصمة الأنبياء بالدليل العقلي القاطع.........................

سُورَةُ الفَتْح

قولُهُ: (بفَتحِ مَكَّةَ) وهو قولُ الكلبيِّ وجماعةٍ[1]، والتَّعبيرُ عنه بالماضي لتحقُّقِهِ كأنَّه وقَعَ، أو لسبقِ قضائِهِ، كما أشارَ الشَّيخُ إليه، أو الفتحُ بمعنى القضاءِ؛ أي: قضينَا لكَ أنْ تدخلَ مكَّةَ مِنْ قابلٍ، وقالَ الجمهورُ[2]: إخبارٌ عن صلحِ الحديبيةِ، وإنَّما سُمِّي فتحاً؛ لأنَّه كانَ بعدَ ظُهورِهِ على المشركينَ حتى سألوا الصُّلحَ وتسبَّبَ لفتحِ مكَّةَ، وفرغَ به رسولُ اللهِ ﷺ لسائرِ العربِ فغزاهُم وفتحَ مواضِعَ، وأدخلَ في الإسلامِ خلقاً عظيماً.

قولُهُ: (عُنوَةً) أي: قهراً وغَلبةً، وهذا مذهَبُنا.

قولُهُ: (بيِّناً) أو مبيناً ومظهراً عنايَتَنا عليك.

قولُهُ: (بِجِهَادِكَ) يعني: أنَّه علَّةٌ للفتحِ من حيثُ إنَّه مسبَّبٌ عن جهادِ الكفَّارِ، أو اللَّامُ للعاقبةِ والصَّيرورةِ.

قولُهُ: (لِتَرغَبَ) علَّةٌ للعلَّةِ.

---

(١) وانظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٢٥).

(٢) وانظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩٨).

من الذنوب. واللام: للعِلّة الغائيّة فمدخولها مُسبَّب لا سبب ـ ﴿وَيُتِمَّ﴾ بالفتح المذكور ﴿نِعْمَتَهُ﴾: إنعامه ﴿عَلَيْكَ، وَيَهْدِيَكَ﴾ به ﴿صِرَاطًا﴾: طريقًا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يُثبّتك عليه ـ وهو دِين الإسلام ـ ٣ ـ ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ به ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾: ذا عِزّ لا ذلّ معه.

٤ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: الطُّمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ بشرائع الدين، كلّما نزّل واحدة منها آمنوا بها، ومنها الجهاد، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ـ فلو أراد نصر دِينه بغيركم لَفعلَ ـ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في صُنعه، أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٥ ـ ٦ ـ ﴿لِيُدْخِلَ﴾: مُتعلّق بمحذوف، أي: أمَرَ بالجِهاد،........

قولُهُ: (مِنَ الذُّنُوبِ) ذكرَ العلّامةُ التَّفتازانيُّ في «شرحِ العقائدِ»[١]: أنَّهم معصومونَ عن الكفرِ مطلقاً بالإجماعِ، وعن تعمُّدِ الكبائرِ عندَ الجمهورِ خلافاً للحشويَّةِ، وأمَّا سهواً فجوَّزَهُ الأكثرونَ، وأمَّا الصَّغائرُ فتجوزُ عمداً عند الجمهورِ خلافاً للجبائيِّ[٢]، ويجوز سهواً بالاتِّفاقِ إلَّا ما يدلُّ على الخسَّةِ، كسرقةِ لقمةٍ، لكنَّ المحقِّقينَ اشترَطوا أن ينبَّهوا عليه فينتَهُوا عنه، هذا كلُّهُ بعدَ الوحِي، وأمَّا قبلَهُ فلا دليلَ على امتناعِ صُدورِ الكبيرةِ، وذهبَ المعتزلةُ إلى امتناعِها، ومنعَ الشِّيعةُ صدورَ الصغيرة و[٣]الكبيرةِ قبلَ الوحي وبعدَهُ، انتهى.

ويمكنُ حملُ الذُّنوبِ على الغفلاتِ، أو الاشتغالِ بالمباحاتِ، أو التَّقصيرِ في الطَّاعاتِ، أو رؤيةِ العباداتِ، أو طلبِ المستحسناتِ، فإنَّ حسناتِ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبينَ، وما أحسنَ قولَ البيضاويِّ[٤]: جميعَ ما فرطَ منك ممَّا يصحُّ أن تُعاتَبَ عليه، أو المرادُ: فرضاً وتقديراً، أو ذنوبُ أمَّتِه ببركةِ شفاعتِهِ.

قولُهُ: (إِنعَامَهُ) بإعلاءِ الدِّينِ وضمِّ الملكِ إلى النُّبوَّةِ.

قولُهُ: (يُثَبِّتَكَ) أو في تبليغِ الرِّسالةِ، وإقامةِ مراسيمِ السِّياسةِ.

قولُهُ: (الطُّمَأْنِينَةَ) والثَّباتَ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ) أو ﴿فتحْنَا﴾، أو ﴿أنزل﴾، أو ﴿ليزدادُوا﴾، أو فعل ما ذُكِرَ.

---

(١) انظر: «شرح العقائد النسفية» (ص: ١٢٩).

(٢) أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام، المعروف بالجبائي أحد أئمة المعتزلة، كان إماماً في علم الكلام، أخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة، وله في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة، وعنه أخذ الشيخ الأشعري، ثم ترك الأشعري مذهبه، (ت: ٣٠٣ هـ). انظر: «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٦٧)، و«تاريخ الإسلام» (٧/ ٧٠).

(٣) قوله: «الصغيرة و» زيادة من (د).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٢٦).

﴿المُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ جَنّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها، ويُكَفِّرَ عَنهُم سَيِّئاتِهِم - وكانَ ذلِكَ عِندَ اللهِ فَوزًا عَظِيمًا - ويُعذِّبَ المُنافِقِينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكِينَ والمُشرِكاتِ الظّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ﴾، بفتح السين وضمّها في المواضع الثلاثة، ظنّوا أنه لا ينصر مُحمّدًا ﷺ والمُؤمنين. ﴿علَيهِم دائرةُ السَّوءِ﴾ بالذلّ والعذاب، ﴿وغَضِبَ اللهُ علَيهِم، ولَعَنَهُم﴾: أبعدَهم، ﴿وأعَدَّ لَهُم جَهَنَّمَ، وساءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مَرجِعًا! ٧ - ﴿ولِلهِ جُنُودُ السَّماواتِ والأرضِ، وكانَ اللهُ عَزِيزًا﴾ في مُلكه، ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه، أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٨ - ﴿إنّا أرسَلْناكَ شاهِدًا﴾ على أُمّتك في القِيامة، ﴿ومُبَشِّرًا﴾ لهم في الدنيا بالجنة، ﴿ونَذِيرًا﴾: مُنذرًا مُخوّفًا فيها مَن عَمِلَ سُوءًا بالنار، ٩ - ﴿لِيُؤمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ﴾ - بالياء والتاء فيه وفي الثلاثة بعده - ﴿ويُعَزِّرُوهُ﴾: ينصروه، وقُرئ بزاءين مع الفَوقانيّة، ﴿ويُوَقِّرُوهُ﴾: يُعظّموه - وضميرُهما لله أو لرسوله - ﴿ويُسَبِّحُوهُ﴾ أي: اللهَ ﴿بُكرَةً وأصِيلاً﴾: بالغداة والعشيّ.

١٠ - ﴿إنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ﴾ بَيعةَ الرِّضوانِ بالحُدَيبيةِ ﴿إنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ - هو نحو «مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فقَد أطاعَ اللهَ» - ﴿يَدُ اللهِ فَوقَ أيدِيهِم﴾ التي بايعوا بها النبيَّ،..........

قولُهُ: (في المَوَاضِعِ الثَّلاثَةِ) هذا سهوٌ؛ لأنَّ الخلافَ، إنّما هو دائرٌ مع ﴿دائرة السَّوء﴾ هنا، فالمكِّيُّ والبصريُّ بالضَّمِّ(١).

قولُهُ: (بالذُّلِّ) أي: عليهم خاصَّةً دائرة ما يظنُّونَهُ بالمؤمنينَ، يحيطُ بهم إحاطَةَ الدَّائرةِ بما فيها، والإضافةُ بمعنى في، ويحتملُ أن تكونَ ﴿عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وما بعدَهُ جملَ دعائيَّةً.

قولُهُ: (أي: مَرجِعاً) جهنَّمُ.

قولُهُ: (بالياءِ) الغيبةُ مكِّيٌّ وبصريٌّ(٢).

قولُهُ: (تَنصُرُوهُ) وتقوُوهُ بتقويةِ دينِهِ ورسولِهِ.

قولُهُ: (اللهَ) أي: تنزِّهوهُ، أو تصلُّوا له.

قولُهُ: (بالغَدوَةِ) أو دائماً.

قولُهُ: (نَحوَ ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ﴾) يعني: أنَّ عقدَ الميثاقِ مع الرَّسولِ كعقدِ الميثاقِ بلا واسطةٍ معَ اللهِ من غيرِ تفاوتٍ؛ لأنَّهُ تعالى هو المقصودُ ببيعةِ رسولِهِ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٤٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

أي: هو - تعالى - مُطّلع على مُبايعتهم، فيُجازيهم عليها. ﴿فمَن نكَثَ﴾: نقض البيعةَ ﴿فإنّما ينكُثُ﴾: يرجِعُ وبالُ نقضِه ﴿على نَفْسِه، ومَن أوفى بِما عاهَدَ علَيهِ اللهَ فسَيُؤتِيهِ﴾ - بالياء والنون - ﴿أجرًا عَظِيمًا﴾.

١١ - ﴿سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأعرابِ﴾ حولَ المدينة، أي: الذين خلّفهم الله عن صُحبتك، لمّا طلبتَهم ليخرجوا معك إلى مكّة خوفًا من تعرّض قُريش لك عام الحُديبية، إذا رجعتَ منها: ﴿شَغَلَتْنا أمْوالُنا وأهلُونا﴾ عن الخُروج معك. ﴿فاستَغفِرْ لَنا﴾ اللهَ مِن تَركِ الخُروج معك. قال تعالى مُكذّبًا لهم: ﴿يَقُولُونَ بِألسِنَتِهِم﴾ أي: مِن طلبِ الاستغفار وممّا قبله ﴿ما لَيسَ في قُلُوبِهِم﴾. فهم كاذبون في اعتذارهم.

﴿قُلْ: فمَن﴾ - استفهام بمعنى النفي - أي: لا أحدَ ﴿يَملِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شَيئًا، إن أرادَ بِكُم ضَرًّا﴾ - بفتح الضاد وضمّها - ﴿أو أرادَ بِكُم نَفعًا؟ بَل كانَ اللهُ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

١٢ - ﴿بَل﴾..

قولُهُ: (مطَّلِعٌ) يعني: فاليدُ تمثيلٌ؛ أي: يدُ رسولِهِ يدُهُ، وهو منزَّهٌ عن اليدِ، أو كنايةٌ عن أنَّ كمالَ القدرةِ والقوَّةِ للهِ، فيكونُ مقدِّمةً لقولِهِ: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ وقيلَ: والأصوبُ عدمُ التَّأويلِ؛ لأنَّها من المتشابهاتِ، وعنِ الكلبيِّ[1] وكثيرٍ من السَّلفِ: نعمةُ اللهِ عليهم بالهدايةِ فوقَ ما صنعوا من البيعَةِ.

قولُهُ: (والنُّونِ) نافعٌ ومكِّيٌّ[2]، و﴿عَلَيهُ﴾ بالضَّمِّ حفصٌ[3].

قولُهُ: (خَلَّفَهُمُ اللهُ) بالخذلانِ وضعفِ العقيدةِ والخوفِ والجبنِ.

قولُهُ: (إذا رَجَعْتَ) ظَرفٌ للقولِ.

قولُهُ: (عَنِ الخُرُوجِ) إذ لم يكُنْ لنا مَن يقومُ بأشغالِهِم وأمورِهِم.

قولُهُ: (مِنْ تَركِ الخُرُوجِ) أي: على التَّخلُّفِ.

قولُهُ: (ومِمَّا قَبْلَهُ) من الاعتِذارِ.

قوله: (في اعتِذَارِهِم) واستغفارِهِم؛ إذ ليسَ في قلوبِهِم طلبُ المغفرةِ.

قولُهُ: (وضَمِّها) حمزةُ والكسائيُّ[4]؛ أي: ما يضرُّكُم كقَتلٍ وهَزيمةٍ وخلل وظلمٍ في الأهلِ والمالِ وعقوبةِ على التَّخلُّفِ، وقولُهُ تعالى: (﴿شَيئًا﴾) أي: من النَّفعِ والضُّرِّ، فتكونُ الآيةُ من اللَّفِّ والنَّشرِ.

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٤/ ٢٤٢).

(٢) وشامي أيضاً، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

(٤) انظر المصدر السابق.

في الموضعين للانتقال من غرض إلى آخر ـ ﴿ظَنَنتُم أنْ لَن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ والمُؤمِنُونَ إلَى أهلِيهِم أبَدًا، وزُيِّنَ ذلِكَ في قُلُوبِكُم﴾ أي: أنهم يُستأصَلون بالقتل فلا يرجعون، ﴿وظَنَنتُم ظَنَّ السَّوءِ﴾ هذا وغيرَه، ﴿وكُنتُم قَومًا بُورًا﴾: جمع بائر، أي: هالكين عند الله بهذا الظنّ.

١٣ ـ ﴿ومَن لَم يُؤمِنْ بِاللهِ ورَسُولِهِ فإنّا أعتَدْنا لِلكافِرِينَ سَعِيرًا﴾: نارًا شديدة، ١٤ ـ ﴿ولِلهِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، يَغفِرُ لِمَن يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ، وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لم يزل مُتصفًا بما ذُكر.

١٥ ـ ﴿سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون ﴿إذا انطَلَقتُم إلَى مَغانِمَ﴾ ـ هي مغانم خيبر ـ ﴿لِتأخُذُوها: ذَرُونا﴾: اتركونا، ﴿نَتَّبِعكُم﴾ لنأخذَ منها. ﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ﴾. وفي قراءة: «كَلِمَ اللهِ» بكسر اللام، أي: مواعيدَه بغنائم خيبر أهلَ الحُدَيبية خاصّة. ﴿قُلْ: لَن تَتَّبِعُونا. كَذلِكُم قالَ اللهُ، مِن قَبلُ﴾ أي: قبل عودنا..

قولُهُ: (فِي المَوْضِعَينِ) هنا، وفيما سبقَ[1].

قولُهُ: (هَذا) الظَّنَّ المذكورَ.

قولُهُ: (وغَيرَهُ) من الظُّنونِ الزَّائغةِ.

قولُهُ: (بِمَا ذُكِرَ) فالغفرانُ والرَّحمةُ من ذاتِهِ، والتَّعذيبُ داخلٌ تحت قضائِهِ بالعرضِ، ولذلك جاءَ في الحديثِ القدسيِّ: «سَبَقَتْ رحمَتي غَضَبِي»[2].

قولُهُ: (هِيَ مَغَانِمُ خَيبَرَ) فإنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رجعَ من الحديبيةِ سنةَ ستٍّ، وأقامَ بالمدينةِ بقيَّتَها وأوائلَ المحرَّمِ، ثمَّ غزا بمَن شهدَ الحديبيةَ ففتَحَها، وغنمَ أموالاً كثيرةً، فخصَّها بهم.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[3].

قولُهُ: (بِكَسرِ اللَّامِ) وحذفِ الألفِ، وهو جمعُ: كلمةٍ.

قولُهُ: (أي: مَوَاعِيدَهُ) أو وعدَهُ؛ يعني: يُغيِّروا.

قولُهُ: (خَاصَّةً) عِوضاً من مغانمِ مكَّةَ.

قولُهُ: (عَودِنَا) من الحديبيةِ إلى المدينةِ، أو من قبلِ التَّهيُّؤِ للخُروجِ إلى خيبرَ، أو من قبلِ أن تَسألوا الخروجَ.

(١) في الآية رقم: (١١).

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٣)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

﴿فَسَيَقُولُونَ: بَل تَحسُدُونَنا﴾، أن نُصيب معكم من الغنائم، فقلتم ذلك. ﴿بَل كانُوا لا يَفقَهُونَ﴾ من الدِّين ﴿إلاّ قَلِيلاً﴾ منهم.

١٦ ـ ﴿قُل لِلمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعرابِ﴾ المذكورين اختبارًا: ﴿سَتُدعَونَ إلَى قَومٍ أُولِي﴾: أصحابِ ﴿بأسٍ شَدِيدٍ﴾ ـ قيل: هم بنو حَنيفةَ أصحاب اليمامة. وقيل: فارسُ والروم ـ ﴿تُقاتِلُونَهُم﴾: حالٌ مُقدّرة، هي المدعوّ إليها في المعنى، ﴿أو﴾ هم ﴿يُسلِمُونَ﴾ فلا يُقاتِلون. ﴿فإن تُطِيعُوا﴾ إلى قتالهم ﴿يُؤتِكُمُ اللهُ أجرًا حَسَنًا، وإن تَتَوَلَّوا كَما تَوَلَّيتُم مِن قَبلُ يُعَذِّبْكُم عَذابًا ألِيمًا﴾: مُؤلمًا.

١٧ ـ ﴿لَيسَ عَلَى الأعمَى حَرَجٌ، ولا عَلَى الأعرَجِ حَرَجٌ ولا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك الجِهاد، ﴿ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ يُدخِلْهُ﴾ ـ بالياء والنون ـ ﴿جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، ومَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ﴾ ـ بالياء والنون ـ ﴿عَذابًا ألِيمًا﴾.

١٨ ـ ﴿لَقَد رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤمِنِينَ، إذ يُبايِعُونَكَ﴾ بالحُدَيبية ﴿تَحتَ الشَّجَرةِ﴾ ـ هي سَمُرةٌ، وهم ألف وثلاثُمِائَة أو أكثر، ....

قولُهُ: (أنْ نُصِيبَ) أي: في أن نُصِيبَ الغَنائمَ، وليسَ أمراً من اللهِ.

قولُهُ: (مِنهُم) أو لا يفهَمونَ إلّا فهماً قليلاً، وهو فطنتُهُم لأمورِ الدُّنيا فلا يفهمونَ شيئاً من أمرِ الدِّينِ، وهذا هو الظَّاهرُ.

قولُهُ: (المَذكُورِينَ) كرَّرَ ذكرَهُم بهذا الاسمِ مبالغةً في الذَّمِّ، وإشعاراً بشناعَةِ التَّخلُّفِ.

قولُهُ: (اختِبَاراً) علَّةٌ لـ﴿قُل﴾.

قولُهُ: (والرُّومُ) وقيل: هوازنُ وثقيفٌ، أو المشركونَ.

قولُهُ: (حَالٌ مُقَدَّرةٌ) والظَّاهرُ أنَّه جملةٌ مستأنفةٌ للتَّعليلِ؛ أي: ستُدعونَ إليهم للمُقاتلةِ، نحو: سيَدعوكَ الأميرُ يكرمكَ، ولا يجوزُ أن يكونَ صفةً لـ﴿قَومٍ﴾؛ لأنَّهم دُعوا إلى قتالِ القومِ لا إلى قتالِ قومٍ موصُوفينَ بالمقاتلةِ أو الإسلامِ، والمعنى: يكونُ أحدُ الأمرينِ؛ إمَّا المقاتلةُ أو الإسلامُ، والإسلامُ بمعنى: الانقيادِ لتناولِ تقبُّلِهِمُ الجزيةَ.

قولُهُ: (والنُّونِ) نافعٌ، فيه وفيما بعدَهُ[1].

قولُهُ: (هيَ سَمُرَةٌ) شجرةٌ أو سدرةٌ.

قولُهُ: (أو أكثَرُ) قيل: ألفٌ وأربعُمائةٍ، قيل: وهو الأصحُّ، وقيل: ألفٌ وخمسُمائةٍ.

---

(١) وكذلك قرأ ابن عامر، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

ثمّ بايعهم على أن يناجزوا قريشًا وعلى ألاّ يفروا وعلى الموت ـ ﴿فعَلِمَ﴾ الله ﴿ما في قُلُوبِهِم﴾ من الصِّدق والوفاء، ﴿فأنزَلَ السَّكِينةَ علَيهِم، وأثابَهُم فَتحًا قَرِيبًا﴾، هو فتح خَيبرَ بعد انصرافهم من الحُدَيبية، ١٩ ـ ﴿ومَغانِمَ كَثِيرةً يأخُذُونَها﴾ من خَيبرَ. ﴿وكانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٢٠ ـ ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرةً تأخُذُونَها﴾ من الفتوحات، ﴿فعَجَّلَ لكُم هذِهِ﴾ غنيمةَ خيبرَ، ﴿وكَفَّ أيدِيَ النّاسِ عَنكُم﴾ في عِيالكم لمّا خرجتم وهمّت بهم اليهود، فقذف الله في قلوبهم الرُّعب، ﴿ولِتكُونَ﴾ أي: المُعجلةُ ـ عطفٌ على مُقدّر، أي: فعلَ ذلك لتشكروه ـ ﴿آيةً لِلمُؤمِنِينَ﴾ في نصرهم، ﴿ويَهدِيَكُم صِراطًا مُستَقِيمًا﴾ أي: طريق التوكّلِ عليه وتفويضِ الأمر إليه ـ تعالى ـ ٢١ ـ ﴿وأُخرَى﴾: صفةُ «مغانمُ» مُقدّرًا مُبتدأ، ﴿لَم تَقدِرُوا علَيها﴾ هي من فارسَ والروم، ﴿قَد أحاطَ اللهُ بِها﴾:..........

قولُهُ: (يُنَاجِزُوا) أي: يقاتِلوا.

قولُهُ: (وعَلى المَوتِ) الظّاهرُ أنّه مستدركٌ، وسببُ البيعةِ أنّه ﷺ لمَّا نزلَ الحديبيةَ بعثَ خراشَ بن أميّةَ الخزاعيَّ إلى أهلِ مكّةَ للإذنِ في دخولِها، فهمُّوا به فمنعَهُ الأحابيشُ فرجعَ، فبعثَ عثمانَ بن عفَّانَ فحبَسُوه فأُرجفَ بقتلِهِ، فدعا رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَهُ وبايعَهُم[1].

قولُهُ: (مِنَ الصِّدقِ) والإخلاصِ.

قولُهُ: (فَتحُ خَيبَرَ) وقيل: مكّةَ، أو هو الصُّلحُ الّذي هو سببٌ للفتوحاتِ المكّيّةِ وغيرِها.

قولُهُ: (مِنَ الفُتُوحَاتِ) إلى يومِ القيامةِ.

قولُهُ: (في عِيَالِكُم) بالمدينةِ.

قولُهُ: (اليَهُودُ) أي: أيديَ أهلِ خيبرَ وحلفائِهم مِن بني أسَدٍ وغطفانَ، أو أيديَ قريشٍ لأجلِ صلحِ الحديبيةِ.

قولُهُ: (أي: المُعَجَّلَةُ) أي: الغنيمةُ، أو الكفَّةُ وسلامةُ عيالِكُم.

قولُهُ: (لِتَشكُرُوهُ) والأظهرُ: ليكونَ سبباً للشُّكرِ، أو العلّةُ لمحذوفٍ مثلُ فعلِ ذلك.

قولُهُ: (في نَصرِهِم) أي: علامةً يعرفونَ بها أنّهم من اللهِ بمكانٍ، أو صِدقَ الرَّسولِ وَعدَهُم فتحَ خيبرَ حينَ رجوعِهِ من الحديبيةِ.

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) خبرُهُ: ﴿قَدْ أَحَاطَ﴾، و﴿لَمْ تَقْدِرُوا﴾ صفتُهُ، أو معطوفةٌ على: ﴿هذِهِ﴾.

قولُهُ: (مِنْ فَارِسَ) أو مكّةَ، أو خيبرَ، أو مغانمِ هوازنَ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» لابن حبان (١/ ٢٨٢).

عَلِمَ أنها ستكون لكم ـ ﴿وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرًا﴾ أي: لم يزل مُتَصفًا بذلك. ٢٢ ـ ٢٣ ـ ﴿ولَو قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحُدَيبية ﴿لَوَلَّوُا الأدبارَ، ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿ولا نَصِيرًا، سُنَّةَ اللهِ﴾: مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجملة قبله من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين، أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً، ﴿الَّتِي قَد خَلَتْ مِن قَبلُ، ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبدِيلاً﴾ منه ـ ٢٤ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي كَفَّ أيدِيَهُم عَنكُم وأيدِيَكُم عَنهُم بِبَطنِ مَكَّةَ﴾: بالحُدَيبية، ﴿مِن بَعدِ أن أظفَرَكُم علَيهِم﴾. فإنّ ثمانين منهم طافوا بعسكركم ليُصيبوا منكم،

قولُهُ: (عَلِمَ) أو استولى فأظفرَكُم بها.

قولُهُ: (بالحُدَيبِيَةِ) من أهلِ مكَّةَ ولم يُصَالحوا.

قولُهُ: (أي: سَنَّ اللهُ) أي: سنَّ غَلبَةَ أنبيائِهِ سنَّةً قديمةً فيمن مضى من الأممِ، كما قالَ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة: ٢١]، ولا يبعدُ تفسيرُ السُّنَّةِ هنا بقضائِهِ وقدرِهِ.

قولُهُ: (مِنهُ) فكيفَ من غيرِهِ؟.

قولُهُ: (بالحُدَيبِيَةِ) مَنَّ اللهُ تعالى بصلحِ الحديبيةِ وحفظِ المسلمينَ من أيدي الكفَّارِ، وعن القتالِ بمكَّةَ وهتكِ حرمةِ المسجدِ الحرامِ.

قولُهُ: (فإنَّ ثَمَانِينَ) روى التِّرمذيُّ من حديثِ أنسٍ: أنَّ ثمانينَ من أهلِ مكَّةَ هبَطوا على النَّبيِّ ﷺ من التَّنعيمِ ليقتُلوهُ، كذا في «المبهماتِ»[1]، وزادَ الصَّفويُّ[2]: فدعا عليهم فأُخِذُوا وعَفا عنهم فأطلِقوا، وأمَّا ما ذكرَهُ القاضي[3] من أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسِمائةٍ إلى الحديبيةِ فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ خالدَ بنَ الوليدِ على جندٍ فهزمَهُم حتَّى أدخلَهُم حيطانَ مكَّةَ ثمَّ عادَ، وإن كانَ رواهُ ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ وابنُ أبي حاتمٍ[4] فغيرُ صحيحٍ إذ خالدُ بنُ الوليدِ لم يكنْ أسلمَ يومئذٍ، بل كانَ طليعةً للمشركينَ كما في «صحيحِ البخاريِّ» وغيرِهِ[5]، وقيل: المرادُ فتحُ مكَّةَ، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ السُّورةَ مدنيَّةٌ نزلت قبلَ فتحِ مكَّةَ، والحملُ على أنَّ الماضي؛ يعني: ﴿كَفَّ﴾ للتَّحقيقِ، وهو بمعنى: المضارعِ، فيكونُ وعداً من اللهِ بعيدٌ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٢).

ورواه مسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٢٦٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦١٤).

(٢) انظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (٤/ ١٦٠).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٨)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٥٣٣) عن ابن أبزى.

(٥) رواه البخاري (٢٧٣١)، وأحمد في «مسنده» (١٨٩٢٨) من حديث المسور بن مخرمة ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه.

فأُخذوا وأُتِي بهم إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، فكان ذلك سببَ الصُّلح. ﴿وكانَ اللهُ بِما يَعمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ـ بالياء والتاء ـ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٢٥ ـ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوكُم عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ﴾ أي: عن الوصول إليه، ﴿والهَدْيَ﴾: معطوفٌ على «كُم» ﴿مَعكُوفًا﴾: محبوسًا حالٌ، ﴿أن يَبلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: مكانَه الذي يُنحَر فيه عادة ـ وهو الحَرَم ـ بدلُ اشتمال، ﴿ولَولا رِجالٌ مُؤمِنُونَ ونِساءٌ مُؤمِناتٌ﴾ موجودون بمكّة مع الكفار، ﴿لَم تَعلَمُوهُم﴾ بصفة الإيمان، ﴿أن تَطَؤُوهُم﴾..........

قولُهُ: (بالياءِ) الغَيبةُ بصريٌّ[1].

قولُهُ: (عَلى: «كُم») أي: مَنعوكُم عن الزِّيارةِ، ومنَعوا الهديَ؛ أي: ما يُهدَى إلى مكَّةَ، وهذا يدلُّ على أنَّ ذلك عامَ الحديبيةِ.

قولُهُ: (عَادَةً) عندَ الشَّافعيِّ[2]، وشرعاً عندَنا[3]، والظَّاهرُ أنَّ ﴿محلَّهُ﴾ مكانُه الَّذي يحلُّ فيه نحرُه وهو الحرمُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وأما المرادُ هنا: مكانُهُ المعهودُ من الحرمِ، وهو المروَةُ، وقولُ البيضاويِّ[4]: هو منًى، سهوٌ؛ لأنَّ الكلامَ في العمرةِ، وقد ثبتَ أنَّ بعضَ الحديبيةِ من الحرمِ؛ فذُبِحَ دمُ الإحصارِ فيه، وعندَ الشَّافعيِّ: يجوزُ ذبحُ دمِ الإحصارِ حيثُ يُحصَرُ[5].

قولُهُ: (وهُو الحَرَمُ) فيه أنَّ مطلقَ الحرمِ ليس مكانَ الذَّبحِ عادةً، بلِ العادةُ في الحجِّ منًى، وفي العمرة المروةُ، وقولُ القاضي[6]: (فلا ينتهِضُ حجَّةً للحنفيَّةِ)، فيه أنَّهُم ما استدلُّوا بهذِهِ الآيةِ، فإنَّ هذا المحلَّ ممنوعٌ، وهو بالاتِّفاقِ محمولٌ على محلِّ العادةِ، وإنَّما استدلُّوا بآيةِ البقرةِ، وبقولِهِ تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] وبقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].

قولُهُ: (بَدَلُ اشتِمَالٍ) يعني: ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾ بدلٌ من: ﴿الهديَ﴾ أي: صدُّوا بلوغَ الهدي محلَّهُ.

قولُهُ: (مَوجُودُونَ) أي: المستضعفونَ بمكَّةَ، وهو بيانُ حكمَةِ المصالحةِ.

قولُهُ: (بِصِفَةِ الإِيمَانِ) أي: لم تعرفُوهُم بأعيانِهِم لاختلاطِهِم بالمشركينَ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

(٢) انظر: «الحاوي الكبير» (٤/ ٣٥٠).

(٣) انظر: «التجريد» (٤/ ٢١٣١).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

(٥) هذا إذا كان المحصر في الحل غير قادر على إيصال هديه إلى الحرم، انظر: «الحاوي الكبير» (٤/ ٣٥٠).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

أي: تقتلوهم مع الكُفّار لو أُذِنَ لكم في الفتح، بدلُ اشتمال من «هم»، ﴿فتُصِيبَكُم مِنهُم مَعَرَّةٌ﴾: إثم ﴿بِغَيرِ عِلمٍ﴾ منكم به. وضمائر الغَيبة للصِّنفين بتغليب الذكور، وجواب «لولا» محذوف، أي: لَأُذِنَ لكم في الفتح.

لكن لم يُؤذَن فيه حينئذ ﴿لِيُدخِلَ اللهُ في رَحمتِهِ مَن يَشاءُ﴾ كالمُؤمنين المذكورين. ﴿لَو تَزَيَّلُوا﴾: تميّزوا عن الكُفّار ﴿لَعَذَّبنا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم﴾:...

قولُهُ: (أي: تَقتُلُوهُم) أي: توقعوا بهم وتقتُلُوهُم في أثناءِ القتالِ، وأصلُ الوطءِ: الدَّوسُ[١].

قولُهُ: (مِنْ: «هم») مفصولٌ؛ أي: من ضميرِ «هم» في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾، أو من: ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نِسَاءٌ﴾.

قولُهُ: (أي: إثمٌ) وقالَ القاضي[٢]: أي: مَكروهٌ؛ لوجوبِ الدِّيةِ والكفَّارةِ بقتلِهِم، والتَّأسُّفِ عليهِم وتعييرِ الكفَّارِ بأنَّهُم قتَلوا أهلَ دينِهِم، والإثمُ بالتَّقصيرِ في البحثِ عنهم، وفي «المدارِكِ»[٣]: وهو الكفَّارةُ إذا قتلَهُ خطأً، والإثمُ إذا قصَّرَ، قالَ ابنُ عطيَّةَ[٤]: لا إثمَ ولا ديةَ في قتلِ مؤمنٍ مستورِ الإيمانِ بينَ أهلِ الحربِ، وقالَ ابنُ الهمام من أئمَّتِنا[٥]: إنَّه إذا كانَ الكفَّارُ في حصنٍ وفيهم ذمِّيٌّ مستورٌ لا يحلُّ قتلُ العامِّ، وقولُهُ: (﴿فَتُصِيبَكُم﴾) نصبُهُ على جوابِ النَّفيِ، أو للعطفِ على: ﴿تَطَئُوهُمْ﴾.

قولُهُ: (مِنكُم بِهِ) أي: بقتلِهِم، فمتعلَّقُ العلمِ الأوَّلِ وصفُ الإيمانِ، والثَّاني القتلُ فلا تكرارَ.

قولُهُ: (مَحذُوفٌ) لدَلالةِ الكلامِ عليه، والمعنى: لولا كراهةُ أن تُهْلِكوا أناساً مؤمنينَ بين أظْهُرِ الكافرينَ جاهلينَ بهم فيصيبَكُم بإهلاكِكُم لهم مكروهٌ لما كفَّ أيديكُم عنهم.

قولُهُ: (لَكِنْ لَمْ يُؤْذَنْ) يعني: أنَّه متعلَّقُ العلَّةِ، أو التَّقديرُ: كانَ ذلك.

قولُهُ: (كالمُؤمِنِينَ المَذكُورِينَ) والأظهرُ: كفَّ أيديَكُم عنهم ليُخَلِّصَ من بين أظهرِهِمُ المؤمنينَ، وليرجعَ كثيرٌ منهم إلى الإسلامِ.

قولُهُ: (تَمَيَّزُوا) أي: لو تفرَّقوا وتميَّزَ بعضُهُم من بعضٍ.

قولُهُ: (عنِ الكُفَّارِ) أو تميَّزَ الكفَّارُ من المؤمنينَ الَّذينَ بين أظهرِهِم، والأوَّلُ أولى ثمَّ الثَّالثُ.

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٣٤١).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٥/ ١٣٧).

(٥) انظر: «فتح القدير» (٥/ ٤٤٩).

من أهل مكّة حينئذ بأن نأذن لكم في فتحها ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلمًا، ٢٦ ـ ﴿إذ جَعَلَ﴾، مُتعلّق بـ«عذّبنا»، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فاعلٌ ﴿في قُلُوبِهِمِ الحَمِيَّةَ﴾: الأنفةَ من الشيء ﴿حَمِيَّةَ الجاهِلِيَّةِ﴾: بدلٌ من «الحميّة» وهي صدّهم النبيَّ وأصحابه عن المسجد الحرام، ﴿فأنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وعلَى المُؤمِنِينَ﴾، فصالحوهم على أن يعودوا من قابلٍ، ولم يَلحقهم من الحميّة ما لحق الكُفّارَ حتّى يقاتلوهم، ﴿وألزَمَهُم﴾ أي: المُؤمنين ﴿كَلِمَةَ التَّقوَى﴾: «لا إلــٰـهَ إلاّ اللهُ مُحمّد رسول اللهِ»، ....

قولُهُ: (مُؤلِماً) قالَ القاضي[1]: بالقتلِ والسَّبي، وهو الظَّاهرُ؛ لأنَّ المرادَ من التَّعذيبِ: التَّعذيبُ الدُّنيويُّ الَّذي هو تسليطُ المؤمنينَ عليهم وقتالُهُم، فإنَّ عدمَ التَّمييزِ لا يوجِبُ عدمَ عذابِ الآخرةِ، وقيل: قولُهُ: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ هو جوابُ: ﴿لَوْلَا﴾ و﴿لَو تَزَيَّلُوا﴾ كالتَّكرارِ لـ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ مرجِعَ ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ و﴿لو تزيَّلُوا﴾ واحدٌ، وهو كلامٌ سديدٌ غيرُ بعيدٍ.

قولُهُ: (بـ﴿عَذَّبْنَا﴾) أو ﴿صَدُّوكُم﴾، أو يُقدَّرُ: اذكُرْ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) وهي الَّتي تمنَعُ إذعانَ قَبولِ الحقِّ.

قولُهُ: (حَتَّى يُقَاتِلُوهُم) ويَعصُوا اللهَ في قتالِهِم، وذلك ما رويَ: أنَّه ﷺ لمَّا همَّ بقتالِهِم بعدَ البيعةِ؛ بَعثوا سهيلَ بن عَمرٍو وغيرَهُ ليسألوهُ أن يرجِعَ من عامِهِ على أن يخلِّيَ له قريشُ مكَّةَ من قابلٍ ثلاثةَ أيَّامٍ فأجابَهُم وقال لعليٍّ: «اكتبْ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»، فقالوا: ما نعرفُ هذا، اكتبْ: باسمكَ اللَّهمَّ، ثمَّ قالَ: «اكتُبْ هذا مَا صالحَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ أهلَ مكَّةَ»، فقالُوا: لو نعلمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ما صدَدْناكَ عن البيتِ، اكتُبْ هذا ما صالحَ عليه محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، فقالَ: «اكتبْ ما يريدُونَ، فأنَا أشهدُ أنِّي رسولُ اللهِ وأنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ»، فهَمَّ المؤمنونَ أن يأبَوا كلامَ رسولِ اللهِ ﷺ في الصُّلحِ، ودخَلوا من ذلكَ في أمرٍ عظيمٍ كادوا أنْ يهلِكوا، أو يدخلَ الشَّكُّ في قلوبِ بعضِهم حتَّى إنَّه قالَ ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ: «قومُوا وانحرُوا ثمَّ احلقُوا»، وما قامَ منهم رجلٌ[2] ظنًّا منهُم أنَّ الأمرَ للإباحةِ، أو الاستحبابِ، أو من بابِ الشُّورى في أمرِ الحربِ، وأرادوا أن يبطُشُوا على الكفَّارِ، فأنزلَ اللهُ السَّكينةَ عليهم، فاطمأنُّوا وتوقَّروا وتحمَّلوا وتجمَّلوا.

قولُهُ: (أي: لا إلهَ إلَّا اللهُ) يعني: كلمةَ الشَّهادةِ، وقد صرَّحَ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ كما رواهُ التِّرمذيُّ وغيرُهُ[3]، وقيلَ: البسملةُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣١).

(٢) جاء ذلك في الحديث الطويل الذي رواه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان.

(٣) رواه الترمذي (٣٢٦٥)، وأحمد في «مسنده» (٢١٢٥٥) من حديث الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، وسألت أبا زرعة، عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

وأُضيفت إلى التقوى لأنها سببها، ﴿وكانُوا أحَقَّ بِها﴾: بالكلمة من الكُفّار ﴿وأهلَها﴾: عطفٌ تفسيريّ. ﴿وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمًا﴾ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك، ومن معلومه ـ تعالى ـ أنهم أهلها.

٢٧ ـ ﴿لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالحَقِّ﴾. رأى رسول الله ﷺ في النوم عامَ الحُدَيبيةِ قبلَ خروجه أنه يدخل مكّة هو وأصحابه آمنين ويُحلّقون ويُقصّرون، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا. فلمّا خرجوا معه وصدّهم الكُفّار بالحُديبية، ورجَعوا وشقّ عليهم ذلك وراب بعضَ المنافقين، نزلتْ. وقوله «بالحق» مُتعلّق بـ «صدق» أو حال من الرؤيا، وما بعدها تفسير لها وهي: ﴿لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرامَ، إنْ شاءَ اللهُ﴾ للتبرّك، ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم﴾ أي: جميعَ شُعورها ﴿ومُقَصِّرِينَ﴾ بعضَ شُعورها ـ وهما حالان مُقدّرتان ـ ﴿لا تَخافُونَ﴾ أبدًا، ﴿فعَلِمَ﴾ في الصُّلح ﴿ما لَم تَعلَمُوا﴾..............

قولُهُ: (سَبَبُهَا) أي: سببُ الوقايةِ من النَّارِ، أو كلمةُ أهلِها.

قولُهُ: (تَفسِيرِيٌّ) أو كانوا أهلَها في علمِ اللهِ.

قولُهُ: (وشَقَّ ذَلِكَ) كما قدَّمْناهُ، وقالوا: ألسْتَ كنْتَ تحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: «بلى، لكن هل أخبرتُكُم أنَّا نأتيهِ العامَ؟!» قالُوا: لا، قال: «فإنَّكُم تأتونَهُ وتطوفُونَ به»[1] والحاصلُ أنَّه ﷺ وعدَهُم دخولَ مكَّةَ، فعزمَ وتوجَّهَ وحسبوا لو مُنِعوا هذهِ المرَّةَ من الدُّخولِ يكونُ خلفَ وعدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا مُنِعوا دخَلَ السَّكينةَ في قلوبِهِم، فأزاحَ اللهُ بفضلِهِ التَّردُّدَ.

قولُهُ: (وَرَابَ بَعضَ المُنَافِقِينَ) لم يُعرَفْ منافِقٌ في أهلِ بيعةِ الرِّضوانِ رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ، وإنَّما صدَرَ عنهُم ما صورتُهُ الرَّيبُ، وإنَّما كانَ غرضُهُم التَّثبُّتَ والتَّمكُّنَ بدفعِ الشُّبهِ النَّاشئةِ عن أنفسِهِم وإظهارِ التَّشجعِ والتَّصلُّبِ في دينِ اللهِ بقلوبِهِم بشهادةِ اللهِ تعالى في حقِّهِم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] و﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قولُهُ: (مِنَ ﴿الرُّؤيا﴾) أو ﴿رسولَهُ﴾ أي: ملتبِسةً أو ملتبساً، أو محقَّةً أو محقًّا، أو التَّقديرُ: إلا صدقاً ملتبساً بالحقِّ، وقيل: الباءُ للقسمِ.

قولُهُ: (للتَّبرُّكِ) تعليماً للعبادِ، أو إشعاراً بأنَّ بعضَهُم لا يدخلُ لموتٍ أو غيبةٍ أو حكايةٍ لما قالَهُ ملكُ الرُّؤيا، أو النَّبيُّ لأصحابِهِ، و(﴿آمِنِينَ﴾) حالٌ من الواوِ، والشَّرطُ معترضٌ.

قولُهُ: (مُقدَّرَتَانِ) لأنَّ الدُّخولَ ما كانَ حالَ وجودِهِما.

قولُهُ: (أَبداً) فهو استئنافٌ؛ أي: لا تخافونَ بعدَ ذلكَ، أو حالٌ مؤكِّدةٌ لقولِهِ: ﴿آمنينَ﴾.

---

(١) هو طرف من حديث البخاري المتقدم قريباً.

من الصلاح، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: الدخولِ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبرَ، وتحقّقت الرؤيا في العام القابل. ٢٨ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: دِينَ الحقّ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: على جميع باقي الأديان. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أنك مُرسَل بما ذُكر! كما قال تعالى:

٢٩ ـ ﴿مُحَمَّدٌ﴾: مُبتدأ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: خبرُه، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: أصحابه من المُؤمنين، مبتدأ خبرُه: ﴿أَشِدَّاءُ﴾: غِلاظٌ ﴿عَلَى الْكُفَّارِ﴾ لا يرحمونهم، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾: خبرٌ ثانٍ أي: مُتعاطفون مُتوادّون كالوالد مع الولد، ﴿تَرَاهُمْ﴾: تُبصِرهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: حالان ـ ﴿يَبْتَغُونَ﴾: مُستأنف يطلبون ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ـ سِيمَاهُمْ﴾: علامتهم مبتدأ ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾: خبرُه ـ وهو نور وبياض يُعرفون به في الآخرة أنهم سجدوا في الدنيا ـ ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: مُتعلّق بما تعلّق به الخبر، أي: كائنةٌ، وأُعرب حالاً من ضميره المنتقل إلى الخبر.

قولُهُ: (مِنَ الصَّلاحِ) أي: الحكمةِ في تأخيرِ ذلك.

قولُهُ: (أي: الدُّخولِ) أي: دخولِكُمُ المسجدَ الحرامَ، أو فتحِ مكّةَ.

قولُهُ: (فَتحُ خَيبَرَ) أو صلحُ الحديبيةِ، وهو الأصحُّ.

قولُهُ: (دِينَ الحَقِّ) أي: ليغلِّبَهُ وليعليَهُ.

قولُهُ: (عَلى جَمِيعِ) أي: جنسِ الدِّينِ؛ بنسخِ ما كانَ حقًّا، وإظهارِ فسادِ ما كانَ باطلاً.

قولُهُ: (بِمَا ذُكِرَ) أي: بالحقِّ، أو بما ذُكِرَ من التَّعليةِ، أو على نبوَّتِهِ بإظهارِ المعجزاتِ.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) جملةٌ تامَّةٌ مبيِّنةٌ للمَشهودِ به، وقيل: تقديرُه: هو محمَّدٌ.

قولُهُ: (حَالانِ) لاشتغالِهِم بالصَّلاةِ في أكثرِ أوقاتِهِم.

قولُهُ: (مُستَأنَفٌ) أو حالٌ ثالثةٌ.

قولُهُ: (وَهُو نُورٌ) أو المرادُ: خشوعُهُم وتواضعُهُم، أو صغارُهُم أو صفرةُ اللَّونِ من السَّهرِ، أو أثرُ التُّرابِ على الجباهِ؛ فإنَّهُم كانوا يسجُدونَ على الأرضِ من غيرِ حائلٍ، وأمَّا قولُ القاضي[1]: يريدُ السِّمةَ الَّتي تحدثُ في جباهِهِم من كثرةِ السُّجودِ، فليسَ له أصلٌ من الآثارِ، والعجبُ منه أنَّه جزمَ بأنَّه المرادُ، ثمَّ رأيتُ في «الدُّرِّ»[2]

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ٥٤١، ٥٤٢).

﴿ذلِكَ﴾ أي: الوصف المذكور ﴿مَثَلُهم﴾: صفتُهم ﴿في التَّوراةِ﴾: مبتدأ وخبرٌ، ﴿ومَثَلُهم في الإنجيلِ﴾: مبتدأ خبرُه: ﴿كَزَرعٍ أخرَجَ شَطْأَهُ﴾، بسكون الطاء وفتحها: فِراخَه ﴿فآزَرَهُ﴾، بالمدّ والقصر: قوّاه وأعانه، ﴿فاستَغلَظَ﴾: غلُظَ، ﴿فاستَوَى﴾: قويَ واستقام ﴿علَى سُوقِهِ﴾: أُصوله جمع ساق، ﴿يُعجِبُ الزُّرّاعَ﴾ أي: زُرّاعه، لحُسنه ـ مثّلَ الصحابةَ ن بذلك، لأنهم بدؤوا في قِلّة وضعف، ....

ما يدلُّ على نفي إرادتِهِ، وهو ما أخرجَ ابنُ جريرٍ[1] عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِهِ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ قالَ: أما إنَّه ليسَ الَّذي ترونَ، ولكنَّهُ سيما الإسلامِ وسمتُهُ وخشوعُهُ.

وأخرجَ الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ في «سننِهِ»[2] عن حميدِ بن عبدِ الرَّحمنِ قال: كنتُ عند السَّائبِ بن يزيدَ إذ جاءَ رجلٌ وفي وجهِهِ أثرُ السُّجودِ فقال: لقد أفسدَ هذا وجهَهُ، أمَا واللهِ ما هي السِّيما الَّتي يسمِّي اللهُ، ولقد صلَّيتُ على وجهي منذُ ثمانينَ سنةً ما أثَّرَ السُّجودُ بين عينيَّ.

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ خَبرُهُ) أو عطفٌ عليهِ؛ أي: ذلك مثَلُهم في الكتابينِ، وقولُهُ: (﴿كَزَرْعٍ﴾) تمثيلٌ مستأنفٌ؛ أي: هم كزرعٍ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) مكِّيٌّ وابنُ ذكوانَ[3].

قولُهُ: (فِرَاخَهُ) أي: فُرُوعَهُ.

قولُهُ: (والقَصرِ) لابنِ ذَكوانَ[4] كأجرَ في آجر.

قولُهُ: (قَوَّاهُ) من المؤازَرةِ؛ بمعنى: المعاوَنةِ.

قولُهُ: (أَعَانَهُ) من الإيزارِ، وهي الإعانَةُ.

قولُهُ: (غَلُظَ) بضمِّ اللَّامِ؛ أي: فصارَ مِنَ الرِّقَّةِ إلى الغلظِ.

قولُهُ: (جَمعُ: سَاقٍ) أي: قصبةٍ.

قولُهُ: (لِحُسْنِهِ) أي: لحسنِ منظرِهِ وقوَّتِهِ وغلظِهِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ١٥٨) (٦٦٨٥)، والبيهقي «السنن الكبرى» (٣٥٥٩).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢).

(٤) انظر المصدر السابق.

فكثروا وقَوُوا على أحسن الوجوه ـ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمِ الكُفَّارَ﴾: مُتعلّق بمحذوف دلّ عليه ما قبله، أي: شُبّهوا بذلك. ﴿وعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالِحاتِ مِنهُم﴾: للبيان ﴿مَغفِرةً وأجْرًا عَظِيمًا﴾: الجنّة. وهما لمن بعدهم أيضًا في آيات.

قولُهُ: (وقَوُوا) أي: استَحكَموا فترقَّى أمرُهم بحيثُ أعجبَ النَّاسَ.

قولُهُ: (شُبِّهُوا) أو قوَّاهُم، أو علَّةٌ لما بعدَهُ[1]، فإنَّهُم لمَّا سمِعُوهُ غاظَهُم ذلك.

قولُهُ: (للبَيَانِ) أي: من الصَّحابةِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم... ﴾.

سُورَةُ الفَتْحِ

نزلت بالمدينة على ما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ، والأخبار تدلُّ على أنها نزلت في السفر لا في المدينة نفسها، وهو الصحيح؛ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في «تاريخه» وأبو داود والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحُديبية مع رسول الله ﷺ - أي: عامَ ستٍّ بعد الهجرة وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يومَ الاثنين هلالَ ذي القَعْدة - فأقام بها بضعةَ عشر يومًا، وقيل: عشرين يومًا، ثم قَفَل عليه الصلاة والسلام، فبينما نحن نسيرُ إذْ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه، فسُرِّي عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى، فأخبرنا أنه أُنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1].

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فسألته عن شيء ثلاثَ مرات، فلم يَرُدَّ عليَّ، فحرَّكتُ بعيري ثم تقدَّمت أمامَ الناس وخشيتُ أن ينزلَ فيَّ القرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخًا يصرخُ بي، فوجئتُ وأنا أظنُّ أنه نزل فيَّ شيء، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلَتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»[2].

---

(1) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٥٤، ومسند أحمد (٤٤٢١)، والتاريخ الكبير ٥/ ٢٥١، وسنن أبي داود (٤٤٧) - وهو عنده مختصر - وسنن النسائي الكبرى (٨٨٠٢).

(2) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومسند أحمد (٢٠٩)، وصحيح البخاري (٤١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٢٦٢)، وسنن النسائي الكبرى (١١٤٣٥)، وصحيح ابن حبان (٦٤٠٩). ومعنى «فما نشبت»: لم أتعلَّق بشيء غير ما ذكرت. فتح الباري ٨/ ٥٨٣.

وفي حديث صحيح أخرجه أحمدُ وأبو داود وغيرهما عن مُجَمِّع بن جاريةَ الأنصاري ما يدلُّ على أنها نَزَلَتْ بعد مُنْصرفِهِ ﷺ من الحُديبية أيضًا، وأن ذلك عند كُراع الغَميم، فقرأها عليه الصلاة والسلام على الناس وهو على راحلته(١).

وفي رواية ابن سعد عنه ما يدلُّ على أنها بِضَجْنان(٢)، ونُقل ذلك عن البِقاعي(٣)، وضَجْنانُ: بضاد معجمة وجيم ونونين بينهما ألف بزِنَةِ سَكْران، كما في «القاموس»(٤): جبل قُربَ مكة. وهذا ونحوه قولٌ بنزولها بين مكة والمدينة، ومثلُ ذلك يُعَدُّ مدنيًّا على المشهور وهو أن المدنيَّ ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أمْ بمكة، أَمْ بسفر من الأسفار، والمَكيُّ ما نزل قبل الهجرة. وأما على القول بأنَّ المكيَّ ما نزل ولو بعدَ الهجرة بمكة، ويدخل فيها كما قال الجلال السيوطي(٥) نواحيها كمنى وعرفات والحديبية، بل بعضها على ما في «الهداية» - وأكثرها على ما قال المحبُّ الطبري - من حرم مكة؛ والمدني ما نزل بالمدينة ويدخل فيها كما قال أيضًا نواحيها كأُحُد وبدر وسَلْع = فلا، بل يُعَدُّ على القول بأنه نزل قُرب مكة مكيًّا، فالقول بأن السورة مدنية بلا خلافٍ فيه نظرٌ ظاهر.

وهي تسعٌ وعشرون آية بالإجماع، ولا يخفى حسنُ وضعها هنا، لأن الفتح بمعنى النصر مُرتَّبٌ على القتال، وفي كلٍّ من ذكر المؤمنين المُخلصين والمنافقين والمشركين ما فيه، وقد ذُكر أيضًا في الأُولى الأمر بالاستغفار وذُكر هنا وقوعُ المغفرة، وذُكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف وكُني عنها بكلمة التقوى بناءً على أشهرِ الأقوال فيها، وستعرفها إنْ شاء الله تعالى. إلى غير ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومسند أحمد (١٥٤٧٠)، وسنن أبي داود (٢٧٣٦)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ٦٨: وفي إسناده ضعف. وكراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٧٢.

(٣) في كتابه نظم الدرر في تناسب الآي والسور ١٨/ ٢٧٥، وتصحفت فيه: بضجنان، إلى: بصحيان.

(٤) القاموس المحيط (ضجن).

(٥) الإتقان ١/ ٢٦-٢٧.

وفي «البحر»[١]: وجهُ مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدَّم: (وَإِن تَتَوَلَّوْا) الآية، وهو خطابٌ لكفار قريش أخبر سبحانه رسولَه ﷺ بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصلَ الاستبدال وأَمِنَ كلُّ مَنْ كان بمكة وصارَتْ دارَ إيمان. وفيه ما لا يخفى.

وفي الأخبار السابقة ما يدلُّ على جلالة قَدْرها. وفي حديث مُجَمِّع بن جارية الذي أخرجه عنه ابنُ سعد[٢]: لما نزل بها جبريل عليه السلام قال: نُهنِّيك يا رسول الله، فلما هناه جبريلُ عليه السلام هناه المسلمون، ويُحكى أنه مَنْ قرأها أولَ ليلة من رمضان حُفِظَ ذلك العام[٣]. ولم يثبتْ ذلك في خبرٍ صحيح، والله تعالى أعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾ إخبارٌ عن صُلح الحديبية عند الجمهور، ورُوي ذلك عن ابن عباس وأنس[٤] والشعبي والزهري، قال ابن عطية[٥]: وهو الصحيح.

وأصلُ الفتح: إزالةُ الأغلاق، وفتح البلد كما في «الكشاف»[٦]: الظَّفَر به عُنوة أو صُلحًا بحرب أو بغيرِه، لأنه مُنغلقٌ ما لم يُظْفَر به، فإذا ظَفِرَ به وحصل في اليدِ فقد فُتح، وسُمِّي ذلك الصُّلح فَتحًا لاشتراكهما في الظهور والغَلبة على المشركين، فإنهم - كما قال الكلبي - ما سألوا الصُّلح إلا بعد أن ظهرَ المسلمون عليهم. وعن ابن عباس أن المسلمين رَمَوْهم - أي: بسهام وحِجارة كما قيل - حتى أدخلوهم ديارَهم. أو لأنَّ ذلك الصُّلح صار سببًا لفتح مكة، قال الزهري: لم يكن فتحٌ أعظمَ من صُلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامَهم وتمكَّن الإسلام من قُلوبهم، وأسلم في ثلاثِ سنين خَلْقٌ كثير، وكَثُرَ بهم سوادُ الإسلام[٧].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٨.
(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٧٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسلفي في الطيوريات.
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٣٤).
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.
(٦) ٣/ ٥٤١.
(٧) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧.

قال القرطبي[١]: فما مَضَتْ تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها.

والتسميةُ على الأول من باب الاستعارة التبعية كيفما قُرِّرت، وعلى الثاني من باب المَجاز المُرسل سواء قلنا: إنه في مثل ما ذكر تبعيٌّ أَمْ لا، حيث سُمِّي السببُ باسم المُسبَّب، ولا مانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة، فيكون استعمالُ أحدِهما في الآخر باعتبار كلٍّ نوعًا من المجاز كما في المِشْفَر[٢] والشفة الغليظة لإنسان.

وإسنادُ الفتح المُراد به الصُّلح الذي هو فعلُ رسول الله ﷺ إليه عز وجل مجازٌ من إسناد ما للقابل للفاعل المُوجِد، وفي ذلك من تعظيم شأن الصُّلح والرسول عليه الصلاة والسلام ما فيه؛ لا يقال: قد تقرَّر في الكلام أن الأفعال كلَّها مخلوقةٌ له تعالى فنسبة الصُّلح إليه سبحانه إسنادٌ إلى ما هو له فلا مَجاز. لأنا نقول: ما هو له عبارةٌ عمَّا كان الفعل حَقّه أن يُسندَ إليه في العُرف سواء كان مخلوقًا له تعالى أو لغيره عز وجل كما صرَّح به السعد في «المطول»، وكيف لا ولو كان كذلك لكان إسنادُ جميع الأفعال إلى غيره تعالى مجازًا، وإليه تعالى حقيقة كالصلاة والصيام وغيرها.

وقال المحقِّقُ ميرزاجان: يمكن توجيهُ ما في الآية الكريمة على أنه استعارةٌ مَكنيةٌ، أو على أن يُراد خلق الصُّلح وإيجاده، أو على أن يكون المَجازُ في الهيئة التركيبية الموضوعة للإسناد إلى ما هو له فاستعملت في الإسناد إلى غيره، أو على أن يكون من قَبيل الاستعارة التمثيلية، والأوجه الأربعة جاريةٌ في كلِّ ما كان من قَبيل المجاز العقلي، ك: أنبتَ الربيعُ البقلَ، وقد صرَّح القومُ بالثلاثة الأُوَل منها، وزعم بعضٌ أن الصُّلح مما يُسند إليه تعالى حقيقة فلا يحتاج إلى شيء من ذلك، وفيه ما فيه.

ويجوز أن يكون ذلك إخبارًا عن جعل المشركين في الحديبية مَغلوبين خائفين طالبين للصُّلح، ويكون الفتحُ مجازًا عن ذلك وإسناده إليه تعالى حقيقة، وقد خَفِيَ

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٧.
(٢) المشفر: شفة البعير. القاموس (شفر).

كونُ ما كان في الحديبية فتحًا على بعض الصحابة حتى بيَّنه عليه الصلاة والسلام؛ أخرج البيهقي[١] عن عروة قال: أقبل رسولُ الله ﷺ من الحديبية راجعًا، فقال رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ: والله ما هذا بفتحٍ، لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدَّ هَدْيُنا، وعكف رسولُ الله ﷺ بالحديبية، وردَّ رجلين من المسلمين خرجا؟! فبلغ رسولَ الله ﷺ ذلك فقال: «بئس الكلامُ هذا، بل هو أعظمُ الفتح، لقد رضي المشركون أنْ يدفعوكم بالراحِ عن بلادهم ويسألونكم القضية[٢] ويرغبون إليكم في الأمان، وقد كَرِهوا منكم ما كَرِهوا، وقد أظفركم اللهُ عليهم، وردَّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظمُ الفتح، أنسيتم يومَ أُحد إذ تُصعِدون ولا تَلوون على أحدٍ، وأنا أدعوكم في أُخراكم؟ أنسيتُم يومَ الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغَتِ الأبصار وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنُّون بالله الظُّنون؟» قال المسلمون: صدقَ اللهُ ورسولُه هو أعظمُ الفتوح والله يا نبيَّ الله، ما فكَّرنا فيما ذكرتَ، ولأنتَ أعلمُ بالله وبالأمورِ منا.

وفائدة الخبر بالفتح على الوجهين بالنسبة إلى غيره عليه الصلاة والسلام، لأنه ﷺ يعلم ذلك، وكذا يعلم لازمَ الفائدة، كذا قيل.

وحمل الغير على مَنْ لم يحضر الفتح من الصحابة وغيرهم، لأنَّ الحاضرين عَلِموا ذلك قبلَ النزول، وقيل: الحاضر إنما عَلِمَ وقوعَ الصُّلح أو كونَ المُشركين بحيث طلبوه ولم يعلم كونَه فتحًا كما يُشعر به الخبر، وإن سُلِّم أنه عَلِمَ ذلك، لكنه لم يعلم عظم شأنه على ما يُشعر به إسنادُه إلى نون العظمة والإخبار به بذلك الاعتبار.

وقال بعض المحقِّقين: لعلَّ المقصودَ بالإفادة كونُ ذلك للمغفرة وما عُطِفَ عليها، فيجوز أن تكون الفائدةُ بالنسبة إليه ﷺ أيضًا، وأقول: قد صرَّحوا بأنه كثيرًا ما تُورَدُ الجملة الخبرية لأغراض أُخَر سوى إفادة الحُكم أو لازمه نحو: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، ﴿لَّا يَسْتَوِى

(١) في دلائل النبوة ٤/ ١٦١.
(٢) جاء في هامش الأصل: أي: الهدنة والصلح.

﴿ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] الآية، إلى غير ذلك مما لا يُحصى، فيجوز أن يكونَ الغرضُ من إيرادِها هاهنا الامتنانَ دون إفادة الحُكم أو لازمِهِ، ولا مجازَ في ذلك ونحوه على ما أشار إليه العلامة عبد الحكيم السيالكوتي في حواشيه على «المُطوَّل».

وصرح في «الرسالة الجندية» بأن الهيئةَ التركيبية الخَبرية في نحو ذلك منقولةٌ إلى الإنشائية، وأنَّ المجازَ في الهيئة فقط لا في الأطراف ولا في المجموع، وهو مجازٌ مفردٌ عند صاحبِ الرسالة، والكلمة أعظمُ من اللفظ الحقيقي والحُكمي، وبعضهم يقول: هو مجازٌ مركَّب ولا ينحصر في التمثيلية، وتحقيقُهُ في موضعه.

والتأكيدُ بـ «إنَّ» للاعتناء لا لردِّ الإنكار، وقيل: لأن الحُكم لعظم شأنه مَظِنَّةٌ للإنكار. وقيل: لأن بعضَ السامعين منكرٌ كون ما وقع فتحًا، ويقال في تكرير الحكم نحو ذلك.

وقال مجاهد: المراد بالفتح فتح خيبر، وهي مدينةٌ كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية بُرُدٍ من المدينة إلى جهة الشام، وكان خروجُ النبيِّ ﷺ ـ كما قال ابن إسحاق ورجَّحه الحافظ ابن حجر[1] ـ في بقية المحرَّم سنة سبع، وأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها.

ونُقل عن مالك، وجزمَ به ابنُ حزم أنه كان في آخر سنةِ ستٍّ، وجمع بأنَّ من أطلق سنة ستٍّ بناه على أنَّ ابتداءَ السنة من شهر الهجرة الحقيقيِّ، وهو شهرُ ربيع الأول، وقول الشيخ أبي حامد في «التعليقة»: إنَّ غزوةَ خيبر كانت سنةَ خمسٍ. وَهمٌ. وقول ابن سعد[2] وابن أبي شيبة[3] روايةً عن أبي سعيد الخُدري أنها كانت لثمانِ عشرةَ من رمضان. خطأٌ، ولعلَّ الأصلَ: كانت حنين، فَحُرِّف[4]، ومع هذا يحتاج إلى توجيهٍ، وقد فُتحت على أيدي أهل الحُديبية لم يَشْرَكهم أحدٌ من

(١) فتح الباري ٧/ ٤٦٤، وقول ابن إسحاق فيه، وفي السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٨.
(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٣٨.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٦٣.
(٤) وقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ ١٧ بلفظة: حنين.

المُتخلِّفين عنها، فالفتحُ على حقيقته، وإسناده إليه تعالى على حدِّ ما سمعت فيما تقدَّم، والتأكيدُ بـ «إنَّ» وتكرير الحُكم للاعتناء، والتعبيرُ عن ذلك بالماضي مع أنه لم يكن واقعاً يومَ النزول ـ بناءً على ما رُوي عن المِسور بن مَخْرمة من أن السورة نزلت من أوَّلها إلى آخرها بين مكةَ والمدينة ـ من باب مجازِ المُشارفة نحو: مَنْ قتل قتيلاً، على المشهور، أو الأوْل[1] نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٣٦]، ولا يضرُّ اختلافُهما في الفعلية والاسمية؛ وفيه وجهٌ آخرُ يُعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وذهب جماعةٌ إلى أنه فتحُ مكة، وهو ـ كما في «زاد المعادِ»[2] ـ الفتحُ الأعظمُ الذي أعزَّ الله تعالى به دينَه، واستنقذ به بَلَدَه، وطهَّر حَرَمه، واستبشر به أهلُ السماء، وضُربت أطنابُ عِزِّه على مناكبِ الجوزاء، ودخل الناسُ بعدَه في دين الله عز وجل أفواجاً، وأشرق وجهُ الدهر ضياءً وابتهاجاً، وكان سنة ثمانٍ ـ وفي رواية: ونصف ـ وقد خرج رسولُ الله ﷺ ـ على ما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد ـ لليلتين خَلتا من شهر رمضان[3].

وفتح مكة لثلاثَ عشرةَ خَلَتْ منه على ما رُوي عن الزهري، ورُوي عن جماعة أنه كان الفتحُ في عشرٍ بَقيتْ من شهر رمضان، وقيل غيرُ ذلك، وكان معه ﷺ من المسلمين عشرةُ آلاف، وقيل: اثنا عشر ألفاً، والجمع مُمكن، وكان الفتحُ عند الشافعي صُلحاً ـ وهي روايةٌ عن أحمد ـ للتأمين في ممرِّ[4] الظَّهران بـ «مَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمنٌ، . . . ومَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ»[5]، ولعدمِ قسمة الدور بين الغانمين. وذهبَ الأكثرون إلى أنه عُنوة للتصريح بالأمر بالقِتال ووقوعه من خالدِ بن الوليد، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أحلَّتْ لي ساعة من نهار»[6].

---

(١) وهو من تسميته باسم ما يؤول إليه. ينظر أنواع المجاز اللغوي في الإتقان ٢/ ٧٥٨.
(٢) ٣/ ٣٩٤.
(٣) مسند أحمد (١١٨٢٥).
(٤) كذا في الأصل و(م). والذي في معجم البلدان (مرّ) والنهاية (مرر): مرُّ الظهران، ويقال: مرّ ظهران.
(٥) أخرجه أبو داود (٣٠٢٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ٢/ ٤٠١.
(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٧٩)، والبخاري (١٣٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولا يُسمَّى ذلك التأمين صُلحاً إلا إذا التزم مَن أُشير إليه به الكفَّ عن القتال، والأخبارُ الصحيحة ظاهرةٌ في أن قريشاً لم يلتزموا، وتركُ القِسمة لا يستلزم عدمَ العُنوة، فقد تُفتح البلدةُ عُنوة ويُمَنُّ على أهلها وتُترك لهم دورُهم.

وأقام عليه الصلاة والسلام بعد الفتحِ خمسَ عشرةَ ليلة في رواية البخاري(١)، وسبعَ عشرةَ في رواية أبي داود(٢)، وثمانَ عشرةَ في رواية الترمذي(٣)، وتسعَ عشرةَ في رواية بعض(٤)، وتمامُ الكلامِ في كتب السِّير.

واستظهر هذا القولَ(٥) أبو حيان، وذكر أنه المناسبُ لآخر السورة التي قبلُ لمَّا قال سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ الآية [محمد:٣٨] فبيَّن جلَّ وعلا أنه فتحَ لهم مَكَّةَ، وغَنِموا، وحصل لهم أضعافُ ما أنفقوا، ولو بَخِلوا لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بُخْلهم إلا على أنفسهم، وأيضاً لمَّا قال سبحانه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥] بيَّن تعالى برهانه بفتح مكةَ، فإنهم كانوا هم الأعلين، وأيضاً لمَّا قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد:٣٥] كان ذلك في فتح مكة ظاهراً حيث لم يلحقهم وهنٌ ولا دعوا إلى الصُّلح، بل أتى صناديدُ قريش مستأمنين مُستسلمين(٦). وهذا ظاهرٌ بالنسبة إلى القول بأنَّ المراد به فتحُ الحديبية، وأما على القول بأنَّ المرادَ به فتحُ خيبر فليس كذلك.

ورجَّح(٧) بعضُهم القولَ بأنه صُلح الحديبية على القول بأنه فتحُ مكة بأن وعدَ فتحِ مكةَ يجيء صريحاً في هذه السورة الكريمة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ

---

(١) هذه الرواية ليست عند البخاري، وإنما هي عند أبي داود (١٢٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) سنن أبي داود (١٢٣٢) من حديث ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما.
(٣) هذه الرواية ليست عند الترمذي، وهي عند أبي داود (١٢٢٩) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.
(٤) أخرج هذه الرواية البخاري (٤٢٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) يعني: القول بأن المراد بالفتح فتح مكة.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٨٩.
(٧) تصحفت في (م) إلى: ورجع.

اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ الآية [الفتح:٢٧] فلو حُمل هذا الفتح عليه لكان تأكيداً، بخلاف ما إذا حُمل على صُلح الحديبية فإنه يكون تأسيساً، والتأسيسُ خيرٌ من التأكيد، ورجَّحه بعضٌ على القول بأنه فتحُ خيبر بمثل هذا، لأنَّ فتحَ خيبر مذكورٌ فيما بعدُ أيضاً، وللبحث في ذلك مجالٌ. و«إنَّ» والتكرير لما تقدَّم، وكذا الإسناد إلى ضمير العظمة، بل هذا الفتحُ أولى بالاعتناء وتعظيم الشأن، حتى قيل: إنَّ إسناده إليه تعالى لكونه من الأمور الغريبة العَجيبة التي يخلقها الله تعالى على يدِ أنبيائه عليهم السلام كالرمي بالحصى المُشارِ إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] وهذا خلافُ الظاهر، والمشهورُ أنَّ في الكلام مجازاً عقليًّا، وفيه الاحتمالات السابقة.

وقال بعض المحقِّقين: يمكن أن يقال: لعلَّ الإرادة هاهنا معتبرةٌ إما على سبيل الحَذْف، أو على المجاز المُرسل كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ الآية [المائدة:٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل:٩٨] عند أكثر الأئمة، ومثل هذا التأويل قيل: مُطَّردٌ في الأفعال الاختيارية، وزعم بعضُهم أن الفتحَ مجازٌ عن تيسيره. وذكر بعضُ الصدور في توجيه التأكيدِ بـ «إنَّ» هاهنا أنه قد يُجعل غير السائل بمنزلة السائل إذا قُدِّم إليه ما يلوِّح له بالخبر، وصرَّحوا بأن الملوِّحَ لا يلزم أن يكون كلاماً، وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المُفسِّرين وغيرهم أنه عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أنه وأصحابَه ﷺ دخلوا مكةَ آمنين، فصار المقامُ مقامَ أن يتردَّد في الفتح، فأُلقي إليه عليه الصلاة والسلام الكلام مؤكَّداً كما يُلقى إلى السائل كذلك.

وجُوِّز أن يكون لردِّ الإنكار بناءً على تحقُّقه من المشركين، فإنهم كانوا يزعُمون أنه ﷺ لا يستولي على مكةَ كما لم يستولِ عليها مَن أراد الاستيلاء عليها قبلَه عليه الصلاة والسلام. وهو كما ترى.

وذكر بعضُ أجلَّة القائلين بأن المرادَ به فتحُ مكة أنَّ الكلامَ وعدٌ بفتحِها؛ فقيل: إنَّ الجملةَ حينئذ إخبار. وقيل: إنها إنشاءٌ، واستُشكل بما صرَّح به الرَّضي من أن الجمل الإنشائية مُنحصرةٌ بالاستقراء في الطلبيَّة والإيقاعيَّة، والوعدُ ليس شيئاً

منهما، أما الأول فظاهرٌ، وأما الثاني فلأن مجرَّد قولك: لأكرِمَنَّك، مثلاً، لا يقع به الإكرام.

وقال بعضُ الصدور: إن كلامهم مضطربٌ في كون الوعد إنشاءً أو إخباراً، ويمكن التوفيق بأن يقال: أصلُ الوعد إنشاءٌ لأنه إظهارُ أمرٍ في النفس يوجب سرورَ المخاطَب، وما يتعلَّق به الوعدُ وهو الموعود إخبارٌ، نظيره قول النحاة: «كأنَّ» لإنشاء التشبيه، مع أنَّ مدخولَها جملةٌ خبرية.

وقال الخفاجيُّ: هذا ناشئ من عدمِ فهم المُراد منه. فإن قيل: المرادُ من: لأُكرمنَّك مثلاً، إكرامٌ في المستقبل، فهو خبرٌ بلا مِرْية، وإن قيل: معناه العزمُ على إكرامه وتعجيل المَسَرَّة له بإعلامه فهو إنشاءٌ[1].

وأقول: لا يخفى أنَّ الإخبار أصلٌ للإنشاء، وقد صرَّح بذلك العلامة التفتازاني في «المطول»، وليست هيئة المركَّب دالَّة على أنه إنشاءٌ، وليس فيه ما يدلُّ بمادَّته على ذلك، فيمكن أن يقال: إنه إخبارٌ قُصِدَ به تعجيل المَسَرَّة، وأنَّ ذلك لا يُخرجه عن الإخبار، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] ونحوه، فتدبَّر.

والتعبير عن ذلك بالماضي لتحقُّقه، وفيه من تسليةِ قلوب الأصحاب وتسليتهم حيث صاروا محزونين غايةَ الحزن من تأخير الفتح ما فيه، وهذا التعبير من قَبيل الاستعارة التبعيَّة على ما حقَّقه السَّيِّد السند في حواشي «المطوَّل» حيث قال: اعلم أنَّ التعبيرَ عن المضارع بالماضي وعكسه يُعَدُّ من باب الاستعارة بأنْ يُشبَّه غير الحاصل بالحاصل في تحقُّق الوقوع، ويُشبَّه الماضي بالحاضر في كونه نصبَ العين واجبَ المُشاهدة، ثم يُستعار لفظ أحدِهما للآخر، فعلى هذا تكون استعارةُ الفعل على قسمين: أحدهما: أن يُشبَّه الضرب الشديد مثلاً بالقتل ويستعار له اسمه، ثم يشتقُّ منه قَتَل بمعنى: ضَرَبَ ضرباً شديداً. والثاني: أن يُشبَّه الضرب المستقبل بالضرب في الماضي مثلاً في تحقُّق الوقوع، فيستعمل فيه ضرب، فيكون المعنى

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٥٣.

المصدري أعني الضرب موجوداً في كلٍّ واحد من المُشبَّه والمُشبَّه به، لكنه قُيِّد في كلٍّ منهما بقيد يُغاير الآخر، فصحَّ التشبيهُ لذلك.

وقال المحقِّق ميرزاجان: يمكن توجيهُ الاستعارة هاهنا بوجه آخر، وهو أن يشبَّه الزمان المستقبل بالزمان الماضي، ووجهُ الشَّبه أنه كما أن الثاني ظرفُ أمر محقَّق الوقوع كذلك الزمانُ الأول، واللفظُ الدالُّ على الزمان الثاني وهو لفظ الفعل الماضي من جهة الصيغة جعل دالًّا على الزمان المستقبل مستعملاً فيه، ومن البين أن المصدرَ على حاله لم يتغيَّر معناه، فكانت الاستعارةُ في الصيغة والهيئة أولى لأنها الدالَّة على الزمان الماضي وبواسطتها كانت الاستعارةُ في الفعل كما كانت الاستعارةُ في الفعل بواسطة المصدر، والفرقُ أن هذه الاستعارةَ في الفعل بواسطة جوهره ومادَّته، وفيما نحن فيه بواسطة صورته، لا يقال: الدالُّ على الزمان هو نفسُ اللفظ المشتقّ لا جزؤه، لأنا نقول: يجزي هذا الاحتمالُ في الاستعارة التبعية المشهورة بأن يقال: الدالُّ على المعنى الحدثي هو نفسُ اللفظ المشتقّ لا جزؤه؛ لأن المصدر بصيغته غيرُ متحقِّق في المشتق، فإنَّ الضربَ غيرُ موجود في ضارب وضرب.

فإن قلت: المصدرُ لفظٌ مستقلٌّ يمكن التعبيرُ به عن معناه بخلاف الهيئة. قلت: لفظُ الزمان الماضي أيضاً كذلك، فلا فرقَ، ولو سُلِّم نقول في كلٍّ منهما: نستعيرُ المعنى المطابقي للفظ الفعل بواسطة المعنى التضمُّني له، ولا يبعدُ أن يُسمَّى مثل هذا استعارةً تبعيَّة، والأمر في التسمية هيِّن لا اعتدادَ بشأنه، ولعلهم إنما جعلوا الاستعارةَ في مثل ذلك بواسطة المصدر، واعتبروا التغايرَ الاعتباري، ولم يعتبروا ما اعتبرنا من تشبيه نفسِ الزمان بالزمان حتى تصيرَ الاستعارةُ في الفعل تبعيَّةً بلا تكلُّف رعاية لطي النَّشر بقدرِ الإمكان، وأيضاً في كون الصيغة والهيئة جُزْءاً للَفظ تأمُّل، وأيضاً الهيئة ليست جُزْءاً مستقلًّا كالمصدر، وأيضاً الهيئة ليست لفظاً، والاستعارة قسم للَّفظ، ولعلَّ القومَ لهذه كلِّها أو بعضها لم يلتفتوا إليه. انتهى، وفيه بحث.

وللفاضل مير صدر الدين رسالة في هذه الآية الكريمة تعرَّض فيها للمحقّق في

هذا المقام، وتعقَّبها الفاضل يوسف القرباغي[1] برسالة أطال الكلام فيها وجرح وعدَّل، وذكرَ عِدَّة احتمالات في الاستعارة التبعيَّة، ومال إلى أن الهيئة لفظٌ، مُحتجًّا بما نقله من شرح المختصر العضدي ومن شرح الشرح للعلامة التفتازاني، وأيَّده بنقول أُخر، فليراجع ذلك، فإنه وإن كان في بعضه نظرٌ لا يخلو عن فائدة.

والذي يترجَّح عندي أن الهيئة ليست بلفظ لكنها في حكمه، وأنه قد يتصرَّف فيها بالتجوّز كما في الخبر إذا استُعمل في الإنشاء، وأن المجازَ المُرسل يكون تبعيًّا بناءً على ما ذكروه في وجه التبعيَّة في الاستعارة. وقول الصدر في الفرق: إنَّ العلاقةَ في الاستعارة ملحوظة حين الإطلاق، فإنهم صرَّحوا بأنَّ اسمَ المُشبَّه به لا يُطلق على المُشبَّه إلا بعد دخوله في جنس المُشبَّه به، بخلاف المُرسَل فإن العلاقة باعثةٌ للانتقال وليست ملحوظة حين الاستعمال، فلا ضرورةَ في القول بالتبعيَّة فيه = إنْ تمَّ لا يُجدي نفعاً، فافهم.

وزعم بعضُهم أن التعبيرَ بالماضي هاهنا على حقيقته بناءً على أن الفتحَ مجازٌ عن تيسيره وتسهيله، وهو مما لا يتوقَّف على حصول الفتح ووقوعه ليكون مستقبلاً بالنسبة إلى زمن النزول مثله، ألا ترى أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربَّه تعالى بقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦] أنْ يُسهل أمرَه، وهو خلافتُه في أرضه وما يصحبها، وأُجيب إليه في موقف السؤال بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] ولم يُباشر بعد شيئاً، وحملُه على الوعد بإيتاء السؤال خلافُ الظاهر. وأنت تعلم أنَّ ما ذهب إليه الجمهور أظهرُ وأبلغُ.

وفي مَجيء المستقبل بصيغة الماضي لتنزيله منزلةَ المُحقَّق من الفخامة والدلالة على علوِّ شأن المُخبر ما لا يخفى كما في «الكشاف»[2]. وذلك ـ على ما قيل ـ لأنه يدلُّ على أنَّ الأزمنة كلَّها عنده تعالى على السواء، وأنَّ مُنتظَرَه كمحقَّق غيره،

---

(١) هو يوسف بن محمد خان القَرَباغي أو: القره باغي، نسبة لقرباغ أو: قَره باغ، من علماء الكلام، له حاشية على شرح العقائد العضدية، ورسالة في الكلام، وغيرهما. توفي في نيف وثلاثين وألف. خلاصة الأثر ٤/ ٥١٠، والأعلام ٨/ ٢٥٢.

(٢) ٣/ ٥٤٠.

وأنه سبحانه إذا أراد أمراً تحقَّق لا محالة، وأنه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من أسبابهِ القريبة والبعيدة، وقيل غير ذلك.

واستشكل أمر المُضي في كلامه تعالى بناءً على ثبوت الكلام النفسي الأزلي للزوم الكذب، لأنَّ صدقَ الكلام يستدعي سبق وقوع النسبة، ولا يتصوَّر السبقُ على الأزل. وأُجيب بأنَّ كلامَه تعالى النفسي الأزلي لا يتصف بالماضي وغيره لعدم الزمان. وتُعقِّب بأنَّ تحقُّقَ هذا مع القول بأنَّ الأزليَّ مدلولُ اللفظي عسيرٌ جدًّا، وكذا القولُ بأنَّ المتَّصف بالمُضي وغيره إنما هو اللفظ الحادث دون المعنى القديم. وأجاب بعضُهم بأن العُسْر لو كان دلالةُ اللفظي عليه دلالةَ الموضوع على الموضوع له، وليس كذلك عندهم، بل هي دلالةُ الأثر على المُؤثِّر، ولا يلزم من اعتبار شيء في الأثر اعتباره في المُؤثِّر. ولا يخفى أن كونَ الدلالة دلالة الأثر على المُؤثِّر خلافُ الظاهر.

وقال ابن الصدر في ذلك: إنَّ اشتمالَ الكلام اللفظي على المُضي والحضور والاستقبال إنما هو بالنظر إلى زمان المُخاطَب لا إلى زمان المُتكلِّم كما إذا أرسلت زيداً إلى عمرو تكتب في مكتوبك إليه: إني أرسلت إليك زيداً، مع أنه حينما تكتبه لم يتحقَّق الإرسال، فتلاحظ حال المُخاطَب، وكما تُقدِّر في نفسك مخاطباً وتقول: لِمَ تفعل الآن كذا، وكان قبلَ ذلك كذا، ولا شكَّ أن هذا المُضي والحضور والاستقبال بالنسبة إلى زمان الوجود المُقدَّر لهذا المخاطب لا بالنسبة إلى زمان المُتكلِّم بالكلام النفسي لكونه متوجِّهاً لمخاطَبٍ مُقَدَّر لا يُلاحظ فيه إلا أزمنة المخاطبين المقدَّرين، وما اعتبره أئمَّة العربية من حكاية الحال الماضية واعتبار المضي والحضور والاستقبال في الجملة الحالية بالقياس إلى زمان الفعل لا زمان التكلُّم قريبٌ منه جدًّا. انتهى.

وللمحقِّق ميرزاجان كلامٌ في هذا المقام يطلب من حواشيه على الشرح العضدي.

وقيل: المراد بالفتح فتحُ الروم على إضافة المصدر إلى الفاعل، فإنهم غلبوا على الفرس في عام النزول، وكونه فتحاً له عليه الصلاة والسلام لأنه أخبر عن

الغَيب فتحقَّق ما أخبر به في ذلك العام، ولأنه تفاؤل لِغَلبة أهل الكتاب المؤمنين، وفي ذلك من ظهور أمره ﷺ ما هو بمنزلة الفتح. قيل: ففي الفتح استعارةٌ لتشبيه ظهوره ﷺ بالفتح. وقيل: لا تجوُّزَ فيه، وإنما التجوُّز في تعلُّقه به عليه الصلاة والسلام، وقيل: لا تجوُّز أصلاً، والمعنى: فتحنا على الروم لأجلك. وأنت تعلم أنَّ حمل الفتح على ما ذكره في نفسه بعيدٌ جدًّا.

وأُورد عليه أن فتحَ الروم لم يكن مُسبَّباً على الجهاد ونحوه فلا يصحُّ ما ذكروه في توجيه التعليل الآتي.

وعن قتادة أنَّ «فَتَحنا» من الفُتاحة ـ بالضَّمِّ ـ وهي الحكومة، أي: إنا قضينا لك على أهل مكة أن تَدخُلَها أنت وأَصحابُك مِن قابل لتطوفوا بالبيت، وهو بعيدٌ أيضاً.

وقيل: المرادُ به فتحُ الله تعالى له ﷺ بالإسلام والنبوَّة والدعوة بالحُجَّة والسيف؛ وقريبٌ منه ما نقله الراغب من أنه فَتْحُه عز وجل له عليه الصلاة والسلام بالعلوم والهدايات التي هي ذريعةٌ إلى الثواب والمقامات المحمودة[1]. وأمره في البعد كما سبق. وأيًّا ما كان فحذف المفعول للقَصْد إلى نفس الفعل والإيذان بأنَّ مَناطَ التبشير نفسُ الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح.

وتقديم «لك» على المفعول المُطلق أعني قوله تعالى: ﴿فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ مع أنَّ الأصلَ تقديمه على سائرِ المفاعيل كما صرَّح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام، وقيل: لأنه مدار الفائدة، و«مبين» من أبان بمعنى بان اللازم، أي: فتحاً بيِّناً ظاهرَ الأمر مكشوفَ الحال، أو فارقاً بين الحقِّ والباطل.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ مذهبُ الأشاعرة القائلين بأن أفعالَه تعالى لا تُعلَّل بالأغراض أنَّ مثلَ هذه اللام للعاقبة، أو لتشبيه مدخولها بالعلَّة الغائيَّة في ترتُّبه على متعلّقها وترتُّب المغفرة على الفتح من حيث إن فيه سعياً منه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى

(١) مفردات ألفاظ القرآن (فتح).

بمكابدة مشاقِّ الحروب واقتحامِ موارد الخُطوب؛ والسلف ـ كما قال ابن القيِّم وغيره ـ يقولون بتعليل أفعالِه عز وجل. وفي «شرح المقاصد»[١] للعلامة التفتازاني أن من بعض أدلَّتهم ـ أي: الأشاعرة ـ ومن وافقهم على هذا المطلب يُفهم أنهم أرادوا عُمومَ السَّلب، ومن بعضها أنهم أرادوا سَلب العُموم، ثم قال: الحقُّ أنَّ بعضَ أفعاله تعالى مُعَلَّل بالحكم والمصالح، وذلك ظاهرٌ والنصوص شاهدةٌ به، وأما تعميمُ ذلك بأنه لا يخلو فعلٌ من أفعاله سبحانه من غرض فمحلُّ بحث.

وذكر الأصفهاني في «شرح الطوالع» في هذه المسألة خلافاً للمعتزلة وأكثر الفقهاء، وأنا أقول بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث، والتزامُ تأويل جميعها خروجٌ عن الإنصاف، وما يذكره الحاظرون[٢] من الأدلة يُدفَع بأدنى تأمُّل كما لا يخفى على من طالع كتب السَّلفيين عليهم الرحمة.

وفي «الكشاف»[٣]: لم يجعل الفتح عِلَّةً للمغفرة لكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة؛ وهي المغفرةُ وإتمامُ النعمة وهدايةُ الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسَّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوِّك لنجمع لك بين عزِّ الدارين وأغراض العاجل والآجل.

وحاصله كما قال العلامة: إنَّ الفتح لم يجعل عِلَّةً لكلٍّ من المتعاطفات بعد اللام، أعني: المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر، بل لاجتماعها، ويكفي في ذلك أن يكونَ له دخلٌ في حصول البعض كإتمام النعمة والنصر العزيز، وتحقيقه كما قال: إن العطفَ على المجرور باللام قد يكون للاشتراك في متعلّق اللام مثل: جئتك لأفوزَ بِلُقياك وأحوزَ عطاياك، ويكون بمنزلة تكرير اللام وعطف جارٍّ ومجرور على جارٍّ ومجرور، وقد يكون للاشتراك في معنى اللام ك : جئتك لتستقرَّ في مقامك وتُفيضَ عليَّ من إنعامك، أي: لاجتماع الأمرين، ويكون من قَبيل:

---

(١) ٤/ ٣٠١.
(٢) في (م): الحاضرون.
(٣) ٣/ ٥٤١.

جاءني غلامُ زيد وعمرو، أي: الغلام الذي لهما. واستظهر ـ دفعاً لتوهُّم أنه إذا كان المقصودُ البعضَ فَذِكْرُ الباقي لغوٌ ـ أن يقال: لا يخلو كلٌّ منهما أن يكونَ مقصوداً بالذات، وهو ظاهرٌ. أو المقصودُ البعض، وحينئذ فذكر غيره إما لتوقُّفه عليه أو لشدَّة ارتباطه به أو ترتُّبه عليه، فَيُذكر للإشعار بأنهما كشيء واحد، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقولك: أعددتُ الخشب ليميلَ الحائطُ فأدعمه، و: لازمتُ غريمي لأستوفيَ حَقِّي وأُخلِّيه.

وظاهرُ كلام الزمخشري أن المقصودَ فيما نحن فيه تعليلُ الهيئة الاجتماعية فحسب، فتأمَّل لتعرفَ أنه من أيِّ الأقسام هو.

واعلمْ أنَّ المشهورَ كونُ العِلَّة ما دخلته اللام لا ما تعلَّقت به كما هو ظاهرُ عبارة «الكشاف»، لكن حُقِّق أنها إذا دخلت على الغايةِ صحَّ أن يُقال: إنَّ ما بعدَها عِلَّة، ويُراد بحسب التعقُّل، وأن يقال: ما تعلَّقت به عِلَّة، ويُراد بحسب الوجود، فلا تغفُل.

وزعم صاحبُ «الغنيان» أن اللام هاهنا هي لامُ القسم وكُسِرتْ وحذف النون من الفعل تشبيهاً بلام «كي».

ورُدَّ بأنَّ لامَ القَسَم لا تُكسر ولا ينصب بها، فإنه لم يُسمع: والله لِيقوم زيدٌ، على معنى: لَيقومنَّ زيدٌ. وانْتُصِرَ له بأن الكسرَ قد عُلِّل بتشبيهها بلام «كي»، وأما النصب فله أن يقول فيه: بأنه ليس نصباً، وإنما هو الحركةُ التي تكون مع وجودِ النون بقيت بعدَ حذفِها دلالةً على الحذف. وأنت تعلم أنه لا يُجدي نفعاً مع عدم السَّماع.

هذا، والالتفاتُ إلى اسم الذات المُستتبع لجميع الصفات قيل: للإشعار بأن كلَّ واحدٍ مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادرٌ عنه عز وجل من حيثيَّة غيرِ حيثيَّة الآخر مُترتِّبة على صفة من صفاته جلَّ شأنه.

وقال الصدرُ: لا يبعدُ أن يقال: إنَّ التعبير عنه تعالى في مقام المغفرة بالاسم الجليلِ المُشعِرِ بصفات الجمال والجلال يُشعر بسبق مَغْفرته تعالى على عذابِه.

وفي «البحر»[1]: لما كان الغفران وما بعدَه يشترك في إطلاقه الرسولُ عليه الصلاة والسلام وغيرُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة:٣] وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٤٠] وقوله: عز وجل: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات:١٧٢] وكان الفتحُ مختصًا بالرسول ﷺ، أسنده الله تعالى إلى نونِ العظمة تفخيماً لشأنه، وأسندَ تلك الأشياء إلى الاسمِ الظاهر وضميره. وهو كما ترى، وإن قاله الإمام[2] أيضاً.

وأقول: يمكن أنْ يكونَ في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعدَ إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماءٌ إلى أنَّ المغفرةَ مما يتولَّاها سبحانه بذاته، وأنَّ الفتحَ مما يتولَّاه جل شأنه بالوسائط، وقد صرَّح بعضُهم بأنَّ عادةَ العُظَماء أنْ يُعبِّروا عن أنفسهم بصيغة المُتكلِّم مع الغير، لأنَّ ما يصدرُ عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم، ولا يُعترض بأنَّ النصرَ كالفتح وقد أسند إلى الاسم الجليل؛ لِمَا لا يخفى عليك.

وتقديم «لك» على المفعول الصريح أعني قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لِمَا مرَّ غيرَ مرَّة، و«ما» للعموم، والمتقدِّم والمتأخِّر للإحاطة كنايةً عن الكلِّ، والمرادُ بالذنب ما فَرَطَ من خِلاف الأَولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام، فهو من قَبيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين. وقد يقال: المرادُ ما هو ذنبٌ في نظره العالي ﷺ، وإن لم يكن ذنباً ولا خلافَ الأولى عنده تعالى، كما يرمزُ إلى ذلك الإضافة.

وقال الصدر: يُمكن أن يكون قوله تعالى: «ليغفر» إلخ، كنايةٌ عن عدم المُؤاخذة، أو من باب الاستعارة التمثيلية من غير تحقُّق معاني المفردات.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٠.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٩-٨٠.

وأخرج ابن المنذر عن عامر وأبي جعفر أنهما قالا: ما تقدَّم في الجاهلية وما تأخَّر في الإسلام[١].

وقيل: ما تقدَّم من حديث مارية[٢]، وما تأخَّر من امرأة زيد. وليس بشيء، مع أنَّ العكسَ أولى؛ لأن حديثَ امرأة زيد مُتقدِّم.

وفي الآية مع ما عُهِدَ من حاله ﷺ مِن كَثْرة العبادة ما يدلُّ على شرفِ مقامه إلى حيث لا تُحيط به عبارة، وقد صحَّ أنه ﷺ لما نزلَتْ صام وصلَّى حتى انتفخَتْ قدماه، وتعبَّد حتى صار كالشنِّ[٣] البالي، فقيل له: أتفعل هذا بنفسك، وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم مِنْ ذَنبِك وما تأخَّر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٤].

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين وانتشاره في البلاد وغير ذلك مما أفاضه تعالى عليه ﷺ من النِّعم الدينية والدنيوية.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ في تبليغِ الرسالة وإقامة الحدود، قيل: إنَّ أصلَ الاستقامة وإن كان حاصلاً قبلَ الفتح لكن حَصَلَ بعد ذلك من اتِّضاح سُبل الحقِّ واستقامةِ مناهجه ما لم يكن حاصلاً قبلُ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارُ الاسم الجليل مع النصر، قيل: لكونه خاتمةَ العلل أو الغايات، ولإظهار كمال العِناية بشأنه كما يُعرب عنه إردافه بقوله تعالى: ﴿نَصْرًا

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٠.

(٢) ينظر ما سيأتي في أول سورة التحريم.

(٣) الشِّنان: الأسقية الخلقة، واحدها: شَنّ وشَنَّة. النهاية (شنن).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب (١٤٩٦) من حديث أبي سلمة ﷺ، وفي إسناده: نصر بن حريش أبو القاسم الصامت والمُشمعلّ بن مِلْحان، وهما ضعيفان كما في تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٢ و٢٨٦. وأخرجه أحمد (١٨١٩٨)، والبخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وأحمد (٢٤٨٤٤)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة ﵂، ولفظه: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر! قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». وليس فيه أن ذلك كان عند نزول هذه السورة.

﴿عَزِيزًا ۝٣﴾ وقال الصدر: أظهرَ الاسمَ الجليل في الصدر وهنا لأنَّ المغفرةَ تتعلَّق بالآخرة والنصرَ يتعلَّق بالدنيا، فكأنه أُشير بإسناده المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أنَّ الله عز وجل هو الذي يتولَّى أمرك في الدنيا والآخرة.

وقال الإمام[1]: أُظهرت الجلالةُ هنا إشارةً إلى أنَّ النصرَ لا يكون إلا من عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وذلك لأنَّ النصرَ بالصبر، والصبر بالله قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] لأنه سكونُ القلب واطمئنانه، وذلك بذِكْر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والعزيز بحسب الظاهر هو المنصورُ، وحيث وُصِفَ به النصر فهو إما للنسبة، وإن كان المعروف فيها فاعلاً كلابِن، وفعَّالاً كبزَّاز، أي: نصراً فيه عزٌّ ومَنَعةٌ، أو فيه تجوُّز في الإسناد من باب وَصْف المصدر بصيغة المفعول وهو المنصورُ هنا، نحو: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] في قول، لا الفاعل ـ وهو الناصر ـ لما قيل من عدم مُناسبته للمقام وقلة فائدته، إذ الكلام في شأن المُخاطَب المنصور، لا المُتكلِّم الناصر، وفيه شيء. وقيل: الكلامُ بتقدير مضاف، أي: عزيز صاحبُه، وهو المنصورُ، وفيه تكلُّف الحذفِ والإيصال.

وقد يقال: لا يحتاج إلى شيء مما ذُكر، إذْ لا مانع من وَصْف النصر بالعزيز على ما هو الظاهر بناءً على أحدِ معاني العِزَّة، وهو قلَّةُ الوجود وصعوبة المَنال، والمعنى: ينصرك اللهُ نصراً يَقِلُّ وجودُ مثله ويصعبُ منالُه، وقد قال الراغب[2] بهذا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] ورأيتُ ذلك للصَّدر بعد أنْ كتبته من الصَّدر، فتأمَّل ولا تكن ذا عَجْز.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانٌ لما أفاض سبحانه عليهم من مَبادي الفتح، والمرادُ بالسَّكينة الطُّمأنينة والثَّبات، من السكون، أي: أنزلها في

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٩.
(٢) المفردات (عزز).

قلوبهم بسبب الصُّلح والأمن إظهاراً لِفَضْله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والمرادُ بإنزالها خَلْقها وإيجادها، وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماءٌ إلى عُلُوِّ شأنها. وقال الراغب[١]: إنزالُ الله تعالى نعمتَه على عبدٍ إعطاؤه تعالى إيَّاها، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، أو بإنزال أسبابه والهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه.

وقيل: «أنزل» مِنْ نزلَ في مكان كذا: حطَّ رَحْلَه فيه، وأنزله غيرُه، فالمعنى: حَطَّ السكينةَ في قلوبهم، فكان قلوبهم منزلاً لها ومأوى.

وقيل: السكينة مَلَكٌ يسكنُ قلبَ المؤمن ويُؤمنه، كما رُوي أنَّ عليًّا رضي الله عنه وكرم وجهه قال: إنَّ السكينة لَتنطِقُ على لسان عمر. وأمرُ الإنزال عليه ظاهرٌ جدًّا.

وأخرج ابن جرير والبيهقي في «الدلائل» وغيرهما عن ابن عباس أنه قال: السكينةُ هي الرحمةُ[٢]. وقيل: هي العقل، ويقال له: سكينة إذا سكنَ عن المَيْل إلى الشهواتِ وعن الرُّعب. وقيل: هي الوَقار والعَظَمة لله تعالى ولرسوله ﷺ. وقيل: هي مِنْ سَكَن إلى كذا: مالَ إليه، أي: أنزل في قلوبهم السُّكون والمَيْل إلى ما جاء به الرسولُ ﷺ من الشرائع.

وأرجحُ التفاسير هنا ـ على ما قال الخفاجي[٣] ـ الأول، وما ذكره بعضُهم من أن السكينةَ شيء له رأس كرأس الهِرَّة، فما أراه قولاً يصحُّ.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يقيناً مع يقينهم بِرُسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها، على أن الإيمان لمَّا ثبتَ في الأزمنة نزِّلَ تجدُّد أزمانه مَنزلةَ تجدُّده وازدياده فاستُعير له ذلك ورشِّحَ بكلمة «مع». وقيل: ازدياد الإيمان بازدياد ما يُؤمن به، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ أولَ ما أتاهم به النبيُّ ﷺ التوحيدُ، ثم الصلاة

---

(١) المفردات (نزل).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٧١، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٤٦، ودلائل النبوة ٤/ ١٦٨.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٥٧.

والزكاة، ثم الحجُّ والجهاد، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم. ومن قال: الأعمالُ من الإيمان، قال بأنه نفسُه ـ أي: الإيمان المركَّب من ذلك وغيره ـ يزيدُ وينقص، ولم يَحتجْ في الآية إلى تأويل، بل جعلها دليلاً له. وتفصيلُ الكلام في هذا المقام أنه ذهب جمهورُ الأشاعرة والقلانسي والفقهاء والمُحدِّثون والمعتزلة إلى أن الإيمان يزيدُ وينقصُ، ونُقِلَ ذلك عن الشافعي ومالك، وقال البخاري: لقيتُ أكثرَ من ألفِ رجلٍ من العلماء بالأمصار فما رأيتُ أحداً منهم يختلف في أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ويزيدُ وينقصُ[١]. واحتجُّوا على ذلك بالعقل والنقل: أما الأول: فلأنه لو لم تتفاوَتْ حقيقةُ الإيمانِ لكان إيمانُ آحادِ الأمَّة المُنهمكين في الفِسق والمعاصي مُساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلاً، واللازم باطلٌ فكذا المَلْزوم. وأما الثاني: فَلِكَثْرة النصوص في هذا المعنى، منها الآية المذكورة، ومنها ما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما: قلنا: يا رسولَ الله، إنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ؟ قال: «نعم، يزيدُ حتى يُدخِلَ صاحبَه الجنَّة، وينقصُ حتى يُدخِلَ صاحبُه النار»[٢] ومنها ما رُوي عن عمر وجابر رضي الله عنهما مرفوعاً: «لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لَرَجَحَ به»[٣].

واعتُرض بأنَّ عدمَ قبول الإيمان الزيادةَ والنَّقصَ على تقدير كونِ الطاعات داخلةً في مُسمَّاه أولى وأحقُّ من عدمِ قَبوله ذلك إذا كان مُسمَّاه التصديق وحدَه: أمَّا أولاً: فلأنه لا مرتبةَ فوق كلِّ الأعمال لتكون زيادة، ولا إيمان دونه ليكون نقصاً. وأما ثانياً: فلأنَّ أحداً لا يستكملُ الإيمانَ حينئذ، والزيادة على ما لم يكمل بَعْدُ مُحال.

وأُجيب بأنَّ هذا إنما يتوجَّه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال، والجماعةُ إنما يقولون: إنها شرطُ كمالٍ في الإيمان فلا يلزم عند الانتفاء إلا انتفاء الكمال، وهو غيرُ قادح في أصل الإيمان.

---

(١) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ١/ ٤٧. وسلف ١٠/ ٢٤.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨١، وعزاه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٣٤ للثعلبي. وسلف ١٠/ ٢٤.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب ١/ ٦٩ موقوفاً على عمر رضي الله عنه، قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٣٤: أخرجه إسحاق بن راهويه عن عمر وإسناده صحيح. ولم نقف عليه من حديث جابر رضي الله عنه.

وقال النووي وجماعة مُحقِّقون من علماء الكلام: إنَّ الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقصُ أيضاً بِكَثْرة النظر ووضوح الأدلَّة وعدمِ ذلك، ولهذا كان إيمان الصِّدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشُّبه، ويُؤيِّده أنَّ كلَّ واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكونَ في بعض الأحيان أعظمَ يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها، فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظُهور البراهين وكَثْرتها[١].

واعتُرض بأنه متى قبل ذلك كان شكًّا.

ودُفع بأن مراتبَ اليقين متفاوتةٌ إلى علم اليقين وحقِّ اليقين وعين اليقين مع أنها لا شكَّ معها، وممن وافقَ النوويَّ على ما جزم به السعدُ في القسم الثاني من «تهذيبه».

وقال جماعةٌ من العلماء أعظمهم الإمامُ أبو حنيفة وتَبِعَه أصحابُه وكثيرٌ من المُتكلِّمين: الإيمان لا يزيُد ولا ينقصُ، واختاره إمام الحرمين، واحتجُّوا بأنه اسمٌ للتصديق البالغ حدَّ الجزم والإذعان، وهذا لا يُتصوَّر فيه زيادةٌ ولا نقصان، فالمُصدِّق إذا ضمَّ إليه الطاعات أو ارتكب المعاصي فتصديقُه بحاله لم يتغير أصلاً، وإنما يتفاوت إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلَّةً وكثرةً.

وأجابوا عمَّا تمسَّك به الأولون بوجوه: منها ما أشرنا إليه أولاً من أنَّ الزيادة بحسب الدوام والثَّبات وكَثْرة الزمان والأوقات، وإيضاحه ما قاله إمام الحرمين: النبيُّ ﷺ يفضلُ مَنْ عداه باستمرار تصديقه وعِصْمة الله تعالى إيَّاه من مُخامرة الشُّكوك، والتصديقُ عَرَضٌ لا يبقى بشخصه بل بتجدُّد أمثاله، فتقع للنبيِّ عليه الصلاة والسلام متواليةً ولغيره على الفترات، فيثبت[٢] للنبيِّ ﷺ أعدادٌ من الإيمان لا يثبتُ لغيره إلا بعضها، فيكون إيمانه ﷺ أكثرَ. والزيادةُ بهذا المعنى قيل: مما لا نزاعَ فيها.

واعتُرض بأنَّ حصولَ المثل بعد انعدامِ الشيء لا يكون زيادة فيه كسوادِ الجسم، ودُفع بأنَّ المُرادَ زيادةُ أعدادٍ حصلَتْ، وعدمُ البقاء لا يُنافي ذلك.

---

(١) نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح ١/٤٦، وسلف بعضه ١٠/٢١.
(٢) في الأصل و(م): فثبتت، والمثبت من الإرشاد ص٣٣٦، ومما سلف ١٠/٢١.

ومنها ما أشرنا إليه ثانياً من أنَّ المراد الزيادة بحسب زيادة ما يُؤمن به، والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين آمنوا أولاً بما آمنوا به وكانت الشريعةُ لم تتمَّ، وكانت الأحكام تنزلُ شيئاً فشيئاً، فكانوا يؤمنون بكلٍّ ما يتجدَّد منها ولا شكَّ في تفاوت إيمان الناسِ بملاحظة التفاصيل كَثْرةً وقِلَّة، ولا يختصُّ ذلك بعصره ﷺ؛ لإمكان الاطِّلاع على التفاصيل في غيره من العصور أيضاً.

ومنها أن المرادَ زيادةُ ثمرته وإشراق نوره في القلب، فإنَّ نورَ الإيمان يزيدُ بالطاعات وينقص بالمعاصي، قيل: وهذا إنما يحتاج إليه بعد إقامةِ قاطع على امتناع قَبول التصديق الزيادةَ والنقصَ، ومتى لم يَقُمْ قاطعٌ على ذلك كان الأولى إبقاءُ الظواهر على حالها.

وقال الخطابي: الإيمان قولٌ وهو لا يزيدُ ولا ينقص، وعملٌ وهو يزيدُ وينقصُ، واعتقادٌ وهو يزيدُ ولا ينقصُ، فإذا نقصَ ذهب. واعتُرض أنه إذا زاد ثم عاد إلى ما كان فقد نقص ولم يذهَبْ. ودُفع بأنَّ مراده أنَّ الاعتقاد باعتبار أول مَراتبه يزيدُ ولا ينقص لا أنَّ الاعتقادَ مطلقاً كذلك.

وذهب جماعةٌ منهم الإمام الرازي وإمام الحرمين [في قول] إلى أنَّ الخلافَ لفظيٌّ، وذلك بحمل قول النفي على أصل الإيمان، وهو التصديق، فلا يزيدُ ولا ينقص، وحملِ قول الإثبات على ما به كمالُه، وهو الأعمال، فيكون الخلافُ في هذه المسألة فرعَ الخلاف في تفسير الإيمان(١). والحقُّ أنه حقيقيٌّ لما سمعتَ عن الإمام النووي ومن معه من أنَّ التصديق نفسَه يزيدُ وينقص.

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ الزيادة والنقص من خواصِّ الكَمِّ، والتصديق قِسْم من العلم، ولم يقلْ أحدٌ بأنه من مَقولة الكَمِّ، وإنما قيل: هو كيف، أو انفعالٌ، أو إضافة وتعلُّق بين العالم والمعلوم، أو صفة ذات إضافة؛ والأشهر أنه كيف، فمتى صحَّ ذلك وقلنا بمغايرة الشِّدة والضعف للزيادة والنقص فلا بأسَ بحملها في النصوص وغيرها على الشِّدة والضعف، وذلك مجازٌ مشهور، وإنكار اتصاف الإيمان بهما يكادُ يلحقُ بالمُكابرة، فتأمَّل.

---

(١) سلف بنحوه ١٠/ ٢٤، وما بين حاصرتين منه.

وذكر بعضُهم هنا أن الإيمان الذي هو مدخولُ «مع» هو الإيمان الفِطْري، والإيمان المذكور قبلَه الإيمان الاستدلالي، فكأنه قيل: ليزدادوا إيماناً استدلاليًا مع إيمانهم الفِطْري، وفيه من الخَفَاء ما فيه.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدَبِّر أمرَها كيفما يُريد فيُسلِّط بعضها على بعض تارة، ويُوقِع سبحانه بينها السِّلم أُخرى، حسبما تقتضيه مشيئته المَبْنية على الحِكَم والمصالح، ومن قضيَّة ذلك ما وقع في الحديبية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العلم بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا ۝﴾ في تقديره وتدبيره عز وجل.

وقوله سبحانه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ متعلِّق بما يدلُّ عليه ما ذُكر من كون جنودِ السماوات والأرض له جل شأنه من معنى التصرُّف والتدبير، وقد صرَّح بعضُ الأفاضل بأنه كنايةٌ عنه. أي: دبَّر سبحانه ما دبَّر من تسليط المؤمنين لِيعرفوا نعمةَ الله تعالى في ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنةَ، فالعلَّة في الحقيقة معرفةُ النِّعمة وشُكرها لكنها لما كانت سبباً لدخول الجنة أُقيم المُسبَّب مُقامَ السبب.

وقيل: متعلِّق بـ«فتحنا». وقيل: بـ«أنزل»، وتعلُّقه بذلك مع تعلُّق اللام الأُخرى به مبنيٌّ على تعلُّق الأول به مطلقاً والثاني مقيَّداً وتنزيلُ تغاير الوصفين منزلةَ تغاير الذاتين، وإلا فلا يتعلَّق بعامل واحد حرفا جرٍّ بمعنى واحد من غير اتباع. وقيل: متعلِّق بـ«ينصرك». وقيل: بـ«يزداد». وقيل: بجميع ما ذُكر؛ إما على التنازع والتقدير، أو بتقدير ما يشملُ ذلك كـ: فَعَل سبحانه ما ذكر لِيُدخِلَ.. إلخ. وقيل: هو بدل من ليزداد بدل اشتمال، فإن إدخالَ المؤمنين والمؤمنات الجنة وكذا ما عُطف عليه مستلزمٌ لزيادة الإيمان، وبدل الاشتمال يعتمد على مُلابسةٍ مّا بين المُبدل والمُبدل منه بحيث يشعر أحدُهما بالآخر غيرِ الكلية والبعضية. ولعلَّ الأظهرَ الوجهُ الأول.

وضمُّ المؤمنات هاهنا إلى المؤمنين دفعاً لتوهُّم اختصاص الحُكم بالذكور لأجل الجهادِ والفَتْح على أيديهم، وكذا في كلِّ موضع يُوهم الاختصاص يصرِّحُ بذِكْر النساء، ويقال نحو ذلك فيما بعدُ، كذا قيل.

وأخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال: أنزلت على النبيِّ ﷺ: (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) في مَرْجِعِهِ من الحُديبية، فقال: لقد أُنزلَتْ عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيَّن الله تعالى لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا فنزلَتْ: (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) حتى بلغ: (فَوْزًا عَظِيمًا)[1].

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: يُغَطِّيها ولا يُظهرها، والمراد: يمحوها سبحانه ولا يُؤاخذهم بها، وتقديمُ الإدخال في الذِّكر على التكفير مع أن الترتيبَ في الوجود على العكس؛ لِلمُسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأعْلى، كذا قال غير واحد. ويجوز عندي أن يكون التكفير في الجنة على أن المعنى: يدخلهم الجنة ويُغطِّي سيئاتهم ويسترها عنهم، فلا تمرُّ لهم ببال ولا يذكرونها أصلاً لئلا يخجلوا فيتكدَّر صفوُ عَيْشهم، وقد مرَّ مثلُ ذلك.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ لا يُقادَر قَدْره لأنه مُنتهى ما تمتد إليه أعناقُ الهمم من جَلْب نفعٍ ودَفْع ضُرٍّ، و«عند الله» حال مِنْ «فوزاً» لأنَّ صفةَ النكرة إذا قُدِّمت عليها أُعرِبَتْ حالاً. وكونه يجوزُ فيه الحالية إذا تأخَّر عن «عظيماً» لا ضيرَ فيه كما تُوُهِّم، أي: كائناً عند الله تعالى، أي: في عِلْمه سبحانه وقضائه جل شأنه، والجملةُ اعتراضٌ مُقرِّر لما قبلَه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ عطف على «يدخل» أي: ولِيُعذِّب المنافقين.. إلخ لغيظهم من ذلك، وهو ظاهرٌ على جميع الأوجه السابقة في «لِيُدخِلَ» حتى وجه البدليَّة، فإنَّ بدلَ الاشتمال تُصحِّحه المُلابسة كما مرَّ، وازدياد الإيمان على ما ذكرنا في تفسيره مما يُغيظهم بلا ريب، وقيل: إنه على هذا الوجه يكون عطفاً على المُبدَل منه. وتقديمُ المنافقين على المشركين لأنهم أكثر ضرراً على المسلمين، فكأنَّ في تقديم تعذيبهم تعجيل المَسَرَّة.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٢٤٠، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦)، ومسلم (١٧٨٦).

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ظنّ الأمر الفاسد المذموم، وهو أنه عز وجل لا ينصرُ رسولَه ﷺ والمؤمنين، وقيل: المرادُ به ما يعمُّ ذلك وسائر ظُنونهم الفاسدة من الشِّرك أو غيره.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمؤمنين فهو حائقٌ بهم ودائرٌ عليهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دائرة السُّوء» بالضَّمِّ[1]؛ والفرقُ بينه وبين «السَّوْء» بالفَتْح على ما في «الصحاح»[2]: أن المفتوحَ مصدرٌ والمضمومَ اسمُ مصدر بمعنى المساءة.

وقال غير واحد: هما لغتان بمعنًى كالكُرْه والكَرْه عند الكسائي، وكلاهما في الأصل مصدرٌ، غير أنَّ المفتوحَ غُلِّب في أن يُضافَ إليه ما يُراد ذَمُّه، والمضموم جرى مجرى الشرِّ، ولما كانت الدائرةُ هنا محمودةً وأُضيفت إلى المفتوح في قراءة الأكثر، تعيَّن على هذا أن يقال: إنَّ ذاكَ على تأويل أنها مذمومةٌ بالنسبة إلى مَنْ دارت عليه من المنافقين والمشركين، واستعمالُها في المكروه أكثرُ، وهي مصدر بزِنَةِ اسم الفاعل، أو اسمُ فاعل، وإضافتها على ما قال الطيبي من إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة. وفي «الكشف»: الإضافة بمعنى «مِنْ» على نحو: دائرة ذهب، فتدبَّر. والكلامُ إما إخبارٌ عن وقوع السوء بهم، أو دعاءٌ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ على ذلك، وكان الظاهرُ: فلعنهم فأعدَّ، بالفاء في الموضعين، لكنه عَدَلَ عنه للإشارة إلى أنَّ كلًّا من الأمرين مستقلٌّ في الوعيد به من غير اعتبار للسببية فيه. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ جهنمُ.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكر سابقاً على أن المرادَ أنه عز وجل المُدبِّر لأمرِ المخلوقات بمقتضى حِكْمته، فلذلك ذَيّل بقوله تعالى: «عليماً حكيماً»، وهاهنا أُريد به التهديدُ بأنهم في قبضة قُدْرة المنتقم، ولذا ذيّل بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا

(١) التيسير ص١١٩، والنشر ٢/١١٩.
(٢) مادة: (سوأ).

﴿حَكِيمًا ۝٧﴾ فلا تكرار كما قال الشهاب[١]. وقيل: إنَّ الجنودَ جنودُ رحمة وجنودُ عذاب، والمرادُ به هنا الثاني كما يُنبئ عنه التعرُّض لوصفِ العِزَّة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: على أُمَّتك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣] وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة: شاهداً على أُمَّتك وشاهداً على الأنبياء عليهم السلام أنهم قد بلغوا[٢]. ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالثواب على الطاعة ﴿وَنَذِيرًا ۝٨﴾ بالعذابِ على المعصية.

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخِطابُ للنبيِّ ﷺ وأُمَّته، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] وهو من باب التغليب غُلِّب فيه المُخاطَب على الغيَّب، فيفيدُ أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام مُخاطَب بالإيمان برسالته كالأمة، وهو كذلك.

وقال الواحدي[٣]: الخطاب في «أرسلناك» للنبيِّ ﷺ، وفي «لِتُؤمنوا» لأُمَّته. فعلى هذا إنْ كان اللام للتعليل يكون المُعلَّل محذوفاً، أي: لتؤمنوا بالله وكيت وكيت فَعَلَ ذلك الإرسال، أو للأمر على طريقة: «فبذلك فلتفرحوا» [يونس:٥٨] على قراءة التاء الفوقانية[٤]، فقيل: هو على معنى: قل لهم: لتؤمنوا. . إلخ.

وقيل: هو للأُمة على أن خِطابَه ﷺ مُنزَّلٌ منزلة خطابهم فهو عينُه ادعاء، واللام مُتعلِّقة بـ «أرسلنا». ولا يُعترض عليه بما قرَّره الرضي وغيره من أنه يمتنعُ أن يُخاطَب في كلام واحدٍ اثنان من غير عطفٍ أو تثنية أو جمع، لأنه بعدَ التنزيل لا تَعدُّد. وجُوِّز أن يكون ذلك لأنهم حينئذ غيرُ مُخاطَبين في الحقيقة فخطابهم في حكم الغَيْبة. وقيل: الامتناع المذكور مشروطٌ بأن يكون كلٌّ من المُخاطَبين مستقلًّا، أما إذا كان أحدُهما داخلاً في خطاب الآخر فلا امتناعَ كما يُعْلَم من تَتَبُّع كلامهم، وحينئذ يجوز أن يُرادَ خطابُ الأمة أيضاً من غير تغليبٍ، والكلام في ذلك طويل وما ذكر سابقاً سالم عن القال والقيل.

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٥٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٧١، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٥٠.
(٣) الوسيط ٤/ ١٣٦.
(٤) قرأ بها يعقوب في رواية رويس. النشر ٢/ ٢٨٥.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروه، كما رُوي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً[1]، وأخرجه جماعةٌ عن قتادة[2]، والضميرُ لله عز وجل، ونُصرته سبحانه بنصرة دِينه ورسوله ﷺ.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظِّموه كما قال قتادة وغيره، والضمير له تعالى أيضاً. وقيل: كلا الضميرين للرسول ﷺ، ورُوي عن ابن عباس. وزعم بعضُهم أنه يتعيَّن كونُ الضمير في «تُعزِّروه» للرسول عليه الصلاة والسلام لِتَوَهُّم أن التعزيرَ لا يكون له سبحانه وتعالى، كما يتعيَّن عند الكلِّ كونُ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ لله سبحانه وتعالى، ولا يخفى أن الأَولى كونُ الضميرين فيما تقدَّم لله تعالى أيضاً لئلا يلزم فَكُّ الضمائر من غير ضرورة، أي: وتُنزِّهوا الله تعالى، أو: تُصَلُّوا له سبحانه مِنَ السُّبحة ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ غُدوةً وعَشِيًّا، والمرادُ ظاهرهما، أو جميع النهار، ويُكنَى عن جميع الشيء بطرفيه كما يقال: شرقاً وغرباً، لجميع الدنيا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: صلاةُ الفجر وصلاةُ الظهر وصلاة العصر.

وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة ـ أعني: «لِتُؤمنوا» وما بعدَه ـ بياء الغيبة[3]، وعن ابن مسعود وابن جُبير كذلك إلا أنهما قرأا: «ويُسَبِّحوا الله» بالاسم الجليل مكانَ الضمير[4]، وقرأ الجَحْدري: «تَعْزُروه» بفتح التاء الفوقية وضمِّ الزاي مُخفَّفاً[5]، وفي روايةٍ عنه فتحُ التاء وكسر الزاي مُخفَّفاً، ورُوي هذا عن جعفر الصادق رضي الله عنه[6]، وقُرئ: بضمِّ التاء وكسرِ الزاي مُخفَّفاً[7]، وقرأ ابن عباس ومحمد بن اليماني: «تُعَزِّزوه» بزاءين[8] من العِزَّة، أي:

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٩٥، وعزاه أيضاً في الدر المنثور ٦/ ٧١ لابن عدي وابن مردويه وابن عساكر في تاريخه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٧١، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير [في التفسير ٢١/ ٢٥١].

(٣) البحر المحيط ٨/ ٩١، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥، وهي غير المشهورة عن أبي جعفر، والمشهور عنه كقراءة الباقين.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٥، والبحر ٨/ ٩١.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٩١.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٤٣، والبحر ٨/ ٩١، وينظر المحتسب ٢/ ٢٧٥.

تجعلوه عزيزاً، وذلك بالنسبة إليه سبحانه بجعل دينه ورسوله ﷺ كذلك. وقرئ: «وتُؤْقِرُوه» مِنْ أوقره[1] بمعنى وقَّره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يومَ الحديبية على الموت في نُصْرتك كما رُوي عن سلمة بن الأكوع وغيره، أو: على أنْ لا يَفِرُّوا من قريش كما رُوي عن ابن عمر وجابر رضي الله عنهم، وسيأتي الكلامُ في تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

والمبايعة وقعتْ قبلَ نزول الآية، فالتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، وهي مفاعلةٌ من البيع، يقال: بايع السلطانَ مُبايعةً إذا ضَمِنَ بذلَ الطاعة له بما رضخ له، وكثيراً ما تُقال على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم وإن لم يكن رَضْخٌ، وما وقع للمؤمنين قيل: يُشير إلى ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١١].

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنَّ المقصودَ من بيعةِ الرسول عليه الصلاة والسلام وإطاعته إطاعةُ الله تعالى وامتثالُ أوامره سبحانه لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فمبايعةُ الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه مُشاكلة، أو هو صرفُ مجازٍ.

وقرئ: «إنما يُبايعون لله»[2]، أي: لأجل الله تعالى ولوجهه، والمفعول محذوف، أي: إنما يُبايعونك لله.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استئنافٌ مؤكِّد لما قبلَه؛ لأنه عبارة عن المبايعة. قال في «الكشاف»[3]: لمَّا قال سبحانه: «إنما يبايعون الله» أكَّده على طريقة التخييل، فقال تعالى: «يدُ الله فوقَ أيديهم» وأنه سبحانه مُنزَّه عن الجوارح وصفاتِ الأجسام، وإنما المعنى تقريرُ أنَّ عقدَ المِيثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوتٍ بينهما. وفي «المفتاح»: أما حسنُ الاستعارة التخييلية فبحسب حسن

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٣.
(٢) المحتسب ٢/ ١٧٥، والبحر ٨/ ٩١، ونسبت لتمام بن العباس بن عبد المطلب.
(٣) ٣/ ٥٤٣.

الاستعارة بالكناية متى كانت تابعةً لها، كما في قولك: فلانٌ بين أنيابِ المَنيَّة ومَخالبها، ثم إذا انضمَّ إليها المُشاكلة كما في «يد الله» إلخ كانت أحسنَ وأحسن[1]. يعني أنَّ في اسم الله تعالى استعارةً بالكناية تشبيهاً له سبحانه وتعالى بالمُبايع، واليد استعارةٌ تخييلة مع أن فيها أيضاً مُشاكلةً لذكرها مع أيدي الناس، وامتناعُ الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون المَكنية لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه.

وروى الواحدي عن ابن كيسان: اليدُ: القوَّة، أي: قوَّة الله تعالى ونُصرته فوقَ قوتهم ونصرتهم، أي: ثِقْ بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإنْ بايعوك.

وقال الزجاج[2]: المعنى: يد الله في الوفاء فوقَ أيديهم، أو: في الثواب فوقَ أيديهم في الطاعة، أو: يدُ الله سبحانه في المِنَّة عليهم في الهِداية فوقَ أيديهم في الطاعة. وقيل: المعنى: نعمةُ الله تعالى عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوقَ نعمتهم، وهي مُبايعتهم إياك وأعظمُ منها، وفيه شيء من قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وكلُّ ذلك تأويلاتٌ ارتكبها الخَلَفُ، وأحسنُها ما ذُكر أولاً، والسلفُ يمرُّون الآية كما جاءت مع تنزيهِ الله عز وجل عن الجوارح وصفاتِ الأجسام، وكذلك يفعلون في جميع المُتشابهات ويقولون: إنَّ معرفةَ حقيقة ذلك فرعُ معرفةِ حقيقة الذات وأنى ذلك وهيهات هيهات.

وجُوِّز أن تكونَ الجملةُ خبراً بعد خبر لـ «إنَّ»، وكذا جُوِّز أن تكونَ حالاً من ضمير الفاعل في «يُبايعونك»، وفي جواز ذلك مع كونها اسميةً غيرَ مقترنةٍ بالواو كلامٌ.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعودُ ضررُ نَكْثه إلا عليه، وروى الزمخشري[3] عن جابر بن عبد الله أنه ما نَكَثَ أحدٌ البيعةَ إلا جدُّ بن قيس وكان

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص٣٨٨.
(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

منافقاً. والذي نقله الطيبي عن مسلم يدلُّ على أن الرجلَ لم يُبايِعْ، لا أنه بايعَ ونكثَ، قال: سُئل جابر: كم كانوا يومَ الحُديبية؟ قال: كنا أربعَ عشرَ مئة، فبايعناه وعمر رضي الله عنه آخذٌ بيده صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه تحت الشجرة، وهي سَمُرةٌ، فبايعناه غيرَ جدِّ بن قيس الأنصاري اختفى تحت بَطْن بعيرِه ولم يَسِرْ مع القوم(١). ولعلَّ هذا هو الأوفقُ؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ الآية [١٨].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يَنْكِثُ» بكسر الكاف(٢).

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ هو الجنة وما يكون فيها مما لا عينَ رأتْ ولا أُذن سمعتْ ولا خطرَ على قلب بَشَر، ويقال: وَفَى بالعهد وأوفى به، إذا تَمَّمه، وأوفى لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة:١٧٧]. وقرئ: «بما عَهِدَ» ثلاثيًّا(٣).

وقرأ الجمهور: «عليهِ» بكسر الهاء كما هو الشائع، وضَمَّها حفص هنا(٤)، قيل: وجهُ الضَّمِّ أنها هاء «هو»، وهي مضمومة فاستصحب ذلك كما في له وضربه، ووجه الكسر رِعاية الياء، وكذا في «إليه» و«فيه»، وكذا فيما إذا كان قبلَها كسرةٌ نحو: به، ومررتُ بغلامِه، لِثقل الانتقال من الكسر إلى الضمِّ، وحَسَّنَ الضَّمّ في الآية التوصُّلُ به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمرِ العَهْد المُشْعِر به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائمٌ للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نَقْضه. وقد سألت كثيراً من الأجلّة وأنا قريبُ عهدٍ بفتح فمي للتكلُّم عن وجه هذا الضَّمِّ هنا، فلم أُجَبْ بما يَسْكُن إليه قلبي، ثم ظَفِرتُ بما سمعتَ والله تعالى الهادي إلى ماهو خيرٌ منه.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وروح وزيد بن عليٍّ: «فسنؤتيه» بالنون(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥٦)، وقوله: سَمُرة: هي واحدة: سَمُر، كرجل، ضرب من شجر الطلح. النهاية (سمر).
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التيسير ص١٤٤، والنشر ١/ ٣٠٤-٣٠٥.
(٥) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣٧٥. وقراءة زيد بن علي في البحر المحيط ٨/ ٩٢.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهد وغيره ودخل كلامُ بعضهم في بعض: «المُخلَّفون من الأعراب» هم: جُهينة ومُزينة وغِفار وأشجع والدِّيل وأسلم؛ استنفرهم رسولُ الله ﷺ حين أراد المسيرَ إلى مكة عامَ الحديبيةِ معتمراً ليخرجوا معه حَذراً من قريش أنْ يعرِضوا له بحرب أو يصدُّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساقَ معه الهَدْيَ لِيُعلِم أنه لا يُريد حرباً، ورأى أولئك الأعرابُ أنه عليه الصلاة والسلام يستقبل عدوًّا[1] عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورين مكةَ وهم الأحابيش، ولم يكن الإيمانُ تمكَّن من قلوبهم، فقعدوا عن النبيِّ ﷺ وتخلَّفوا وقالوا: نذهب إلى قوم قد غَزَوْه في عُقْر داره بالمدينة وقتلوا أصحابَه فنقاتلهم! وقالوا: لن يرجِعَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ولا أصحابُه من هذه السَّفرة، فَفضَحهم اللهُ تعالى في هذه الآية، وأعلمَ رسولَه ﷺ بقولهم واعتذارِهم قبلَ أن يَصِلَ إليهم، فكان كذلك.

و«المُخَلَّفون» جمع: مُخَلَّف؛ قال الطبرسي[2]: هو المتروكُ في المكان خَلْفَ الخارجين من البلد، مأخوذٌ من الخَلْف، وضدُّه المُقدَّم. و«الأعراب» في المشهور سكَّان البادية من العرب، لا واحدَ له. أي: سيقول لك المتروكون الغير الخارجين معك معتذرين إليك: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن الذهاب معك ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا من يقومُ بحفظِ ذلك ويَحميه عن الضَّياع، ولعلَّ ذكرَ الأهل بعدَ الأموال من باب الترقِّي؛ لأنَّ حفظَ الأهل عند ذوي الغيرة أهمُّ من حِفظ الأموال.

وقرأ إبراهيم بن نوح بن باذان: «شغَّلتنا» بتشديد الغين المعجمة للتكثير[3].

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ اللهَ تعالى لِيغفرَ لنا تَخلُّفنا عنك حيث لم يكن عن تكاسُلٍ في طاعتك، بل لذلك الداعي.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إنَّ كلامهم من طَرَف اللسان غير مطابقٍ لما في الجَنان، وهو كنايةٌ عن كذبهم، فالجملةُ استئنافٌ لتكذيبهم، وكونها بدلاً من «سيقول» غيرُ ظاهر، والكذب راجعٌ لما تضمَّنه الكلامُ من الخبر عن

(١) في (م) وهامش الأصل: عدداً.
(٢) مجمع البيان ٢٦/ ٥٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٣.

تخلُّفهم بأنه لضرورة داعيةٍ له، وهو القيامُ بمصالحهم التي لا بدَّ منها، وعدمِ من يقومُ بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام، وكذا راجعٌ لما تضمَّنه «استغفر» الإنشاء من اعترافهم بأنهم مذنبون، وأنَّ دعاءه ﷺ لهم يُفيدهم فائدةً لازمةً لهم، وتسمية ذلك كذباً ليس لعدم مطابقة نسبته[1] الاعتقاد على ما ذهب إليه النَّظَّام، بل لعدم مطابقته الواقعَ بحسب الاعتقاد، وفرقٌ بين الأمرين.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أمرٌ له ﷺ أن يَرُدَّ عليهم بذلك عند اعتذارهم بتلك الأباطيل، والملْك إمساكٌ بقوة، لأنه بمعنى الضبط، وهو حفظٌ عن حزمٍ، ومنه: لا أَمْلِكُ رأسَ البعير، ومَلَكت العجين: إذا شددتَ عجنته، وملكت الشيء: إذا دخل تحت ضَبْطك دخولاً تامًّا، وإذا قلت: لا أملك، كان نفياً للاستطاعة والطاقة إمساكاً ومنعاً، فأصلُ المعنى هنا: فمن يستطيع لكم إمساكَ شيءٍ مِن قُدرة الله تعالى إنْ أراد بكم.. إلخ، واللام مِن «لكم» إما للبيان أو من صلةِ الفعل، لأنَّ هذه الاستطاعةَ مُختصَّةٌ بهم ولأجلهم، و«من الله» حالٌ من النكرة ـ أعني «شيئاً» ـ مُقدَّمة، وتفسيرُ الملك بالمنع بيانٌ لحاصل المعنى، لأنه إذا لم يستطع أحدٌ الإمساك والدَّفْع فلا يُمكنه المنعُ وليس ذلك لجعله مجازاً عنه أو مُضَمَّناً إياه، واللامُ زائدةٌ كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] و«من» مُتعلِّقة بـ «يملك» كما قيل، والمراد بالضُّرّ والنفع ما يضرُّ وما ينفع، فهما مصدران مرادٌ بهما الحاصلُ بالمصدر أو مؤوَّلان بالوصف.

وقرأ حمزة والكسائي: «ضُرًّا» بضمِّ الضاد[2]، وهو لغةٌ فيه.

وحاصلُ معنى الآية: قل لهم إذْ لا أحدَ يدفع ضرَّه ولا نَفْعه تعالى، فليس الشُّغل بالأهل والمال عُذراً، فلا ذاك يدفعُ الضُّرَّ إنْ أراده عز وجل ولا مُغافَصةُ[3] العدوِّ تمنع النفعَ إن أرادَ بكم نَفْعاً، وهذا كلامٌ جامعٌ في الجواب فيه تعريضٌ بغيرهم من المُبطِلين وبجلالة مَحلِّ المُحقِّين.

---

(١) في (م): نسبة.
(٢) وقرأ بها خلف من العشرة. التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.
(٣) قال صاحب القاموس (غفص): غافصه: أخذه على غرة.

ثم ترقّى سبحانه منه إلى ما يتضمَّن تهديداً بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكلِّ ما تعملونه ﴿خَبِيرًا ⑪﴾ فيعلم سبحانه تَخلُّفكم وقَصْدَكم فيه، ويُجازيكم على ذلك، ثم ختم جل وعلا بمكنون ضمائرهم ومخزون ما أعدَّ لهم عنده تعالى بقوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ إلى قوله تعالى: «بورا».

وفي «الانتصاف»(١): إن في قوله تعالى: «فمن يملك» إلخ لفًّا ونشراً، والأصلُ: فمن يملكُ لكم من الله شيئاً إنْ أرادَ بكم ضرًّا أو مَنْ يحرمكم النفعَ إن أرادَ بكم نفعاً؛ لأن «مَنْ يملك» يُستعمل في الضرّ كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ [المائدة:١٧]، ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة:٤١]، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٨] ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إني لا أمْلِكُ لكم شيئاً»(٢) يخاطب عشيرته، وأمثاله كثير. وسرُّ اختصاصه بدفع المَضَرَّة أنَّ المِلْكَ مضافٌ في هذه المواضعِ باللام، ودَفْعَ المضرَّة نفعٌ يضافُ للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمانُ المنفعة، فإنه ضررٌ عائدٌ عليه لا له، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه كذلك، لأن القسمين يشتركان في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفي لدفع المقدور من خيرٍ وشرٍّ، فلما تقاربا أُدرجا في عبارة واحدة؛ وخصَّ عبارة دَفْع الضرّ لأنه هو المتوقَّع لهؤلاء، إذ الآية في سياق التهديد والوعيد الشديد، وهي نظيرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب:١٧] فإنَّ العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة، فهاتان الآياتان توأمتان في التقرير المذكور. انتهى. والوجهُ ما ذكرناه أولاً في الآية، وفي تسميةِ مثل هذا لفًّا ونشراً نظرٌ، ثم إنَّ الظاهرَ عمومُ الضرَّ والنفع.

وقال شيخ الإسلام أبو السعود: المراد بالضَّرِّ ما يضرُّ من هلاك الأهل والمال وضياعهما، وبالنفع ما ينفعُ من حفظ المال والأهل، وتعميمُهما يردُّه قوله تعالى: (بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فإنه إضرابٌ عمَّا قالوه وبيانٌ لكذبه بعد بيان فسادِه على

---

(١) بحاشية الكشاف ٣/ ٥٤٤.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٤٠٢)، ومسلم (٢٠٤): (٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تقدير صِدْقه[1]. انتهى. وهو كلامٌ أوهى من بيت العنكبوت، لأنَّ في التعميم إفادةً لما ذكر وزيادة تُفيد قوةً وبلاغة.

والظاهرُ أنَّ كلًّا من الإضرابات الثلاثة مقصودٌ، وقال شيخ الإسلام: إنَّ قوله تعالى: «بل ظننتم» إلخ بدلٌ من «كان الله» إلخ مفسِّر لما فيه من الإبهام[2].

وفي «البحر»: إنه بيانٌ للعلة في تخلُّفهم، أي: بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ أي: لن يرجعَ من ذلك السَّفر[3] ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ أي: عشائرهم وذوي قُرباهم ﴿أَبَدًا﴾ بأن يستأصِلَهم المشركون بالمرَّةِ، فحسبتم إنْ كنتم معهم أنْ يُصيبَكم ما يُصيبهم، فلأجل ذلك تخلَّفتم لا لما ذَكَرتُم من المعاذير الباطلة.

والأهلون جمعُ: أهل، وجمعه جمع السلامةِ على خلاف القياس، لأنه ليس بعَلَم ولا صفة من صفات مَنْ يَعْقِل، ويُجمع على: أَهلات، بملاحظة تاء التأنيث في مفرده تقديراً، فيجمع كتمرة وتَمرَات، ونحوه أرض وأَرضات، وقد جاء على ما في «الكشاف»[4] أَهْلة بالتاء، ويجوز تحريكُ عينه أيضاً فيقال: أَهَلات بفتح الهاء. وكذا يُجمع على أهال كـ : لَيَال، وأطلق عليه الزمخشري: اسمَ الجمع؛ وقيل: وهو إطلاقٌ منه في الجمع الواردِ على خلافِ القياس، وإلا فاسم الجمع شرطُه عند النُحاة أن يكونَ على وزن المفردات، سواء كان له مُفردٌ أَمْ لا.

وقرأ عبد الله: «إلى أهلهم» بغير ياء[5]، والآية ظاهرةٌ في أنَّ «لن» ليست للتأبيد، ومَنْ زعم إفادتها إيَّاه جعل «أبداً» للتأكيد.

﴿وَزُيِّنَ﴾ أي: حُسِّنَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الظنّ المفهوم من ظننتم ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فلم تَسْعَوا في إزالته، فتمكَّن فيكم، فاشتغلتم بشأن أنفسكم غير مُبالين بالرسول ﷺ والمؤمنين.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٠٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٣.
(٤) ٣/ ٥٤٤.
(٥) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ٩٣.

وقيل: الإشارة إلى المظنون، وهو عدمُ انقلابِ الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إلى أهليهم أبداً، أي: حُسِّن ذلك في قلوبكم فأحببتموه، والمرادُ من ذلك تقريعُهم ببغضهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين، والمناسب للسياق ما تقدَّم.

وقُرئ: «زَيَّن» بالبناء للفاعل[1] بإسناده إلى الله تعالى، أو إلى الشيطان.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو ظَنُّهم السابق، فتعريفُه للعهدِ الذِّكري، وأُعيد لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء، أو هو عامٌّ فيشمل ذلك الظَّنَّ وسائرَ ظُنونهم الفاسدةِ التي من جُملتها الظنُّ بعدمِ رسالته عليه الصلاة والسلام، فإنَّ الجازم بصحتها لا يحومُ فكرهُ حول ما ذكر من الاستئصال، فذِكْرُ ذلك للتعميم بعد التخصيص.

﴿وَكُنتُمْ﴾ في علم الله تعالى الأزلي ﴿قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي: هالكين، لفسادِ عقيدتكم وسوءِ نيَّتكم، مُستوجِبين سُخْطَه تعالى وعقابَه جلَّ شأنه، وقيل: أي: فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيَّاتكم لا خيرَ فيكم.

والظاهرُ ـ على ما في «البحر»[2] ـ أنَّ «بوراً» في الأصل مصدرٌ كالهُلْك، ولذا وُصِفَ به المُفردُ المذكَّرُ في قول ابن الزبعرى:

يا رسولَ المَليك إنَّ لساني راتقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ[3]

والمُؤنَّثُ، حكى أبو عُبيدة: امرأةٌ بور، والمثنى والمجموع. وجُوِّز أن يكون جمعَ: بائر، كحائل وحُول، وعائذ وعُوذ، وبازِل وبُزْل، وعلى المصدرية هو مُؤَوَّل باسمِ الفاعل. وجُوِّز أن تكونَ «كان» بمعنى صار، أي: وصِرْتم بذلك الظنِّ قوماً هالكين مستوجبين السَّخط والعقاب، والظاهرُ إبقاؤها على بابها، والمُضي باعتبار العلم كما أشرنا إليه. وقيل: أي: كنتم قبلَ الظنِّ فاسدين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلخ، كلامٌ مبتدأ من جهته عز وجل غير داخل في الكلام المُلقَّن، مُقرِّرٌ لبوارِهم ومُبيِّن لكيفيته، أي: ومَنْ لم

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٩٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٣.
(٣) ديوان عبد الله بن الزبعرى ص٣٦.

يُصَدِّق بالله تعالى ورسوله ﷺ كدأب هؤلاء المُخلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾ ناراً مسعورةً مُوقَدة مُلتهبة، وكان الظاهر: لهم، فعدل عنه إلى ما ذكر إيذاناً بأنَّ مَنْ لم يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافرٌ، وأنه مُستوجِبٌ للسعير بكُفره لمكان التعليق المشتقّ، وتنكير سعير للتهويل لما فيه من الإشارة إلى أنها لا يمكن معرفتها واكتناهُ كُنْهها. وقيل: لأنها نارٌ مخصوصةٌ، فالتنكيرُ للتنويع، و«مَنْ» يحتمل أن تكونَ موصولةً وأن تكونَ شرطيةً، والعائدُ من الخبر أو من جواب الشرط هو الظاهرُ القائم مقامَ المُضمر.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فهو عز وجل المُتصرِّفُ في الكلِّ كما يشاء ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أنْ يغفرَ له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ أنْ يُعذِّبه من غير دَخْل لأحدٍ في شيء من غفرانه تعالى وتعذيبه جل وعلا وجوداً وعدماً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٤﴾ مُبالغاً في المغفرة لمن يشاء، ولا يشاء سبحانه إلا لمن تقتضي الحِكمةُ المغفرةَ له ممن يُؤمِنُ به سبحانه ورسولِهِ ﷺ، وأما مَنْ عداه من الكافرين المُجاهِرين والمنافقين فهم بمعزِلٍ من ذلك قَطْعاً.

وفي تقديم المغفرة، والتذييل بكونه تعالى غفوراً بصيغة المُبالغةِ، وضَمِّ «رحيماً» إليه الدالِّ على المبالغة أيضاً، دون التذييل بما يُفيد كونَه سبحانه مُعذِّباً، مما يدلُّ على سبق الرحمة ما فيه.

وفي الحديث: «كتب ربُّكم على نفسِه بيده قبلَ أن يخلُق الخَلْقَ: رحمتي سبقَتْ غضبي»[1]، وهذا السبقُ ـ على ما أشار إليه في «أنوار التنزيل»[2] ـ ذاتيٌّ، وذلك لأنَّ الغُفْرانَ والرحمةَ بحسب الذات، والتعذيب بالعَرض وتبعيته للقضاء والعصيان المقتضي لذلك، وقد صرَّح غيرُ واحد بأنَّ الخيرَ هو المقضي بالذات والشر بالعرض، إذْ لا يوجد شرٌّ جُزئي إلا وهو مُتضمِّنٌ لخير كُلِّي، وفصّل ذلك

(١) أخرجه أحمد (٩١٥٩)، والبخاري (٧٥٥٤)، وابن ماجه (١٨٩) ـ واللفظ له ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهو تفسير البيضاوي ٨/ ٦٠ (بهامش حاشية الشهاب).

في «شرح الهياكل»[١]. وقال بعضُ الأجِلَّة: المرادُ بالسبق في الحديث كَثْرةُ الرحمة وشُمولها، وكذا المرادُ بالغَلبة الواقعة في بعض الرويات[٢]، وذلك نظيرُ ما يقال: غَلَبَ على فلان الكرمُ. ومَن جعل الرحمةَ والغضبَ من صفات الأفعال لم يُشكِلْ عليه أمرُ السَّبق، ولم يَحْتَجْ إلى جَعْله ذاتيًا كما لا يخفى.

والآية على ما قال أبو حيان لترجية أولئك المنافقين بعضَ الترجية إذا آمنوا حقيقةً. وقيل: لحسم أطماعهم الفارغةِ في استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم.

وفسَّر الزمخشري «من يشاء» الأول بالتائب، والثاني بالمُصِرِّ، ثم قال: يُكَفِّر سبحانه السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة[٣]. وهو اعتزالٌ منه مُخالِفٌ لظاهرِ الآية. وقال الطيبي: يمكن أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ، مَوْقِعُه موقع التذييل لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية، على أنْ يُقدَّر له ما يُقابله من قوله: ومَنْ آمنَ بالله ورسوله فإنا أَعْتدنا للمؤمنين الجِنان، مثلاً، فلا يُقيِّد شيء مما قيَّده ليؤذِنَ بالتصرفِ التامِّ والمشيئة النافذة والغفران الكامل والرحمة الشاملة، فتأمل ولا تَغْفُلَ.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون من الأعراب، فاللَّام للعهد، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ ظرفٌ لما قبلَه لا شرطٌ لما بعدَه. والمراد بالمغانم مغانمُ خيبرَ كما عليه عامة المُفسِّرين، ولم نقف على خلافٍ في ذلك، وأُيِّد بأن السين تدلُّ على القرب، وخيبرُ أقربُ المغانم التي انطلقوا إليها من الحديبية كما علمت، فإرادتها كالمُتعيِّنة، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنَّ الله تعالى وعدَ أهلَ الحديبية أن يُعوِّضهم من مغانم مكة خيبرَ إذا قفلوا مُوادِعين لا يُصيبون شيئاً، وخَصَّ سبحانه ذلك بهم، أي: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانمِ خيبر لتأخذوها حسبما وَعَدَكم الله تعالى إيَّاها وخصَّكم بها طمعاً في عَرَضِ الدنيا

(١) هياكل النور لشهاب الدين يحيى بن حبش، شَرَحه الدواني وغيره. كشف الظنون ٢/ ٢٠٤٧. والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٦٠.
(٢) كما في مسند أحمد (٨٩٥٨)، وصحيح البخاري (٧٥٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٤.

لما أنهم يَرَوْنَ ضعفَ العدو، ويتحقَّقون النَّصرة: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبرَ ونشهد معكم قتالَ أهلها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأنْ يُشاركوا في الغنائم التي خصَّها سبحانه بأهل الحديبية. وحاصِلُه: يريدون الشركة التي لا تحصل لهم دون نُصرةِ الدين وإعلاء كلمة الله تعالى. والجملةُ استئنافٌ لبيان مُرادِهم بذلك القول. وقيل: يجوز أن تكونَ حالاً من المُخلَّفين، وهو خلافُ الظاهر، ولا يُنافي خبرَ التخصيص إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعضَ مُهاجري الحبشة القادمين مع جعفر وبعض الدَّوسيين والأشعريين من ذلك، وهم أصحابُ السفينة، كما في البخاري[(١)]، فإنه كان استنزالاً للمسلمين عن بعضِ حُقوقهم لهم، أو أن بعضَها فُتح صُلحاً، وما أعطاه عليه الصلاة والسلام فهو بعضٌ مما صالح عليه، وكلٌّ هذا مذكورٌ في السِّير، لكن الذي صحَّحه المُحدِّثون أنه لا صُلْحَ فيها.

وقال الكرماني: إنما أعطاهم ﷺ برضا أصحابِ الوقعة، أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقُّه عليه الصلاة والسلام، ومَيْل البخاري إلى الثاني[(٢)].

وحَمْلُ كلام اللهِ تعالى على وَعْدِه بتلك الغنائم لهم خاصَّةً هو الذي عليه مجاهد وقتادة وعامَّة المفسرين، وقال ابن زيد: كلامُ الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] ووافقه الجُبَّائي على ذلك، وشَنَّع عليهما غيرُ واحد بأنَّ ذلك نازلٌ في المُخَلَّفين في غزوة تبوك من المنافقين، وكانت تلك الغزوةُ يومَ الخميس في رجب سنةَ تسع بلا خلاف كما قال القسطلاني، والحديبية في سنة ستٍّ كما قاله ابن الجوزي[(٣)] وغيره، وهذه إنما نزلت بُعَيْدَ الانصراف من الحُديبية كما علمت، وأيضاً قال في «البحر»[(٤)]: قد غَزتْ مُزينة وجُهينة من هؤلاء

(١) صحيح البخاري (٣١٣٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٢) ترجم البخاري: باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، ثم ذكر الحديث الذي أشار إليه المصنف قريباً، وهو أن النبي ﷺ أعطى لمن كان في الحبشة من مغانم فتح خيبر.
(٣) المنتظم ٣/ ٢٦٧.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٤.

المُخلَّفين بعد هذه المُدَّة معه عليه الصلاة والسلام وفضَّلهم ﷺ بعد ذلك على تميم وغَطَفان وغيرهم من العرب. وفي «الكشف»: لعلَّ القائلَ بذلك أراد أن هؤلاء المُخلَّفين لما كانوا مُنافقين مثلَ المُخلَّفين عن تبوك كان حكمُ الله تعالى فيهم واحداً، ألا ترى أن المعنى المُوجب مُشتركٌ، وهو رضاهم بالقُعود أولَ مرة، فكلامُ الله تعالى أُريد به حكمه السابق، وهو أن المنافقَ لا يستصحب في الغزو، ولم يُرِدْ أن هذا الحكم مُنقاسٌ على ذلك الأصل، أو الآية نازلةٌ فيهم أيضاً، فهذا ما يمكن في تصحيحه. انتهى.

ويقال عمَّا في «البحر»: إن الذين غَزَوا بعدُ لم يغزوا حتى أَخْلصوا، ولم يبقوا منافقين، والله تعالى أعلم.

وقرأ حمزة والكسائي: «كَلِمَ الله»[1] وهو اسم جنس جمعي، واحدُه: كَلِمةٌ.

﴿قُل﴾ إقناطاً لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتَّبعونا، فإنه نفيٌ في معنى النهي للمبالغة، والمرادُ نَهْيهم عن الاتباع فيما أرادوا الاتباعَ فيه في قولهم: «ذرونا نتبعكم» وهو الانطلاقُ إلى خيبرَ، كما نُقِلَ عن مُحيي السنة عليه الرحمة[2].

وقيل: المراد: لا تتَّبعونا ما دُمْتُم مرضى القلوب. وعن مجاهد: كان الموعد - أي: الموعد الذي تغييره تبديلُ كلام الله تعالى، وهو موعدُه سبحانه لأهل الحديبية - أنهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلا متطوِّعين لا نصيبَ لهم في المَغْنم، فكأنه قيل: لن تتَّبعونا إلا متطوِّعين. وقيل: المراد التأبيد. وظاهر السياق الأول.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ أن تَهيَّأتم للخروج معنا، وذلك عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سَماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُشارِكَكم في الغنائم، وهو إضرابٌ عن كونه بحكم الله تعالى، أي: بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً.

وقرأ أبو حيوة: «تَحْسِدوننا» بكسر السين[3].

---

(١) وقرأ بها خلف أيضاً. التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٩٢.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٩٤.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ أي: إلا فهماً قليلاً، وهو فَهْمهم لأمورِ الدنيا، وهو ردٌّ لقولهم الباطل في المؤمنين، ووصفٌ لهم بما هو أعظمُ من الحسد وأطمُّ، وهو الجهل المُفرِط وسوء الفهم في أمور الدين. وفيه إشارةٌ إلى ردِّهم حكمَ الله تعالى وإثباتهم الحسد لأولئك السادة من الجهل وقِلَّة التفكر.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان مبالغةً في الذمّ وإشعاراً بشناعة التخلُّف: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي نجدة وشدَّة قوية في الحرب، وهم ـ على ما أخرج ابن المنذر والطبراني عن الزهري ـ بنو حنيفة مسيلمةُ وقومُه أهلُ اليمامة[١]، وعليه جماعة، وفي رواية عنه زيادة: أهل الرِّدة، ورُوي ذلك عن الكلبي.

وعن رافع بن خَديج: إنَّا كُنَّا نقرأ هذه الآيةَ فيما مَضى ولا نعلم مَنْ هم حتى دعا أبو بكر ﷺ إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم أُريدوا بها. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد ـ في رواية ـ وعطاء الخراساني وابن أبي ليلى: هم الفُرس. وأخرجه ابن جرير والبيهقي في «الدلائل» وغيرهما عن ابن عباس[٢].

وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال في الآية: دعا عمر بن الخطاب ﷺ لقتال فارس أعرابَ المدينة جُهينة ومُزينة الذين كان النبيُّ ﷺ دعاهم للخروج إلى مكة[٣].

وقال عكرمة وابن جُبير وقتادة: هم هوازن ومَنْ حاربَ الرسولَ ﷺ في حنين. وفي رواية ابن جرير وعبد بن حُميد عن قتادة التصريحُ بثقيف مع هوازن[٤]، وفي رواية الفِريابي وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هم هوازن وبنو حنيفة[٥].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٦٨.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٧٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٦٦، ودلائل النبوة ٤/ ١٦٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٣.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٧٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٦٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٣.

وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم ﷺ عامَ تبوك والذين بعثَ إليهم في غزوة مُؤتة. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال: هم فارس والروم[١].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: البارِز. يعني الأكراد كما في «الدر المنثور»[٢]. وأخرج ابن المنذر والطبراني في «الكبير» عن مجاهد قال: أعرابُ فارس وأكراد العَجَم[٣].

وظاهرُ العطف أنَّ أكرادَ العجم ليسوا من أعراب فارس، وظاهرُ إضافة أكراد إلى العَجَم يُشعر بأنَّ من الأكراد ما يقال لهم: أكراد العرب. ولا نعرف هذا التقسيم، وإنما نعرفُ جيلاً من الناس يقال لهم: أكراد، من غيرِ إضافةٍ إلى عربٍ أو عَجَم. وللعلماءِ اختلافٌ في كونهم في الأصل عرباً أو غيرهم، فقيل: ليسوا من العرب، وقيل: منهم.

قال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكان في ترجمة المُهَلَّب بن أبي صُفرة ما نصُّه: حكى أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب» في كتابه «القَصْد والأَمَم في أنساب العرب والعَجَم» أنَّ الأكرادَ من نسل عمرو مُزَيْقِياء بن عامر بن ماء السماء، وأنهم وقعوا إلى أرض العَجَم فتناسلوا بها وكَثُر ولدُهم فَسُمُّوا: الأكراد، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يعضدُ ما قاله ابن عبد البرّ:

لعمركَ ما الأكراد أبناءَ فارس ... ولكنه كُرد بن عمرو بن عامر

انتهى[٤].

وفي «القاموس»: الكُرد بالضَّمِّ جيلٌ من الناس معروفٌ، والجمع: أكراد، وجدُّهم: كُرد بن عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء[٥]. انتهى.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٢٦٦، والدر المنثور ٦/ ٧٣.
(٢) ٦/ ٧٣، وينظر شرح كلمة البارز في فتح الباري ٦/ ٦٠٨.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٣، وأخرجه في أخبار أصبهان ١/ ٧ بلفظ: أعراب فارس وهم الأكراد.
(٤) وَفَيات الأعيان ٥/ ٣٥٧، وكلام ابن عبد البر في القصد والأمم ص٤٩.
(٥) القاموس المحيط (كرد).

وعامرٌ هذا من العرب بلا شُبهة، فإنه ابنُ حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزْد ـ ويقال له: الأَسْد ـ بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يَشجب بن يعرب بن قحطان، ويُسمَّى: عامراً، وهو عند الأكثر: ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: مِنْ ولد هود. وقيل: هو هودٌ نفسه، وقيل: ابن أخيه، وذهب الزُّبير بن بكَّار إلى أنَّ قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام، وأنه قَحْطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل.

والذي رجَّحه ابن حجر[١] أن قبائلَ اليمن كلَّها ومنها قبيلة عمرو مُزَيْقِياء من ولد إسماعيل عليه السلام. ويدلُّ له تبويبُ البخاري: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام[٢]. ذكر ذلك السيد نور الدين عليٌّ السمهودي في «تاريخ المدينة»[٣]، وفيه أنَّ الأنصار الأوس والخزرج من أولاد ثعلبة العنقاء بن عمرو مُزَيْقِياء المذكور، وكان له ثلاثةَ عشرَ ولداً ذكوراً منهم ثعلبة المذكور وحارثة والد خُزاعة، وجفنة والد غسان، ووداعة وأبو حارثة وعوف وكعب ومالك وعمران وكُرد كما في «القاموس». انتهى.

وفائدة الخلاف تظهر في أمورٍ منها الكَفَاءة في النِّكاح، والعامَّة لا يعدُّونهم من العرب، فلا تَغْفُل، والذي يَغْلِبُ على ظنِّي أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم: أكراد، لا يبعدُ أن يكونَ فيهم مَنْ هو من أولاد عمرو مُزَيقياء، وكذا لا يبعدُ أن يكونَ فيهم من هو من العرب، وليس من أولاد عمرو المذكور إلا أنَّ الكثير منهم ليسوا من العرب أصلاً، وقد انتظم في سِلْك هذا الجيل أُناسٌ يقال: إنهم من ذرية خالد بن الوليد، وآخرون يقال: إنهم من ذرية مُعاذ بن جبل؛ وآخرون يقال: إنهم من ذرية العباس بن عبد المطلب، وآخرون يقال: إنهم من بني أمية، ولا يصحُّ عندي من ذلك شيء، بَيْدَ أنه سكن مع الأكراد طائفةٌ من السادة أبناءِ الحسين رضي الله عنه يقال لهم: البَرْزَنْجية، لا شكَّ في صحَّة نَسَبهم، وكذا في جلالة حَسَبهم.

---

(١) فتح الباري ٦/ ٥٣٧-٥٣٨.

(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٣٥٠٧).

(٣) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٥٣٣-٥٣٦.

وبالجملة الأكرادُ مشهور بالبأس[١]، وقد كان منهم كثيرٌ من أهل الفضل، بل ثبتَ لبعضهم الصُّحبة، قال الحافظ ابنُ حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة»[٢] في حرف الجيم: جابان والد ميمون، روى ابن مَنْده من طريق أبي سعيد مولى بن هاشم عن أبي خَلدة: سمعتُ ميمونَ بن جابان الكُردي[٣] عن أبيه أنه سمع النبيَّ ﷺ غيرَ مرَّة حتى بلغ عشراً، وذكر الحديث، وقد أخرج نحوه الطبراني في «المعجم الصغير» عن ميمون الكُردي عن أبيه أيضاً، وهو أتمُّ منه، ولفظه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَيُّما رجلٍ تزوَّج امرأةً على ما قلَّ من المَهْر أو كَثُرَ ليس في نَفْسه أن يُؤدِّيَ إليها حقَّها، خَدَعها، فمات ولم يُؤَدِّ إليها حقَّها، لقي الله يومَ القيامة وهو زانٍ، وأيّما رجلٍ استدانَ ديناً لا يُريد أن يُؤدِّيَ إلى صاحبه حقَّه خَدَعه حتى أخذَ ماله، فمات ولم يُؤَدِّ إليه دَيْنه، لَقِيَ اللهَ وهو سارقٌ»[٤]. ويُكْنَى ميمون هذا بأبي بَصير، بفتح الموحدة، وقيل: بالنون، وهو كما في «التقريب»[٥]: مقبولٌ.

هذا، وأشهرُ الأقوال في تعيين هؤلاء القوم أنهم بنو حنيفة.

وقال أبو حيان[٦]: الذي أقوله: إنَّ هذه الأقوالَ تمثيلاتٌ من قائلِها لا تعيين القوم، وهذا وإنْ حصل به الجمع بين تلك الأقوال خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ على معنى: يكون أحدُ الأمرين إما المُقاتلة أو الإسلام لا ثالثَ لهما، فـ«أو» للتنويع والحصر لا للشكّ، وهو كثير، ويدلُّ لذلك قراءةُ أُبيّ وزيد بن عليٍّ: «أو يُسلموا» بحذف النون[٧]، لأنَّ ذلك للناصب، وهو يقتضي أنَّ «أو» بمعنى «إلا»، أي: إلا أنْ يُسلموا، فيفيد الحصرَ، أو بمعنى

---

(١) في (م): باليأس.
(٢) ٢/ ٤٠.
(٣) في مطبوع الإصابة: الصُّرَدي.
(٤) المعجم الصغير (١١١).
(٥) تقريب التهذيب ص٤٨٨.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٩٤.
(٧) القراءات الشاذة ص١٤٢.

«إلى»، أي: إلى أَنْ يُسلموا، والغايةُ تقتضي أنه لا ينقطع القتالُ بغير الإسلام فيفيده أيضاً كما قيل.

والجملةُ مستأنفةٌ للتعليل، كما في قولك: سيدعوك الأمير يُكرمك أو يَكْبِت عدوَّك، قال في «الكشف»: ولا يجوز أن تكونَ صفةً لـ «قوم» لأنهم دُعُوا إلى قتال القوم لا أنهم دُعُوا إلى قومٍ موصوف بالمقاتلة أو الإسلام. وجوَّز بعضهم كونها حاليةً وحاله كحال الوصفية. وأصلُ الكلام: سَتُدْعَوْن إلى قوم أُولي بأس لِتُقاتلوهم أو يُسلموا، فعدل إلى الاستئناف لأنه أعظم الوصلين، ثم فيه أنهم فعلوا ذلك وحصَّلوا الغرضَ، فهو يُخبر عنه واقعاً.

والاعتراض بأنه يلزم أن لا ينفكَّ الوجودُ عن أحدِهما لصدق إخباره تعالى، ونحن نرى الانفكاكَ بأنْ يُتركوا سُدى أو بالهدنة، فينبغي أن يُؤَوَّل بأنه في معنى الأمر على ما في «أمالي» ابن الحاجب = غيرُ سديد؛ لأنَّ القومَ مخصوصون لا عُموم فيهم، وكان الواقعُ أنهم قُوتلوا إلى أن أسلموا، سواء فُسِّر القوم ببني حنيفة، أو بثقيف وهوازن، أو فارس والروم، على أنَّ الإسلامَ الانقيادُ، فما انفكَّ الوجودُ عن أحدِهما، بل وقعا، وأما امتناعُ الانفكاك فليس من مُقتضى الوضع ولا الاستعمال، بل ذلك في الكلام الاستدلالي قد يتّفق.

وأطال الطيبي الكلامَ في هذا المقام ثم قال: الذي يقتضيه المقام ما ذهب إليه صاحبُ «التحبير» من أنَّ «يسلمون» عطفٌ على «تُقاتلونهم» إما على الظاهر، أو بتقدير: هم يُسلمون، ليكون مِن عَطْفِ الاسمية على الفعلية، وحينئذ تكون المناسبةُ أكثرَ إذ تخرج الجملة إلى باب الكناية، والمعنى: تُقاتلونهم أو لا تقاتلونهم لأنهم يُسلمون، وقد وضع فيه: أو هم يسلمون، موضعَ: أَوْ لا تُقاتلونهم، لأنهم إذا أسلموا سقطَ عنهم قتالُهم ضرورةً، والاستدعاء عليه ليس إلا للاختبار، و«أو» للترديد على سبيل الاستعارة، وفيه ما فيه.

وشاع الاستدلالُ بالآية على صحة إمامةِ أبي بكر ﷺ، ووجَّه ذلك الإمام[1]، فقال: الداعي في قوله تعالى: «ستُدعون» لا يخلو من أن يكون رسولَ الله ﷺ، أو

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٩٢.

الأئمَّة الأربعة، أو مَنْ بعدَهم، لا يجوز الأول لقوله سبحانه: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلخ، ولا أن يكون عليًا رضي الله عنه وكرم وجهه لأنه إنما قاتل البُغاة والخوارج، وتلك المقاتلة للإسلام لقوله عز وجل: «أو يسلمون» ولا مَنْ مَلَكَ بعدَهم؛ لأنهم عندنا على الخطأ وعند الشيعة على الكفر، ولما بَطَلت الأقسام تعيَّن أن يكون المرادُ بالداعي أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ثم إنه تعالى أوجبَ طاعته وأوعد على مُخالفته، وذلك يقتضي إمامته، وأيُّ الثلاثة كان ثَبَتَ المطلوب، أما إذا كان أبا بكر فظاهرٌ، وأما إذا كان عمرَ أو عثمانَ؛ فلأنَّ إمامته فرعُ إمامته رضي الله عنه.

وتُعُقِّب بأنَّ الداعيَ كان رسولَ الله ﷺ، ويُشعر بذلك السين.

قوله: لا يجوز؛ لقوله سبحانه: «لن تتبعونا» إلخ. فيه أنَّ «لن» لا تُفيد التأبيد على الصحيح، وظاهرُ السِّياق يدلُّ على أنَّ المرادَ به: لن تتَّبعونا في الانطلاق إلى خيبرَ كما سمعت عن محيي السنة. أو هو مُقيَّد بما رُوي عن مجاهد، أو بما حُكي عن بعض.

وقال أبو حيان[1]: القولُ بأنهم لم يُدْعَوا إلى حرب في أيام الرسول ﷺ ليس بصحيح، فقد حضر كثيرٌ منهم مع جعفر في مؤتة، وحضروا حربَ هوازن معه عليه الصلاة والسلام، وحضروا معه ﷺ أيضاً في سفرة تبوك. انتهى. ولا يخفى أن هذا إذا صحَّ يَنفي حملَ النفي على التأبيد.

ومن الشيعة من اقتصر في رَدِّ الاستدلال على الدعوة في تبوك. وتُعُقِّب بأنه لم يَقَعْ فيها ما أخبر الله تعالى به في قوله سبحانه: «تُقاتلونهم أو يسلمون»، ومنهم مَنْ زعم أنَّ الداعي عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وزَعَم كُفر البُغاة والخوارج عليه رضي الله عنه، وأنه لو سُلِّم إسلامُهم يُرادُ بالإسلام في الآية الانقيادُ إلى الطاعة ومُوالاة الأمير، وفيه ما لا يخفى.

والإنصافُ أن الآية لا تكاد تصحُّ دليلاً على إمامة الصدِّيق رضي الله عنه إلا إنْ صحَّ خبرٌ مرفوعٌ في كون المرادِ بالقوم بني حنيفة ونحوهم، ودون ذلك خرطُ القَتاد.

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٤.

ونفى بعضُهم صحَّةَ كون المراد بالقوم فارساً والروم، لأنَّ المرادَ في قوله تعالى: «تقاتلونهم أو يسلمون» على ما سمعت، وفارسُ مجوسٌ والرومُ نصارى، فلا يتعيَّن فيهم أحدُ الأمرين من المُقاتلة والإسلام، إذ يُقبل منهم الجزية، وكذا اليهود ومشركو العجم والصابئة عند أبي حنيفة ﷺ، وقال: يتعيَّن كونُهم مُرتدِّين أو مشركي العرب، لأنهم الذين لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ومثلُ مشركي العرب مشركو العجم عند الشافعي ﷺ، فعنده لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس.

وأنت تعلم أنَّ مَنْ فسَّر القومَ بذلك يُفسِّر الإسلام بالانقياد، وهو يكون بقبول الجزية، فلا يتمُّ له أمرُ النفي، فلا تغفل.

﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ الداعي فيما دعاكم إليه ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو - على ما قيل - الغنيمة في الدينا والجنة في الأخرى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ لِتضاعف جُرمكم، وهذا التعذيب قال في «البحر»[1]: يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة. ويَحتمِلُ عندي - وهو الأوفق بما قبله على ما قيل - كونه فيهما، ولا بأس بكون كلٍّ من الإيتاء والتعذيب في الآخرة، بل لعله المُتبادر لكَثْرة استعمالهما في ذلك، ولا يحسنُ كون الأمرين في الدنيا، ولا كون الأول في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا، والثاني في الدنيا فقط.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أي: إثم ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلُّف عن الغزو لِمَا بهم من العُذر والعاهة، وفي نفي الحَرَج عن كلٍّ من الطوائف المعدودة مزيدُ اعتناء بأمرهم، وتوسيعٌ لدائرة الرُّخصة، وليس في نفي ذلك عنهم نهيٌ لهم عن الغزو، بل قالوا: إنَّ أجرهم مُضاعَفٌ في الغزو، وقد غزا ابنُ أمِّ مكتوم وكان أعمى ﷺ، وحضر في بعض حروب القادسية وكان يُمسك الراية. وفي «البحر»[2]: لو حُصِرَ المسلمون، فالفرضُ مُتوجِّه بحسب الوسع في الجهاد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٥.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ذُكِرَ من الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾ لا يُقادَر قَدْرُه، والمعنى بالوعد والوعيد هنا أعمُّ من المعنى بهما فيما سبق كما يُنبئ عن ذلك التعبير بـ «من» هنا وبضمير الخِطاب هناك.

وقيل في الوعيد: «يُعذِّبه» إلخ، دون: يُدخله ناراً، ونحوه مما هو أظهرُ في المُقابلة؛ لقوله تعالى: «يدخله جنات» إلخ = اعتناءً بأمره من حيث إنَّ التعذيبَ يوم القيامة عذاباً أليماً يستلزمُ إدخالَ النار، وإدخالها لا يستلزم ذلك، واعتنى به لأنَّ المقامَ يقتضيه، ولذا جيء به كالمُكَرَّر مع الوعيد السابق. ويكفي في الإشارة إلى سبق الرحمة إخراجُ الوعد هاهنا كالتفصيل لما تقدَّم، والتعبيرُ هناك بإيتاء الأجر الحَسن الظاهر في الاستحقاق مع إسناد الإيتاء إلى الاسم الجليل نفسهِ، فتأمَّل فَلمسلك الذِّهن اتساع.

وقرأ الحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة وابن عامر ونافع: «نُدخله» و«نُعذبه» بالنون فيهما(١).

ولما ذكر سبحانه حالَ مَنْ تخلَّف عن السفر مع رسول الله ﷺ ذَكَر عز وجل حال المؤمنين الخُلَّص الذين سافروا معه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وهم أهلُ الحديبية إلا جدَّ بن قيس فإنه كان منافقاً ولم يُبايعْ.

وأصلُ هذه البيعة ـ وتُسمَّى: بيعةَ الرضوان؛ لقول الله تعالى فيها: «لقد رضي» إلخ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل الحديبيةَ بعثَ خِرَاشاً ـ بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألفٍ بعدها شينٌ معجمةٌ ـ ابنَ أُميةَ الخُزاعيَّ رسولاً إلى أهل مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب، يُعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريدُ قتالاً، فلما أتاهم وكلَّمهم عَقَروا جَمَلَه وأرادوا قَتْله، فمنعه الأحابيش، فَخَلَّوا سبيلَه حتى

---

(١) قراءة ابن عامر ونافع وأبي جعفر في التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/٢٤٨، وقراءة الحسن وقتادة والأعرج وشيبة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٥.

أتى الرسولَ ﷺ، فدعا عمر رضي الله عنه لِيبعثَه، فقال: يا رسول الله، إنَّ القومَ قد عَرَفوا عداوتي لهم وغِلَظي عليهم، وإني لا آمنُ وليس بمكة أحدٌ من بني عَدِي يغضب لي إنْ أُوذيتُ، فأَرْسِل عثمان بن عفان، فإنَّ عشيرتَه بها وهم يُحِبُّونه، وإنه يُبلِّغ ما أردتَ، فدعا رسولُ الله ﷺ عثمانَ فأرسله إلى قريش وقال: «أَخبِرْهم أنَّا لم نأتِ بقتال وإنما جئنا عُمَّاراً، وادعُهم إلى الإسلام» وأمره عليه الصلاة والسلام أنْ يأتيَ رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات، فيبشِّرهم بالفتح ويُخبرهم أنَّ الله تعالى قريباً يُظهر دِيْنَه بمكة، فذهب عثمانُ رضي الله عنه إلى قريش وكان قد لَقِيَه أبانُ بن سعيد بن العاص فنزل عن دابَّته وحملَه عليها وأجاره، فأتى قريشاً فأخبرهم، فقالوا له: إن شئتَ فَطُفْ بالبيت، وأما دخولكم علينا فلا سبيلَ إليه، فقال رضي الله عنه: ما كنتُ لأَطوفَ به حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ، فاحْتَبَسُوه، فبلغَ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أنَّ عثمانَ قد قُتِلَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نبرحُ حتى نُناجِزَ القومَ» ونادى مُناديه عليه الصلاة والسلام: ألا إنَّ روحَ القُدُس قد نزل على رسول الله ﷺ فأمره بالبيعة، فاخرجوا على اسمِ الله تعالى فبايعوه، فثار المسلمون إلى رسولِ الله ﷺ وبايعوه(١).

قال جابر ـ كما في «صحيح مسلم» وغيره ـ: بايعناه ﷺ على أنْ لا نَفِرَّ، ولم نُبايعه على الموت(٢).

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أيِّ شيء تُبايعون يومئذ؟ قال: على الموت(٣).

وأخرج مسلم عن مَعْقِل بن يسار أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسولِ الله ﷺ وهو يُبايع الناسَ(٤).

وكان أوَّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يومئذ أبا سنان، وهو وهبُ بن محصن أخو

---

(١) ينظر السيرة النبوية ٢/ ٣١٥-٣١٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٣-١٣٤.
(٢) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧).
(٣) صحيح البخاري (٢٩٦٠)، وهو في مسند أحمد (١٦٥٠٩)، وصحيح مسلم (١٨٦٠).
(٤) صحيح مسلم (١٨٥٨).

عُكاشة بن محصن. وقيل: سنان بن أبي سنان، وروى الأول البيهقي في «الدلائل» عن الشعبي، وأنه قال للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: ابْسُطْ يدكَ أبايعك، فقال النبيُّ ﷺ: «علامَ تبايعني؟» قال: على ما في نَفْسِكَ[١]. وفي حديث جابر الذي أخرجه مسلمٌ أنه قال: بايعناه عليه الصلاة والسلام وعمرُ ﵁ آخذٌ بيده[٢]. ولعلَّ ذلك ليس في مبدأ البيعة، وإلا ففي «صحيح البخاري» عن نافع أنَّ عمرَ ﵁ يومَ الحديبية أرسل ابنَه عبدَ الله إلى فَرسٍ له عند رجل من الأنصار أنْ يأتيَ به ليقاتلَ عليه ورسول الله ﷺ يُبايع عند الشجرة وعمرُ لا يدري بذلك، فبايعه عبدُ الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمرَ وعمرُ ﵁ يستلئمُ للقتال[٣]، فأخبره أنَّ رسولَ الله ﷺ يُبايع تحت الشجرة، فانطَلَقَ فذهبَ معه حتى بايع رسولَ الله ﷺ[٤].

وصحَّ أنه ﷺ ضرب بيده اليُمنى على يدِه الأخرى، وقال: «هذه بيعةُ عثمانَ»[٥].

ولما سَمِعَ المشركون بالبيعة خافوا وبَعثوا عثمانَ ﵁ وجماعةً من المسلمين. وكانت عِدة المؤمنين ألفاً وأربع مئة على الأصحِّ عند أكثر المُحدِّثين، ورواه البخاري عن جابر[٦]، وروَى عن سعيد عن قتادة[٧] قال: قلتُ لسعيد بن المسيَّب بلغني أنَّ جابر بن عبد الله كان يقول: كانوا أربعَ عشرةَ مئة، فقال لي سعيد: حدثني جابر كانوا خمسَ عشرةَ مئة الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ، وتابعه أبو داود[٨]. وروى أيضاً عن عبد الله بن أوفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاثَ مئة[٩]، وعند

---

(١) دلائل النبوة ٤/ ١٣٧، وإسناده منقطع.
(٢) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧) وسلف جزء منه قريباً.
(٣) اسْتَلأَمَ: لَبِسَ لأَمَتَهُ، واللَّأمة: الدرع. المصباح (لوم).
(٤) صحيح البخاري (٤١٨٦).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢) من حديث أنس ﵁.
(٦) برقم (٤١٥٤).
(٧) في الأصل و(م): سعيد بن قتادة، وهو تحريف.
(٨) صحيح البخاري (٤١٥٣)، وقوله: تابعه أبو داود. أي: الطيالسي كما في فتح الباري ٧/ ٤٤٣، والخبر في مسنده (١٧٢٩).
(٩) أخرجه البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).

[ابن] أبي شيبة من حديث سَلَمة بن الأكوع أنهم كانوا ألفاً وسبعَ مئة. وجزم موسى بن عُقبة بأنهم كانوا ألفاً وستَّ مئة[1]، وحكى ابن سعد أنهم ألف وخمسُ مئة وخمسة وعشرون[2].

وجُمع بين الروايات بأنها بناءً على عَدِّ الجميع أو ترك الأصاغر والأتباع والأوساط، أو نحو ذلك[3]؛ وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبعَ مئة[4]، فلم يُوافقه أحدٌ عليه لأنه قاله استنباطاً من قول جابر: تنحر البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة. وهذا لا يدلُّ على أنهم ما كانوا نحروا غير البُدن مع أنَّ بعضَهم كأبي قتادة لم يكن أحرمَ أصلاً.

والشجرة كانت سَمُرةً، والمشهور أنَّ الناسَ كانوا يأتونها فيصلُّون عندها، فبلغ ذلك عمر ﷺ فأمر بقطعها خشيةَ الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادةِ غير الله تعالى فيهم.

وفي «الصحيحين» من حديث طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقتُ حاجًّا، فمررت بقوم يُصلُّون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرةُ حيث بايعَ رسولُ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، فأتيت سعيدَ بن المُسيَّب فأخبرته فقال: حدَّثني أبي أنه كان ممن بايعَ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة، قال: فلما كان من العام المُقبل نسيناها فلم نقدر عليها، ثم قال سعيد: إنَّ أصحابَ محمد ﷺ لم يعلموها وعَلِمتموها أنتم! فأنتم أعلم[5]؟

والرِّضا يُقابل السَّخط، وقد يُستعمل بـ «عن» والباء، ويُعدَّى بنفسه، وهو مع «عن» إنما يدخل على العين لا المعنى، ولكن باعتبار صدور معنًى منه يُوجب

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٤٠، وذَكَر حديث ابن أبي شيبة الذي قبله، ولفظة: ابن. لم ترد في الأصل و(م)، واستدركت منه، والخبر عند ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٣٨.

(٢) الطبقات ٢/ ٩٥.

(٣) ينظر فتح الباري ٧/ ٤٤٠.

(٤) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٥) صحيح البخاري (٤١٦٣)، وصحيح مسلم (١٨٥٩). ووقع في الأصل و(م): فأيكم أعلم؟ والمثبت من الصحيحين.

الرضا، وما في الآية من هذا القِسْم، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المُبايعة، وإذا ذكر مع العين معنى بالباء، فقيل: رضيتُ عن زيد بإحسانه، كانت الباء للسببية، وجاز أن تكونَ صلةً، وتتعيَّن للسببية مع مُقابلةِ نحوِ: سَخِطتُ عليه بإساءته، وهو مع الباء نحو: رَضِيتُ به، يجب دخولُه على المعنى، إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكونَ أبلغَ فتقول: رضيتُ بقضاء الله تعالى، ورضيتُ بالله تعالى ربًّا وقاضياً، وإذا عُدِّي بنفسه جاز دخولُه على الذات نحو: رضيتُ زيداً، وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أنَّ كلَّه مرضيٌّ بتلك الخَصْلة، وفيه مبالغةٌ. وجاز دخولُه على المعنى، كـ : رضيتُ إمارةَ فلان. والأولُ أكثرُ استعمالاً، وإذا استعمل مع اللام تعدَّى بنفسه كقولك: رضيتُ لك التجارةَ. وفيه تجوُّز، إما لجعل الرِّضا مجازاً عن الاستحماد، وإما لأنك جعلتَ كونه مرضيًّا له بمنزلة كونه مرضيًّا لك مبالغةً في أنه في نفسه مرضيٌّ محمود، وأنك تختار له ما تختار لنفسك، وهذا أبلغُ.

ثم هو في حقِّ الحقِّ تعالى شأنُه مُحالٌ عند الخَلَف، قالوا: لأنه سبحانه لا تحدثُ له صفةٌ عقيبَ أمرٍ البتة، فهو عندهم مجازٌ إما من أسماء الصفات إذا فُسِّر بإرادة أن يُثيبهم إثابةَ مَنْ رضي عمَّن تحت يدِه، وإما من أسماءِ الأفعال إذا فُسِّر بالإثابة، وكذا إذا أُريد الاستحماد.

وفي «البحر»: إن العاملَ بـ «إذ» في الآية هو «رضي»، وهو هنا بمعنى إظهار النعم عليهم، فهو صفةُ فعل لا صفة ذات لِيتقيَّد بالزمان(١). وأنت تعلم أنَّ السَّلف لا يُؤَوِّلون مثل ذلك ويُثبتونه له تعالى على الوجه اللائق به سبحانه، ويَصْرِفون الحدوثَ الذي يستدعيه التقييدُ بالزمان إلى التعلّق. ثم إنَّ تقييدَ الرِّضا بزمان المُبايعة يُشعر بِعِلِّيتها له، فلا حاجةَ إلى جعل «إذْ» للتعليل.

والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار صورة المُبايعة. وقوله سبحانه: «تحت الشجرة» إما مُتعلِّقٌ بـ «يبايعونك» أو بمحذوف هو حالٌ من مفعوله، وفي التقييد بذلك إشارةٌ إلى مَزيد وقعِ تلك المُبايعة وأنها لم تكن عن خوفٍ منه عليه الصلاة والسلام، ولذا

---

(١) البحر ٨/ ٩٦، وفيه: لتقييده بالزمان.

استوجَبتْ رضا الله تعالى الذي لا يُعادله شيء ويستتبع ما لا يكادُ يخطرُ على بال، ويكفي فيما ترتَّب على ذلك ما أخرج أحمدُ عن جابر، ومسلم عن أُمِّ بِشر[1] عنه[2]، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يدخل النارَ أحدٌ ممن بايعَ تحت الشجرة»، وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك عند حفصةَ فقالت: بلى يا رسولَ الله، فانتهرها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. فقال عليه الصلاة والسلام: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢][3].

وصحَّ برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه ﷺ قال لهم: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض»[4] فينبغي لكلٍّ من يدَّعي الإسلام حُبّهم وتعظيمهم والرضا عنهم، وإنْ كان غير ذلك لا يضرُّهم بَعْدَ رضا الله تعالى عنهم، وعثمان منهم، بل كانت يدُ رسول الله ﷺ له ﷺ - كما قال أنس[5] - خيراً من أيديهم لأنفسهم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصِّدق والإخلاص في مُبايعتهم، ورُوي نحو ذلك عن قتادة وابن جُريج وعن الفراء[6]. وقال الطبري ومنذر بن سعيد: من الإيمان وصحته وحُبِّ الدين والحِرص عليه[7]. وقيل: من الهمّ والأَنفة من لين الجانب للمشركين وصُلحهم، واستحسنه أبو حيَّان[8]، والأولُ عندي أحسنُ.

وهو عطف على «يبايعونك» لما عرفتَ من أنه بمعنى: بايعوك. وجُوِّز عطفُه على «رَضِيَ» بتأويله بـ: ظهرَ عِلْمُه، فيصير مُسبَّباً عن الرِّضا مُترتباً عليه.

---

(١) في صحيح مسلم: أم مُبَشِّر. قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ٤/ ٧٠١: أم مُبَشِّر الأنصارية امرأة زيد بن حارثة، ثم قال: زعم الدمياطي أن اسمها: جهينة بنت صيفي وأنها زوجة البراء بن معرور وأمُّ ولديه: بشر ومُبَشِّر، وخلف عليها بعده زيد بن حارثة.
(٢) كذا وقع في الأصل و(م): عنه، وهو وهم، فالحديث في صحيح مسلم من رواية جابر عن أم مبشر عن النبيِّ ﷺ.
(٣) مسند أحمد (١٤٧٧٨)، وليس فيه ذكر حفصة ﵂، وصحيح مسلم (٢٤٩٦)، واللفظ له.
(٤) صحيح البخاري (٤١٥٤)، وصحيح مسلم (١٨٥٦)(٧١).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢).
(٦) ذكره عن الفراء القرطبي في تفسيره ١٩/ ٣١٩.
(٧) البحر ٨/ ٩٦، وهو في تفسير الطبري ١/ ٢٧٧ بنحوه.
(٨) البحر ٨/ ٩٦.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: الطمأنينة والأمن وسكون النفس والربط على قلوبهم بالتشجيع، وقيل: بالصُّلح، وليس بذاك. والظاهرُ أنه عطفٌ على «عَلِمَ».

وفي «الإرشاد»: إنه عطف على «رضي»[1]، وظاهر كلام أبي حيان[2] الأول، وحيث استحسن تفسيرَ ما في القلوب بما سمعتَ آنفاً قال: إن السكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى.

وقال مقاتل: فعلم الله ما في قلوبهم من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه ﷺ على الموت، فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا. وتُفسَّر «السكينة» بتذليل قلوبهم ورفعِ كراهة البيعة هنا، ولعمري إنَّ الرجل لم يعرف للصحابة ﷺ حقَّهم، وحَمَلَ كلامَ الله تعالى على خِلاف ظاهره.

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۝١٨﴾ قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وابن أبي ليلى وغيرهم: هو فتحُ خيبر، وكان غبَّ انصرافهم من الحديبية. وقال الحسن: فتح هَجَر، والمرادُ: هجر البحرين، وكان فتح في زمانه ﷺ بدليل كتابه إلى عمرو بن حزم في الصدقات والدِّيات.

وفي «صحيح البخاري» أنه ﷺ صالحَ أهلَ البحرين[3]، وأخذَ الجِزية من مجوس هَجَر[4]. والفتحُ لا يستدعي سابقةَ الغزو كما علمت مما سبق في تفسيره، فسقطَ قولُ الطيبي معترضاً على الحسن: إنه لم يذكر أحدٌ من الأئمَّة أنه ﷺ غزا هجراً. نعم إطلاقُ الفتح على مثل ذلك قليل غيرُ شائع، بل قيل: هو معنًى مجازيٌّ له.

وقيل: هو فتح مكة، والقربُ أمرٌ نِسبيٌّ.

وقرأ الحسن ونوح القارئ: «وآتاهم»[5]، أي: أعطاهم.

---

(١) إرشاد العقل السليم (وهو تفسير أبي السعود) ٨/ ١١٠.
(٢) البحر ٨/ ٩٦.
(٣) صحيح البخاري (٣١٥٧) من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.
(٤) صحيح البخاري (٣١٥٨) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٩٦.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانمُ خيبر كما قال غير واحد، وقسمها عليه الصلاة والسلام كما في حديث أحمد وأبي داود والحاكم وصحَّحه عن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري، فأعطى للفارس سهمين وكان منهم ثلاث مئة فارس وللراجل سهماً[١]. وقيل: مغانم هَجَر.

وقرأ الأعمش وطلحة ورُويس عن يعقوب، ودُلبه[٢] عن يونس عن ورش، وأبو دحية وسَقْلاب[٣] عن نافع، والأنطاكي عن أبي جعفر: «تأخذونها» بالتاء الفوقية[٤]. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في الامتنان.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً ﴿حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ مُراعياً لمقتضى الحِكمة في أحكامه تعالى وقضاياه جلَّ شأنه.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ـ على ما قال ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين ـ ما وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المُقدَّرة لكلٍّ واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف اللهُ تعالى في قلوبهم الرُّعب فنكصوا.

وقال مجاهد: كفَّ أيدي أهل مكة بالصُّلح. وقال الطبري[٥]: كفَّ اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية وإلى خيبر. وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة الموعودة مغانمُ خيبر، والمُعَجَّلة البيعة والتخلُّص من أمر قريش بالصُّلح. والجمهور على ما قدَّمنا[٦].

---

(١) مسند أحمد (١٥٤٧٠)، وسنن أبي داود (٢٧٣٦)، والمستدرك ٢/ ١٣١. وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند، وينظر كذلك زاد المعاد ٣/ ٣٣٠، ونصب الراية ٣/ ٤١٦-٤١٨.

(٢) هو: عبد الله بن أحمد بن الهيثم، أبو العباس البلخي. معرفة القراء ٢/ ٥٢٤.

(٣) سقلاب بن شُنَينة، أبو سعيد المصري. توفي سنة إحدى وتسعين ومئة. معرفة القراء ١/ ٣٣٣.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٤.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٢٨٢.

(٦) في (م): قدمناه.

والمناسبة لما مرَّ من ذكر النبيِّ ﷺ بطريق الخطاب وغيره بطريق الغيبة كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ تقتضي على ما نُقل عن بعض الأفاضل أنَّ هذا جارٍ على نهج التغليب وإن احتَمل تَلوين الخطابِ فيه. وذكر الجلبي في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ إلخ أنه إنْ كان نزولُها بعدَ فتح خيبر ـ كما هو الظاهرُ ـ لا تكون السورة بتمامها نازلةً في مَرْجعه ﷺ من الحديبية، وإنْ كان قبلَه على أنها من الإخبار عن الغيب، فالإشارة بـ «هذه» لتنزيل المغانم منزلةَ الحاضرة المُشاهَدة، والتعبير بالمُضِي للتحقُّق. انتهى. واختِير الشقّ الأول.

وقولهم: نزلت في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحُديبية، باعتبار الأكثر، أو على ظاهره، لكن يجعل المرجع اسم زمان ممتدّ.

وتُعُقِّب بأنَّ ظاهرَ الأخبار يقتضي عدمَ الامتداد وأنها نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة، فلعلَّ الأولى اختيار الشقِّ الثاني، والإشارة بـ «هذه» إلى المغانم التي أثابهم إيَّاها المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مغانمُ خيبر، وإذا جُعلت الإشارة إلى البيعة ـ كما سمعتَ عن زيد وابنه، ورُوي ذلك عن ابن عباس ـ لم يُحتَجْ إلى تأويل نزولها في مَرْجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الضمير المُستتر، قيل: للكفِّ المفهوم من «كفّ»، والتأنيث باعتبار الخبر، وقيل: للكَفَّة، فأمرُ التأنيث ظاهرٌ. وجُوِّز أن يكون لمغانم خيبر المُشار إليها بهذه.

والآية: الأمارة، أي: ولتكونَ أمارةً للمؤمنين يعرِفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، أو يعرفون بها صدقَ الرسول ﷺ في وَعْده إياهم فتحَ خيبر، وما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام. واللام مُتعلِّقة إما بمحذوف مؤخَّر، أي: ولتكون آيةً لهم فَعَلَ ما فَعَلَ، أو بما تعلَّق به علَّة أُخرى محذوفة من أحد الفعلين السابقين، أي: فعجَّل لكم هذه، أو كفَّ أيدي الناس عنكم لِتنتفعوا بذلك، ولتكون آية، فالواو ـ كما في «الإرشاد»[1] ـ على الأول اعتراضية، وعلى الثاني

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١١٠.

عاطفة، وعند الكوفيين الواو زائدة، واللام متعلِّقة بـ «كفَّ» أو بـ «جلَّ».

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ هو الثقةُ بفضل الله تعالى والتوكُّل عليه في كلِّ ما تأتون وتذرون.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطفٌ على «هذه» في «فعجَّل لكم هذه»، فكأنه قيل: فعجَّل لكم هذه المغانمَ، وعجَّل لكم مغانمَ أُخرى، وهي مغانمُ هوازن في غزوة حُنين. والتعجيلُ بالنسبة إلى ما بعدُ، فيجوز تعدُّد المُعَجَّل كالابتداء بشيئين، وقوله تعالى: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ في موضع الصِّفة، ووصفُها بعدم القُدرةِ عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ في موضع صفةٍ أُخرى لـ «أُخرى» مفيدةٍ لسهولة تَأَتِّيها بالنسبة إلى قُدرته عز وجل بعد بيانِ صعوبة مَنالها بالنظر إلى قُدرتهم، والإحاطةُ مجازٌ عن الاستيلاء التامِّ، أي: قد قدر اللهُ تعالى عليها واستولى، فهي في قبض قُدرته تعالى يُظهر عليها مَنْ أراد، وقد أظهركم جلَّ شأنه عليها وأظفركم بها. وقيل: مجازٌ عن الحفظ، أي: قد حَفِظها لكم، ومنعها من غيركم. والتذييل بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾ أوفقُ بالأول، وعمومُ قُدرته تعالى لكونها مُقتضَى الذات، فلا يمكن أن تتغيرَ ولا أن تتخلَّف وتزول عن الذات بسببٍ مّا كما تقرَّر في موضعه، فتكون نسبتُها إلى جميع المقدورات على سواءٍ من غير اختصاص ببعضٍ منه دون بعض، وإلا كانت متغيرةً[1]، بل مختلفةً[2].

وجُوِّز كون «أُخرى» منصوبةً بفعل يُفسِّره: «قد أحاط الله بها»، مثل: قضى.

وتُعُقِّبَ بأنَّ الإخبارَ بقضاء الله تعالى بعد اندراجها في جملة الغنائم الموعود بها بقوله تعالى: (وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) ليس فيه مزيدُ فائدة، وإنما الفائدةُ في بيان تعجيلها، وأُورد عليه أنَّ المغانمَ الكثيرةَ الموعودة ليست مُعينة لِيدخل فيها الأخرى، ولو سُلِّم فليس المقصودُ بالإفادة كونَها مقضيَّةً، بل ما بعدَه، فتدبَّر.

---

(١) في (م): متغايرة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٦٤، والكلام منه.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب: متخلِّفة، وهو الصواب.

وجُوِّز كونها مرفوعةً بالابتداء، والجملة بعدَها صفة، وجملة: «قد أحاط» إلخ خبرُها، واستَظْهَرَ هذا الوجهَ أبو حيان[١].

وقال بعض: الخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: ثمَّت، أو نحوه.

وجوَّز الزمخشري[٢] كونَها مجرورةً بإضمار «رُبَّ» كما في قوله:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَه[٣]

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ فيه غَرابةً لأنَّ «رُبَّ» لم تأتِ في القرآن العظيم جارَّة مع كَثْرة وُرود ذلك في كلام العرب، فكيف تُضْمَر هنا[٤]؟ وأنت تعلم أنَّ مثلَ هذه الغرابة لا تَضُرُّ.

هذا، وتفسيرُ الأُخرى بمغانم هوازن قد أخرجه عبد بن حُميد عن عكرمة عن ابن عباس، واختاره غير واحد. وقال قتادة والحسن: هي مكة، وقد حاولوها عامَ الحُديبية ولم يُدركوها فأخبروا بأنَّ الله تعالى سَيُظْفِرهم بها ويُظهرهم عليها.

وفي رواية أُخرى عن ابن عباس والحسن ـ ورُويت عن مقاتل ـ أنها بلادُ فارس والروم وما فتحه المسلمون، وهو غيرُ ظاهرٍ على تفسير المغانم الكثيرة الموعودة فيما سبق بما وعدَ اللهُ تعالى به المسلمين من المغانم إلى يوم القيامة، وأيضاً تعقَّبه بعضُهم بأن «لم تقدروا عليها» يُشعر بتقدُّم محاولة لتلك البلاد وفَوات دَرْكها المطلوب مع أنه لم تتقدَّم محاولة.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هي خيبر[٥]. وروى ذلك عن الضحاك و[ابن][٦] إسحاق وابن زيد أيضاً، وفيه خَفاء فلا تَغْفُلْ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٧.
(٣) البيت من معلقة امرئ القيس، وعجزه: عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي. الديوان ص١٨.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٧.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٥، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٨٥.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م). وأثبتناه من تفسير الطبري ٢١/ ٢٨٥.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من أهل مكة ولم يُصالحوكم، كما رُوي عن قتادة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنهم حليفا أهل خيبر: أسد وغَطَفان[١]. وقيل: اليهود، وليس بذاك ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: لانهزموا، فتوليةُ الدُّبر كنايةٌ عن الهزيمة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَحْرُسُهم، وذكر الخَفاجيُّ[٢] أنَّ الحارسَ أحدُ معاني الوَليّ، وتفسيره هنا بذلك لمناسبته للمنهزم. وقال الراغب[٣]: كلُّ مَنْ وَليَ أمرَ آخر فهو وَليُّه، وعليه فالحارسُ وَليٌّ؛ لأنَّه يَلي أمرَ المَحروس، والتنكيرُ للتعميم، أي: لا يجدون فرداً مّا من الأولياء ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ولا فرداً مّا من الناصرين ينصرهم، وقال الإمام[٤]: أُريد بالولي مَنْ ينفع باللُّطف، وبالنصير مَنْ ينفع بالعُنف.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ نصب على المصدرية بفعل محذوف، أي: سنَّ سبحانه غلبةَ أنبيائه عليهم السلام سنةً قديمة فيمن مضَى من الأُمم كما قال سبحانه: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] على ما هو المتبادر من معناه، ولعلَّ المرادَ أنَّ سنتَّه تعالى أن تكونَ العاقبةُ لأنبيائه عليهم السلام لا أنهم كلما قاتلوا الكُفَّارَ غلبوهم وهزموهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ تغييراً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي كُفَّارِ مكة، وفي التعبير بـ «كفَّ» دون: منع، ونحوه، لطفٌ لا يخفى ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني الحُديبية كما أَخرج ذلك عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة[٥]. وقد تقدَّم أن بعضَها من حرمِ مكة، وإن لم يُسلَّم فالقُرب التامُّ كافٍ، ويكون إطلاقُ «بطن مكة» عليها مُبالغةً.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ مُظهِراً لكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فتعديةُ الفعل بـ «على» لِتضمُّنه ما يتعدَّى به وهو الإظهار والإعلاء، أي: جعلكم ذوي غَلَبة تامَّة. أخرج الإمام

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٥.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٦٤.

(٣) المفردات (ولي).

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٩٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٩٠.

أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حُميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي في آخرين عن أنس قال: لما كان يومُ الحديبيةِ هبطَ على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قِبَلِ جبل التنعيم يُريدون غِرَّةَ رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأُخِذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ[1].

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه وأبو نُعيم في «الدلائل» عن عبد الله بن مُغَفَّل[2] قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، إلى أن قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح، فثاروا إلى وجوهنا، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ فأَخَذَ الله تعالى بأسماعهم ـ ولفظ الحاكم: بأبصارهم[3] ـ فَقُمنا إليهم، فأخذناهم، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحدٍ، أو: هل جعل لكم أحدٌ أماناً»؟ فقالوا: لا، فخلَّى سبيلَهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ إلخ[4].

وأخرج أحمد وغيره عن سلمة بن الأكوع قال: قَدِمنا الحُديبيةَ مع رسول الله ﷺ ونحن أربعَ عشرةَ مئة، ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا إلى الصُّلح، فلما اصطلحنا واختلط بعضُنا ببعض أتيت شجرةً فاضطجعتُ في ظِلِّها، فأتاني أربعةٌ من مشركي أهل مكة، فجعلوا يَقَعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم وتحوَّلتُ إلى شجرة أُخرى فعلَّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مُنادٍ من أسفل: يا للمهاجرين[5] قُتِلَ ابنُ زُنَيم! فاخترطتُ سيفي فشَدَدْتُ على أولئك الأربعة وهم رقودٌ فأخذتُ سلاحَهم وجعلته في يدي، ثم قلت: والذي كرَّم وجهَ محمد لا يرفع

---

(١) مسند أحمد (١٢٢٢٧)، ومسند عبد بن حميد (١٢٠٨)، وصحيح مسلم (١٨٠٨)، وسنن أبي داود (٢٦٨٨)، وسنن الترمذي (٣٢٦٤)، وسنن النسائي الكبرى (٨٦١٤)، والغِرّة: الغفلة. أي: يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم ليتمكَّنوا من غدرهم.

(٢) في الأصل و(م): عبد الله بن معقل، وهو تحريف.

(٣) وهو لفظ أحمد والنسائي.

(٤) مسند أحمد (١٦٨٠٠)، وسنن النسائي (١١٤٤٧)، والمستدرك ٢/ ٤٦٠-٤٦١، ولم نقف عليه في مطبوع دلائل النبوة لأبي نعيم.

(٥) في الأصل و(م): ما للمهاجرين، والمثبت من المصادر.

أحدٌ منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه، ثم جئتُ بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ وجاء عمِّي عامرٌ برجل يقال له: مِكْرز، من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسولُ الله ﷺ وقال: «دعوهم يكون لهم بَدْءُ الفجور وثِناه»، فعفا عنهم رسولُ الله ﷺ، وأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ[1]. وهذا كلُّه يُؤيِّد ما قلناه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبزى قال: لما خرج النبيُّ ﷺ بالهَدْي وانتهى إلى ذي الحُليفة قال له عمر[2]: يا نبيَّ الله تدخل على قوم لك حربٌ بغير سلاح ولا كُراع؟ فبعث إلى المدينة فلم يَدَعْ فيها كُراعاً ولا سلاحاً إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخلَ فسار حتى أتى منى فنزل بها فأتاه عينُه أنَّ عكرمةَ ابن أبي جهل قد جمع عليك في خمس مئة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالدُ، هذا ابنُ عَمِّك قد أتاك في الخيل» فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله - فيومئذ سُمِّي: سيف الله - يارسولَ الله، ارمِ بي إنْ شئتَ، فبعثه على خيل، فلقيه عكرمةُ في الشِّعب فهزمه حتى أدخله حيطانَ مكةَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ الآية[3].

وفي «البحر» أنَّ خالداً هزمهم حتى دخلوا بيوتَ مكة وأَسرَ منهم جملة، فَسِيقوا إلى رسول الله ﷺ فمنَّ عليهم وأطلقهم[4].

والخبر غيرُ صحيح لأن إسلامَ خالدٍ ﷺ بعدَ الحديبية قبلَ عُمرة القضاء، وقيل: بعدَها، وهي في السنة السابعة.

وروى ابن إسحاق وغيره أنَّ خالداً كان يوم الحديبية على خيل قريش في مئتي فارس قدم بهم إلى كُراع الغميم، فدنا حتى نظر إلى أصحاب النبيِّ ﷺ فأمر

(١) مسند أحمد (١٦٥١٨)، وأخرجه مسلم (١٨٠٧)، ومعنى: «بدء الفجور وثناه»: أوله وآخره، والثني: الأمر يعاد مرَّتين. النهاية (ثني).
(٢) في الأصل و(م): عمي، وهو تحريف، والمثبت من المصادر.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٢٩١.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

رسولُ الله ﷺ عبَّادَ بن بِشر، فتقدَّم بخيله فقام بإزائه، وصفَّ أصحابه وحانت صلاةُ الظهر، فصلى رسولُ الله عليه الصلاة والسلام بأصحابه صلاةَ الخوف.

وعن ابن عباس أنَّ أهل مكة أرسلوا جملةً من الفوارس في الحديبية يُريدون الوقيعة بالمسلمين، فأَظهرهم الله تعالى عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وأنكر بعضُهم ذلك، والله تعالى أعلمُ بصحة الخبر.

وقيل: كان هذا الكَفُّ يومَ فتح مكة.

واستشهد الإمام أبو حنيفة بما في الآية من قوله تعالى: ﴿بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ بناءً على هذا القول لِفتح مكة عُنوة. واعتُرض القولُ المذكور والاستشهادُ بالآية بناء عليه.

أما الأول: فلأنَّ الآيةَ نزلت قبلَ فتح مكة. وتُعُقِّب بأنه إنْ أُريد أنها نزلت بتمامها قبلَه فليس بثابت، بل بعضُ الآثار يُشعر بخلافه، وإلا فلا يُفيد، مع أنه يجوز أن يكونَ هذا إخباراً عن الغيب كما قيل ذلك في غيره من بعض آيات السورة.

وأما الثاني: فلأنَّ دلالتها على العُنوة ممنوعة، فقد قال الزمخشري(١): الفتحُ: هو الظَّفَر بالشيء سواء كان عُنوةً أو صُلحاً. والفرقُ بين الظَّفَر على الشيء والظَّفر به من حيث الاستعلاءُ، وهو كائنٌ، لأنهم اصطلحوا وهم مضطرون، ورسول الله ﷺ ومن معه مُختارون، وفيه دَغْدغة لا تخفى؛ وكذا فيما تُعُقِّب به الأول.

وبالجملة هذا القولُ وكذا الاستشهاد بما في الآية بناء غيرُ بعيد إلا أنَّ أكثرَ الأخبار الصحيحة وكذا ما بعدُ يُؤيِّد ما قلناه أولاً في تفسير الآية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بعملكم أو بجميع ما تعملونه، ومنه العفو بعد الظَّفر ﴿بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فيُجازيكم عليه.

وقرأ أبو عمرو: «يعملون» بياء الغيبة(٢)، فالكلام عليه تهديدٌ للكُفَّار.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤١.

(٢) التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أنْ تَصِلُوا إليه وتطوفوا به ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ بالنصب عطفٌ على الضمير المنصوب في «صدوكم»، أي: وصدُّوا الهديَ، وهو ما يُهدَى إلى البيت، قال الأخفش: الواحدة: هَدْية، ويقال للأُنثى: هدي، كأنه مصدرٌ وُصِفَ به.

وفي «البحر»: إسكانُ داله لغةُ قريش، وبها قرأ الجمهور. وقرأ ابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمرو بكسر الدال وتشديد الياء، وذلك لغة[1]، وهو فَعيل بمعنى مفعول على ما صرَّح به غيرُ واحد.

وكان هذا الهَدْي سبعين بدنة على ما هو المشهور، وقال مقاتل: كان مئة بدنة.

وقرأ الجُعفي عن أبي عمرو: «الهَدْيِ» بالجرِّ على أنه عطفٌ على المسجد الحرام بحذف المضاف، أي: ونحر الهدي. وقُرئ بالرفع على إضمار: وصُدَّ الهَدْيُ[2].

وقوله سبحانه: ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال من «الهدي» على جميع القراءات. وقيل: على قراءة الرفع يجوز أن يكون «الهديُ» مبتدأ، والكلام نحو: حُكْمكَ مُسَمَّطاً، وقوله تعالى: «ونحن عصبةً» على قراءة النصب، وهو كما ترى.

والمعكوفُ: المحبوس، يقال: عَكَفْتُ الرجلَ عن حاجتِهِ: حبسته عنها، وأنكر أبو عليٍّ تعدية عكف، وحكاها ابن سِيده والأزهري[3] وغيرهما، وظاهرُ ما في الآية معهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدلُ اشتمال من «الهَدْي»، كأنه قيل: وصَدُّوا بلوغَ الهدي مَحِلَّه، أو: صدُّوا عن بلوغ الهدي، أو: وصُدَّ بلوغ الهَدْي، حسب اختلاف القراءات.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٨، وفيه بدل «وذلك لغة»: وهما لغتان.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٨.
(٣) تهذيب اللغة ١/ ٣٢١.

وجُوِّز أن يكون مفعولاً من أجله للصدِّ، أي: كراهةَ أن يبلغَ مَحِلَّه، وأن يكون مفعولاً من أجله مجروراً بلام مُقدَّرة لـ «معكوفاً»، أي: محبوساً لأجلِ أن يبلغَ مَحِلَّه، ويكون الحبسُ من المسلمين. وأن يكون منصوباً بنزع الخافض، وهو «مِن» أَوْ «عن»، أي: محبوساً مِنْ أَوْ عن أن يبلغَ مَحِلَّه، فيكون الحبسُ من المشركين على ما هو الظاهر.

ومحلُّ الهدي مكان يَحِلُّ فيه نحرُه، أي: يسوغ، أو: مكان حلُوله، أي: وجوبه ووقوعه كما نُقل عن الزمخشري[1]، والمرادُ مكانه المعهودُ، وهو منًى، أما على رأي الشافعي ﷺ فلأن مكانه لمن مُنِعَ حيث مُنِعَ، فيكون قد بلغ مَحِلَّه بالنسبة إلى النبيِّ ﷺ ومَنْ معه، ولذا نحروا هناك أعني في الحديبية. وأما على رأي أبي حنيفة ﷺ فلأن مكانَه الحرم مطلقاً وبعض الحديبية حرمٌ عنده؛ وقد رووا أن مضاربَ رسول الله ﷺ كانت في الحِلِّ منها ومُصَلَّاه في الحرم، والنحرُ قد وقع فيما هو حرمٌ، فيكون الهَدْي بالغاً مَحِلَّه غيرَ معكوف عن بلوغه، فلا بُدَّ من إرادة المعهودِ ليتسنَّى ذلك. وزعم الزمخشري[2] أنَّ الآية دليلٌ لأبي حنيفة على أنَّ الممنوعَ مَحِلُّ هَدْيِه الحرمُ، ثم تكلَّم بما لا يخفى حاله على مَنْ راجعه.

ومن الناس مَنْ قَرَّر الاستدلال بأنَّ المسجدَ الحرام يكون بمعنى الحَرَم، وهم لما صدُّوهم عنه ومَنَعوا هَدْيَهم أنْ يَدْخُلَه فيَصِلَ إلى مَحِلِّه، دلَّ بحسب الظاهر على أنه مَحِلُّه، ثم قال: ولا يُنافيه أنه عليه الصلاة والسلام نحر في طرفٍ منه، كما لا يُنافي الصَّدَّ عنه كونُ مُصلَّاه عليه الصلاة والسلام فيه، لأنهم منعوهم فلم يمتنعوا بالكُلِّية، وهو كما ترى.

والإنصافُ أنه لا يتمُّ الاستدلال بالآية على هذا المطلب أصلاً.

وطَعَنَ بعضُ أَجِلَّة الشافعية في كون شيء من الحديبية من الحرم، فقال: إنه خلافُ ما عليه الجمهور، وحدودُ الحرم مشهورةٌ من زمن إبراهيمَ عليه السلام،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

ولا يُعتدُّ بروايةٍ شذَّ بها الواقديُّ، كيف وقد صرَّح بخلافها البخاريُّ في «صحيحه» عن الثِّقات[1]، والرواية عن الزهري ليست بثبت[2]. انتهى.

ولعلَّ من قال بأنَّ بعضَها من الحرم استند في ذلك إلى خبرٍ صحيح. ومن قواعدِهم أن المُثْبتَ مُقَدَّمٌ على النافي، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة «رجال» و«نساء» على تغليب المُذَكَّر على المُؤنَّث. وكانوا على ما أخرج أبو نُعيم ـ بسند جيد ـ وغيرُه عن أبي جمعة جنبذ بن سبع: تسعةَ نفر؛ سبعة رجال ـ وهو منهم ـ وامرأتين[3].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال منهم، وجُوِّز كونه بدلاً من الضمير المنصوب في «تعلموهم»، واستبعده أبو حيان[4].

والوطء: الدَّوس، واستُعير هنا للإهلاك، وهي استعارةٌ حسنة واردةٌ في كلامهم قديماً وحديثاً، ومن ذلك قول الحارث بن وَعْلة الذُّهْلي:

وَوَطِئْتَنا وطأً على حَنَقٍ وَطْءَ المقيَّد نابِتَ الهَرْمِ[5]

وقوله ﷺ من حديث: «وإنَّ آخرَ وطأةٍ وَطِئها الله تعالى بِوَجٍّ»[6]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اشدُدْ وَطْأتَكَ على مُضَر»[7].

---

(١) صحيح البخاري، باب من قال: ليس على المحصر بدل، قبل حديث (١٨١٣) وفيه: . . . والحديبية خارجٌ من الحرم. وعزاه لمالك وغيره.

(٢) سلف ٣/ ١٧٨.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٩، وعزاه لجماعة منهم الطبراني في الكبير (٢٢٠٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٦٠)، مع اختلاف ألفاظهما. قال الهيثمي في مجمع زوائد ٩/ ٣٨٩: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات. وجنبذ بن سبع، يقال له أيضاً: جُنيد، وحبيب بن سباع، ووقع في مطبوع الدر المنثور: حنيذ. ينظر توضيح المشتبه ٣/ ١٠٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٦.

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٣١٤) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها، والمراد بـ «وجّ»: الطائف، أي: آخر قتال المسلمين كان بالطائف؛ فجعل ذلك وطأة الله، لأنه بأمره.

(٧) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: من جهتهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: مكروه ومَشَقَّةٌ، مأخوذٌ من العُرِّ والعُرَّة، وهو الجَرَب الصعب اللازم، وقال غير واحد: هي مَفْعلة من عَرَّه: إذا عراه ودهاه ما يكره. والمرادُ بها هنا على ما رُوي عن منذر بن سعيد تعييرُ الكُفَّار وقولهم في المؤمنين: إنهم قتلوا أهلَ دينهم.

وقيل: التأسُّف عليهم وتألُّم النفس مما أصابهم.

وقال ابن زيد: المأثم بقتلهم. وقال ابن اسحاق: الدِّية. قال ابن عطية[1]: وكلا القولين ضعيف لأنه لا إثمَ ولادِيَةَ في قتل مؤمن مستورِ الإيمان بين أهل الحرب. وقال الطبري[2]: هي الكفَّارة. وتَعقَّب بعضُهم هذا أيضاً بأنَّ في وجوبِ الكفارة خلافاً بين الأئمة. وفي «الفصول العمادية»: ذكر في تأسيس النظائر في الفقه: قال أصحابنا: دار الحرب تمنعُ وجوبَ ما يَندرئ بالشُّبهات؛ لأن أحكامنا لا تجري في دارهم، وحكمُ دارهم لا يجري في دارنا، وعند الشافعي: دارُ الحرب لا تمنع وجوب ما يندرئ بالشبهات، بيان ذلك: حربيٌّ أسلمَ في دار الحرب وقَتَل مسلماً دَخَلَ دارهم بأمان، لا قِصاصَ عليه عندنا ولا ديةَ، وعند الشافعي عليه القِصاص، وعلى هذا لو أن مسلمَيْنِ مستأمنين دخلا دار الحرب وقتل أحدُهما صاحبَه، لا قِصاص عليه عندنا، وعند الشافعي عليه ذلك.

ثم ذكر مسألة مختلفاً فيها بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد فقال: إذا قتل أحدُ الأسيرين صاحبَه في دار الحرب، لا شيء عليه عند أبي حنيفة وأبي يوسف إلا الكفارة؛ لأنه تبعٌ لهم فصار كواحدٍ من أهل الحرب، وعند محمد تجبُ الدِّية لأن له حُكم نفسه، فاعتبر حكم نفسه على حدة. انتهى.

ونُقل عن «الكافي» أنَّ من أسلمَ في دار الحرب ولم يُهاجر إلينا وقتله مسلمٌ عمداً أو خطأً وله ورثةٌ مسلمون ثَمَّ لا يضمن شيئاً إن كان عمداً، وإن كان خطأً ضَمِنَ الكفارة دون الدِّية. انتهى.

وتمام الكلام في هذا المقام يُطلب في مَحلّه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦.

والزمخشري[١] فسَّر المَعَرَّة بوجوب الدِّية والكفارة وسوء قالةِ المشركين والمأثم إذا جرى منهم بعضُ التقصير، وهو كما ترى.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال من ضمير المُخاطَبين في «تطؤوهم»، قيل: ولا تكرارَ مع قوله تعالى: «لم تعلموهم» سواء كان «أن تطؤوهم» بدل اشتمال من «رجال» و«نساء»، أو بدلاً من المنصوب في «لم تعلموهم»، أما على الثاني فلأنَّ حاصلَ المعنى: ولولا مؤمنون لم تعلموا وطأتهم وإهلاكهم وأنتم غير عالمين بإيمانهم، لأنَّ احتمال أنهم يهلكون من غير شعور مع إيمانهم سببُ الكفِّ، فيعتبر فيه العلمان، فمتعلّق العلم في الأول الوطأة، وفي الثاني أنفسهم باعتبار الإيمان. وأما على الأول فلأنَّ قوله تعالى: «بغير علم» لما كان حالاً من فاعل «تطؤوهم» كان العلم بهم راجعاً إلى العلم باعتبار الإهلاك، كما تقول: أهلكته من غير علم، فلا الإهلاك من غير شعور ولا العلم بإيمانهم حاصلٌ، والأمران لكونهما مقصودين بالذات صُرِّح بهما وإنْ تقاربا أو تلازما في الجملة[٢].

وجُوِّز أنْ يُجعل «لم تعلموهم» كنايةً عن الاختلاط، كما يلوِّح إليه كلام «الكشاف»[٣]، وفيه ما يدفعُ التكرار أيضاً، وفي ذلك بحثٌ يدفع بالتأمُّل.

وجُوِّزَ أن يكون حالاً من ضمير «منهم»، وأنْ يكونَ متعلِّقاً بـ «تصيبكم»، أو صفة لـ «معرَّة»، قيل: وهو على معنى: فتصيبكم منهم معرةٌ بغير علم من الذي يعرُّكم ويعيبُ عليكم، يعني: إنْ وطئتموهم غيرَ عالمين لَزِمَكم سُبَّة من الكُفَّار بغير علم، أي: لا يعلمون أنكم معذورون فيه. أو على معنى: لم تعلموا أنْ تطؤوهم فَتُصيبَكم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم منكم، أي: فتقتلوهم بغير علمٍ منكم، أو: تُؤذوهم بغير علم، فافهم، ولا تَغْفُل.

وجوابُ «لولا» محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، والمعنى على ما سمعت أولاً:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

(٢) ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٦٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

لولا كراهةُ أن تُهلكوا أُناساً مؤمنين بين ظَهْرانَي الكُفَّار جاهلين بهم فَيُصيبَكم بإهلاكهم مكروهٌ لَمَا كَفَّ أيديَكم عنهم.

وحاصله: أنه تعالى ولو[1] لم يكفَّ أيديَكم عنهم لانجرَّ الأمر إلى إهلاك مؤمنين بين ظَهرانَيْهم فَيُصيبَكم من ذلك مكروهٌ، وهو عز وجل يكرهُ ذلك.

وقال ابن جريج: دفع اللهُ تعالى عن المشركين يومَ الحُديبية بأُناس من المسلمين بين أظهرهم. وظاهرُ الأول ـ على ما قيل ـ أنّ عِلَّة الكفّ صونُ المُخاطَبين عن إصابة المَعَرَّة، وظاهرُ هذا أنَّ عِلَّته صونُ أولئك المؤمنين عن الوطء، والأمر فيه سهل.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ عِلَّةٌ لما يدلُّ عليه الجواب المحذوفُ على ما اختاره في «الإرشاد»[2]، كأنه قيل: لكنه سبحانه كفَّها عنهم لِيُدخلَ بذلك الكَفِّ المُؤدِّي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم أولئك المؤمنون، وذلك بأمنهم وإزالة استضعافهم تحت أيدي المشركين، وبتوفيقهم لإقامة مراسم العبادة على الوجه الأتمّ، والتعبيرُ عنهم بـ «من يشاء» دون الضمير بأن يقال: لِيُدخلهم اللهُ رحمته، للإشارة إلى أنَّ عِلَّةَ الإدخال المَشيئة المَبْنية على الحِكَم الجَمَّة والمصالح. وجعلَه بعضُهم عِلَّةً لما يُفهم من صونِ مَنْ بمكة من المؤمنين، والرحمةُ توفيقُهم لزيادة الخير والطاعة بإبقائهم على عملهم وطاعتهم.

وجُوِّز أن يُرادَ بـ «من يشاء» بعضُ المشركين، ويُراد بالرحمة الإسلام، فإن أولئك المؤمنين إذا صانهم الكَفُّ المذكور أظهروا إيمانهم لمعاينة قوَّة الدِّين، فيقتدي بهم الصائرون للإسلام، واستحسن بعضُهم كونه عِلَّة للكَفِّ المُعَلَّل بالصون.

وجُوِّز أن يُرادَ بـ «من يشاء» المؤمنون، فيرادُ بالرحمة التوفيقُ لزيادة الخير. والمشركون فيرادُ بها الإسلام، وبيِّن وجهُ التعليل بأنهم إذا شاهدوا منعَ تعذيبهم بعد

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: لو، دون واو.

(٢) إرشاد العقل السليم (وهو تفسير أبي السعود) ٨/ ١١٢.

الظَّفَر عليهم لاختلاط المؤمنين بهم اعتناءً بشأنهم رَغِبوا في الإسلام والانخراط في سِلْك المرحومين، وأنَّ المؤمنين إذا علموا منعَ تعذيب المشركين بعد الظَّفر عليهم لاختلاطهم بهم أظهروا إيمانهم فيُقتدَى بهم. وقال(١): لا وجهَ لجعل اللام مستعارةً من معنى التعليل لما يترتَّب على الشيء؛ لأنه عدولٌ عن الحقيقة المتبادرة من غير داعٍ. وما يظنُّ من أنَّ تعليلَ الكفِّ بما ذكر مع أنه مُعلَّلٌ بالصون فاسدٌ؛ لما فيه من اجتماع عِلَّتين على معلولٍ واحد شخصي = فاسد، لأنَّ العلل إذا لم تكن تامَّةً حقيقة لا يضرُّ تعدُّدها، وما هنا كذلك.

هذا، وجعلُ ذلك عِلَّة لما دلَّ عليه الجواب على ما سمعت أولاً أولى عندي؛ لما فيه من شدَّة التحامِ النَّظم الجليل، وحمل «مَنْ يشاء» على المؤمنين المستضعفين دون بعضِ المشركين أوفقُ بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ والتزيُّل: التفرُّق والتميُّز، وجُوِّز في ضمير «تزيَّلوا» كونُه للمؤمنين المذكورين فيما سبق، أي: لو تفرَّق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميَّزوا عن الكُفَّار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذَّبنا.. إلخ. وكونُه للمؤمنين والكُفَّار، أي: لو افترق بعضُهم من بعض ولم يبقوا مُختلطين، لعذَّبنا.. إلخ.

واختار غيرُ واحد الأول، فـ «منهم» للبيان، والمرادُ تعذيبهم في الدنيا بالقتل والسبي، كما قال مجاهد وغيره، وإلا لم يكن لـ «لو» موقع.

والجملة مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها، وجوَّز الزمخشري(٢) أن يكونَ قوله تعالى: «لو تزيَّلوا» كالتكرار لقوله تعالى: «لولا رجال»؛ لأنَّ مَرْجِعَهما في المعنى شيء واحدٌ، ويكون «لعذَّبنا» هو الجوابَ لـ «لولا» السابقة. واعترضه أبو حيان(٣) بأنَّ التغايرَ ظاهرٌ، فلا يكون تكراراً ولا مُشابهاً. وأُجيبَ بأنَّ كراهةَ وطئهم لعدم تميُّزهم عن الكُفَّار الذي هو مدلولُ الثاني، فيكون كبدلِ الاشتمال، ويكفي ذلك في كونه كالتكرار.

---

(١) هو الشهاب في الحاشية ٨/ ٦٧، وما قبله منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

وقال ابن المُنَيِّر[1]: إنما كان مرجعهما واحداً وإنْ كانت «لولا» تدلُّ على امتناعٍ لوجود، و«لو» تدلُّ على امتناعٍ لامتناع، وبين هذين تَنافٍ ظاهرٌ؛ لأنَّ «لولا» هاهنا دخلَتْ على وجود، و«لو» دخلت على «تَزيَّلوا» وهو راجعٌ إلى عدمِ وجودهم، وامتناعُ عدمِ الوجود ثبوتٌ فآلا إلى أمرٍ واحد من هذا الوجه. قال: وكان جدِّي يختار هذا الوجه، ويُسمِّيه: تطريةً، وأكثر ما يكون إذا تطاولَ الكلامُ وبَعُدَ عهدُ أَوَّله، واحتيج إلى بناءِ الآخر على الأول، فمرةً يُطري بلفظه، ومرةً بلفظٍ آخرَ يؤدِّي مُؤدَّاه. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ في حذف الجواب دليلاً على شدَّة غضب الله تعالى، وأنه لولا حقُّ المؤمنين لفعل بهم ما لا يدخلُ تحت الوصف ولا يُقاس، ومنه يُعلم أنَّ ذلك الوجهَ أرجحُ من جعل «لو تَزيَّلوا» بمنزلة التَّكرار للتطرية، فتطريةُ الجوابِ وتقويته أَولى وأَوفقُ لمقتضى المقام. واختار الطيبي الأول أيضاً مُعَلِّلًا له بأنه حينئذ يقربُ من باب الطرد والعكس، لأنَّ التقديرَ: لولا وجودُ مؤمنين مُختلطين بالمشركين غير متميِّزين منهم لوقع ما كان جزاءً لكفرهم وصدِّهم، ولو حصل التميزُ وارتفع الاختلاطُ لحصل التعذيبُ.

ثم إنَّ تقديرَ الجوابِ ما تقدَّم عند القائلين بالحذف هو الذي ذهب إليه كثير، وجَوَّز بعضُهم تقديره: لَعجَّل لهم ما يستحقُّون، وجَعَل قوله تعالى: «هم الذين كفروا» إلخ [دليلاً عليه][2]، فكأنه قيل: هم الذين كفروا واستحقُّوا التعجيلَ في إهلاكهم، ولولا رجالٌ مؤمنون.. إلخ لعجَّل لهم ذلك، وهو أيضاً أولى من حديث التكرار.

وقرأ ابن أبي عَبْلة وابن مِقْسم وأبو حيوة وابن عون: «لو تزايلوا» على وزن تفاعلوا[3].

---

(١) الانتصاف (بحاشية الكشاف) ٣/ ٥٤٨.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، ينظر تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٩٩.

وفي الآية ـ على ما قال الكيا[1] ـ دليلٌ على أنه لا يجوز خرقُ سفينةِ الكُفَّار إذا كان فيها أَسرى من المسلمين، وكذلك رميُ الحصون إذا كانوا بها، والكفار إذا تترَّسوا بهم، وفيه كلامٌ في كتب الفروع.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منصوبٌ بـ: اذكر، على المفعولية، أو بـ «عذَّبنا» على الظرفية، أو بـ «صدُّوكم» كذلك. وقيل: بمضمر هو: أحسنَ الله تعالى إليكم، وأيًّاما كان فـ «الذين» فاعل «جعل»، ووُضِعَ الموصول موضعَ ضميرهم لذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة وتعليلِ الحكم به، والجعلُ إما بمعنى الإلقاء، فقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ مُتعلِّق به، أو بمعنى التصيير، فهو متعلِّق بمحذوف هو مفعولٌ ثانٍ له، أي: جعلوا الحَمِيَّة راسخةً في قلوبهم، ولكونها مُكتَسبةً لهم من وجهٍ نُسب جعلها إليهم. وقال النيسابوري[2]: يجوز أن يكونَ فاعل «جعل» ضميرَ الله تعالى، و«في قلوبهم» بيان لمكان الجَعْل، ومآلُ المعنى: إذ جعلَ اللهُ في قلوب الذين كفروا الحَمِيَّة. وهو كما ترى.

والحَمِيَّةُ: الأَنَفةُ، يقال: حميت عن كذا حَمِيَّةً، إذا أَنِفْتَ منه وداخَلَكَ عارٌ منه.

وقال الراغب[3]: عبَّر عن القوَّة الغضَبية إذا ثارَتْ وكَثُرت بالحَمِيَّة، فقيل: حَميت على فلان، أي غَضِبت عليه.

وقوله تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدلٌ من الحَمِيَّة، أي: حَمِيَّة المِلَّة الجاهلية، أو الحَمِيَّة الناشئة من الجاهلية لأنها بغير حُجَّة وفي غير موضعها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على «جعل» على تقدير جَعْلِ «إذ» معمولاً لـ: اذْكُر، والمرادُ تذكيرُ حسنِ صنيع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيعِ المشركين، وعلى ما يدلُّ عليه الجملة الامتناعية على تقدير جعلها ظرفاً لـ «عَذَّبنا»، كأنه قيل: فلم

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ٣٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٤٠.
(٢) غرائب القرآن ٢٦/ ٤٩.
(٣) المفردات (حمي).

يتزيَّلوا فلم نُعذِّب فأَنزل. . إلخ. وعلى مضمر عامل فيها على الوجهِ الأخير المَحْكي، ويكون هذا التفسير لذاك، وأما على جعلها ظرفاً لـ «صدُّوكم» فقيل: العطفُ على «جعل» وقيل: على «صدُّوكم»، وهو نظيرُ: الطائرُ فيغضبُ زيدٌ الذُّباب[1]، والأولى من هذه الأوجه لا يخفى.

والسَّكينة: الاطمئنانُ والوقار، روى غيرُ واحدٍ أنَّ النبيَّ ﷺ خرج بمن معه إلى الحديبية حتى إذا كان بذي الحُليفة قَلَّد الهَدْي وأشعره وأحرم بالعمرة، وبعثَ بين يديه عيناً من خُزاعة يُخبره عن قريش، وسار عليه الصلاة والسلام حتى [إذا] كان بغَدير الأشطاط قريباً من عُسفان أتاه عينه فقال: إنَّ قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مُقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فاستشار الناسَ في الإغارة على ذراري من أعانهم، فقال أبو بكر: الله تعالى ورسوله أعلمُ يا نبيَّ الله، إنما جئنا معتمرين ولم نَجِئ لقتال أحدٍ، ولكن مَنْ حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال ﷺ: «امضُوا على اسم الله» فسار حتى نزل بأقصى الحُديبية، فجاءه بُديل بن ورقاء الخُزاعي في نَفَر من قومه فقال له: إني قد تركتُ كعبَ بن لؤي وعامرَ بن لؤي نزلوا قريباً، معهم العُوذ المَطافيل[2]، وهم مُقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنا لم نجئ لقتال أحدٍ، ولكن مُعتمرين، وإن قريشاً قد نَهِكَتهم الحربُ وأَضَرَّتْ بهم، فماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائرِ العرب، فإنْ هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإنْ أظهرني اللهُ تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإنْ لم يفعلوا قاتلتُهم وبهم قوَّة، فما تظنُّ قريش؟! فواللهِ، لا أَزالُ أُجاهِدُهم على الذي بعثني اللهُ تعالى به حتى يُظهره اللهُ تعالى أو تنفردَ هذه السالفة» فقال بُديل: سأُبلغهم ما تقول. فبلَّغهم، فقال عروة بن مسعود الثقفي لهم: دعوني آتِهِ، فأتاه عليه الصلاة والسلام، فقال له نحوَ ما قال لِبُديل، وجرى من الكلام ما جرى، ورأى مِن احترامِ الصحابة رسولَ الله ﷺ وتعظيمهم

---

(١) والتقدير: الذي يطير. . .، ينظر الأصول في النحو ٢/ ٣٥٧، وشرح ابن عقيل ٢/ ٣٦١.

(٢) يريد: النساء والصبيان، والعُوذ في الأصل: جمع عائذ، وهي الناقة إذا وضعت. النهاية (عوذ).

إيَّاه ما رأى، فرجَع إلى أصحابه فأخبرهم بذلك وقال لهم: إنه قد عَرَضَ عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها، فقال رجلٌ من بني كِنانة: دعوني آتِهِ، فلما أشرفَ على النبيِّ ﷺ وأصحابه، قال عليه الصلاة والسلام: «هذا فلان، وهو من قوم يُعظِّمون البُدن، فابعثوها له» فبُعِثَت، واستقبله القومُ يُلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فرجَع وأخبر أصحابَه، فقال رجلٌ يقال له: مِكْرَز بن حفص: دعوني آتِهِ، فلما أشرف قال عليه الصلاة والسلام: «هذا مِكْرَز، وهو رجلٌ فاجرٌ» فجعل يُكلِّم النبيَّ ﷺ، فبينما هو يُكلِّمه إذ جاء سُهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، فقال ﷺ: «قد سَهُلَ لكم من أمرِكم» وكان قد بعثه قريش وقالوا له: ائتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صُلْحه إلا أن يرجِعَ عنا عامَه هذا، فوالله لا تتحدَّثُ العرب أنه دخلها علينا عُنْوةً أبداً. فلما انتهى إليه عليه الصلاة والسلام تكلَّم فأطال، وانتهى الأمرُ إلى الصُّلح وكتابةِ كتاب في ذلك، فدعا النبيُّ ﷺ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه فقال: «اكتُبْ: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهيل: لا أعرفُ هذا، ولكن اكتُبْ: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتُبْ: باسمِكَ اللهم» فكتبها، ثم قال: «اكتُب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله سُهيلَ بن عمرو»، فقال سُهيل: لو كُنَّا نعلم أنك رسولُ الله ما صَدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتُبْ اسمك واسمَ أبيك. فقال عليه الصلاة والسلام: «والله إني لرسولُ الله، وإنْ كذَّبتموني، اكتُبْ: هذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبد الله سُهيلَ بن عمرو صُلحاً على وَضْعِ الحرب عن الناس عشرَ سنين» يأمنُ فيهنَّ الناسُ ويكفُّ بعضُهم عن بعض، على أنه مَنْ أتى محمداً من قريش بغير إذن وَلِيِّه رَدَّه عليهم، ومَنْ جاء قريشاً ممن مع محمد لم يَرُدُّوه عليه، وإنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً[1]، وإنه لا إسلالَ ولا إغلال[2]، وإنه مَنْ أحبَّ أن يدخُلَ في عقد محمد وعهده دخل فيها، ومَنْ أحبَّ أن يدخُلَ في عَقْدِ قريش وعَهْدهم دخلَ فيه،

---

(١) أي: بينهم صدر نقيٌّ من الغلِّ والخداع، مطوي على الوفاء بالصلح. النهاية (عيب).

(٢) الإغلال: الخيانة أو السرقة الخفيَّة، والإسلال: مِن سلِّ البعيرَ في جوف الليل: إذا انتزعه من بين الإبل. وقيل الإغلال: لبس الدروع. والإسلال: سلُّ السيوف. النهاية (غلل).

وإن محمداً يرجِعُ عن مكة عامَه هذا، فلا يدخُلها، وإنه إذا كان عام قابل خرج أهلُ مكة فدخلها بأَصحابه. فأقام بها ثلاثاً معه سلاحُ الراكب، السيوفُ في القُرب لا يدخلها بغيرها[١].

وظاهرُ هذا الخبر أن سُهيلاً لم يرضَ أن يكتبَ: محمدٌ رسول الله، قبل أن يكتب؛ وجاء في روايةٍ أنه كتب فلم يرضَ، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: «امْحُه» فقال: ما أنا بالذي أمْحاه، وجاء هذا في رواية للبخاري ولمسلم[٢]، وفي رواية للبخاري في المغازي: فأخذ رسولُ الله ﷺ الكتابَ وليس يُحْسِنُ يَكْتُبُ، فكَتَبَ: «هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبد الله»[٣]. وكذا أخرجه النسائي وأحمد، ولفظه: فأخذ الكتاب، وليس يُحسن أن يَكتب، فكتب مكان رسول الله: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله...»[٤]، وتمسَّك بظاهر هذه الرواية كما في «فتح الباري»[٥] أبو الوليد الباجي على أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كتب بعدَ أنْ لم يكن يُحسن أنْ يكتب، ووافقه على ذلك شيخُه أبو ذرٍّ الهرويُّ وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء إفريقية، والجمهور على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب، وأنَّ قوله: وأخذ الكتابَ، وليس يُحسن أن يَكتبَ؛ لبيان أنه عليه الصلاة والسلام احتاجَ لأنْ يُريه عليٌّ كرم الله تعالى وجهه موضعَ الكلمة التي امتنعَ من مَحْوِها لكونه كان لا يُحسن الكتابة. وقوله: فكتب، بتقدير: فمحاها، فأَعاد الكتاب لعليٍّ فكتب، أو أطلقَ فيه «كتب» على: أَمَرَ بالكتابة. وتمامُ الكلام في محلِّه[٦].

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٨ وما بعدها، وأخرج هذا الخبر بطوله البخاري (٢٧٣١)، وأحمد (١٨٩٢٨) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم باختلاف بعض الألفاظ، وأخرجه مسلم (١٧٨٣) و(١٧٨٤) و(١٧٨٥) و(١٧٨٦) عن عدد من الصحابة ﭫ.

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ﭬ.

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سنن النسائي الكبرى (٨٥٢٥)، ومسند أحمد (١٨٦٣٥).

(٥) ٧/ ٥٠٣.

(٦) ينظر ما سلف ٢٠/ ٣٧٥-٣٧٨.

فكانت حَمِيَّتهم ـ على ما في «الدر المنثور»[١] عن جماعة ـ أنهم لم يُقِرُّوا أنه ﷺ رسولٌ ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بين المسلمين والبيت، وقد هَمَّ المؤمنون لذلك أنْ يبطِشوا بهم، فأنزلَ اللهُ تعالى سكينَته عليهم فَتوَقَّروا وحَلُموا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال في حَمِيَّة الجاهلية: حمت قريش أَنْ يدخلَ عليهم رسولُ الله ﷺ وقالوا: لا يدخُلها علينا أبداً، وقال ابن بحر ـ كما في «البحر»[٢] ـ: حَمِيَّتهم: عَصَبيَّتهم لآلهتهم، والأَنَفةُ أنْ يعبدوا غيرَها.

وفي توسيطِ «على» بين الرسول والمؤمنين إيماءٌ إلى أنه سبحانه أَنزل على كلٍّ سكينةً لائقةً به.

ووجهُ تقديم الإنزال على الرسول عليه الصلاة والسلام لا يخفى.

وقال الإمام[٣]: في هذه الآية لطائفُ معنوية: وهو أنه تعالى أبانَ غايةَ البون بين المؤمنين والكافرين: حيث باين بين الفاعِلَيْن، إذْ فاعل «جعل» هو الكُفَّار، وفاعل «أنزل» هو اللهُ تعالى، وبين المفعولين إذْ تلك حَمِيَّة وهذه سكينة، وبين الإضافتين إضافة الحَمِيَّة إلى الجاهلية وإضافةِ السكينة إليه تعالى، وبين الفِعْلين «جعل» و«أنزل»، فالحميَّة مجعولةٌ في الحال كالعَرَض الذي لا يبقى، والسَّكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأنزلها، والحَمِيَّة قبيحةٌ مذمومةٌ في نفسها، وازدادت قُبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينةُ حسنةٌ في نفسها وازدادت حُسناً بإضافتها إلى الله عز وجل، والعطفُ في «فأنزل» بالفاء لا بالواو يدلُّ على المُقابلة والمجازاة، تقول: أكرمني زيدٌ فأكرمته، فيدلُّ على أن إنزالَ السكينة لجَعْلِهم الحَمِيَّةَ في قلوبهم حتى إن المؤمنين لم يغضبوا ولم ينهزموا، بل صبروا، وهو بعيدٌ في العادة، فهو من فضل الله تعالى. انتهى، وهو مما لا بأسَ به.

---

(١) ٦/ ٧٩-٨٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٩.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٢.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ هي لا إله إلا الله كما أخرج ذلك الترمذي وعبد الله بن أحمد والدارقطني وغيرهم عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً[(١)]، وكما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وسَلَمة بن الأكوع كذلك[(٢)]؛ وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن حُمْران أنَّ عثمان بن عفان ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني لأعلمُ كلمةً لا يقولها عبدٌ حقًّا من قلبه إلا حُرِّم على النار» فقال عمر بن الخطاب ﷺ: أنا أُحدِّثكم ما هي: كلمةُ الإخلاص التي ألزمها الله سبحانه محمداً وأصحابه، وهي كلمةُ التقوى التي ألاصَ عليها نبيُّ الله ﷺ عمَّه أبا طالب عند الموت؛ شهادة أنْ لا إلهَ إلا الله[(٣)]. ورُوي ذلك أيضاً عن عليّ كرم الله تعالى وجهه ـ على ما نَقَل أبو حيان[(٤)] ـ وابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جُبير في آخرين، وأخرج ذلك عبد بن حُميد وابن جرير عن عطاء الخُراساني بزيادة: محمد رسول الله[(٥)].

وأُضيفت إلى التقوى لأنها بها يُتَّقى الشِّرك، ومن هنا قال ابن عباس ـ فيما أخرجه ابن المنذر وغيره ـ: هي رأسُ كلِّ تقوى[(٦)].

وظاهرُ كلام عمر ﷺ أن ضمير «هم» في «ألزمهم» للرسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه، وإلزامهم إياها بالحكم والأمر بها.

وأخرج عبد الرزاق والحاكم ـ وصحَّحه ـ والبيهقي في «الأسماء والصفات» وجماعة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: هي لا إله إلا الله واللهُ أكبر[(٧)]، ورُوي عن ابن عمر أيضاً نحوه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وسنن الترمذي (٣٢٦٥)، وعبد الله في مسند أبيه أحمد (٢١٢٥٥). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٠.
(٣) مسند أحمد (٤٤٧)، وصحيح ابن حبان (٢٠٤)، والمستدرك ١/ ٣٥١، ومعنى: ألاصَ عليها: أي: أداره عليها، وراوده فيها.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٩.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣١٣.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ٣١١.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢٩، والمستدرك ٢/ ٤٦١.

وأخرج ابن أبي حاتم والدارقطني في «الأفراد» عن المسور بن مخرمة قال: هي لا إله إلا الله وحدَه لا شَريك له[١]. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً أنها لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له المُلك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير.

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير وغيرهما عن الزهري قال: هي بسم الله الرحمن الرحيم[٢]. وضَمَّ بعضهم[٣] إلى هذا: محمد رسول الله. والمراد بإلزامهم إيَّاها اختيارها لهم دون مَنْ عدل عنها إلى: باسمك اللهم، و: محمد بن عبد الله.

وقيل: هي الثَّبات والوفاء بالعهد، ونسبه الخَفَاجي[٤] إلى الحسن، وإلزامهم إياه أمْرُهم به، وإطلاق الكلمة على الثَّبات على العهد والوفاء به، قيل: لِمَا أنَّ كلًّا يُتوصَّل به إلى الغرض، وهو نظيرُ ما قيل في إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من أن ذلك لأنَّ كلًّا منهما يُهتدَى به، وجعلت الإضافة على كونها بمعنى الثَّبات من باب إضافة السبب إلى المسبَّب فهي إضافة لأدنى مُلابسة. وجُوِّز أن تكونَ اختصاصيةً حقيقيةً بتقدير مضافٍ، أي: كلمة أهل التقوى، وأُريد بالعهد على ما يقتضيه ظاهرُ سبب النزول عهدُ الصُّلح الذي وقع بينه ﷺ وبين أهل مكة. وقيل: ما يعمُّ ذلك وسائر عهودهم معه عز وجل.

وأنت تعلم أن الوجه المذكور في نفسه غير ظاهر، ومثله ما قيل: المراد بالكلمةِ قولهم في الأصلاب: بلى مُقِرِّين بوحدانيته جلَّ شأنه، وبالإلزام الأمر بالثَّبات والوفاء بها. وقيل: هي قولُ المؤمنين: سمعاً وطاعة، حين يُؤمرون أو يُنْهون. والظاهرُ عليه كون الضمير للمؤمنين.

وأرجحُ الأقوال في هذه الكلمة ما رُوي مرفوعاً وذهب إليه الجَمُّ الغفير، ولعلَّ ما ذُكر في الأخبار السابقة من باب الاكتفاء، والمرادُ: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

---

(١) وذكره أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٣١٤.
(٣) منهم الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤٩، والبيضاوي ٨/ ٦٧.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٦٧.

﴿وَكَانُوٓا۟﴾ عطف على ما تقدَّم، أو حال من المنصوب في «ألزمهم» بتقدير «قد» أو بدونه، والظاهرُ في الضمير عودُه كسابقهِ كما اقتضاه كلامُ عمر ﷺ على الرسول والمؤمنين، واستظهر بعضُهم عودَه على المؤمنين، وكأنه اعتبر الأول عائداً عليهم أيضاً، وهو مما لا بأس فيه، ولعله اعتبر الأقربيَّة، فالمعنى: وكان المؤمنون في علم الله تعالى ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أي: بكلمة التقوى، وأفعل لزيادة الحَقِّيَّة في نفسها، أي: مُتَّصِفين بمزيد استحقاق لها، أو على ما هو المشهور فيه، والمُفضَّل عليه محذوفٌ، أي: أحقّ بها من كُفَّار مكةَ لأنَّ اللهَ تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيِّه ﷺ، وقيل: من اليهود والنصارى، وقيل: من جميع الأُمم لأنهم خيرُ أمة أُخرجت للناس.

وحكى المبرِّد أنَّ الذين كانوا قبلنا لم يكن لأحدٍ منهم أن يقول: لا إله إلا الله، في اليومِ والليلة إلا مرة واحدة لا يستطيع أنْ يقولَها أكثرَ من ذلك، وكان قائِلُها يمدُّ بها صوتَه إلى أنْ ينقطع نَفَسُه تبرُّكاً بذكر الله تعالى، وقد جعل الله عز وجل لهذه الأمة أنْ يقولوها متى شاؤوا، وهو قوله تعالى: «وألزمهم كلمة التقوى» أي: نَدَبهم إلى ذكرها ما استطاعوا، «وكانوا أحقَّ بها». وهذا مما لم يَثْبُتْ.

وجوَّز الإمام(١) كونَ التفضيل بالنسبة إلى غير كلمة التقوى، أي: أحقَّ بها من كلمةٍ غيرِ كلمةِ تقوى، وقال: وهذا كما تقول: زيدٌ أحقُّ بالإكرام منه بالإهانة، وقولك إذا سُئل شخصٌ عن زيدٍ بالطِّبِّ أعلم أو بالفقه: زيدٌ أعلم بالفقه، أي: من الطِّبِّ. وفيه غَفْلةٌ لا تَخفى.

﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المُستأهل لها، وهو أبلغُ من: الأحقّ، حتى قيل: بينه وبين الأحقِّ كما بين الأحقِّ والحقِّ. وقيل: إنَّ أحقِّيَّتهم(٢) بها من الكفار تُفهِم رُجحانهم رُجحاناً مّا عليهم ولا تُثبت الأهلية، كما إذا اختار الملكُ اثنين لِشُغل، وكلٌّ واحد منهما غيرُ صالح له، لكن أحدهما أَبعدُ عن الاستحقاق، فيقال للأقرب إليه: إذا كان ولا بدَّ فهذا أحقُّ، كما يقال: الحبس أهونُ من القتل، ولِدَفْع توهُّم مثل هذا فيما نحن فيه قال سبحانه: «وأهلها».

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/١٠٣-١٠٤.

(٢) في الأصل: حقيتهم.

وقيل: أُريدَ أنهم أحقُّ بها في الدنيا وأهلها بالثواب في الآخرة.

وقيل: في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، والأصلُ: وكانوا أهلَها وأحقَّ بها، وكذلك هي في مصحف الحارث بن سُويد صاحب ابن مسعود، وهو الذي دَفَنَ مصحفَه لمخالفتِه الإمام أيام الحَجَّاج، وكان من كبار تابعي الكوفة وثِقاتهم.

وقيل: ضمير «كانوا» عائدٌ على كُفَّار مكة، أي: وكان أولئك الكفار الذين جعلوا في قلوبهم الحمية أحقَّ بكلمة التقوى لأنهم أهلُ حرم الله تعالى، ومنهم رسوله ﷺ، وقد تقدَّم إنذارهم، لولا ما سُلبوا من التوفيق. وفيه ما فيه، سواء رَجَع ضمير «ألزمهم» إلى كفار مكة أيضاً أمْ لا، وأظن في قائله نزغةً رافضيَّة دعته إلى ذلك لكنه لا يتمّ به غرضُه.

وقيل: ضمير «كانوا» للمؤمنين إلا أنَّ ضميري «بها وأهلها» للسَّكينة. وفيه ارتكابُ خلافِ الظاهر من غير داعٍ.

وقيل: هما لمكةَ، أي: وكانوا أحقَّ بمكةَ أنْ يدخلُوها وأهلها، وأَشعر بذِكْر مكةَ ذكرُ المسجدِ الحرام في قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وكذا مَحلُّ الهَدْي في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، وفيه ما لا يخفى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ فيعلم سبحانه حقَّ كلِّ شيء واستئهاله لما يستأهله، فيسوق عز وجل الحقَّ إلى مُستحِقِّه والمستأهل إلى مُستأهله، أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحِكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرِّضا بالصُّلح، فيكون تذييلاً لجميع ما تقدَّم.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى رسولُ الله ﷺ في المنام قبلَ خروجه إلى الحُديبية ـ وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه عليه الصلاة والسلام رأى وهو في الحديبية[1]، والأول أصحُّ ـ أنه هو وأصحابُه دخلوا مكةَ آمنين وقد حلقُوا وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، فَفَرِحُوا واستبشروا وحَسِبوا أنهم داخلوها في

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٣١٦.

عامِهم، وقالوا: إنَّ رؤيا رسول الله ﷺ حقٌّ، فلمَّا تأخَّر ذلك قال على طريق الاعتراض عبدُ الله بن أُبيّ وعبد الله بن نُفيل ورفاعة بن الحارث: واللهِ ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رَأَيْنا المسجدَ الحرامَ. فنزلت[١].

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال نحوه على طريق الاستكشاف ليزداد يقينه[٢].

وفي روايةٍ: أنَّ رؤياه ﷺ إنما كانت أنَّ مَلَكاً جاءه فقال له: «لتدخُلُنَّ» إلخ[٣]، والمعنى: لقد صَدَقه سبحانه في رؤياه، على أنه من باب الحَذْف والإيصال كما في قولهم: صَدَقَني سنَّ بَكْرِه[٤]. وتحقيقه أنه تعالى أراه الرؤيا الصادقة.

وقال الراغب[٥]: الصدقُ يكون بالقول ويكون بالفعل، وما في الآية صدقٌ بالفعل، وهو التحقيقُ، أي: حقَّق سبحانه رؤيته.

وفي «شرح الكرماني»: كَذَب يتعدَّى إلى مفعولين، يقال: كذبني الحديثَ، وكذا: صدق، كما في الآية، وهو غريبٌ لِتعدِّي المُثَقَّل لواحد والمُخَفَّف لمفعولين. انتهى.

وفي «البحر»[٦]: صدق يتعدَّى إلى اثنين، الثاني منهما بنفسه وبحرف الجرِّ تقول: صَدَقْتُ زيداً الحديث وصَدَقْته في الحديث، وقد عدَّها بعضُهم في أخوات: استغفر وأمر. والمشهور ما أشرنا إليه أولاً.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفةٌ لمصدر محذوف، أي: صدقاً مُلتبساً بالحقِّ، أي: بالفرض الصحيح والحِكمة البالغة، وهو ظهورُ حال المتزلزل في الإيمان والراسخ فيه،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٩، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٥٤: لم أجده هكذا مفسّراً. اهـ. وينظر الدر المنثور ٦/ ٨٠.
(٢) ينظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وحاشية الشهاب ٨/ ٨٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٩.
(٤) ينظر شرحه فيما سلف ٢١/ ٢٤٢.
(٥) المفردات (صدق).
(٦) البحر المحيط ٨/ ١٠١.

ولأجل ذلك أخّر وقوع الرؤيا إلى العام القابل. أو حالٌ من الرؤيا، أي: مُلتبسةً بالحقِّ ليست من قَبيل أضغاث الأحلام.

وجُوِّز كونه حالاً من الاسم الجليل، وكونُه حالاً من «رسوله»، وكونه ظرفاً لغواً لـ «صَدَق»، وكونه قَسماً بالحقِّ الذي هو من أسمائه عز وجل، أو بنقيض الباطل، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ عليه جوابُ القَسَم والوقف على «الرؤيا»، وهو على جميع ما تقدَّم جوابُ قَسَمٍ مُقدَّر، والوقف على «الحقّ»، أي: والله لتدخُلُنَّ.. إلخ.

وقوله سبحانه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليقٌ للعِدَة بالمشيئة لتعليم العِباد، وبه ينحلُّ ما يقال: إنه تعالى خالقٌ للأشياء كلِّها وعالمٌ بها قبلَ وقوعها، فكيف وقع التعليقُ منه سبحانه بالمشيئة، وفي معنى ما ذُكر قول ثعلب: استثنى سبحانه وتعالى فيما يعلم ليستثني الخَلْقُ فيما لا يعلمون[١].

وفيه تعريضٌ بأنَّ وقوعَ الدخول من مشيئته تعالى لا من جَلادتهم وتدبيرهم، وذكر الخفاجي[٢] أنه قد وُضِعَ فيه الظاهر موضعَ الضمير، وأصله: لَتدخُلُنَّه لا مَحالةَ إلا إنْ شاء عدمَ الدُّخول، فهو وعدٌ لهم عُدِلَ به عن ظاهره لأجل التعريض بهم والإنكار على المُعترضين على الرؤيا، فيكون من باب الكناية. انتهى.

وقد أُجيبَ عن السؤال بغير ذلك فقيل: الشكُّ راجعٌ إلى المخاطبين، وفيه شيء ستعلمه قريباً إنْ شاء الله تعالى.

وقال الحسين بن الفضل: إن التعليقَ راجعٌ إلى دخولهم جميعاً. وحكي ذلك عن الجُبَّائي. وقيل: إنه ناظرٌ إلى الأمن، فهو مُقدَّم من تأخير، أي: لَتدخُلُنَّه حالَ كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العدوِّ إن شاء الله. وردَّهما في «الكشف» فقال: أما جَعْله قيدَ دخولهم بالأسر[٣] أو الأمن ففيه أن السؤالَ بعدُ باقٍ؛ لأنَّ الدخولَ المخصوصَ

---

(١) وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٨٦.

(٣) أي: بأسْرهم، أي: جميعاً، ويعني به قول الحسين بن الفضل.

أيضاً خبرٌ من الله تعالى، وهو يُنافي الشكَّ، وليس نظيرَ قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] إذ لا يبعدُ أن لا يعرف عليه السلام مستقرَّ الأمر من الأمن أو الخوف، فإما أن يُؤَوَّل بأنَّ الشكَّ راجعٌ إلى المُخاطَبين، أو بأنه تعليم، والثاني أولى لأنَّ تغليبَ الشاكّين لا يُناسب هذا المَساق، بل الأمر بالعكس. ودُفع وروده على الحسين بأنَّ المرادَ أنه في معنى لَيدخُلَنَّه مَن شاء الله دخولَه منكم، فيكون كنايةً عن أنَّ منهم مَنْ لا يدخُله؛ لأنَّ أَجَلَه يمنعه منه، فلا يلزم الرجوع لِمَا ذكر.

وقيل: هو حكايةٌ لما قاله مَلَكُ الرؤيا له ﷺ. وإليه ذهب ابنُ كيسان، أو لِمَا قاله هو عليه الصلاة والسلام لأصحابه. وردَّه صاحبُ «التقريب» بأنه كيف يدخل في كلامه تعالى ما ليس منه بدون حكاية. ودُفِعَ بأنَّ المرادَ أنَّ جوابَ القَسَم بيانٌ للرؤيا، وقائلها في المنام المَلَك، وفي اليقظة الرسول ﷺ، فهي في حُكم المَحْكي في دقيق النظر، كأنه قيل: وهي قول المَلَك أو الرسول: لَتدخُلُنَّ.. إلخ، وأنت تعلم أنَّ هذا وإن صحح النظم الكريم لا يدفع البعد، وقد اعترض به على ذلك صاحبُ «الكشف» لكنه ادَّعى أنَّ كونَه حكايةً ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أقلُّ بُعداً من جَعْله من قول المَلَك.

وقال أبو عُبيدة وقوم من النُّحاة: «إنْ» بمعنى «إذْ»، وجعلوا من ذلك قولَه تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقوله ﷺ في زيارة القبور: «أنتم السابقون وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكم لاحقون»(١)، والبصريون لا يرتضون ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال كـ «آمنين» من الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين من قوله تعالى: «لَتَدخُلُنَّ»، إلا أنَّ «آمنين» حالٌ مقارِنة، وهذا حالٌ مُقدَّرة؛ لأنَّ الدخولَ في حال الإحرام لا في حال الحَلْق والتقصير، وجُوِّز أن يكونَ حالاً من ضمير «آمنين» والمراد: مُحلِّقاً بعضكم رأسَ بعض ومُقصِّراً آخرون، ففي

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤٧١)، ومسلم (٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

الكلام تقديرٌ، أو فيه نسبةُ ما للجزء إلى الكُلّ، والقرينةُ عليه أنه لا يجتمع الحَلْق - وهو معروف - والتقصير وهو أخذُ بعض الشعر، فلا بدَّ من نسبة كلٍّ منهما لبعضٍ منهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من فاعل «لتدخلُنَّ» أيضاً لبيان الأمْنِ بعد تمام الحَجِّ، و«آمنين» فيما تقدَّم لبيان الأمن وقت الدخول، فلا تكرار، أو حال من الضمير المُستتر في «آمنين»، فإنْ أُريدَ به معنى «آمنين» كان حالاً مُؤكِّدة، وإنْ أُريد لا تخافون تَبِعةً في الحَلْق أو التقصير ولا نقصَ ثوابٍ، فهو حال مُؤسِّسة. ولا يخفى الحالُ إذا جُعِلَ حالاً من الضمير في «مُحلِّقين» أو «مُقَصِّرين».

وجُوِّز أن يكون استئنافاً بيانيًّا في جواب سؤال مُقدَّر، كأنه قيل: فكيف الحالُ بعد الدخول؟ فقيل: لا تخافون، أي: بعد الدخول.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ الحَلْق غير متعيّن في النُسك، بل يُجزئ عنه التقصير، وظاهرُ تقديمه عليه أنه أفضلُ منه، وهو الذي دلَّت عليه الأخبار في غير النِّساء؛ أخرج الشيخان وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفِرْ لِلمُحلِّقين» قالوا: يا رسولَ الله، والمقصرين؟ قال: «اللهم اغفِرْ للمحَلِّقين» ثلاثاً، قالوا: يا رسولَ الله، والمُقصِّرين؟ قال: «والمُقصِّرين»[(١)].

وأما في النساء فقد أخرج أبو داود والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس على النساء حَلْقٌ، وإنما على النساء التقصير»[(٢)].

والسُّنَّة في الحَلْق أن يبدأ بالجانب الأيمن، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن أنس أنه رأى النبيَّ ﷺ قال للحلَّاق هكذا، وأشار بيدِه إلى جانب الأيمن[(٣)]، وأن يبلغ به إلى العظمين، كما قال عطاء.

---

(١) صحيح البخاري (١٧٢٨)، وصحيح مسلم (١٣٠٢)، ومسند أحمد (٧١٥٨)، وسنن ابن ماجه (٣٠٤٣).
(٢) سنن أبي داود (١٩٨٥)، وسنن البيهقي ٥/ ١٠٤.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤، وأخرجه أيضاً مسلم (١٣٠٥).

وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن عباس وابن عمر ﵃ أنهما كانا يقولان للحلاق: ابدأ بالأيمن وابلغ بالحَلْق العظمين[١].

واسْتُدلَّ بالآية أيضاً على أنَّ التقصير بالرأس دون اللحية وسائرِ شعر البدن، إذ الظاهرُ أنَّ المرادَ: ومُقصِّرين رؤوسكم، أي: شعرها، لظهور أن الرؤوس أنفسها لا تُقَصَّر.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ الظاهرُ عَطْفُه على «لقد صدق» فالترتيبُ باعتبار التعلُّق الفعلي بالمعلوم، أي: فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحِكمة الداعيةِ لتقديم ما يشهدُ للصِّدقِ علماً فعليًّا، وقيل: الفاء للترتيب الذِّكري.

﴿فَجَعَلَ﴾ لأجل هذا العلم ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من دون تحقُّق مِصداقِ ما أراه من دخول المسجدِ الحرام آمنين.. إلخ، وقيل: أي: من دون فتح مكة. والأولُ أظهر، وهذا أنسبُ بقوله تعالى: ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو فتحُ خيبر، كما قال ابن زيد وغيره، والمراد بجعله وعده تعالى وإنجازه من غير تسويف ليستدلَّ به على صدقِ الرؤيا وتستروحَ قلوبُ المؤمنين إلى تيسُّر وقوعها.

وقال في «الكشاف»: «ما لم تعلموا» أي: من الحِكمة في تأخيرِ فتح مَكَّةَ إلى العام القابل[٢]. وفيه أمران: الأول: أن فتحَ مكةَ لم يقع في العام الذي قاله، بل في السنةِ الثامنة، والتجوُّز في العامِ القابل، أو تأويل الفتح بدخول المؤمنين مكة معتمرين لا يخفى حاله. الثاني: إباء الفاء عمَّا ذكر؛ لأنَّ عِلْمه تعالى بِذلك مُتقدِّم على إراءة الرؤيا قطعاً.

وأجيب عن هذا بالتزام كون الفاء للترتيب الذِّكري، أو كون المراد: فأَظهر معلومَه لكم، وهو الحِكْمة، فتدبَّر.

ونُقل عن كثير من الصحابة ﵃ أن الفتحَ القريبَ في الآية هو بيعةُ الرِّضوان، وقال مجاهد وابن إسحاق: هو فتح الحديبية. ومن الغريب ما قيل: إنَّ المرادَ به

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٠.

فتحُ مكةَ، مع أنه لم يكن دون دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه مكة[١]، على أنه مُنافٍ للسِّياق كما لا يخفى.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: مُلتبساً به، على أنَّ الباء للملابسة، والجارّ والمجرور في موضع الحال من المفعول، والتباسه بالهُدى بمعنى أنه هادٍ، وقيل: أي: مصاحباً للهُدى، والمرادُ به الدليل الواضح والحُجَّة الساطعة، أو القرآن، وجُوِّز أن تكون الباء للسببية أو للتعليل، وهما متقاربان، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «أرسل»، أي: أرسله بسبب الهُدى أو لأَجْله.

﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، والظاهرُ أنَّ المرادَ به ما يعمُّ الأصولَ والفروع، وجُوِّز أن يُرادَ بالهُدى الأصول، وبدين الحقِّ الفروع. فإنَّ من الرُّسل عليهم السلام من لم يُرسَل بالفروع، وإنما أُرسل بالأصول وبيانها[٢]، والظاهرُ أن المرادَ بالحقِّ نقيضُ الباطل، وجوّز فيه أن يرادَ به ما هو من أسمائه تعالى، أي: ودين الله الحقّ، وجوَّز الإمامُ[٣] غيرَ ذلك أيضاً.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ ليُعليه على جنس الدين بجميع أفراده، أي: ما يدان به من الشرائع والملل، فيشمل الحقَّ والباطل، وأصلُ الإظهار: جعلُ الشيء على الظَّهر، فلذا كَنَى به عن الإعلاء وعن جَعْله بادياً للرائي، ثم شاع في ذلك حتى صار حقيقةً عُرفية، وإظهارُه على الحقِّ بنسخ بعضِ أحكامه المُتبدِّلة بتبدُّل الأعصار، وعلى الباطل ببيانِ بُطلانه، وجوَّز غيرُ واحد ـ ولعلَّه الأظهر بحسب المقام ـ أن يكون إظهارُه على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهلِ الأديان، وقالوا: ما من أهل دينٍ حاربوا المسلمين إلا وقد قهرهم المسلمون، ويكفي في ذلك استمرارُ ما ذكر زماناً معتدًّا به كما لا يخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع.

---

(١) في (م): مع أنه لم يكن دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه دون مكة، وهو خطأ، والمثبت من الأصل والبحر ٨/١٠١، وزاد: بل كان بعد ذلك.

(٢) في (م): وتبيانها.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/١٠٦.

وقيل: إنَّ تمام هذا الإعلاء عند نزول عيسى عليه السلام وخروجِ المَهدي رضي الله عنه حيث لا يبقى حينئذ دينٌ سوى الإسلام، ووقوعُ خلاف ذلك بعدُ لا يضرُّ؛ إما لنحو ما سمعتَ، وإما لأنَّ الباقي من الدنيا إذْ ذاك كَلَا شيءٍ. وفي الجملة فضلُ تأكيد لما وعدَ الله تعالى به من الفَتْح، وتوطينٍ لنفوس المؤمنين على أنه تعالى سيفتح لهم من البلاد ويُتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلُّون بالنسبة إليه فتحَ مكة.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ على أنَّ ما وعده[1] عز وجل من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتحِ كائنٌ لا محالَة، أو: كفى بالله شهيداً على رسالته ﷺ، لأنه عليه الصلاة والسلام ادَّعاها وأَظهَرَ اللهُ تعالى المُعجزة على يدِه، وذلك شهادةٌ منه تعالى عليها، واقتصر على هذا الوجه الرازي[2]، وجعل ذلك تسليةً عمَّا وقع من سُهيل بن عمرو إذ لم يرضَ بكتابة: محمدٌ رسولُ الله، وقال ما قال.

وجعل بعضُ الأفاضل إظهارَ المعجزة شهادةً منه تعالى على تحقُّق وَعْدِه عز وجل أيضاً، ولا يَظهر إلا بضمِّ إخباره عليه الصلاة والسلام به.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: هو - أو الرسولُ المُرسَل بالهُدَى ودين الحقِّ - محمدٌ، على أنَّ الاسم الشريفَ خبرُ مبتدأ محذوف، و«رسول الله» عطفُ بيانٍ أو نعت أو بدل، والجملة استئنافٌ مُبيِّنٌ لقوله تعالى: «هو الذي أرسل رسولَه» وهذا هو الوجهُ الأرجح الأنسبُ بالمَساق كما في «الكشف»، ويُؤيِّده نظراً إلى بعض ما يأتي من الأوجه إنْ شاءَ اللهُ تعالى قراءةُ ابن عامر في روايةٍ: «رسولَ» بالنصب على المَدْح[3]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ، خبره قوله سبحانه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ «محمدٌ رسولُ الله» مبتدأ وخبر[4]. والجملةُ عليه مُبيِّنة للمشهود به، أما على كونه الرسالة فظاهر، وأما على كونه محقَّق الوعد فقيل:

---

(١) في (م): ما عده.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/١٠٧.
(٣) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/١٠١، وهي غير المشهورة عن ابن عامر.
(٤) البحر المحيط ٨/١٠١.

لأن كينونة ما وعدَه لازمةٌ لكونه عليه الصلاة والسلام رسولَ الله، إذْ هو لا يُوعَد إلا بما هو محقَّق، ولا يُخْبِر إلا عن كلِّ صِدْق.

وجوز كون «محمد» مبتدأ، و«رسول» تابعاً له، «والذين معه» عطفاً عليه، والخبر عنه وعنهم قوله تعالى: «أشداءُ» إلخ.

وقرأ الحسن: «أشداءَ»، «رحماءَ» بنصبهما[1]، فقيل: على المدح، وقيل: على الحال، والعامل فيهما العامل في «معه»، فيكون الخبر على هذا الوجه جملة «تراهم» الآتي، وكذا خبر «الذين» على الوجه الأول.

والمرادُ بـ «الذين معه» عند ابن عباس من شهد الحُديبية. وقال الجمهور: جميع أصحابه ﷺ و﵃. و«أشداء» جمع: شديد، و«رحماء» جميع: رحيم، والمعنى: إن فيهم غِلْظةً وشِدَّة على أعداء الدين، ورحمةً ورِقَّة على إخوانهم المؤمنين.

وفي وصفهم بالرحمة بعد وَصْفهم بالشِّدَّة تكميلٌ واحتراسٌ، فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربمَّا تُوُهِّم أن مفهومَ القيد غير مُعتبر، فيتوهَّم الفَظاظة والغِلظة مطلقاً، فدفع بإردافِ الوصف الثاني، ومآلُ ذلك أنهم مع كونهم أشداءَ على الأعداء رحماءُ على الإخوان، ونحوه قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وعلى هذا قوله:

حليمٌ إذا ما الحِلم زيَّن أهلَه ... على أنه عند العدوِّ مَهيب[2]

وقد بلغ كما رُوي عن الحسن من تشدُّدهم على الكُفَّار أنهم كانوا يتحرَّزون من ثيابهم أنْ تَلزَقَ بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمسَّ أبدانَهم، وبلغ من ترحُّمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمنٌ مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء؛ أخرج أبو داود عن البراء قال: قال

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٣، والمحتسب ٢/ ٢٧٦.

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في ديوان المعاني ٢/ ١٧٨٢، والخزانة ١٠/ ٤٣٥، ورواية عجزه فيهما:

مع الحلم في عين العدو مهيب

رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحَمِدا اللهَ واستغفراه غُفِرَ لهما»، وفي رواية الترمذي: «ما مِنْ مسلمين يَلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبلَ أن يتفرَّقا»[١]. وفي «الأذكار النووية» أنها مستحبَّةٌ عند كلِّ لقاء، وأما ما اعتاده الناسُ بعد صلاتَي الصُّبح والعصر فلا أصلَ له، ولكن لا بأسَ به، فإنَّ أصلَ المصافحةِ سنةٌ، وكونهم محافظين عليها في بعض الأحوال ومُفرِّطين في كثير منها لا يُخرجُ ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرعُ بأصلها[٢]. وجعل ذلك العز بن عبد السلام في «قواعده»[٣] من البدع المباحة، وأطال الشيخ إبراهيم الكوراني قُدِّس سِرُّه الكلامَ في ذلك.

وأما المعانقةُ؛ فقال الزمخشري[٤]: كرهها أبو حنيفة ﷺ، وكذلك التقبيل قال: لا أُحِبُّ أنْ يُقَبِّل الرجلُ من الرجل وَجْهه ولا يدَه ولا شيئاً من جسده، ورخَّص أبو يوسف عليه الرحمة المعانقة؛ ويُؤيِّد ما رُوي عن الإمام ما أخرجه الترمذي عن أنس قال: سمعتُ رجلاً يقول لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، الرجلُ منَّا يلقى أخاه، أينحني له؟ قال: «لا»، قال: أفيلتزمه ويُقَبِّله؟ قال: «لا»، قال: أيأخُذ بيده ويُصافحه؟ قال: «نعم»[٥].

وفي «الأذكار»: التقبيل وكذا المعانقة لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه، ومكروهٌ كراهةَ تنزيهٍ في غيره، وللأمرد الحسن حرامٌ بكلِّ حال[٦].

أخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ عن عائشةَ قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثة[٧] المدينةَ

---

(١) سنن أبي داود (٥٢١١)، وسنن الترمذي (٢٧٢٧).
(٢) أذكار الإمام النووي ص٢٢٧.
(٣) قواعد الأحكام ص١٧٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٥٠.
(٥) سنن الترمذي (٢٧٢٨)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٣٠٤٤) وفي إسناده: حنظلة بن عبيد الله الدوسي، وهو ضعيف ـ كما في التقريب ـ وقد استنكر له الإمام أحمد هذا الحديث كما في الجرح والتعديل ٣/ ٢٤١.
(٦) الأذكار النووية ص٢٢٦.
(٧) في الأصل: زيد بن خالد بن حارثة.

ورسولُ الله في بيتي، فقرعَ البابَ، فقام إليه رسولُ الله ﷺ يجرُّ ثوبَه فاعتنقه وقَبَّله[١]. وزاد رَزِين في حديث أنس السابق بعد قوله: ويُقَبِّله: قال: «لا، إلا أن يأتي من سفر»[٢]، وروى أبو داود: سُئل أبو ذرٍّ: هَل كان ﷺ يُصافحكم إذا لَقِيتموه؟ قال: ما لَقِيتُه قطُّ إلا صافحني، وبعث إليَّ ذاتَ يوم ولم أكن في أهلي، فجئتُ فأُخبرت أنه ﷺ أرسلَ إليَّ، فأتيته وهو على سريره فالتزمني، فكانت أجودَ وأجودَ[٣]. وهذا يُؤيِّد الإطلاق المَحكيَّ عن أبي يوسف.

وينبغي التأسِّي بهم ﷺ في التشدُّد على أعداء الدين والرحمة على المؤمنين. وقد أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود عن عبد الله بن عمرو[٤] مرفوعاً: «من لم يَرْحَمْ صغيرَنا ويعرِفْ حقَّ كبيرنا فليس منا»[٥] وأخرجا هما وأحمد وابن حبان والترمذي ـ وحسَّنه ـ عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تُنزَعُ الرحمةُ إلا مِنْ شَقِيٍّ»[٦]. ولا بأس بالبِرِّ والإحسان على عدوِّ الدين إذا تضمَّن مصلحةً شرعية، كما أفاد ذلك ابنُ حجر في «فتاويه الحديثية»[٧]. فليراجع.

وقرأ يحيى بن يعمر: «أشدَّا» بالقصر، وهي قراءة شاذةٌ[٨]، لأنَّ قصرَ الممدود في الشعر نحو قوله:

لا بـدَّ مـن صـنـعـا وإنْ طـال الـسَّـفـر[٩]

---

(١) سنن الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الزهري إلا من هذا الوجه.

(٢) لم نقف على هذه الزيادة.

(٣) سنن أبي داود (٥٢١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٤٧٦).

(٤) في الأصل: عن عبد الله، وفي (م): عن عبد الله بن عمر، والمثبت من المصادر.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢١٤، وسنن أبي داود (٤٩٤٣)، وهو في مسند أحمد (٦٧٣٣).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢١٤، وسنن أبي داود (٤٩٤٢)، ومسند أحمد (٨٠٠١)، وصحيح ابن حبان (٤٦٢)، وسنن الترمذي (١٩٢٤).

(٧) لم نقف على ذلك في المطبوع منها.

(٨) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٩) ذكره ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/ ٥١٧، وأبو حيان في البحر ٨/ ١٠٠ ولم ينسباه.

وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ خبرٌ آخر لـ «الذين»، أو استئناف، ويجوزُ فيه غيرُ ذلك على ما لا يخفى. والرؤية بصرية، والخِطابُ لكلِّ مَنْ تتأتَّى منه، و«ركَّعاً سجداً» حالٌ من المفعول، والمرادُ: تراهم مُصَلِّين، والتعبير بالركوع والسجود عن الصلاة مَجازٌ مرسل، والتعبير بالمضارع للاستمرار وهو استمرارٌ عُرفي، ومن هنا قال في «البحر»[(١)]: هذا دليلٌ على كَثْرة الصلاة منهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ثواباً ورضًا، والجملةُ إما خبرٌ آخرُ، أو حالٌ من مفعول «تراهم»، أو من المُستتر في «ركعا سجداً»، أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلاً.. إلخ.

وقرأ عمرو بن عُبيد: «ورُضواناً» بضمِّ الراء[(٢)].

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: علامتهم، وقُرئ: «سيمياؤهم» بزيادة ياء بعد الميم والمَدّ[(٣)]، وهي لغةٌ فصيحة كثيرة في الشعر، قال الشاعر:

غلامٌ رماه اللهُ بالحُسْنِ يافعاً ... له سيمياءُ لا تشقُّ على البَصَرْ[(٤)]

وجاء: سيماء بالمدِّ، واشتقاقها من السُّومة بالضَّمِّ: العلامة تُجعل على الشاةِ، والياء مُبدلة من الواو، وهي مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي: في جِباههم، أو هي على ظاهرها، وقوله سبحانه: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال من المُستكنِّ في الجارِّ والمجرور الواقع خبراً لـ «سيماهم»، أو بيانٌ لها، أي: سيماهم التي هي أثرُ السجود، ووجهُ إضافة الأثر إلى السجود أنه حادثٌ من التأثير الذي يُؤثره السجود، وشاع تفسيرُ ذلك بما يحدثُ في جبهة السجَّاد مما يُشبه أَثَرَ الكَيّ وثَفِنَة البعير، وكان كلٌّ من العَلِيَّين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك رضي الله عنهما يقال له: ذو الثَّفِنات، لأنَّ كثرةَ سجودهما أحدثَ في

(١) البحر المحيط ٨/ ١٠٢.
(٢) البحر ٨/ ١٠٢، وذكرها صاحب النشر ٢/ ٢٣٨ عن شعبة.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٢، وما بعده منه أيضاً.
(٤) البيت لابن عنقاء الفزاري، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٨٨.

مَواقعهِ منهما أشباه ثَفِنات البعير، وهي ما يقعُ على الأرض من أعضائه إذا غلظ.

وما رُوي من قوله ﷺ: «لا تعلبوا صوركم»[١]، أي: لا تَسِموها، مِنَ العَلْب - بفتح العين المهملة وسكون اللام - الأثَر، وقولِ ابن عمر وقد رأى رجلاً بأنفه أثرُ السجود: إنَّ صورةَ وجهك أنفك، فلا تَعْلُب وجهك ولا تَشِنْ صورتك[٢] = فذلك إنما هو إذا اعتمد بجبهته وأنفه على الأرض لِتَحدُثَ تلك السِّمة وذاك محضُ رياء ونِفاق يُستعاذُ بالله تعالى منه، والكلام فيما حدث في وجه السّجّاد الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله عز وجل.

وأنكر بعضُهم كونَ المراد بالسِّيما ذلك؛ أخرج الطبراني والبيهقي في «سننه» عن حُميد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد إذْ جاء رجل وفي وجهه أثر السجود، فقال: لقد أفسد هذا وجهه، أما واللهِ ماهي السِّيما التي سمَّى الله تعالى، ولقد صلَّيتُ على وجهي منذ ثمانين سنة ما أثَّر السجود بين عينيَّ[٣]. وربما يحمل على أنه استشعرَ من الرجل تَعمُّداً لذلك، فنفى أنْ يكون ما حصل به هو السِّيما التي سمَّى الله تعالى، ونظيره ما حُكي عن بعض المتقدِّمين قال: كُنَّا نُصلِّي فلا يُرى بين أعيننا شيء، ونرى أحدَنا الآن يُصلِّي فترى بين عينيه ركبةَ البعير، فما ندري أثقُلَت الأرؤس أم خَشُنَت الأرض.

وأخرج ابن جرير[٤] وجماعة عن سعيد بن جُبير أنه قال: هذه السِّيما نَدَى الطَّهور وتراب الأرض. ورُوي نحوه عن سعيد بن المُسيَّب.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: ليس له أثر في الوجه، ولكنه الخشوع. وفي رواية: هي الخشوع والتواضع[٥]. وقال

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٤: لم أجده مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن الجعد في مسنده (٢٢٧٣). وقوله: لا تعلب، أي: لا تؤثر فيه بشدة اتكائك على أنفك في السجود. النهاية (علب).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والمعجم الكبير (٦٦٨٥)، وسنن البيهقي ٢/ ٢٨٧.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٥، وأخرجه أيضاً البيهقي ٢/ ٢٨٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٤.

منصور: سألت مجاهداً: أهذه السِّيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، وقد يكون مثلَ ركبة البعير، وهو أقسى قلباً من الحِجارة.

وقيل: هي صُفرة الوجهِ من سهر الليل، ورُوي ذلك عن عكرمة والضحاك.

وروى السُّلمي عن عبد العزيز المَكّي: ليس ذاك هو النُّحول والصُّفرة، ولكنه نورٌ يظهرُ على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبيَّن ذلك للمؤمنين، ولو كان في زنجي أو حبشي[١].

وقال عطاء والربيع بن أنس: هو حُسنٌ يعتري وجوه المُصلِّين. وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: السَّمتُ الحَسَن[٢]. وعن بعضهم: ترى على وجوههم هيبةً؛ لِقُرب عهدهم بمناجاة سيِّدهم.

والذاهبون إلى هذه الأقوال قائلون: إنَّ المرادَ: علامتهم في وجوههم وهم في الدنيا. وقال غير واحد: هذه السِّيما في الآخرة، أخرج البخاري في «تاريخه» وابن نَصْر عن ابن عباس أنه قال في الآية: بياضٌ يغشى وجوهَهم يومَ القيامة[٣]. وأخرج ابن نصر وعبد بن حُميد وابن جرير عن الحسن مثله[٤].

وأخرجوا عن عطية العوفي قال: موضعُ السجود أشدُّ وجوههم بياضاً[٥].

وأخرج الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» وابن مردويه بسند حسن عن أُبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾: «النورُ يومَ القيامة»[٦]. ولا يبعدُ أن يكونَ النورُ علامةً في وجوههم في الدنيا والآخرة، لكنه لما كان في الآخرة أظهرَ وأتمَّ خصَّه النبيُّ ﷺ بالذِّكر، وإذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي.

---

(١) تفسير السلمي ٢/ ٢٥٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٣، وسنن البيهقي الكبرى ٢/ ٢٨٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والتاريخ الكبير ٣/ ٢١.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٣.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٢.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والمعجم الأوسط (٤٤٦٤)، والمعجم الصغير (الروض الداني)(٦١٩).

وقرأ ابنُ هرمز: «إِثْر» بكسر الهمزة وسكون الثاء[1]، وهو لغة في أَثَر.

وقرأ قتادة: «من آثار» بالجمع[2].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من نُعوتهم الجليلة؛ وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلوِّ شأنه وبُعد منزلته في الفضل، وقيل: البعدُ باعتبار المبتدأ، أعني «أشداء»، ولو قيل: هذا، لتُوُهِّمَ أنَّ المُشارَ إليه هو النعتُ الأخير، أعني: «سيماهم في وجوههم من أثر السجود». وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وصفُهم العجيب الشأن الجاري في الغَرابة مجرى الأمثال. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حالٌ من «مَثَلُهم»، والعاملُ معنى الإشارة؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على «مَثَلُهم» الأول، كأنه قيل: ذلك مَثَلُهم في التوراة والإنجيل، وتكرير «مَثَلُهم» لتأكيدِ غرابته وزيادة تقريرها.

وقُرئ: «الأَنجيل» بفتح الهمزة[3].

وقوله عز وجل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ إلخ، تمثيلٌ مستأنف، أي: هم، أو: مَثَلُهم كزرع. . إلخ، فالوقفُ على «الإنجيل» وهذا مرويٌّ عن مجاهد. وقيل: «مَثَلُهم» الثاني مبتدأ، وقوله تعالى: «كزرع» إلخ خبرُه، فالوقف على «التوراة» وهذا مرويٌّ عن الضحاك وأبي حاتم وقتادة. وجُوِّز أن يكون «ذلك» إشارةً مُبهمة أُوضحت بقوله تعالى: «كزرع» إلخ، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]. فعلى الأول والثالث «مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل» شيءٌ واحدٌ إلا أنه على الأول «أشداء على الكفار رحماء بينهم» إلخ، وعلى الثالث «كزرع أخرج شطأه» إلخ، وعلى الثاني «مثلهم في التوراة» شيء وهو «أشداء» إلخ، ومثلُهم في الإنجيل شيء آخر وهو «كزرع» إلخ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٠٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٠، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٢، والكشاف ٣/ ٥٥١.

واعتُرض الوجه الثالث بأنَّ الأصلَ في الإشارة أن تكون لمتقدِّم، وإنما يُشار إلى المتأخِّر إذا كان نعتاً لاسم الإشارة نحو ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢]، وفيه أن الحَصْر ممنوعٌ.

والشَّطْءُ: فروخُ الزرع ـ كما قال غير واحد ـ وهو ما خرج منه وتفرَّع في شاطئيه، أي: في جانبيه؛ وجمعه ـ كما قال الراغب[١] ـ أشطاء. وقال قطرب: شوكُ السُّنبل، يخرج من الحبَّة عشرُ سُنبلات وتسع وثمان. وقال الكسائي والأخفش: طَرَفُه، وأنشدوا:

أَخرجَ الشَّطْءَ على وجه الثَّرى ومن الأشجار أفنانَ الثَّمَرْ[٢]

وزعم أبو الفتح[٣] أنَّ الشطء لا يكونُ إلا في البُرِّ والشعير، وقال صاحب «اللوامح»: شَطَأ الزرعُ وأَشْطَأ: إذا أخرجَ فِراخَه، وهو في الحِنْطة والشعير وغيرهما، وفي «البحر»[٤]: أشطأ الزرع: أفرخ، والشجرة: أخرجَتْ غُصونَها.

وفي «القاموس»: الشَّطءُ: فراخُ النخل والزرع، أو: ورقُه، جمعه: شُطوء، وشَطَأ ـ كمنع ـ شَطْأً وشطوءاً: أخرجها، ومن الشجر ما خرج حولَ أصله، وجمعه: أشطاء، وأشطأ: أخرجها[٥]. اهـ. وفيه ما يُرَدُّ به على أبي الفتح مع زيادة لا تخفى فائدتُها، فلا تَغْفُلْ.

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان: «شَطَأه» بفتح الطاء[٦]. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عَبْلة وعيسى الكوفي كذلك وبالمَدّ[٧]. وقرأ زيدُ بن عليٍّ كذلك أيضاً وبألف بدل الهمزة[٨]، فاحتمل أن يكون مقصوراً، وأن يكون أصلُه الهمزَ، فنقل الحركة وأبدل

---

(١) المفردات (شطا).

(٢) البيت للزبير بن العوام ﷺ، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٧٧.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٨.

(٥) القاموس المحيط (شطأ).

(٦) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٧) أي: «شَطَاءَه». القراءات الشاذة ص ١٤٢، والمحتسب ٢/ ٢٧٦، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٨) أي: «شَطَاه». المحتسب ٢/ ٢٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١٠٢.

الهمزة ألفاً كما قالوا في المرأة والكَمْأة: المراة والكماة، وهو تخفيفٌ مَقِيسٌ عند الكوفيين، وعند البصريين شاذٌّ لا يُقاس عليه.

وقرأ أبو جعفر: «شَطَه» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء، ورُويت عن شيبة ونافع والجحدري[١]. وعن الجحدري أيضاً: «شَطْوَه» بإسكان الطاء وواو بعدَها، قال أبو الفتح: هي لغةٌ أو بدلٌ من الهمزة[٢].

﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: أعانه وقوَّاه، قاله الحسن وغيره. قال الراغب[٣]: وأصله من شَدِّ الإزار، يقال: أَزرته، أي: شددت إزاره، ويقال: آزرت البناء وأزرته: قوَّيت أسافله، وتأزَّر النبات: طال وقَوِي.

وذكر غيرُ واحد أنه إما من المؤازرة بمعنى المعاونة، أو من الإيزار، وهي الإعانة. وفي «البحر»[٤]: «آزر» أَفْعَلَ، كما حُكي عن الأخفش، وقول مجاهد وغيره: فاعَلَ، خطأ؛ لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يُؤْزِر على وزن يُكرِم دون يُؤازِر. وتُعقِّب بأنَّ هذه شهادةُ نفي غيرُ مسموعة، على أنه يجوز أن يكونَ ورد من بابين، واستغني بأحدهما عن الآخر، ومثله كثير، مع أن السرقسطي نقله عن المازني، لكنه قال: يقال: آزر الشيءُ غيرَه، أي: ساواه وحاذاه، وأنشد لامرئ القيس:

بِمَحْنِيةٍ قد آزرَ الضَّالَ نَبْتُها ... مَجَرَّ[٥] جيوش غانمين وخُيَّبِ[٦]

وجعل ما في الآية من ذلك، وهو مرويٌّ أيضاً عن السدي قال: آزره: صار

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ١٠٣، والكلام منه، وهي غير المشهورة عن أبي جعفر ونافع.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٧، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٣) المفردات (أزر).

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٠٣.

(٥) في الأصل و(م): بجر، والمثبت من الديوان.

(٦) ديوان امرئ القيس ص٤٥، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي، وهو أخصب موضع فيه. وقوله: مجرّ جيوش: أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانم وخائب، فلا ينزلها أحد ليرعاها خوفاً من الجيوش، فذلك أوفر لخصبها وأتم لكلئها.

مثلَ الأصل في الطول. والجمهور على ما نقل أولاً، والضمير المرفوعُ في «آزره» للشطء، والمنصوب للزرع، أي: فَقَوَّى ذلك الشطءُ الزرعَ.

والظاهر أنَّ الإسناد في «أخرج» و«آزر» مجازيٌّ. وكون ذلك من الإسناد إلى المُوجب، وهو حقيقةٌ، على ما ذهب إليه السيالكوتي في «حواشيه» على «المطول» حيث قال في قولهم: سرَّتني رؤيتك: هذا القول مجازٌ إذا أريد منه حصولُ السرور عند الرؤية، أما إذا أُريد منه أن الرؤية مُوجبةٌ للسرور فهو حقيقةٌ = لا يخفى حاله.

وقرأ ابن ذكوان: «فأَزَرَهُ» ثلاثيًّا[1].

وقُرِئ: «فأزَّره» بشدِّ الزاي[2]، أي: فشدَّ أزره وقوَّاه.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدِّقة إلى الغِلَظ، وهو من باب: اسْتَنْوَقَ الجملُ، ويحتمل أن يُرادَ المبالغة في الغِلَظ كما في استعصم ونحوه، وأُوثر الأول؛ لأنَّ المَساق يُنبئ عن التدرُّج.

﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقامَ على قصبه وأُصوله، جمع: ساق، نحو: لابة ولوب، وقارة وقور.

وقرأ ابن كثير: «سؤقه» بإبدال الواو المضموم ما قبلَها همزة[3]، قيل: وهي لغةٌ ضعيفة، ومن ذلك قوله:

أَحَبُّ المُؤْقِدين إليَّ مؤسى[4]

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بقوَّته وكثافته وغِلَظه وحسن منظره، والجملة في موضع الحال، أي: مُعجباً لهم، وخصَّهم تعالى بالذِّكر لأنه إذا أعجب الزُّرَّاع وهم يعرفون عيوبَ الزرع، فهو أحرى أن يُعجِبَ غيرهم، وهنا تمَّ المَثَل، وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى

---

(١) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥١، والبحر المحيط ٨/ ١٠٣.

(٣) التيسير ص ١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨، والبحر ٨/ ١٠٣.

(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٨٨، وفيه: لحبُّ الواقدان. وعجز البيت: وجعدة لو أضاءهما الوقود. وسلف ١٩/ ٤٦٠.

للصحابة رضي الله عنهم قلُّوا في بدء الإسلام ثم كَثُروا واستحكموا، فترقَّى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس، وهذا ما اختاره بعضُهم، وقد أخرجه ابنُ جرير وابن المنذر، عن الضحاك. وابن جرير وعبد بن حُميد عن قتادة(١)، وذكر عنه أنه قال أيضاً: مكتوبٌ في الإنجيل: سيخرجُ قومٌ ينبتون نباتَ الزرع، يخرجُ منهم قومٌ يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المُنكر.

وفي «الكشاف»(٢): هو مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لبدء مِلَّة الإسلام وترقِّيه في الزيادة إلى أنْ قَويَ واستحكم؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قام وحدَه، ثم قوَّاه اللهُ تعالى بمن معه كما يقوِّي الطاقة الأولى [من الزرع] ما يحتفُّ بها مما يتولَّد منها.

وظاهرُه أنَّ الزرعَ هو النبيُّ ﷺ، والشَّطءَ أصحابُه رضي الله عنهم، فيكون مَثَلاً له عليه الصلاة والسلام وأصحابه، لا لأصحابه فقط كما في الأول، ولكلٍّ وجهة. وروي الثاني عن الواقدي. وفي خبر أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس(٣) ما يقتضيه.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ عِلَّةٌ لما يُعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على الوجهِ الذي تضمَّنه التمثيل. وظاهرُ كلامِ بعضهم أنه عِلَّةٌ للتمثيل، وليس بذاك.

وقيل: عِلَّةٌ لما بعدَه من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ فإنَّ الكفَّار إذا سمعوا بما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العِزَّة غاظَهم ذلك. وهو مع توقُّف تمامِيَّته بحسب الظاهر على كون الكفار مستيقنين بالآخرة ومُتحقِّقين كونَ الوعدِ منه عز وجل = بعيدٌ.

وضمير «منهم» لمن عاد عليه الضمائر السابقة، و«من» للبيان مثلها في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وليس مجيئها كذلك

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٠ و٣٣٢.
(٢) ٣/ ٥٥١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣١.

مخصوصاً بما إذا كانت داخلةً على ظاهر كما توهَّم صاحبُ «التحفة الاثني عشرية» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] فقال: حملُ «مِنْ» للبيان إذا كان داخلاً على الضمير مخالفٌ لاستعمال العرب، وأنكر ذلك عليه صاحبُ الترجمة لكن قال: لو ادَّعى هذا الخلاف في ضميري الخطاب والتكلّم لم يَبْعُدْ.

ومن مجيئها للبيان داخلة على ضمير الغائب قوله تعالى: (لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ) عند القائلين بأنَّ ضميرَ «تزيَّلوا» للمؤمنين لا للتبعيض كما يقوله الشيعة الزاعمون ارتدادَ أكثرِ الصحابة رضي الله عنهم من أهل بيعة الرضوان وغيرهم، فإنَّ مدحَهم السابق بما يدلُّ على الاستمرار التجددي كقوله تعالى: (تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) ووصفهم بما يدلُّ على الدوام والثَّبات كقوله سبحانه: (وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ) يأبى التبعيض والارتدادَ الذي زعموه عند مَن له أدنى إنصافٍ وشمةٍ من دين، ويزيدُ زعمَهم هذا سقوطاً عن درجةِ الاعتبار أن مَدْحَهم ذاك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ، ولا يكاد عاقلٌ يقبل أنه تعالى أطلق المدحَ وكتبه لأُناس لم يَثْبُتْ على تلك الصفة إلا قليلٌ منهم.

وإذا قلنا: إنَّ هؤلاء الممدوحين هم أهلُ بيعةِ الرضوان الذين بايعوه عليه الصلاة والسلام في الحديبية كما يُشعر به «والذين معه» لا سيما على القول بأنَّ السورةَ بتمامها نزلت عند مُنْصرَفِهِ عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل أن يتفرَّقوا عنه ﷺ، كان سقوطُ ذلك الزعم أَبْيَنَ وأبينَ؛ لأن الارتدادَ الذي يزعُمونه كان لترك مُبايعةِ عليّ كرم الله تعالى وجهه بعد وفاة رسول الله ﷺ مع العلم بالنَّصِّ على خلافتهِ بزعمهم ومبايعةِ أبي بكر رضي الله عنه، وكيف يكون ذلك ارتداداً والله عز وجل حين رضي عنهم عَلِمَ أنهم يَفعلونه؟!

والقولُ بأنه سبحانه إنما رضي عن مُبايعتهم، أو عنهم من حيث المُبايعة، ولم يَرْضَ سبحانه عنهم مطلقاً لأجلها، خلافُ ظاهر الآية، والظاهر ما نفي، ولا يُعكِّر عليه صدور بعضِ المعاصي من بعضهم بعدُ، وإنما يعكِّر صدورُ ما لا يُجامع الرضا أصلاً كالارتداد، والعِياذ بالله تعالى.

وبالجملة جعل «مِنْ» للتبعيض ليتمَّ للشيعة ما زعموه مما يأباه الكتابُ والسنة وكلام العِتْرة. وفي «التحفة الاثني عشرية» من ذلك ما تنشرح له الصدورُ، وتزدادُ به قلوبُ المؤمنين نوراً على نور، ويا سبحان الله أين جعل «مِنْ» للتبعيض من دَعوى الارتداد! ولكن من يُضلل الله فما له من هاد.

وتأخير «منهم» هنا عن «عملوا الصالحات» وتقديم «منكم» عليه في آية «النور» التي ذكرناها آنفاً؛ لأن عمل الصالحات لا ينفكّ عنهم، وذلك ثمَّت لبيان الخُلفاء، والعمل الصالح ليس موقوفاً عليه لاستمرارِ صحة خلافتهم حتى لا ينعزلوا بالفِسق. وقال ابن جرير[1]: «منهم» يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة، فأعاد الضميرَ على معنى الشطء، وكذلك فعل البغوي[2]، ولا يخفى بُعده.

هذا وفي «المواهب» أن الإمام مالكاً قد استنبط من هذه الآية تكفيرَ الروافض الذين يُبغضون الصحابةَ ﷺ، فإنهم يغيظونهم، ومَنْ غاظَه الصحابةُ فهو كافر، ووافقه كثيرٌ من العلماء[3]. انتهى.

وفي «البحر»[4] ذُكر عند مالك رجلٌ ينتقص الصحابةَ، فقرأ مالك هذه الآية، فقال: مَنْ أَصبحَ من الناس في قلبه غيظٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. ويُعلم تكفير الرافضة بخصوصهم. وفي كلامِ عائشة ﵂ ما يُشير إليه أيضاً؛ فقد أخرج الحاكم وصحَّحه عنها في قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قالت: أصحابُ محمد ﷺ أُمروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم[5]. وعن بعض السلف جعل جُمل الآية كلَّ جملةٍ مشيرة إلى معيَّن من الصحابة ﷺ، فعن عكرمة أنه قال: «أخرج شطأه» بأبي بكر، «فآزره» بعمر، «فاستغلظ» بعثمان، «فاستوى على سوقه» بعليّ رضي الله عنهم أجمعين[6].

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٣٣٣.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٨.
(٣) المواهب اللدنية للقسطلاني ٧/ ٢٣.
(٤) ٨/ ١٠٣.
(٥) المستدرك ٢/ ٤٦٢.
(٦) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥١.

وأخرج ابن مردويه، والقاضي أحمد بن محمد الزهري في «فضائل الخلفاء الأربعة» والشيرازي في «الألقاب» عن ابن عباس: «محمد رسول الله والذين معه» أبو بكر، «أشداء على الكفار» عمر، «رحماء بينهم» عثمان، «تراهم ركعاً سجداً» علي كرم الله تعالى وجهه، «يبتغون فضلاً من الله ورضوانا» طلحة والزبير، «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عُبيدة بن الجراح، «ومثلهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أَخرجَ شطأه فآزره» بأبي بكر، «فاستغلظ» بعمر، «فاستوى على سوقه» بعثمان، «يُعجب الزُّرَّاع ليغيظَ بهم الكفار» بعليٍّ كرم الله تعالى وجهه، «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات» جميع أصحاب محمد ﷺ[1].

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه رضي الله عنه أيضاً في قوله تعالى: «كزرع» قال: أصلُ الزرع عبد المطلب، «أخرج شطأه» محمد ﷺ، «فآزره» بأبي بكر، «فاستغلظ» بعمر، «فاستوى على سوقه» بعثمان، «ليغيظ بهم الكفار» بعليٍّ رضي الله عنه[2].

وكلُّ هذه الأخبار لم تصحَّ فيما أرى، ولا ينبغي تخريجُ ما في الآية عليها، وأعتقد أن لكلٍّ من الخلفاء رضي الله عنهم الحظّ الأوفى مما تضمَّنته، ومتى أُريد بالزرع النبيُّ عليه الصلاة والسلام كان حظُّ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه من شطئه أوفى من حظِّ سائر الخلفاء رضي الله عنهم، ولعلَّ مُؤازرته ومُعاونته البدنية بقتل كثيرٍ من الكفرة أعدائه عليه الصلاة والسلام أكثرُ من مُؤازرةِ غيره من الخُلفاء أيضاً، ومع هذا لا ينخدشُ ما ذهب إليه محقِّقو أهل السنة والجماعة في مسألة التفضيل كما لا يخفى على النبيه النبيل، فتأمَّل واللهُ تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يُشير عندهم إلى فتح مكةِ العَماء بإدخال الأعيان الثابتة ظاهرة بنور الوجود فيها، أي:

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٣.
(٢) المصدر السابق.

إظهارها للعِيان لأجله عليه الصلاة والسلام، على أنَّ لام «لك» للتعليل، وحاصِلُه: أَظهرنا العالمَ لأجلك، وهو في معنى ما يَروونه من قوله سبحانه: «لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك»[(١)]. وقيل: يُشير إلى فتح باب قلبه عليه الصلاة والسلام إلى حَضْرة ربوبيته عز وجل بتجلِّي صفات جماله وجلاله، وفتح ما انغلقَ على جميع القلوب من الأسرار، وتفصيل شرائع الإسلام وغير ذلك من فتوحات قلبه ﷺ.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ليستر وجودَك في جميع الأزمنة بوجوده جلَّ وعلا ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإثبات جميع حسنات العالم في صحيفتك، إذ كنتَ العِلَّةَ في إظهاره ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ بدعوة الخَلْق على وجه الجمع والفرق ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ على النفوس الأمَّارة ممن تدعوهم إلى الحقّ ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قلَّما يُشبهه نصرٌ. ومن هنا كان ﷺ أكثرَ الأنبياء عليهم السلام تبعاً، وكان علماءُ أمته كأنبياء بني إسرائيل، إلى غير ذلك مما حصل لأمته بواسطة تربيته عليه الصلاة والسلام لهم، وإفاضة الأنوار والأسرار على نفوسهم وأرواحهم. والمرادُ: ليجمع لك هذه الأمور، فلا تغفل.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فسَّروها بشيء يجمع نوراً وقوة وروحاً بحيث يسكنُ إليه ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر، ويحدثُ عنده القيام بالخِدمة ومحاسبة النفس وملاطفة الخَلْق ومراقبة الحقّ والرِّضا بالقسم والمنع من الشطح الفاحش. وقالوا: لا تنزلُ السكينةُ إلا في قلب نبيٍّ أو وَليٍّ ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ فيحصل لهم الإيمان العِياني والإيمان الاستدلالي البرهاني.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على جميع المخلوقات إذ كنتَ أول مخلوق[(٢)]، ومِن هنا أحاط ﷺ علماً بما لم يُحِطْ به غيره من المخلوقات، لأنه عليه الصلاة والسلام

---

(١) وهو حديث موضوع، ذكره الصغاني في موضوعاته (٧٨).

(٢) هذا كلام صوفي مستنده عندهم حديث: أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر. وهو حديث موضوع، ثم إنه قد ثبت أن أول ما خلق الله القلم، كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ الذي أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧).

شاهد خَلْقَ جميعها، ومِن هذا المقام قال عليه الصلاة والسلام: «كنتُ نبيًّا وآدمُ بين الروح والجسد»[١].

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ إذْ كنتَ أعلمَ الخَلْق بصفات الجمال والجلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ يُشير عندهم إلى كمال فَناء وجوده ﷺ وبقائه بالله عز وجل، وأيّد ذلك بقوله سبحانه: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المتخلِّفون عن السير إلى قتالِ الأنفس الأمَّارة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ من سكان بوادي الطبيعة ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ العوائق والعلائق ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ اطلب من الله عز وجل ستر ذلك عنا ليتأتى لنا السير ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لتمكُّن حُبِّ ذلك في قلوبهم وعدم استعدادهم لدخول غيره فيها:

رَضُوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحبِّ دعوى فما ابتلّوا[٢]

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: إنَّ هاتيك العوائق والعلائق لا تُجديكم شيئاً ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيُجازيكم عليها حسبما تقتضي الحِكْمة.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ﴾ بل حَسِبتم أن لا يرجع العقلُ والقوى الروحانية من السالكين السائرين إلى جهادِ النفس وطلب مغانم التجلِّيات والأنس إلى ما كانوا عليه من إدراك المصالح وتدبير حال المعاش وما تقتضيه هذه النشأة ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ بالله تعالى وشؤونه عز وجل ﴿وَكُنتُمْ﴾ في نفس الأمر ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين في مهالك الطبيعة وسوء الاستعداد.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وهي مغانمُ التجلِّيات ومواهب الحقِّ لأرباب الحَضَرات ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ دعونا نَسْلُكْ مَسْلَكَكم لننالَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة، قال: «وآدم بين الروح والجسد».

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٣٤.

مَنالَكُم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ في حقِّهم من حِرمانهم المغانمَ لسوء استعدادهم ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ حكَم وقضى ﴿مِن قَبْلُ﴾ إذ كنتم في عالم الأعيان الثابتة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ منكرين لذلك ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ ولهذا تمنعوننا عن الاتباع ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولذلك نسبوا الحسد ـ وهو من أقبحِ الصِّفات ـ إلى ذوي النفوس القدسية المطهرة عن جميع الصفات الردية.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ ولا تُتركون سُدى ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم النفس وقواها ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ ينقادون لحكم رسول العقل المُنزَّه عن شوائب الوهم ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ الداعي ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ من أنواع المعارف والتجلِّيات ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب الحرمان والحجاب.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ وهو مَنْ لم يَر في الدار غيره دياراً ﴿حَرَجٌ﴾ في ترك السلوك والجهاد المطلوب منكم، لأنه وراء ذلك ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ وهو مَن فَقَد شيخاً كاملاً سالماً عن عيبٍ في كيفية التسليك والإيصال ﴿حَرَجٌ﴾ في ترك السلوك أيضاً، وهو إشارة إلى ما قالوا من أنَّ تركَ السلوك خيرٌ من السلوك على يدِ ناقص ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ بمرض العِشْق والهيام ﴿حَرَجٌ﴾ في ذاك أيضاً لأنه مجذوبٌ، والجذبة خيرٌ من السلوك.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يُشير إلى المعاهدين على القتلِ بسيف المجاهدة تحت سَمُرَةِ الانفرادِ عن الأهل والمال، ويقال في أكثرِ الآيات الآتية نحو هذا.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أعداءِ الله عز وجل في مقام الفرق ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ لقوة مناسبة بعضهم بعضاً، فهم جامعون لصفتي الجَلال والجمال ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ له عز وجل، وعدمِ السجود لشيء من الدنيا والأخرى، وتلك السِّيما خلعُ الأنوار الإلهية، قال عامر بن عبد قيس: كاد وجهُ المؤمن يُخبِر عن مكنون عمله، وكذلك وجه الكافر.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ ستراً لصفاتهم بصفاته عز وجل ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو أن يتجلّى سبحانه لهم بأعظمِ تجلّياته، إلا فكلُّ شيء دونه جل جلاله ليس بعظيم، وسبحانه مِن إلهٍ رحيمٍ ومَلِكٍ كريم.

(سورة الفتح)

(مدنيّة وهي تسع وعشرون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ الفتح الظفر بالبلد **(عنوة)** أو صلحًا بحرب أو بغير حرب، لأنه مغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به فقد فتح، ثم قيل هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ مِن مكة **(عام الحديبية)** عدة له بالفتح. وجيء به

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (**سورة الفتح، مدنية، وهي تسع وعشرون آية**) وخمسمائة وستون كلمة وألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفًا. **قوله:** (**عنوة**) أي قهرًا. **قوله:** (**عام الحديبية**) هو العام الذي صدّ المشركون فيه رسول الله ﷺ عن العمرة وصالحوه على أن يأتوا العام القابل. رُوِيَ أنه ﷺ خرج من المدينة سنة ست من الهجرة في ذي القعدة يريد العمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار وغيرهما من قبائل العرب. وقيل: ألف وستمائة وساق سبعين بدنة وأحرم من ذي الحليفة ليعلم الناس أنه ما خرج محاربًا وإنما خرج زائرًا البيت ومعظمًا له ولما نزل بوادي الحديبية والحديبية اسم بئر بذلك الوادي وسُمِيَ الوادي باسم تلك البئر بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ رسولًا وأمروهُ أن يقول له ﷺ: إنا لا نرضى أن تدخل علينا مكة عامك هذا احتراز عن أن تقول العرب أنه دخلها عليكم عنوة فإنا لا نرضى

على لفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة (**وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علوّ شأن المخبر عنه وهو الفتح ما لا يخفى**). وقيل: هو فتح الحديبية ولم

بهذا القول أبدًا فارجع عنا عامك هذا وإذا جاء العام القابل نخرج منها فتدخلها بأصحابك فتطوف لعمرتك معهم وتقيمون فيها ثلاثة أيام ثم ترجعون بعدها فلما انتهى الرسول إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح على أن تكون الحرب موضوعة بين الناس عشر سنين وقيل: سنتين يأمن فيهما الناس ويكفّ بعضهم عن بعض إلى انقضاء مدة الصلح فأمر ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فكتب كتاب الصلح وكان سبب رضاهم بالصلح أنه ﷺ لما نزل بالحديبية بعث عثمان إلى قريش يستأذنهم في أن يدخل ﷺ مع أصحابه مكة معتمرين معظمين حرمات البيت غير محاربين فذهب عثمان إليهم فاستأذنهم في ذلك فأبوا أن يَأذنوا له وقالوا: طف أنت إن شئت فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ وحبسوه عندهم ثلاثة أيام ولم يأذنوا له أن يعود إلى رسول الله ﷺ فبقي عندهم ثلاثة أيام فبلغ رسول الله ﷺ والمؤمنين أن عثمان قد قتل فقال ﷺ حين بلغه ذلك الخبر: لا أبرح حتى نأخذ القوم ودعا الناس إلى البيعة وجلس تحت الشجرة فقال لأصحابه: بايعوني على الموت فبايعوه عليه وقال جابر: بايعناه على أن لا نفر ثم رجع عثمان رضي الله تعالى عنه فأخبر أنهم أبوا ذلك وبلغت قضية البيعة إلى قريش فكبرت عليهم وخافوا أن يحاربوا معه فقالوا لسهيل بن عمرو اذهب واردده عنا وصالحه فصالحهم رسول الله ﷺ ثم أمر الناس أن يحلّوا من إحرامهم بدنهم ويحلقوا رؤوسهم ونحر هو أيضًا البدن وحلق رأسه ثم انصرف متوجهًا إلى المدينة حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ [الفتح: الآيات ١ ـ ٤] يعني السكون والطمأنينة في البيعة ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ [الفتح: الآية ٤] تصديقًا مع تصديقهم الذي هم عليه ثم دخلوا في العام القابل سنة سبع وقضوا عمرتهم ثم فتحت مكة سنة ثمان فحجّ أبو بكر سنة تسع ثم حجّ النبيّ ﷺ سنة عشر فلما كان نزول الآية قبل فتح مكة كانت عدة بالفتح. **قوله**: (**وفي ذلك**) أي وفي التعبير عما سيقع بلفظ الماضي (**من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر عنه وهو الفتح ما لا يخفى**) لأن هذا الأسلوب إنما يرتكب في أمر يعظم مناله ويبعد الوصول إليه ولا

يكن فيه قتال شديد ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، فرمى المسلمون المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وسألوا الصلح فكان فتحًا مبينًا. وقال **(الزَّجّاج: وكان في فتح الحديبية آية)** للمسلمين **(عظيمة)**، وذلك أنه **(نزح ماؤها)** ولم يبق فيها قطرة **(فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجّه في البئر فدرت بالماء حتى شرب جميع الناس)**. وقيل: هو فتح خيبر. وقيل: معناه قضينا لك قضاء بيّنًا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من **(الفتاحة)** وهي الحكومة.

يقدر على نيله إلّا من له قهر وسلطان ومن يغلب ولا يغلب ويغالب، ولذلك نرى أكثر أحوال القيامة واردة على هذا المنهاج وفتح مكة من أمهات الفتوح وبه دخل الناس في دين الله أفواجًا. قال العلّامة التفتازاني في حاشيته على الكشّاف. **قوله**: **(وفي ذلك من الفخامة)** لدلالته على كمال العلم والقدرة وجلالة القدر بحيث يستوي عنه الحال والاستقبال وسَعىٰ إليه ما أراد من غير تصوّر مانع لقضائه أو تردد في إمضائه. اهـ بحروفه.

قوله: **(الزجّاج)** هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين وصنّف كتابًا في معاني القرآن الكريم، تُوفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادي الآخرة سنة عشر وقيل: سنة إحدى عشرة وقيل: سنة ست عشرة وثلاثمائة ببغداد رحمه الله تعالى وقد أناف على ثمانين. **قوله**: **(وكان في فتح الحديبية آية عظيمة)** وظهور آية عظيمة سبب للفتح العظيم وبهذا الاعتبار يظهر له مدخل في تسمية صلحها فتحًا. **قوله**: **(نزح ماؤها)** أي ماء بئرها بالكلية حتى لا يبقى قطرة.

قوله: **(فتمضمض رسول الله ﷺ)** الفاء للسببية أي كان ذلك سببًا للمضمضة وما يترتب عليها والظاهر أن المضمضة من الماء الذي نزح أولًا **(ثم مجّه)** أي صبّ الماء الذي في فمه والماء وإن لم يذكر لكن دلّ عليه التمضمض أي صَبَّ الماء **(في البئر)** أي في بئر الحديبية. **قوله**: **(فدرّت)** فكثرت **(بالماء حتى شرب جميع الناس)** وفي البخاري أنه نبع من بين أصابعه ﷺ في الركوة ولا منافاة بينهما لجواز وقوع كل منهما كما في شرح الكرماني رحمه الله. **قوله**: **(الفتاحة)** بالضم.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قيل: الفتح ليس بسبب للمغفرة والتقدير: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا فاستغفر ليغفر لك الله ومثله ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: الآية ١، ٣] ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سببًا للغفران. وقيل: الفتح لم يكن ليغفر له بل لإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ولكنه لما عدد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة أو كذا لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يريد جميع **(ما فرط منك)** أو ما تقدم من حديث مارية **(وما تأخر من امرأة زيد)** ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء دينك وفتح البلاد على يدك ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويثبتك على الدين المرضي.

﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ قويًا منيعًا لا ذلّ بعده أبدًا. ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ السكينة للسكون **(كالبهيتة للبهتان)** أي أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح ليزدادوا يقينًا إلى يقينهم. وقيل: السكينة الصبر على ما أمر الله والثقة بوعد الله والتعظيم لأمر الله ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ

قوله: **(ما فرط منك)** يعني من ترك الأولى سمّاه ذنبًا تغليظًا. اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله**: **(ما تأخر من امرأة زيد)** قيل هذا مما تقدم وحديث مارية مما تأخر فالحق العكس. اهـ تفتازاني رحمه الله.

قوله: **(كالبهيتة للبهتان)** في لسان العرب البَهِيْتَة البُهْتَان. اهـ.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي ولله جنود السموات والأرض يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين **(لما غاظهم من ذلك)** وكرهوه ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وقع السوء عبارة عن **(رداءة)** الشيء وفساده. يقال: فعل سوء أي مسخوط فاسد، والمراد ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرًا ﴿عَلَيْهِمْ (دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ **مكي وأبو عمرو)** أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم، والسوء الهلاك و**(الدمار)** وغيرهما ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ بالفتح أي الدائرة التي يذمونها ويسخطونها. **(السوء والسوء)** كالكره والكره والضعف والضعف إلا أن المفتوح غلب في أن يُضاف إليه ما يُراد ذمّه من كل شيء، **(وأما السوء فجارٍ مجرى الشر)** الذي هو نقيض الخير ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه ﷺ والمؤمنين بما شاء منها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبًا فلا يرد بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ تشهد على أمتك يوم القيامة وهذه حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة

قوله: **(لما غاظهم من ذلك)** أي من ازدياد الإيمان. **قوله**: **(رداءة)** في المصباح ردؤ الشيء بالهمزة رداءة فهو رديء على فعيل أي وضيع خسيس وردأ يردؤ من باب علا لغة فهو رديء بالتثقيل. اهـ. **قوله**: (﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾) بضم السين **(مكيّ)** أي ابن كثير المكيّ **(وأبو عمرو)** وخرج ظن السوء الأول والثالث المتفق على فتحهما. **قوله**: **(الدمار)** في المصباح دمر الشيء يدمر من باب قتل والاسم الدمار مثل الهلاك وزنًا ومعنى. اهـ. **قوله**: **(والسوء)** بالفتح **(والسوء)** بالضم. **قوله**: **(وأما السوء)** بالضم **(فجارٍ مجرى الشر...)** الخ يقال: أراد به السُّوء أو أراد به الخير.

﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقووه بالنصر ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ **(من التسبيح أو من السبحة)**، والضمائر لله ﷻ والمراد بتعزيز الله تعزيز دينه ورسوله، ومَن فرق الضمائر فجعل الأولين للنبيّ ﷺ فقد أبعد (**﴿ليؤمنوا﴾ مكي وأبو عمرو**) والضمير للناس وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء عندهما (﴿بُكْرَةً﴾) صلاة الفجر (﴿وَأَصِيلًا﴾) الصلوات الأربع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ **(أي بيعة الرضوان. ولما قال:** ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾**)** أكده تأكيدًا على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله والله منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير

قوله: **(من التسبيح)** الذي هو التنزيه عن جميع النقائص. **قوله**: **(أو من السبحة)** وهي الصلاة. **قوله**: («**ليؤمنوا**») بالياء من تحت **(مكيّ)** أي ابن كثير المكيّ **(وأبو عمرو)** البصري والضمير للناس، وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء من تحت عندهما والباقون بالتاء على الخطاب. **قوله**: (﴿بُكْرَةً﴾) غدوة. **قوله**: (﴿وَأَصِيلًا﴾) عشيًا.

قوله: **(أي بيعة الرضوان)** وهو البيعة الواقعة بالحديبية سميت بيعة الرضوان لقول الله فيها ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح: الآية ١٨] الآية. **قوله**: **(ولما قال:** ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾**)** أكده تأكيدًا على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾... الخ يعني أنه تعالى لما بين أنه مرسل أرسله لما ذكره من الحكم والمصالح بين أن منزلته وقدره عند الله عظيم بحيث يكون من بايعه صورة، فقد بايع الله تعالى حقيقة لأن من بايعه عليه الصلاة والسلام على أن لا يفرّ من موضِع القتال إلى أن يقتل أو يفتح الله لهم وإن كان يقصد بها رضى الرسول عليه الصلاة والسلام ظاهرًا لكن إنما يقصد بها حقيقة رضى الرحمٰن وثوابه وجنته وسميت المعاهدة المذكورة بالمبايعة التي هي مبادلة المال بالمال تشبيهًا لها

تفاوت بينهما كقوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: الآية ٨٠] و﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ خبر «إن» ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض العهد ولم يفِ بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. قال (**جابر بن عبد الله**): بايعنا رسول الله ﷺ

بالمبايعة في اشتمال كل واحد منهما على معنى المبادلة وذلك في المبايعة ظاهرًا وكذا في المعاهدة المذكورة فإنها أيضًا مشتملة على المبادلة بين التزام الثبات على محاربة المشركين وبين ضمانه عليه السلام بمرضاة الله تعالى عنهم وإثابته إياهم جنة النعيم وملكًا لا يبلى في مقابلة ذلك الثبات فأطلق اسم المبايعة على هذه المعاهدة على سبيل الاستعارة ثم إنه لما كان ثواب ثباتهم على الحرب إنما يصل إليهم من قبله تعالى كان المقصود من المبايعة معه عليه السلام المبايعة مع الله تعالى وأنه عليه الصلاة والسلام هو سفير ومعبّر عنه تعالى، وبهذا الاعتبار صار مَن بايعه عليه السلام على ذلك بمنزلة مَن بايع الله تعالى فقيل: إنما يبايعون الله كأنهم باعوا أنفسهم من الله تعالى بالجنة وإن كان العقد معه عليه السلام ولما جعلت المبايعة مع الرسول مبايعة مع الله تعالى وشبّه تعالى بالمبايع أثبت له تعالى ما هو من لوازم المبايع حقيقة وهو اليد على طريق الاستعارة[1] التخييلة فإن المبايع لا بد له عند مباشرة العقد من الصيغة عادة فلما قيل: إن تلك المبايعة إنما هي مع الله تعالى أكّد هذا المعنى بأن قيل: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ كأنه قيل: لا تظن أن الأمر على خلاف ذلك فإن يده يد الله تعالى فلما شبّه الله تعالى بالمبايع أثبت له جارحة اليد على سبيل التخييل وإلّا فهو تعالى منزّه عن الجوارح وصفات الأجسام.

قوله: (جابر بن عبد الله) بن عمرو بن حرام بمهملة وراء الأنصاري ثُمَّ السَّلَمي بفتحتين صحابي ابن صحابي غزا تسع عشرة غزوة ومات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن أربع وتسعين. اهـ تقريب.

---

(١) قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرّح بشيء من أركانه سوى المشبّه ويدل عليه بأن يثبت للمشبّه أمر مختص بالشبه به فيسمى التشبيه المضمر في النفس استعارة بالكناية أو مكنيًا عنها ويسمى إثبات ذلك الأمر المختصّ بالمشبّه به للمشبّه استعارة تخييلية ففي اسم الله استعارة بالكناية تشبيهًا له بالمبايع واليد استعارة تخييلية مع أن فيها أيضًا مشاكلة لذكرها مع أيدي الناس وامتناع الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون الكنية لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره.

تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفر فما نكث أحد منا البيعة (إلا جد بن قيس) وكان منافقًا اختبأ تحت بطن بعيره ولم يسر مع القوم ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ﴾ يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به ومنه قوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: الآية ١]

قوله: (إلا جد بن قيس) في أسد الغابة في معرفة الصحابة (ب د ع * جد *) ابن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي يكنّى أبا عبد الله وهو ابن عم البراء بن معرور. روى عنه جابر وأبو هريرة وكان ممن يظن فيه النفاق وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: الآية ٤٩] وذلك أن رسول الله ﷺ قال لهم في غزوة تبوك: اغزوا الروم تنالوا بنات الأصفر فقال: جد بن قيس قد علمت الأنصار أني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالي فنزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ﴾ [التوبة: الآية ٤٩] الآية.

وكان قد ساد في الجاهلية جميع بني سلمة فانتزع رسول الله ﷺ سؤدده وجعل مكانه في النقابة عمرو بن الجموح وحضر يوم الحديبية فبايع الناس رسول الله ﷺ إلا الجد بن قيس فإنه استتر تحت بطن ناقته أخبرنا عبيد الله بن أحمد بن علي بن علي بإسناده إلى يونس بن بكير عن ابن إسحٰق قال: ولم يتخلّف عن بيعة رسول الله ﷺ أحد يعني في الحديبية من المسلمين حضرها إلّا الجد بن قيس أخو بني سلمة. قال جابر بن عبد الله: لكأني أنظر إليه لاصق بإبط ناقة رسول الله ﷺ قد صبّها إليها يستتر بها من الناس وقيل: إنه تاب وحسنت توبته وتُوفي في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه. أخرجه الثلاثة. اهـ بحروفها.

وقوله: أخرجه الثلاثة يعني ابن مندة وأبا نعيم وأبا عمر بن عبد البر وعلامة ابن منده صورة وعلامة أبي نعيم صورة وعلامة ابن عبد البر صورة.

وفي الإصابة في تمييز الصحابة قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: الآية ١٠٢] نزلت في نفر ممن تخلّف عن تبوك منهم أبو لبابة والجد بن قيس ثم تيب عليهم، قال أبو عمر في آخر ترجمته: يقال: إنه تاب وحسنت توبته ومات في خلافة عثمان. اهـ.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧٧] (﴿عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ **حفص** ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ **وبالنون حجازي وشامي**) ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنّة.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم الذين خلّفوا عن الحديبية وهم أعراب (**غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل**)، وذلك أنه ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا (**استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي**) ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له

قوله: (﴿عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ **حفص**) أي قرأ حفص بضم الهاء قبل الاسم الجليل ويتبعه تفخيم لام الجلالة والباقون بكسر الهاء والترقيق. وفي حاشية البيضاوي للعلّامة الشهاب قوله بضم الهاء كما تضم في نحو له وضربه ومن كسرها راعى الياء قبلها.اهـ. وفي القنوي بضم الهاء فإن هذه الياء الساكنة أصلها ألف فإن على متى أضيفت إلى الظاهر كانت بالألف فتقول: على زيد ثوب ومتى أضيفت إلى الضمير كانت بالياء فلما كان أصل هذه الياء أن تكون ألفًا ضمّها لأن الألف لو كانت موجودة لم تكن الهاء إلا مضمومة كذا في شرح العنوان مختصر.اهـ. **قوله**: (﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ **وبالنون حجازي**) إذا اجتمع أهل مكة والمدينة قيل: حجازي أي قرأه نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة وابن كثير المكيّ (**وشاميّ**) أي ابن عامر الشاميّ والآخرون بالياء التحتانية.

قوله: (**غفار**) في المصباح غفار مثل كتاب حي من العرب.اهـ. **قوله**: (**ومُزَينة**) في الصحاح مزينة قبيلة من مضر وهو مزينة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر والنسبة إليهم مزني.اهـ. **قوله**: (**وجُهَينة**) قبيلة كذا في الصحاح. **قوله**: (**وأسلم**) أبو قبيلة في مُرَادٍ كذا في لسان العرب. **قوله**: (**وأشجع**) قبيلة من غطفان كذا في الصحاح. **قوله**: (**والدئل**) بضم الدال وكسر الهمزة حي من كنانة كذا في الصحاح. **قوله**: (**استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي**) أي طلب منهم أن ينفروا أي أن يخرجوا.

بحرب أو يصدوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حربًا، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه (**في عقر داره بالمدينة**) وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ (**هي جمع أهل اعتلوا**) بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس مَن يقوم بأشغالهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ليغفر لنا الله تخلّفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق فطلبهم الاستغفار أيضًا بصادر عن حقيقة ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرّكم من قتل أو هزيمة (﴿ضُرًّا﴾ **حمزة وعلي**) ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ من غنيمة وظفر ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زيّنه الشيطان ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ من علوّ الكفر وظهور الفساد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ جمع بائر كعائذ وعوز من بار الشيء هلك وفسد أي وكنتم قومًا فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم، أو هالكين عند الله مستحقين لسخطه وعقابه ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لهم

قوله: (**في عقر داره بالمدينة**) في المصباح عقر الدار أصلها في لغة أهل الحجاز وتضم العين وتفتح عندهم ومن هنا قال ابن فارس والعقر أصل كل شيء. اهـ يعنون أحدًا. **قوله**: (**هي جمع أهل**) جمعه جمع السلامة على خلاف القياس لأنه ليس بعلم ولا صفة من صفات من يعقل والمراد بالأهل عشيرته أو أقرباؤه. **قوله**: (**اعتلوا**) في المصباح اعتلّ إذا تمسّك بحجة ذكر معناه الفارابي. اهـ. **قوله**: (﴿ضُرًّا﴾ **حمزة وعلي**) أي قرأ حمزة وعلي الكسائي بضم الضاد والباقون بفتحها لغتان كالضعف والضعف.

فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيذان بأن مَن لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله والإيمان برسوله، فهو كافر ونكّر ﴿سَعِيرًا﴾ **(لأنها نار مخصوصة)** كما نكر ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: الآية ١٤] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يغفر ويعذب بمشيئته وحكمته المغفرة للمؤمنين والتعذيب للكافرين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبقت رحمته غضبه.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ (إِلَىٰ مَغَانِمَ)﴾ إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (﴿كَلِمَ اللهِ﴾: **حمزة وعليّ**) أي يريدون أن يغيّروا موعد الله لأهل الحديبية، وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا **(قفلوا)** موادعين لا يصيبون منهم شيئًا ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر وهو إخبار من الله بعدم اتباعهم ولا يبدل القول لديه ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل انصرافهم إلى المدينة إن غنيمة خيبر لمَن شهد الحديبية دون غيرهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي لم يأمركم الله به بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنيمة ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ من كلام الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا شيئًا قليلًا يعني مجرد القول. والقول بين الإضرابين أن الأول ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتّبعوهم وإثبات الحسد، والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو **(أطم منه)** وهو الجهل وقلة الفقه.

قوله: (لأنها نار مخصوصة) فالتنوين والتنكير للتنويع.

قوله: (﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾) أي غنائم خيبر في المصباح غنمت الشيء أغنمه غنمًا أصبته غنيمة ومغنمًا والجمع الغنائم والمغانم. اهـ. **قوله:** (﴿كَلِمَ اللهِ﴾ بكسر اللام بلا ألف جمع كلمة اسم جنس **(حمزة وعليّ)** والباقون بفتح اللام وألف بعدها على جعله اسمًا للجملة. **قوله:** **(قفلوا)** في المصباح قفل من سفره قُفُولًا من باب قعد رجع. اهـ. **قوله:** **(أطم منه)** في المصباح طم الأمر طمًّا علا وغلب. اهـ.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ (أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)﴾ يعني **(بني حنيفة)** قوم مسيلمة وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر ﷺ **(لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف)**. وقيل: هم فارس وقد دعاهم عمر ﷺ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ (أَوْ يُسْلِمُونَ)﴾ أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام. ومعنى يسلمون على هذا التأويل ينقادون لأن فارس مجوس تقبل منهم الجزية، وفي الآية دلالة صحة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة الداعي عند دعوته بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ مَن دعاكم إلى قتاله ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترض الطاعة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي عن الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

قوله: (﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾) أي أولي قوة في الحرب. **قوله**: **(بني حنيفة)** بوزن سفينة قوم مسيلمة الكذاب الذين ارتدوا بعد رسول الله ﷺ وقاتلهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه.

قوله: **(لأن مشركي العرب والمرتدّين هم الذين لا يقبل منهم إلّا الإسلام أو السيف)** عند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية. وعند الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه لا تقبل الجزية إلّا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب.

قوله: (﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾) الجمهور على رفعه بثبات النون عطفًا على ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ لوجوب أحد الأمرين عليهم بحيث لا يكون لهما أمر ثالث لأن أو لأحد الشيئين وينبىء عن الحصر كما في قولك العدد زوج أو فرد وقيل: إنه مرفوع على الاستئناف تقديره أو هم يسلمون وقرىء أو يسلموا بالنصب بإضمار أن بمعنى إلّا أن يسلموا أو بمعنى إلى أن يسلموا فيكون ما بعد أو في تأويل مصدر مجرور بأو التي بمعنى إلى.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾ نفي الحرج عن ذوي **(العاهات)** في التخلف عن الغزو ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الجهاد وغير ذلك ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الطاعة ﴿يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ (﴿**ندخله**﴾ و﴿**نعذبه**﴾) مدني **(وشامي)**.

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هي بيعة الرضوان شميت بهذه الآية. وقصتها أن النبيّ ﷺ حين نزل **(بالحديبية)** بعث **(خراش)** بن

قوله: **(العاهات)** في المصباح العاهة الآفة وهي في تقدير فعله بفتح العين والجمع عاهات. اهـ. **قوله**: (﴿**ندخله**﴾ و﴿**نعذبه**﴾) بنون العظمة مدني أي نافع المدني وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة **(وشامي)** أي وابن عامر الشامي والباقون بالياء التحتية.

قوله: **(بالحديبية)** بتخفيف الياء تصغير حدباء سمي بها المكان وفي القاموس الحديبية بالتخفيف وقد تشدد بئر قرب مكة أو شجرة انتهى. والتخفيف هو المختار عند أهل اللغة والتشديد قول ابن وهب وأكثر المحدثين كما في الأذكار. **قوله**: **(خراش)** بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء وألف بعدها شين معجمة وهو صحابي معروف وهكذا في السير. وفي الاستيعاب فما وقع في بعض النسخ من أنه حواس بالحاء والواو والسين المهملتين من تحريف الناسخ. اهـ شهاب. وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة في باب الخاء والراء (ب د ع * خراش *) بن أمية الكعبي الخزاعي له ذكر ولا تعرف له رواية قال ابن منده وأبو نعيم وقال أبو عمر خراش بن أمية بن الفضل الكعبي الخزاعي مدنيّ شهد مع النبيّ ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد بعثه رسول الله ﷺ في الحديبية إلى مكة وحمله على جمل يقال له الثعلب فآذته قريش وعقرت جمله وأرادت قتله فمنعته الأحابيش فعاد إلى رسول الله ﷺ فحينئذ بعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان وهو الذي حلق رأس

أُمية الخزاعي رسولًا إلى مكة (**فهمّوا به فمنعه الأحابيش**)، فلما رجع دعا بعمر ليبعثه فقال: إني أخافهم على نفسي لما عرف من عداوتي إياهم، فبعث عثمان بن عفان فخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرًا للبيت فوقروه واحتبس عندهم (**فأرجف بأنهم قتلوه**) فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتى (**نناجز**) القوم، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على أن يناجزوا قريشًا ولا يفرّوا تحت الشجرة، وكانت (**سمرة**) وكان عدد المبايعين

رسول الله ﷺ يوم الحديبية، روى عن خراش هذا ابنه عبد الله وتُوفي خراش هذا آخر أيام معاوية أخرجه الثلاثة. (قلت): وقد نسبه هشام الكلبيّ فقال خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل بن منقذ بن عنيف بن كليب ابن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة وهو لحي الخزاعي كان حليفًا لبني مخزوم يكنّى أبا نضلة وهو الذي حلق للنبيّ ﷺ يوم الحديبية وكان حجامًا وهو الذي رمى بنفسه على عامر بن أبي ضرار أخي الحارث يوم المريسيع مخافة أن يقتله الأنصار وكان رمى رجلًا منهم بسهم. اهـ.

قوله: (**فهموا به**) بتقدير مضاف أي بقتله. **قوله:** (**فمنعه الأحابيش**) وهو جمع أحبوشة وهو الأفراد من قبائل شتى تحبشوا أي تجمعوا يقال: حبش قومه تحبيشًا أي جمعهم والحباشة بالضم الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة والحبش والتحبيش الجمع والتجميع يقال: حبشت له حباشة إذا جمعت له شيئًا. **قوله:** (**فأرجف بأنهم قتلوه**) أي تحدث الناس به وشاع بينهم والإرجاف إشاعة أخبار لا أصل لها. **قوله:** (**نناجز**) في الصحاح المناجزة في الحرب المبارزة والمقاتلة. اهـ.

قوله: (**سمرة**) بفتح السين المهملة وضمّ الميم شجرة معروفة في ديار العرب فاللام في الشجرة للعهد لشهرتها عندهم. اهـ قنوي. وأيضًا فيه وكان الناس يأتون الشجرة تبرّكًا فيصلون عندها فبلغ عمر فأمر بقطعها وقيل: إنها عميت عليهم ما يدرون أين ذهبت وحكمته أنه خشي الفتنة لقرب الجاهلية وعبادة غير الله تعالى فيهم كما في الأمم الخالية فإنهم بطول العهد وقعوا في ما وقعوا. اهـ. وفي الصحاح السمرة بضم الميم من شجر الطلح والجمع سمر وسمرات بالضم. اهـ. وأيضًا فيه الطلح شجر عظام من شجر العِضَاهِ. اهـ. وفي مختار الصحاح الطَّلح

(ألفًا وأربعمائة) ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فما بايعوا عليه ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ وجازاهم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر **(غب انصرافهم)** من مكة.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ﴾ هي مغانم خيبر **(وكانت أرضًا ذات عقار)**. وأموال فقسمها عليهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعًا فلا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يحكم فلا يعارض ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما أصابوه مع النبيّ ﷺ وبعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانم يعني مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾

بوزن الطَّلْع شجر عظام من شجر العِضَاه الواحدة طلحة والطلح أيضًا لغة في الطلع. قلت جمهور المفسّرين على أن المراد من الطلح في القرآن المَوْز. اهـ. وفي الصحاح العِضَاه كل شجر يعظم وله شوك وهو على ضربين خالص وغير خالص فالخالص العُرْفط والطَّلْح والسَّلَم والسِّدْر والسَّيَال والسَّمُر واليَنْبُوت والقَتَاد الأعظم والكَنَهبَل والغَرْب والفرقد والعَوْسج وغير الخالص الشَّوْحَطُ والنَّبْع والشِّرْيان والسَّراء والنَّشَم والعُجْرُم والتَّألَب والغَرْف فهذه تُدْعى عِضَاه القِيَاسِ من القَوْس وما صغُر من شجر الشوك فهو العِضّ وقد ذكرناه في الضاد وما ليس بِعِضّ ولا عِضَاهٍ من شجر الشوك فالشَّكَاعَى والحَلاَوَى والحاذ والكَب والسُّلح وواحدة العِضَاه عِضَاهَة وعِضَهَةٌ وعِضَةٌ بحذف الهاء الأصلية كما حذفت من الشفة. اهـ.

وقوله: وقد ذكرناه في الضاد وهو قوله: والعِض أيضًا الشِرْسُ وهو ما صغر من شجر الشوك كالشُّبْرم والحاج والشُّبْرق واللَّصَف والعُتْر والقَتَاد الأصغر. اهـ. **قوله:** **(ألفًا وأربعمائة)** هو الأصح عند المحدثين. **قوله:** **(غِبّ انصرافهم)** أي بعد انصرافهم.

قوله: **(وكانت أرضًا ذات عقار)**. وأموال أخذوها من اليهود مع فتح بلدتهم. **وقوله:** **(عقار)** في المصباح العقار مثل سلام كل ملك ثابت له أصل كالدار والنخل قال بعضهم: وربما أطلق على المتاع والجمع عقارات. اهـ.

(يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد) و**(غطفان)** حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا. وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ **(هذه الكفة)** ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم **(من الله** عزوجل **بمكان)** وأنه ضامن نصرتهم والفتح عليهم **(فعل ذلك)** ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ **(ويزيدكم بصيرة ويقينًا وثقة بفضل الله)**.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أي فعجل لكم هذه المغانم و«مغانم أخرى» هي مغانم **(هوازن)** في غزوة حنين ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ **(لما كان فيها من الجولة)**

قوله: (يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم) قيل: كان أهل خيبر سبعين ألفًا وأنه عليه الصلاة والسلام لما حاصر أهل خيبر هم حلفاؤهم أي أعوانهم من أسد وعطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكفّ الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم وقيل: جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا. **وقوله: (من أسد)** في الصحاح أسد أبو قبيلة من مضر وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر وأسد أيضًا قبيلة من ربيعة وهو أسد بن ربيعة بن نزار. اهـ. **قوله: (غطفان)** في الصحاح غطفان أبو قبيلة وهو غطفان بن سعد بن قيس عيلان. اهـ. **قوله: (هذه الكفة)** تفسير للضمير المؤنث المستتر في تكون ولو فسر بالكف وجعل تأنيثه باعتبار الخبر صح. **قوله: (من الله عز وجلّ بمكان)** أي لهم رفعة وشأن عند الله فالمكان بمعنى المكانة والشرف مجازًا والتعبير بالمؤمنين يقويه والتنوين للتعظيم ومن للابتداء. **قوله: (فعل ذلك)** أي ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ **(فعل ذلك)** أي ذلك الكفّ أو التعجيل أي هو علة لفعل محذوف معطوف على **(كف)** أو عجل. **قوله: (ويزيدكم بصيرة ويقينًا وثقة بفضل الله)** فسّر الصراط المستقيم بما ذكر لأن الحاصل من الكف ليس إلّا ذلك ولأن أصل الهدى حاصل قبله.

قوله: (هوازن) في الصحاح هوازن قبيلة من قيس وهو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عَيْلان. **قوله: (لما كان فيها من الجَوْلة)**[1] أي من

---

(١) وهي المرة من الجولان بمعنى الدور والحركة.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها، ويجوز في ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ النصب بفعل مضمر يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ تقديره: وقضى الله أخرى قد أحاط بها، وأما ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ فصفة لـ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بـ ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ﴾، و﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ خبر المبتدأ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قادرًا.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا أو من حلفاء أهل خيبر ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لغلبوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ **(في موضع المصدر المؤكد)** أي سنّ الله غلبة أنبيائه سنة وهو قوله: (﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾) [المجادلة: الآية ٢١] ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييرًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي أيدي أهل مكة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ عن أهل مكة يعني قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعدما

تكرر الهزيمة والرجوع إلى القتال يقال: تجاولوا في الحرب أي جال بعضهم على بعض فكانت بينهم مجاولات وبالجملة الجولة كناية عن كثرة العدوّ والاحتياج إلى الجدّ القوي في محاربتهم.

قوله: **(في موضع المصدر المؤكّد)** لفعله المحذوف. **قوله**: (﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾) بالحجة أو السيف كذا في تفسير الجلالين وفي حاشيته للعلامة الشيخ سليمان الجمل رحمه الله. قوله: (بالحجة أو السيف) أو مانعة خلو فتجوز الجمع فالرسول يغلب تارة بالدليل وتارة بالسيف وتارة بهما ومن المعلوم أن الذي يستعمل الحجة والسيف هو الرسول فنسبة الغلبة إلى الله من حيث إنه المعين للرسول والمقدّر له على ذلك فكأنه قال: كتب الله لأجعلن رسولي غالبًا. اهـ.

(خولكم) الظفر عليهم والغلبة، وذلك يوم الفتح **(وبه استشهد أبو حنيفة** ﷺ **على أن مكة فتحت عنوة لا صلحًا)**. وقيل: كان في غزوة الحديبية لما رُوِيَ أن **(عكرمة بن أبي جهل)** خرج في خمسمائة فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله

قوله: (خولكم) أعطاكم. **قوله: (وبه)** أي بقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ **(استشهد أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أن مكة فتحت عنوة)** أي قهرًا وغلبة **(لا صلحًا)**. وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه إنما فتحت صلحًا لما رُوِيَ أن أبا سفيان طلب الأمان لأهل مكة فعقد النبيّ ﷺ الأمان واستثنى رجالًا مخصوصين أمر بقتلهم وأيضًا أنه عليه الصلاة والسلام لم يقتل ولم يسب ولا قسم عَقارًا ولا منقولًا ولو فتحت عنوة لأمر بخلافه ومن قال: إنها فتحت عنوة يقول إنه عليه الصلاة السلام دخلها مستعدًا للقتال لو قوتل وبعث خالد بن الوليد والزبير بن العوّام وأمرهما أن يدخلاها من طرفيها فدخل خالد أسفلها عنوة ودخل الزبير أعلاها ولم يتفق في تلك الناحية قتل وحرب من جهة أهل مكة فامتنع الزبير عن قتلهم لذلك لا لسبق عقد المصالحة قبل ذلك ودخل رسول الله ﷺ من الجانب الذي دخل منه الزبير وسبب امتناعه عن قسمة عقار مكة أنها خلقت حرة لا لأجل أنها فتحت صلحًا فلهذا لا يجوز عند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه بيع دور مكة. اهـ شيخ زاده. وقال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب وقد يجمع بأن بعضها بأمان وهو الطرف الذي دخل منه ﷺ وبعضها بحرب وهو ما يقابله فلا يبقى محل للخلاف فتأمل. اهـ.

وقوله: (خالد بن الوليد) بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي سيف الله يكنّى أبا سليمان من كبار الصحابة وكان إسلامه بين الحديبية والفتح وكان أميرًا على قتال أهل الردّة وغيرها من الفتوح إلى أن مات سنة إحدى أو اثنتين وعشرين. اهـ تقريب.

قوله: (والزبير بن العوّام) بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب أبو عبد الله القرشي الأسدي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة قتل سنة ست وثلاثين بعد منصرفه من وقعة الجمل. اهـ. تقريب. **قوله: (عكرمة بن أبي جهل)** بن هشام المخزومي صحابي أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه واستشهد بالشام في خلافة أبي بكر على الصحيح. اهـ تقريب.

(حيطان مكة). وعن ابن عباس ﷺ: أظهر المسلمين عليهم **(بالحجارة)** حتى أدخلوهم البيوت ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي بمكة أو بالحديبية لأن بعضها منسوب إلى الحرم ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي أقدركم وسلطكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ **(وبالياء: أبو عمرو البصري)**.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾ هو ما يهدى إلى الكعبة. ونصبه عطفًا على «كم» في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ أي وصدّوا الهدي (﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ﴾) محبوسًا أن يبلغ، و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال. وكان عليه السلام ساق سبعين **(بدنة** ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ **مكانه الذي يحلّ فيه نحره)** أي يجب، وهذا دليل على أن المحصر محل هديه الحرم والمراد المعهود وهو مِنًى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ بمكة ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعًا ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ **(بدل اشتمال منهم)** أو من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ إثم وشدّة وهي مفعلة من عره بمعنى عراه إذا **(دهاه)** ما يكرهه ويشقّ عليه وهو الكفارة إذا قتله خطأ، وسوء **(قالة المشركين)** أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز

قوله: (حيطان مكة) في المصباح قيل للبناء حائط اسم فاعل من الثلاثي والجمع حيطان. اهـ. **قوله: (بالحجارة)** في الصحاح الحجر جمعه في القلّة حجار وفي الكثرة حجار وحجارة كقولك جمل وجمالة وذكر وذِكارة وهو نادر. اهـ. **قوله: (وبالياء)** التحتية **(أبو عمرو البصري)** أي الكفار والباقون بالتاء الفوقية أي أنتم. **قوله: (﴿مَعْكُوفًا﴾)** حال من الهدي مؤكّدة لما فهم من الصد، (و﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾) بدل اشتمال من الهدي. **قوله: (بَدنة)** هي الإبل وجمع البَدَنة بَدَنات مثل قَصَبة وقَصَبات وبُدُن أيضًا بضمتين وإسكان الدال تخفيف. **قوله: (مكانه الذي يحل فيه نحره)** على أن المحل مكان الحل لا مكان الحلول. **قوله: (بدل اشتمال منهم)** أي من رجال ونساء. **قوله: (دهَاهُ)** أي أصابه. **قوله: (قالة المشركين)** في لسان العرب الاسم القَالَة والقال والقيل. اهـ. وأيضًا فيه **(القَالة)** القول الفاشي في

(والإثم إذا قصر). ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بـ ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ يعني أن تطئوهم غير عالمين بهم. والوطء عبارة عن الإيقاع و**(الإبادة)**. والمعنى أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسًا مؤمنين **(بين ظهراني المشركين)** وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقّة **(لما كفّ أيديكم عنهم)**. وقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تعليل لما دلّت عليه الآية وسيقت له من كفّ الأيدي عن أهل مكة والمنع عن قتلهم صونًا لمَن بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال: كان الكفّ ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه **(لزيادة الخير)** والطاعة **(مؤمنيهم، أو ليدخل في الإسلام مَن رغب فيه من مشركيهم)** ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ لو تفرّقوا وتميّز المسلمون من الكافرين، وجواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف أغنى عنه جواب «لو»، ويجوز أن يكون لو تزيّلوا كالتكرير لـ ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هو الجواب تقديره ولولا أن تطئوا رجالًا مؤمنين ونساء مؤمنات ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الناس.اهـ. **قوله: (والإثم إذا قصر)** عبارة البيضاوي والإثم التقصير في البحث عنهم.اهـ.

قوله: (الإبادة) الإهلاك. **قوله: (بين ظهراني المشركين)** في المصباح وهو نازل بين ظهرانيهم بفتح النون. قال ابن فارس: ولا تكسر، وقال جماعة الألف والنون زائدتان للتأكيد وبين ظهريهم وبين أظهرهم كلها بمعنى بينهم وفائدة إدخاله في الكلام أن إقامته بينهم على سبيل الاستظهار بهم والاستناد إليهم، وكأن المعنى أن ظهرًا منهم قدامه وظهرًا وراءه فكأنه مكتوف من جانبيه هذا أصله ثم كثر حتى استعمل في الإقامة بين القوم وإن كان غير مكتوف بينهم.اهـ.

قوله: (لما كفّ أيديكم عنهم) جواب لولا. **قوله: (لزيادة الخير)** لأن أصل الخير لهم والخير من جوامع الكلم. **قوله: (مؤمنيهم)** فإنهم لما رأوا لطف الله تعالى بهم حيث صانهم من وطء المسلمين إياهم مع أنه تعالى أظفرهم على أهل مكة وصان من أجلهم من عداهم ممن استوجب العذاب كان ذلك سببًا لمزيد الشكر والخير والطاعة. **قوله: (أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم)**

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

والعامل في ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي قريش لعذبنا أي لعذبناهم في ذلك الوقت أو اذكر ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بحمية الذين كفروا وهي **(الأنفة)** وسكينة المؤمنين وهي الوقار ما يُروى أن رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعث قريش **(سهيل بن عمرو وحويطب)** بن عبد العزي **(ومكرز بن حفص)** على أن يعرضوا على النبيّ ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابًا.

فإنهم لما شاهدوا قدر المؤمنين عند الله حيث كفّ أيدي المسلمين عنهم بعد أن غلبوا عليهم مع استحقاقهم العذاب الشديد صونًا لما بينهم من المؤمنين رغبوا في مثل هذا الدين والانخراط في زمرة المؤمنين.

قوله: **(الأنفة)** بفتحتين الاستكبار والاستنكاف. **قوله**: **(سهيل بن عمرو)** في أسد الغابة في معرفة الصحابة (ب د ع * سهيل * بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي العامري أمّه أم جني بنت قيس بن ضبيس بن ثعلبة بن حيان بن غنم بن مليح بن عمرو الخزاعية يكنّى أبا يزيد أحد أشراف قريش وعقلائهم وخطبائهم وساداتهم أسر يوم بدر كافرًا وكان أعلم الشفة فقال عمر: يا رسول الله أنزع ثنيتيه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا فقال: دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقامًا تحمده عليه فكان ذلك المقام أن رسول الله ﷺ لما تُوفي ارتجت مكة لما رأت قريش من ارتداد العرب واختفى عتاب بن أسيد الأموي أمير مكة للنبيّ ﷺ فقام سهيل بن عمرو خطيبًا فقال: يا معشر قريش لا تكونوا آخر من أسلم وأوّل مَن ارتد والله إن هذا الدين ليمتدنّ امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما في كلام طويل مثل كلام أبي بكر في ذكر وفاة النبيّ ﷺ، وأحضر عتاب بن أسيد وثبتت قريش على الإسلام وكان الذي أسره يوم بدر مالك بن الدخشم وأسلم سهيل يوم الفتح روى جرير بن حازم

....

عن الحسن قال: حضر الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام وأولئك الشيوخ من مسلمة الفتح فخرج آذنه فجعله يأذن لأهل بدر كصهيب وبلال وعمار وأهل بدر وكان يحبهم فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا فقال سهيل بن عمرو قال الحسن: ويا له من رجل ما كان أعقله فقال: أيها القوم إني والله قد أرى ما في وجوهكم فإن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم، دعي القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشدّ عليكم فوتًا من بابكم هذا الذي تنافسون عليه ثم قال: أيها الناس إن هؤلاء سبقوكم بما ترون فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله أن يرزقكم الشهادة ثم نفض ثوبه فقام فلحق بالشأم قال الحسن: صدق والله لا يجعل الله عبدًا أسرع كعبد أبطأ عنه وخرج سهيل بأهل بيته إلا ابنته هند إلى الشام مجاهدًا فماتوا هناك ولم يبق إلّا ابنته هند وفاختة بنت عتبة بن سهيل فقدم بهما على عمر كان الحارث بن هشام قد خرج إلى الشام فلم يرجع من أهله إلّا عبد الرحمٰن بن الحارث فلما رجعت فاختة وعبد الرحمٰن، قال عمر: زوّجوا الشريد الشريدة ففعلوا فبشر الله منهما عددًا كثيرًا فقيل: مات سهيل في طاعون عمواس في خلافة عمر سنة ثمان عشرة وهذا سهيل هو صاحب القضية يوم الحديبية مع رسول الله ﷺ حين اصطلحوا ذكر محمد بن سعد عن الواقدي عن سعيد بن مسلم قال: لم يكن أحد من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم الفتح أكثر صلاة ولا صومًا ولا صدقة ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الآخرة من سهيل بن عمرو حتى أنه كان قد شحب وتغيّر لونه وكان كثير البكاء رقيقًا عند قراءة القرآن، لقد رؤي يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن وهو يبكي حتى خرج معاذ من مكة فقال له ضرار بن الأزور: يا أبا يزيد تختلف إلى هذا الخزرجي يقرئك القرآن ألا يكون اختلافك إلى رجل من قومك فقال: يا ضرار هذا الذي صنع بنا ما صنع حتى سبقنا كل السبق لعمري اختلف لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية ورفع الله أقوامًا بالإسلام كانوا في الجاهلية لا يذكرون فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا وإني لأذكر ما قسم الله لي في تقدم أهل بيتي الرجال والنساء ومولاي

....

عمير بن عوف فأسرّ به وأحمد الله عليه وأرجو أن يكون الله ينفعني بدعائهم ألا أكون هلكت على ما مات عليه نظرائي وقتلوا فقد شهدت مواطن كلها أنا فيها معاند للحق يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق وأنا وليت أمر الكتاب يوم الحديبية يا ضرار إني لأذكر مراجعتي رسول الله يومئذٍ وما كنت ألظّ به من الباطل (فأستحيي من رسول الله وأنا بمكة وهو يومئذٍ بالمدينة) ثم قتل ابني عبد الله يوم اليمامة شهيدًا فعَزاني به أبو بكر وقال: قال رسول الله ﷺ إن الشهيد ليشفع لسبعين من أهل بيته فأنا أرجو أن أكون أول مَن يشفع له قيل: استشهد باليرموك وهو على كردوس وقيل: بل استشهد يوم الصفر[1] وقيل: مات في طاعون عمواس[2] والله أعلم. أخرجه الثلاثة. اهـ.

قوله: (**حويطب**) تصغير حاطب بمهملتين في أسد الغابة في معرفة الصحابة (ب د ع * حويطب *) بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري يكنّى أبا محمد. وقيل: أبا الأصبع وهو من مسلمة الفتح ومن المؤلّفة قلوبهم وشهد حنينًا مع النبيّ ﷺ فأعطاه النبيّ ﷺ مائة من الإبل يجتمع هو وسهيل بن عمرو في عبد ودّ وهو أحد النفر الذين أمرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتجديد أنصاب الحرم وممن دفن عثمان بن عفان رضي الله عنه، روى عنه أبو نجيح والسائب بن يزيد قال يحيىٰ بن معين: لا أعلم له حديثًا ثابتًا عن النبيّ ﷺ قال مروان بن الحكم لحويطب: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث فقال حويطب: الله المستعان والله لقد هممت بالإسلام غير مرة كل ذلك يعوقني أبوك عنه وينهاني ويقول: تدع شرفك ودين آبائك لدين محدث وتصير تابعًا فأسكت مروان وندم على ما قال له، وقال له حويطب: أما أخبرك عثمان بما كان لقي من أبيك حين أسلم وقال حويطب: شهدت بدرًا مع المشركين فرأيت عِبَرًا رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء

---

(١) عبارة الإصابة في تمييز الصحابة ويقال: قتل باليرموك وقال خليفة بمرج الصفرا. اهـ. رحمه الله تعالى.

(٢) في المصباح عمواس بالفتح بلدة بالشام بقرب القدس وكانت قديمًا مدينة عظيمة وطاعون عمواس كان في أيام عمر رضي الله عنه. منه رحمه الله.

فقال عليه السلام لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم. فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة. فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة. فقال عليه السلام: اكتب ما يريدون فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك **(ويشمئزوا منه)** فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الجمهور على أنها **(كلمة الشهادة)**. وقيل: بسم

والأرض ولم أذكر ذلك لأحد وشهد مع سهيل بن عمرو صلح الحديبية وأمّنه أبو ذر يوم الفتح ومشى معه وجمع بينه وبين عياله حتى نودي بالأمان للجميع إلّا النفر الذين أمر بقتلهم ثم أسلم يوم الفتح وشهد حنينًا والطائف مسلمًا واستقرضه رسول الله ﷺ أربعين ألف درهم فأقرضه إياها ومات حويطب بالمدينة آخر خلافة معاوية وقيل: بل مات سنة أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشرين سنة حديثه في الموطأ في صلاة القاعد. أخرجه الثلاثة. اهـ.

قوله: **(مِكْرَز بن حفص)** بكسر الميم وسكون الكاف وفتح الراء بعدها زاي ابن الأخيف بخاء معجمة فياء ففاء وهو من بني عامر بن لؤيّ. اهـ قسطلاني.

قوله: **(ويَشْمَئِزوا منه)** في لسان العرب الشَّمْز التقبضّ اشمَأَزّ اشمِئْزازًا انقبض واجتمع بعضه إلى بعض وقال أبو زيد: ذُعِر من الشيء وهو المذعور والشمز نُفور النفس من الشيء تكرهه. اهـ.

قوله: **(كلمة الشهادة)** وهي لا إلٰه إلّا الله وهي كلمة التقوى إذ بها يتوقى من الشرك ومن النار فإن أصل التقوى الاتقاء عنهما وقد وصف الله تعالى هذه الأمة بالمتقين في مواضع من القرآن العظيم باعتبار هذه الكلمة وبسم الله الرحمٰن الرحيم ومحمد رسول الله من شعار هذه الأمة وخواصها اختارها لهم وصار المشركون محرومين منها حيث لم يرضوا بأن يكتب في كتاب الصلح بسم الله الرحمٰن الرحيم ولا بأن يكتب محمد رسول الله فصارت هذه الكلمة مختصّة بالمؤمنين فلذلك قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي جعلها شعار المتقين.

الله الرحمٰن الرحيم. (**والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها سبب التقوى**) وأساسها. (**وقيل: كلمة أهل التقوى**) ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ أي المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهْلَهَاۚ﴾ بتأهيل الله إياهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ فيجري الأمور على مصالحها.

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾ (**أي صدقه في رؤياه**) ولم يكذبه تعالىٰ الله عن الكذب فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣].

رُوِيَ أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقصّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال (**عبد الله بن أُبيّ**) وغيره: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ متعلّق بـ ﴿صدق﴾ أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله

قوله: (**والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها سبب التقوى**) فالإضافة لأدنى ملابسة. **قوله**: (**وقيل: كلمة أهل التقوى**) على تقدير المضاف فهي إضافة اختصاصية حقيقية.

قوله: (**أي صدقه في رؤياه**) يعني أن ﴿صَدَقَ﴾ يتعدى إلى مفعولين إلى الأول بنفسه وإلى الثاني بحرف الجر يقال: صدقك في كذا أي ما كذبك فيه وقد يحذف الجار ويوصل الفعل كما في هذه الآية، وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣].

قوله: (**عبد الله بن أُبيّ**) بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج وهو المعروف بابن سلول وكانت سلول امرأة من خزاعة وهي أم أبي وابنه عبد الله بن أبي هو رأس المنافقين. اهـ أسد الغابة.

صدقًا ملتبسًا بالحق أي بالحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص وبين مَن في قلبه مرض، ويجوز أن يكون بالحق قسمًا **(إما بالحق الذي هو نقيض الباطل)** أو بالحق الذي هو من أسمائه، وجوابه ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ وعلى الأول هو جواب قسم محذوف ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حكاية من الله تعالىٰ ما قال رسوله لأصحابه وقصّ عليهم، أو تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتدين بسنّته ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال والشرط معترض ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾ ﴿رُءُوسَكُمْ﴾ أي جميع شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ **(حال مؤكدة)** ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي من دون فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر **(ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود)**.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالتوحيد ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ **(ليعليه)** ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جنس الدين يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين وأهل الكتاب، ولقد حقّق ذلك سبحانه فإنك لا ترى دينًا قط إلا وللإسلام دونه العزّة والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسىٰ عليه السلام حين لا يبقى على

قوله: (إما بالحق الذي هو نقيض الباطل) إذ الخالق يَحْلف ببعض مخلوقاته وإن لم يَجز ذلك لنا بلا تأويل. **قوله: (حال مؤكدة)** لقوله آمنين.

قوله: (ليستروح إليه) أي ليسكن ويطمئن إلى ذلك الفتح **(قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود)** وهو فتح مكة فكلمة إلى في قوله إليه صلة الاسترواح، وفي قوله: إلى أن يتيسر الفتح الموعود غاية له. قال الجوهري: استروح إليه أي استنام، ثم قال في فصل الميم استنام إليه أي سكن إليه واطمأن.

قوله: (ليعليه) أي ليجعله عاليًا أصل معناه جعله على ظهر من أظهره إذا جعله على ظهره فلزمه الإعلاء وهو المراد هنا كناية.

وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن، وعن الحسن: شهد على نفسه أنه سيظهر دينه والتقدير وكفاه الله شهيدًا و﴿شَهِيدًا﴾ تمييز أو حال.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

﴿مُّحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدأ أي هو محمد لتقدم قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ أو مبتدأ خبره ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وقف عليه **(نُصَير)** ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي أصحابه مبتدأ والخبر ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أو ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأ و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ عطف بيان و﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطف على المبتدأ و﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبر عن الجميع ومعناه **(غلاظ)** ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون وهو خبر ثانٍ وهما جمعًا شديد ورحيم ونحوه ﴿(أَذِلَّةٍ) عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (أَعِزَّةٍ) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: الآية: ٥٤] وبلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾ راكعين ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال كما أن ركعًا وسجدًا كذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي من التأثير الذي يؤثره السجود. وعن عطاء: استنارت وجوههم من طول ما صلّوا بالليل لقوله ﷺ: («**مَن كثر صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار**») ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي

قوله: (نُصَير) بن يوسف النهري النحوي. **قوله**: **(غلاظ)** من غلظ القلب. **قوله**: (﴿أَذِلَّةٍ﴾) عاطفين. **قوله**: (﴿أَعِزَّةٍ﴾) أشداء.

قوله: (**مَن كثر صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار**) أي استنار وجهه وعلاه ضياء وبهاء وذلك لأن العبد إذا أكثر في ليله من مناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على أجزاء نهاره فيصير نهاره في حماية ليله وامتلأ قلبه بالأنوار فإن المشكاة تنتهر بالمصباح فإذا صار سراج اليقين يزهو في القلب بكثرة قيام الليل يزداد المصباح إشراقًا وتكتسب مشكاة القلب نورًا وضياء وقيل: أراد أن وجوه أموره

المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وعليه وقف ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ مبتدأ خبره ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ (شَطْـَٔهُۥ﴾ فراخه). يقال: أشطأ الزرع إذا فرخ (﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾) قوّاه،

التي يتوجه إليها تحسن وتدركه المعونة الإلـٰهية في تصاريفه ويكون معانًا فيحسن وجه مقاصده وأفعاله. قال العلاّمَة العزيزي في شرح الجامع الصغير وهو حديث ضعيف. اهـ.

وعبارة المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة حديث من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار لا أصل له. وإن رُوِيَ من طرق عند ابن ماجه.

وأورد الكثير منها القضاعي وغيره ولكن قد رأيت بخط شيخنا في بعض أجوبته أنه ضعيف بل قواه بعضهم، والمعتمد الأول وقد أطنب ابن عديّ في رده ومثلوا به في الموضوع غير المقصود لكثرة طرقه.

قال ابن ظاهر: ظنّ القضاعي أن الحديث صحيح وهو معذور لأنه لم يكن حافظًا. انتهى واتفق أئمة الحديث ابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل عليه، وقال ابن عدي سرقه جماعة عن ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما، وأوردت من الكلام عليه في شرح الألفيّة والحاشية ما يستفاد. اهـ بحروفها.

وعبارة تفسير ابن كثير قال بعض السلف: مَن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وقد أسنده ابن ماجة في سننه عن إسماعيل بن محمد الطلحي عن ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبي سفين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح موقوف.

قوله: (﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ **فراخه**) الفرخ في الأصل ولد الطائر ويجمع في القلة على أفرخ وأفراخ وفي الكثرة على فراخ كرجال يقال: أفرخ الطائر إذا صار ذا فرخ بأن خرج فرخه من البيضة ويقال أيضًا: أفرخ الأمر إذا استبان بعد اشتباه ويقال: أفرخ الزرع وفرّخ إذا تشقق وخرج منه فروعه بعدما نبت أصله فإن الزرع أول ما نبت فهو نبت وما خرج بعده فهو شطؤه، فأول ما نبت بمنزلة الأم وما تفرّع وتشعّب منه بمنزلة أولاده وفراخه.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ (شاميّ) ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ (فصار من الرقّة إلى الغلظ) ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على (قصبه) جمع ساق ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ يتعجبون من قوّته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وعن (عكرمة): أخرج شطأه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي رضوان الله عليهم. وهذا مثل ضربه الله تعالىٰ لبدء الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبيّ ﷺ قام وحده ثم قوّاه الله تعالىٰ بمَن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها مما يتولّد منها حتى يعجب الزراع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ تعليل لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة.

قوله: (﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾) بقصر الهمزة بعد الفاء (شاميّ) أي ابن عامر الشاميّ برواية ابن ذكوان والباقون بالمدّ. **قوله**: **(فصار من الرقة إلى الغلظ)** يعني أن السين في ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ للتحوّل كما في استحجر الطين، والظاهر أن ضمير استغلظ للزرع أي غلظ ذلك الزرع واستقام على قصبه. **قوله**: (قصبه) القَصَب جمع قَصَبَة.

قوله: (عكرمة) هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، واجتهد ابن عباس في تعليمه القرآن والسنن وسمّاه بأسماء العرب حدث عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عُمَرَ وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري والحسن بن علي وعائشة رضوان الله عليهم أجمعين، وهو أَحَدُ فقهاء مكة وتابعيها وكان ينتقل من بلد إلى بلد. ورُوِيَ أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال له: انطلق فأنت الناس وقيل لسعيد بن جبير: هل تعلم أحدًا أعلم منك قال: عكرمة. وروى عنه الزهري وعمرو بن دينار والشعبي وأبو إسحٰق السبيعي وغيرهم، ومات مولاه ابن عباس وعكرمة على الرق ولم يعتقه فباعه ولده علي بن عبد الله بن عباس من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار فأتى عكرمة مولاه عليًا فقال له: ما خير لك بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار فاستقاله فأقاله فأعتقه وتُوفي عكرمة في سنة سبع ومائة وعكرمة بكسر العين المهملة وسكون الكاف وكسر الراء وفتح الميم وبعدها هاء ساكنة وهو في الأصل اسم الحمامَة الأنثى فسمي به الإنسان.

ويجوز أن يعلّل به ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزّهم به في الدنيا **(غاظهم ذلك. و«من» في ﴿مِنْهُم﴾ للبيان)** كما في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: الآية ٣٠] يعني فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقولك: «أنفق من الدراهم» أي اجعل نفقتك هذا الجنس. وهذه الآية ترد قول الروافض إنهم كفروا بعد وفاة النبيّ ﷺ إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته.

قوله: (غاظهم ذلك) قال في المواهب أن الإمام مالك استنبط من هذه الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة فإنهم يغيظونهم ومَن غاظه الصحابة فهو كافر ووافقه كثير من العلماء انتهى. وقد ثبت في موقعه أن أهل القبلة لا يكفرون إلّا بالأشياء المعدودة فإن رجع هذا إلى أحد الأمور المذكور يكفرون وإلّا فلا. اهـ قنوي. **قوله: (ومن في ﴿مِنْهُم﴾ للبيان)** لا للتبعيض فلا يكون حجة للطاعنين في الأصحاب بجعل من تبعيضية ولا نذكر الصحابة إلا بخير ونحبهم أجمعين.

والحمد لله ربّ العالمين على إتمام ما يتعلّق بسورة الفتح
ونسأله ببركته فتح كل خير والصلاة والسلام على مَن فتح وعمر العباد
وعلى آله وأصحابه أفضل الزُّهَّاد